بطرس البستاني

أدباء العرب

في

الأندلس وعصر الانبعاث

توزيع

دار الجيل - بيروت







بطرس البستاني

أدباء العرب

في

الأندلس وعصر الانبعاث

حياتهم - آثارهم - نقد آثارهم

طبعة جديدة منقحة، مشروحة، مفهرسة



دار
نظير عبود

ص.ب : ١١/٨٠٨٦ تلفون : ٩٣٦٧٧٢ـ ٩٣٤٧١٤

مقدمة

نقدّم إلى القرّاء الكتاب الثالث من « أدباء العرب » يضمّ بين دفتيه أدب الأندلس ، وعصر الانبعاث ، مع إلمامة بعصر الانحطاط صلة لسلسلة المباحث . وكنا قصرنا البحث في الأدب الأندلسي على فنون الشعر والنثر فأضفنا إليها في هذه الطبعة الجديدة درس آثار ثلاثة من الشعراء ، وهم ابن هاني ، وابن زيدون ، والمعتمد بن عبّاد . ورأينا أن نجتزىء بنفر من أدباء عصر الانبعاث لأن الخطة التي أخذنا بها أنفسنا أن نوسيع العصور والأدباء درساً وتحليلاً ، تضطرّنا إلى الاكتفاء بقدر محدود من الشعراء والكتّاب .

ولم نتناول بالدرس والتحليل أديباً في الأحياء ، لأن الحكم على الحي لا يخلو ، في ظننا ، من تسرع وشطط . غير أننا ذكرنا طائفة منهم في أثناء كلامنا على ميزات الشعر والنثر ، واستشهدنا بأقوال بعضهم ، والمستقبل كفيل بذكر من كتب له البقاء ، سواء كان من شيوخ الأدب أو من فتيانه .

وكتابنا هذا آخر أجزاء « أدباء العرب » نختتم به تلك السلسلة المتصلة الأسباب من الجاهلية إلى عصر الانبعاث ؛ والحمد لله أولاً وآخراً .

بطرس البستاني

العرب في الاندلس

(٧١٠ — ١٤٩١ م . و ٩٢ — ٨٩٧ هـ .)

«تبتدىء دولتهم بدخول طارق وهزيمة»
« لذريق . وتنتهي بسقوط غرناطـــة »
« وخروج أبي عبد الله منها »

فصول البحث وأغراضه

لمحة تاريخية

الفتح . عهد الولاة . الدولة الأموية . ملوك الطوائف . دولة المرابطين . دولة الموحدين . دولة بني الأحمر . ميزة العصر .

الشعراء الأندلسيون

ميزة الشعر . المدح . الرثاء . الشكوى والاستعطاف . الهجاء . الحماسة والفخر . الحكم . الزهد . التصوف . الوصف : « وصف المعارك . الغزل . الخمريات . الصيد . الطبيعة والعمران» ابن هاني ، ابن زيدون ، المعتمد بن عبّاد .

الموشحات الأندلسية

التعريف بالموشحات . اختراعها . أغراضها ومعانيها . لغتها . تأثيرها . منزلة الشاعر الأندلسي .

الكتّاب الأندلسيون

ميزة النثر . الترسل . التصنيف والمصنفون . علوم اللغة . العلوم الدخيلة . الفلسفة والمنطق . السياسة والاجتماع . التاريخ والجغرافية . الفنون والصناعات . الأدب والأدباء .

لمحة تاريخية

الفتح

اسم الأندلس . حالة اسبانية قبل الفتح . لذريق وابناء غيطشه . يليان . كتابه الى موسى بن نصير . طريف . طارق . اولاد غيطشه يساعدون الفاتحين . حالة جيش المسلمين . حالة جيش الإسبانيين . انتصار المسلمين. احراق السفن . متابعة الفتح . مجيء موسى . الخليفة يطلبه وينفيه . مقتل عبد العزيز .

أطلق العرب اسم الأندلس على جميع البلدان الاسبانية التي فتحوها ، وكان لا يعرف به غير اقطاعة الفندال التي أبحر منها جماعات الفنداليين في هجرتهم إلى إفريقية ، فسميت باسمهم ، وقيل لها فَنْداليسيا . وهي أوّل أرض وطئها العرب من اسبانية ، وعرفوا اسمها ، فحرفوه ، فقالوا أندلس .

وكانت اسبانية قبل الفتح العربي على أسوإ حالة في السياسة والاجتماع ، فان الضرائب الباهظة اشتفّت ثروة الطبقة الوسطى ، وجماعة الموسرين على قلتهم استبدوا بأراضيهم الخصبة على العبيد الفلاحين ، يستغلونها لترفهم وملذّاتهم . والنصرانيّة مع انتشارها في اسبانية لم تبدل كثيراً من الشرائع الرّومية القديمة ، فظلّت السيادة لأصحاب الإقطاعات ، والعبوديّة للفلاحين والضعفاء ، فقد دخل القوط هذه البلاد في القرن الخامس للميلاد وأقاموا فيها مطمئنّين ، وأزالوا سلطان الرّوم ، وبنوا

سلطانهم ، وانتحلوا النّصرانيّة ديناً ، ولكنّهم صاروا بها إلى اضطهاد اليهود ، فأوسعوهم شرّاً ، وإلى احتقار الرّوم لأنّهم مغلوبون .

فطبيعي أن تفضي هذه الحالة إلى اختلال في بناء الدّولة ، وأكثر الشعب يمقتها ويتمنى زوالها ، لعل بتغير الحكّام تتغيّر الأحكام .

وكان على اسبانية ملك يُقال له لُذُريق (Roderic) اغتصب العرش القوطي بعد وفاة الملك غيطِشَه (Witiza) وجعل العاصمة قُرْطُبَة (Cordoue) بدلاً من طُلَيْطُلَة (Tolède) لأنّ أشياعه فيها . ولم يكن من سلالة الملوك ، وإنّما هو رجل نبيل ناصره الرّوم ورجال الدين لأنّه وقف لغيطشه يعارضه في ازدراء الرّوم ، وعبثه بأوامر الكنيسة . فلمّا صار إليه الملك، فزع أولاد غيطشه ألْمَندو ورُمُله وأرْطَباش (Olemundo, Romulo et Ardabast) وأخوه أبّاس (Oppas) إلى يُليان (Julien) صاحب سبْتَة (Ceuta) وكان عاملاً لقيصر الرّوم ، ولكن بُعده من القسطنطينيّة وقربه من البربر جعلاه يتودّد إلى غيطشه ملك القوط ويبدي له خضوعه ، لأنّه مسيحيّ مثله . فصادقه غيطشه وصاهره ، فلمّا استنجده أبناؤه وأخوه رحّب بهم ، ووعدهم خيراً . ورُوي أن يليان اشتدّ كرهه للذريق ، ونقمته عليه بعد ما انتهك عرض ابنته ، وذلك أنّه جرت عادة الأشراف في اسبانية أن يبعثوا أولادهم إلى بلاط الملك الأكبر بطليطلة ليصيروا في خدمته ، ويتأدّبوا بأدبه ، وينالوا من كرامته ، حتى إذا بلغوا ازوج بعضهم بعضاً استئلافاً لآبائهم . وكان ليُليان ابنة بارعة الجمال اسمها فلورندا ، فبعثها إلى بلاط لذريق ، فوقعت من قلبه موقعاً حسناً ، ولم يرعَ لها حرمة ، فأعلمت والدها فاسترجعها ساخطاً . فغير عجيب أن يسعى لإسقاط لذريق وثل عرشه . على أنّ خبر فلورندا غير ثابت

في تواريخ الاسبان ، وإنّما هو وارد في التواريخ العربيّة .

وكانت سبتة همزة الوصل بين المغرب والأندلس ، فكتب يليان إلى موسى بن نُصَيْر عامل الوليد بن عبد الملك في المغرب يزيّن له غزو الأندلس ، ويصف خصب أرضها ، وفرة أموالها ، وسهولة التغلّب عليها لتخاذل أهلها ، وانقسام بعضهم على بعض ، ووعده بالمساعدة . فاستأذن موسى الخليفة بغزو الأندلس فأذن له على أن يخوضها أوّل الأمر بالسرايا ، ولا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ، فبعث موسى سولى له من البرابرة يقال له طريف بن مالك النَّخَعي ، في أربعمائة راجل ، ومائة فارس،فحملتهم أربع سفن ليليان إلى جزيرة الفندال التي اشتقّ منها اسم الأندلس، فسمّيت جزيرة طريف (Tarifa) لنزوله بها. وأقاموا فيها أيّاماً ثمّ كرّوا إلى المغرب وقد أصابوا مالاً جسيماً ، وسبياً لم يرَ موسى وأصحابه مثله حُسناً .

وعاد يليان يحرّض موسى على اقتحام الأندلس حتّى أغراه ، فدعا بربري من مواليه اسمه طارق بن زياد ، فعقد له ، وبعثه في سبعة آلاف من البربر ، ليس فيهم إلا ثلثمائة من العرب ، فأقلّتهم سفن يليان التجاريّة لخمس خلون من رجب سنة ٩٢ هـ . فسارت بهم تعبر بحر الزّقاق من طنجة إلى سبتة إلى جزيرة الفندال ، ويسمّيها العرب الجزيرة الخضراء . وكان نزولهم عند جبل كَلْبِيَه(Calpé)فقيل له جبل الفتح أو جبل طارق ، وسمّي بحر الزّقاق مضيق جبل طارق .

وكان أوّل من قاوم الغزاة تُدْمير (Theudimer) صاحب الجزيرة الخضراء ، ولكنّه لم يصبر طويلاً بل انهزم إلى إشْبيلية (Séville) وبعث إلى عاهله لذريق يخبره بغارة العرب والبربر ، وخيانة

يليان . فحشد لذريق الجيوش ، وكتب إلى أولاد غيطشه ، يدعوهم إلى الاجتماع معه على حرب العدو ، ويحذّرهم من القعود عنه ، فلم يجدوا بدّاً من إجابته ، فحشدوا ، وقدموا عليه ، ومضوا معه وهم مرصدون لمكروهه . وكانوا يظنّون أن العرب لا حاجة بهم إلى استيطان بلدهم ، وإنّما مرادهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم ، ثمّ يخرجوا عنهم ، فأجمعوا على الانهزام أمامهم لكي يمكنوهم من لذريق فيتخلّصوا منه .

وكان لذريق قد ولّى ميمنته أحد أولاد غيطشه ، وميسرته الآخر ، فلمّا تقابل الجيشان أرسل أبناء غيطشه إلى طارق يعلمونه أن لذريق كان تابعاً وخادماً لأبيهم ، فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه ، وأنّهم غير تاركين حقّهم لديه ، ويسألونه الأمان ، على أن يميلوا إليه عند اللّقاء فيمن يتبعهم ، وأن يسلم إليهم إذا ظفر ، ضياع والدهم بالأندلس . فأجابهم إلى ذلك ، وعاقدهم عليه ، فالتقى الفريقان في الغد على وادي بكّة (Wadi-Bekka) [1] وكان جيش طارق قد جاءه امداد من المغرب فبلغ اثني عشر ألفاً ، سلاحهم حسن ، وقلوبهم متّحدة على الغزو واقتسام الغنائم . فتقدم فيهم ومعهم يليان في حشده ؛ يدلهم على العورات ، ويتجسّس لهم الأخبار . وتقدم لذريق في جيشه وهو على رواية ابن خلدون أربعون ألفاً ، وعلى رواية المقّري مائة ألف . ويقول كليمان هيوار : « إنّ جيش الاسبانيّين كاد يكون خلواً من الفرسان ، وإن أغلب سلاحه العصيّ والمقاليع . » اه. زد على ذلك حالته المعنويّة ، فمن قواد كأولاد غيطشه ، يريدون الغدر بلذريق ، إلى قلوب في الجند

[1] هكذا ضبطها كليمان هيوار في كتابه تاريخ العرب ، وهي في نفح الطيب لكة ولعلها محرفة بالنسخ ، وتعرف بالإسبانية ؛ (Rio Salado) .

غير متحدة لما بين القوط واليهود والرّوم من النّفور والانقسام .

وغير عجيب أن يعتمد لذريق على أولاد غيطشه إذ لم يخطر له في بال أن ملوكاً مثلهم يمالئون العرب على امتلاك أرضهم ؛ وجعلهم على رأس الجيش لما لهم من المنزلة في نفوس القوط .

على أنّ أولاد غيطشه وصاحب سبتة لم يظاهروا العرب في غارتهم على الأندلس ، إلا لاعتقادهم أنّهم قوم غزاة لا يلبثون بعد الغنيمة أن يعودوا إلى بلادهم ، فشدّوا أزرهم للتخلّص من لذريق . والعرب أنفسهم لم يكن وكدهم البقاء في اسبانية عندما اقتحموها ، يدلّ على ذلك حديث رواه المقّري لميمون العابد ، وكان في عداد الشاميين الذين دخلوا الأندلس ، فقد قال لأرطباش بن غيطشه : « انّا قدمنا إلى هذا البلد غزاة نحسب أن مقامنا فيه لا يطول ، فلم نستعد للمقام ولا أكثرنا من العـــدة . »

واستمرّت المعارك بين المسلمين والاسبانيّين مدّة ثمانية أيّام فرجحت كفّة طارق ، وشالت كفّة لذريق ، فانهزم من المعمعة وحاول أن يعبر النّهر بعدّته وجواده فلم يبن له أثر . وتم النّصر للمسلمين في رمضان سنة ٩٢ هـ. وكانت خسارتهم نحو ثلاثة آلاف رجل ، وأمّا الاسبانيّون فكانت خسارتهم أضعاف ذلك .

ورافق خبر الفتح أسطورة مفادها أن طارقاً لما وطىء أرض الأندلس أمر بالسّفن فأحرقت ، وخطب في جيشه خطبته الشهيرة التي يقول فيها : « أيّها النّاس ! أين المفرّ ؟ والبحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصّدق والصّبر » . فإن صحّت هذه الخطبة لطارق فليس فيها ما يشير إلى إحراق السفن . ثمّ إن السفن كانت للكُنْت

يليان ، تسير بامرته ، فأنّى لطارق أن يتصرّف فيها ويأمر بحرقها ؟ هذا وإنّ أخبار الفتح تنبيء بأن السفن كانت تختلف بين إفريقية والأندلس حاملة الأمداد والذّخائر للفاتحين وفي ذلك ما ينفي رواية إحراقها . وليس في نفح الطّيب ما يثبت هذه الرّواية مع عناية صاحبه بتدوين أخبار الفتح على علاّتها . وغير معقول أن يغمّر طارق بجيشه في أرض غريبة ، ويقطع الصّلة بينه وبين بلاده ، فما هكذا تكون حكمة القوّاد وخبرتهم في الحروب .

وبلغ موسى بن نُصَير فتح الأندلس ، فحسد طارقاً ، وتقدّم إليه بأن يتوقّف عن الإيغال في البلاد حتى يأتي إليه . فلم يطعه طارق بل تابع الفتح ، وقسم جيشه أربعة أقسام ، وأرسل بعثاً إلى قرطبة ، وجعل مقدمه مغيثاً الرّومي مولى الوليد بن عبد الملك . وارسل بعثاً ثانياً إلى مالَقَة (Malaga) وبعثاً ثالثاً إلى غَرناطة (Grenade) مدينة إلْبيرَةَ (Elvira) وسار هو في معظم النّاس إلى كورة جيّان (Jaên) يريد طليطلة .

فسار مغيث إلى قرطبة ، وكان لها سور عال ، فلمّا أجنّهم اللّيل أقبلوا نحوها ، وقد جادت السّماء برذاذ أخفى دقدقة حوافر الخيل ، فعبروا نهر قرطبة ، وتسلّق بعضهم وهجموا على الأحراس وهم غافلون ، وفتكوا بهم ، وكسروا أقفال الباب وبيّتوا المدينة ، فهرب ملكها وأربع مائة من أصحابه إلى كنيسة ، وتحصّنوا فيها ، فدعاهم مغيث إلى الجزية أو الإسلام فأبوا ، فأوقد النّار عليهم حتى أحرقهم ، فسمّيت كنيسة الحرقى ، ونجا ملكهم فأُخذ أسيراً .

وجمع مغيث يهود قرطبة ، فعهد إليهم في حراسة المدينة استنامة لهم دون النصارى وجعل معهم طائفة من المسلمين ، ثمّ سار بجيشه قاصداً

طليطلة لينضمّ إلى طارق بن زياد .

وأمّا البعث الذي زحف إلى مالقة فقد وفق لافتتاحها ، ولجأ أهلها إلى جبال هنالك وامتنعوا فيها . ثمّ لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه إلى البيرة فحاصروا غرناطة ، وفتحوها عنوة ، وضمّوا يهودها للمحافظة عليها مع جماعة من المسلمين . ثمّ مضى الجيش إلى أُريُولة (Orihuela) من أعمال مُرْسِيَة (Murcie) وكان تُدمير قد لجأ إليها بعد موت عاهله ، فنودي به ملكاً على القوط ، وأقام بمرسية ويسمّيها العرب تُدمير باسمه . وكان داهية شديد البأس ، فقاتل المسلمين حتى فني أكثر جيشه ، ولم يبقَ إلا أقلّه ، فأمر النّساء بنشر الشعور ، وحمل القصب والظهور على السّور في زي القتال . وتصدّر قدامهنّ في بقيّة أصحابه يغالط المسلمين في قوّته ، فكره المسلمون مراسه لكثرة ما عاينوه على السّور ، وعرضوا عليه الصّلح فرضي ، ونكّر زيّه ، ونزل إليهم بأمان على أنّه رسول ، فصالحهم على أهل بلده ، ثمّ على نفسه ، وتوثّق منهم ، ثمّ أظهر لهم نفسه ، واعتذر إليهم . وسلمت كورة تُدمير من أذية المسلمين بتدبيره ، وصارت كلّها صلحاً ليس فيها عنوة . وترك المسلمون فيها رجالاً ومضى معظمهم إلى طارق لفتح طليطلة .

وانتهى طارق إلى طليطلة دار مملكة القوط فألفاها خالية قد فرّ أهلها عنها إلى الجبال، فضمّ يهودها إليها، وخلف بها رجالاً من أصحابه، وراح يطارد الفارّين .

وعرف موسى بن نصير ما فعل طارق ، وما تسنّى له من الفتوح ، فحشد ثمانية عشر ألفاً من البربر والعرب ، وعبر بهم بحر الزّقاق ، فدخل الأندلس في شهر رمضان سنة ٩٣ هـ. (٧١١ م.) فسار به أصحاب

بليان فافتتح إشبيلية وسار إلى ماردة (Mérida) في غربي إسبانية ، وكان أهلها ذوي بأس ونجدة فدافعوا عنها ، ونالوا من المسلمين دفعات وآذوهم ، ولم تسقط إلا بعد أن توالت النجدات إلى موسى ابن نصير ، وكان فتحها صلحاً لا عنوة .

وذهب موسى إلى طليطلة ، فاستقبله طارق ، ونزل إليه إعظاماً ، فقنعه موسى بالسوط ، ووبّخه على عصيانه له ومخالفته لرأيه ، وطالبه بمال الفيء وذخائر الملوك ، فقدمها له وفي جملتها المائدة التي غنمها من كنيسة طليطلة ، وكان يوضع عليها الإنجيل . ويقول المؤرّخون إنّها مصنوعة من الذهب الخالص ، مرصّعة بفاخر الدّر والياقوت ، وكان طارق قد خلع رجلاً من أرجلها وخبأها عنده ، فسأله موسى عنها فقال : « لا علم لي بها ، وهكذا أصبتها » . فأمر موسى فجعلت لها رجل من ذهب جاءت بعيدة الشبه عن سائر أرجلها ، فأخلّ بها .

ثمّ إنّ موسى صالح طارقاً ، وأظهر الرّضا عنه ، وأقرّه على مقدّمته وتابع وإيّاه الفتح متوغّلين في بلاد الفرنجة . وبينا هما يسيران من بلد إلى بلد إذا بأمر من الوليد بن عبد الملك يدعو موسى إليه ، وقد بلغه ما أصاب من الأموال والغنائم . فولّى موسى ابنـــه عبد العزيز على الأندلس ، وجعل مقرّه في إشبيلية ثمّ ركب في البحر ومعه طارق ومغيث . وكان مع مغيث في الأسر صاحب قرطبة يريد تقديمه للخليفة ؛ فسأله موسى أن يسلّمه إليه فامتنع ، وكان يدل بولائه من الوليد ، فانتزعه موسى قسراً . فقيل له : « إن سرت به حيّاً معك ادعاه مغيث ، والعلج لا ينكر قوله ، ولكن أضرب عنقه » . ففعل ، فحقدها عليه مغيث . وسار موسى فورد الشام وقد مات الوليد واستخلف سليمان أخوه ،

وكان منحرفاً عليه . فسبق إليه طارق ومغيث بالشكية ، ورمياه بالخيانة ، وأخبراه خبر صاحب قرطبة والمائدة . فلمّا مثل في حضرته ، وبّخه وأغلظ له ، وسأله عن المائدة فأحضرها ، فقال : « زعم طارق أنّه الذي أصابها دونك » . قال : « لا ، وما رآها قطّ إلاّ عندي » . فقال طارق : « فليسأله أمير المؤمنين عن الرّجل التي تنقصها » . فسأله ، فقال : « هكذا أصبتها » وعوضتها رِجلاً صنعتها لها » . فأخرج طارق الرّجل المخلوعة من قبائه ، فعلم سليمان كذب موسى فعزله وأقصاه . وأغرمه غرماً عظيماً ، حتى اضطرّ إلى أن يسأل الناس معونته .

وقيل بل ورد موسى الشام والوليد مريض ، فكتب سليمان إليه يأمره بالتربّص رجاء أن يموت الوليد ، فيقدم عليه موسى بتلك الغنائم في أوّل خلافته ، فيعظم بذلك مقامه عند النّاس . فأبى موسى وجدّ في السّير حتى دخل دمشق ، والوليد حيّ ، فقدم له الغنائم والتّحف . ثمّ مات الوليد واستخلف سليمان فانتقم من موسى ، وأغرمه ونفاه إلى وادي القرى ، ودسّ إلى الأندلس بقتل ابنه عبد العزيز .

وكان عبد العزيز قد تولّى الأمر بعد أبيه ، فأحسن سياسة البلاد ، وعقد معاهدة صلح مع تدمير ملك القوط اعترف فيها تدمير بأنّه من عمّال الخليفة ، ورضي بدفع الجزية ، واعترف له عبد العزيز بملكه على بلّنسية وأريولة وسواهما ، وعاهده على أن لا يعتدي المسلمون على رعيّته ، ولا يسبوا نساءهم ، ولا يعارضوهم في دينهم . وأخذ عبد العزيز يجبي الضّرائب ، ويرسلها إلى دمشق ، ولكن سليمان كان كارهاً له ، ناقماً على أبيه ، فدسّ عليه من أثار به الجند فقتلوه سنة ٩٨ هـ. (٧١٦ م) وهو في جامع إشبيلية ، واتّهموه بأنّه جعل باب مجلسه

صغيراً لينحني له النّاس ساجدين إذا دخلوا عليه . وقد فعل هذا إرضاء لزوجه الإسبانيّة امرأة لذريق ، فإنّها طلبت منه أن يسجد له النّاس ، كما كانوا يسجدون لبعلها الأوّل . فلم يطق ردّ طلبها لشدّة شغفه بها .

عهد الولاة (٧١٠ – ٧٥٥ م و٩٢ – ١٣٨ هـ)

الولاة تعينهم افريقية او الخليفة . افتتاح بلاد جديدة . معركة إبواتيه . العدنانية واليمانية . الفتنة . ثورة البرابرة . الولاة اليمانون يتعصبون . اقتسام الامارة . استبداد المغاربة بالحكم .

بدأ عهد الولاة في الأندلس بطارق ، ثمّ بموسى ، ثمّ بعبد العزيز . فلمّا قتل هذا بقيت الأندلس نحو ستّة أشهر وبنو أميّة لا يرسلون والياً إليها . فاجتمع زعماء البربر واختاروا أيّوب بن حبيب اللّخْمي ، وهو ابن أخت موسى بن نصير . فجعل سريره في قرطبة . ولم يطل عهده لأنّ محمّد بن يزيد عامل إفريقية من قبل سليمان بن عبد الملك عزله ، وولّى مكانه الحرّ بن عبد الرّحمن الثّقفي .

وتعاقب الولاة على الأندلس ، فمنهم من كان يعينهم الخليفة ، ومنهم من كان يعينهم عامل إفريقية . وافتتحت بلاد جديدة كبَرْشَلونة (Barcelone) وقَشْتَالة (Castille) وأغار العرب على شواطىء الرّون فبلغوا ليون . وما زالوا يتقدّمون في قلب فرنسة حتّى كادوا يحصرون تور لو لم يلقهم شَرْل مَرْتِل بجموع الفرنجة في سهول

إبْوَاتِيه ، ويردّهم على أعقابهم . وقتل في تلك الواقعة قائدهم عبد الرّحمن الغافقي والي الأندلس وذلك سنة ١١٤ هـ. (٧٣٢ م) .

ولم يقتصر عهد الولاة على الحروب بين المسلمين والنّصارى في أوربّة بل حدث شقاق عظيم في المسلمين أنفسهم ، وقامت الفتنة ، واعصوصب الشرّ بين الأحزاب ، ذلك أنّه لمّا تسامع العرب بفتح الأندلس ، وذكر لهم ما فيها من خصب وغنى أقبلوا إليها ، وفي طليعتهم الشاميّون ، واستوطنوها وكان فيهم العدنانيّة من مضر وربيعة كأبناء قريش من فهر وأميّة وهاشم ومخزوم ، وكأبناء غَطَفان وتميم وكنانة وقيس عيلان وتغلب وبكر وأسد . وفيهم اليمانية من كَهْلان والأزْد ومَذْحِج وسواهم وكانوا أكثر عدداً من العدنانيّين ، فانتقلت معهم العصبيّة القَبَليّة ، والمنازعات الحزبيّة بين القحطانيّة والعدنانيّة أو القيسيّة واليمنيّة .

وكان البربر يعتدّون بأنفسهم ، لأنّ الفاتح منهم ، والفتح تمّ على يدهم ، ويرون أنّهم أولى من غيرهم بالأحكام . فحدث أن ثار البرابرة في المغرب على الشاميّين والمصريّين ، وأثخنوا فيهم ، فتحرّك برابرة الأندلس ، وثاروا بواليها عبد الملك بن قَطَن ، فاستنجد بَلْجَ ابن بِشر القُشَيري ، وكان في سبتة ، ومعه عشرون ألف محارب، فجاء وأخمد الثورة . إلا أنّ عبد الملك لم يحسن جزاءه ، فاغتاظ بلج وقتله ، وولي الأمر مكانه . فسخط العرب على بلج لفتكه بعامل الخليفة ، وثاروا عليه ، فقتلوه .

وولي بعده ثعلبة بن سلامة الجُذامي فتجهّمه الفهريّون ومالوا عنه لتعصّبه لليمانية ، فهبّت الفتنة بين العدنانيّة والقحطانيّة ، وتفاقم الأمر .

وكان على إفريقية حَنْظلة بن صفْوان فعزل ثعلبة ، وأرسل أبا الخطّار حسام بن ضرار الكلبي . وكان أيضاً يمانياً فأفرط في العصبيّة على العدنانيّة وأسخط القيسيّة بإساءته إلى كبيرها الصُّمَيْل بن حاتم فهاجت الحرب ، وخلع أبو الخطّار .

وكان الأمويّون في الشرق قد تضعضعت أحوالهم بنشاط الدّعوة العبّاسيّة ، فعجزوا عن ضبط الولايات القاصية ، فباتت الأندلس فوضى ، لا راع لها ، يتصرّف فيها الجند بحسب أهوائهم . فاتّفقوا على اقتسام الإمارة بين المضريّة واليمانية ، يتداولونها سنة فسنة . فقدم المضرية عليهم يوسف بن عبد الرّحمن الفهري سنة ١٢٩ هـ. (٧٤٦ م) واستتمّ سنة ولايته بقرطبة . ثمّ جاءته اليمانية لميعاد دولتهم ، فبيّتهم يوسف في شَقَنْدة من قرى قرطبة ، وبالغ في تقتيلهم وعاونه عليهم الصُّميل وسائر المضرية ؛ فغلبوا على أمرهم واستكانوا ليوسف الفهري على مضض . ثمّ أصاب الأندلس قحط عظيم ، واشتدّ عليهم الجوع مدّة ثلاث سنوات ، فرجع أكثر البربر إلى إفريقية، وظلّ الحكم بيد يوسف إلى أن جاء عبد الرّحمن الدّاخل ، وأنشأ الدّولة الأمويّة الجديدة .

الدولة الأموية (٧٥٥ – ١٠٣٠ م و ١٣٨ – ٤٢٢ هـ)

هرب عبد الرحمن إلى الأندلس . قطع الخطبة عن بني العباس . عبد الرحمن الثالث والخلافة . الحكم . هشام . الحاجب المنصور . انقراض الأمويين .

ما انهار البيت الأموي في الشرق إلا لترتفع له الدّعائم في الغرب ، فكأنّ الأقدار أبت إلا أن يظلّل برواقيه حضارة المسلمين ، وعزّ الإسلام في الخافقين . فقد أُديل لبني العبّاس بعد مهلك مروان بن محمّد ، فأعملوا السّيف في رقاب الأمويّين ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ونجا من تراخت منيّته . وكان في جملة النّاجين عبد الرّحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، فإنّه فرّ مستخفياً حتّى خلص إلى المغرب . وكانت أمّه بربريّة فنزل على أخواله بني نَفْزة بالقرب من سبتة ، فأحسنوا ضيافته ثمّ لحق به مولاه بدر ، فبعثه بكتاب إلى موالي المروانيّة في الأندلس ، وهم يوم ذاك ما بين أربعمائة وخمسمائة ولهم جمرة . فسهّلوا له دخول البلاد ، ووطأوا له عرش قرطبة .

وقد تواطأت عدّة أسباب لنجاح ابن معاوية ، منها حماية البربر له لأنّهم أخواله ، ومنها اجتماع موالي المروانيّة إليه لأنّه مرواني ، ومنها ضعف الدّعوة العبّاسيّة في الأندلس ، لأن المضرية كانت في كثرتها شامية أمويّة ، فانثالت إليه من كلّ جانب وعجز الصُّميل والقيسيّة عن ردّها . أمّا اليمانية فإنّها كانت تتمنّى زوال سلطان الصُّميل ويوسف الفهري ، فتسايلت إلى عبد الرّحمن تشدّ ازره ، وقديماً كانت اليمانية أنصار أميّة على قيس عيلان .

وما زال الأمويّ يحتلّ بلداً بعد بلد حتّى دخل قرطبة ، فجعل فيها سريره . وانتصر على الصُّميل ويوسف الفهري وأهلكهما ، ودانت له الأندلس ، فأصبح أميرها ، ولقّب بالدّاخل ، لدخوله إيّاها ، ولقّبه أبو جعفر المنصور بصقر قريش . وكانت الخطبة تقام لبني العبّاس فقطعها عنهم ، ودعي له على المنابر . وبنى المسجد الجامع في قرطبة ، واختطّ مدينة الرُّصافة في شماليها على مثال رصافة الشام لجدّه هشام ؛ وجعل قصره كقصر لذريق في عظمته وبهائه . وكانت مدّة ملكه أربعاً وثلاثين سنة من سنة ١٣٨ — ١٧٢ هـ. (٧٥٥ — ٧٨٨ م) .

وتداول الملك بعده أبناؤه وحفداؤه حتّى وليه عبد الرّحمن الثّالث ، فقام بأعبائه خمسين حولاً من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٣٥٠ هـ. (٩١٢ — ٩٦١م) وبه بلغت دولة بني مروان أوج مجدها . وكانت له الغزوات المظفّرة في الشمال والجنوب ، فخضعت له بلاد كثيرة من إسبانية والمغرب ، وجاءته الهدايا من ملوكها . وجعل الأندلس أمّة واحدة تحت سلطانه، واستكثر من الصّقالبة [1] ، واعتمد عليهم في الجيش وخطط الدّولة ، فأزال بهم زعامة الارستقراطيّة العربيّة .

وكان أمراء بني أميّة يطمعون في ارتجاع الخلافة ، ويتحيّنون لها الفرص ، ولم يتلقّبوا أوّل أمرهم بألقابها مخافة أن يجد المسلمون في عملهم بدعة لأن الخلافة العبّاسيّة كانت في إبّان عظمتها ، فلا مسوّغ لقيام خلافة أخرى .

١ الصقالبة : كان يراد بهم أولا احداث السلاف الذين يسبون ويباعون في أسواق الأندلس ، ثم أريد بهم صبيان الفرنجة على الإطلاق . وهؤلاء الأحداث أسلموا وتعلموا العربية ، فهم أشبه بالموالي في الشرق،وكان عددهم يراوح بين أربعة آلاف إلى ثلاثة عشر ألفاً .

فلمّا صار أمرها إلى الضّعف وباتت شؤونها في يد الأتراك والخدم يولّون الخلفاء ويخلعونهم أو يقتلونهم ، وقامت الخلافة الفاطمية في افريقية، سنحت الفرصة لملوك الأندلس، فاغتنمها عبد الرّحمن الثّالث وهو الرّجل المقدامة الحزيم ، وسمّي أمير المؤمنين النّاصر لدين الله سنة ٣١٦ هـ. (٩٢٨ م) .

ومات عبد الرّحمن وله من العمر سبعون سنة ؛ وفي أيّامه نهضت الآداب والعلوم نهضة ميمونة ، وازدهرت العمارة ، وكثر عدد السكّان في قرطبة وبنيت بها القصور المنيفة ، واستكثر من الجوامع والحمّامات فبلغت ثلاثة آلاف جامع وثلثمائة حمّام . فأصبحت قرطبة تنافس بغداد في حضارتها ، فإذا هي منارة الغرب الوضّاءة ، كما كانت تلك منارة الشرق . وبنى النّاصر على مقربة منها مدينة سمّاها الزّهراء باسم جارية له ، وأجرى فيها المياه ، وأنشأ القصور والبساتين ممّا يجلّ عن الوصف . وبلغت جباية الضرائب في أيّامه ٦،٢٤٥،٠٠٠ دينار . وكان له أسطول عظيم يزاحم به أسطول الفاطميّين .

وانتقلت الخلافة من بعده إلى ولده الحكم المستنصر بالله ؛ فكان كأبيه حازماً حسن التّدبير ، فأخضع الثّائرين من النّافاريّين والقشتاليّين ؛ واستخذى له ملك الجلالقة [1] وملك خمس عشرة سنة [2] كلّها يمن وإقبال ؛ وبلغت قرطبة غاية عظمتها حتّى حقّ لها أن تسمّى دار العلوم . وامتاز عهده بإنشاء المدارس والمكاتب، فقد ابتنى في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة ، وجعلها مجّاناً للطلاب ؛ وأتمّ بناء الجامع الكبير أعظم مسجد في العالم ، وفيه كانت تدرس الآداب والعلوم العالية . قال في وصفه

١ الجلالقة جمع جليقي : نسبة إلى جليقية Galice وهي ولاية إسبانية .

٢ مدة خلافته من سنة ٣٥٠ – ٣٦٦ هـ . (٩٦١ – ٩٧٦ م) .

كليمان هيوار : « هو غابة من المرمر يشتمل على ستّين سارية وثماني مائة ، وأثر عجيب للفنّ الإسلامي » . اهـ. وأرسل البعثات العلميّة إلى الشرق فكانت تنسخ له الكتب وتأتي بها إليه حتّى جمع في خزائنه أربعمائة ألف كتاب . ويقول دوزي في كتابه تاريخ مسلمي إسبانية : « إنّ إسبانية المسلمة كادت كلّها تقرأ وتكتب ، على حين أنّ الطبقة الرّفيعة في أوربة المسيحيّة لم تكن كذلك ، إذا استثنينا رجال الدّين » .

وكانت خلافة الحكم نهاية عهد القوّة في دولة الأمويّين ، فإن هشاماً كان حدثاً لما ولي الأمر بعد أبيه ، فاستبدّ بشؤون الدّولة وزيره محمّد بن أبي عامر ، وعضدته صبح أم الخليفة الصّغير ، لأنّها كانت تهواه . فحجر على هشام ، ومحا رسم الخلافة وكتب اسمه في السكّة والطّراز [1] وتلقّب بالحاجب [2] المنصور ، ودعي له على المنابر ، ولم يترك للخليفة غير الدّعاء ليلة الجمعة . وكان شديد البطش ، كثير الغزوات موفّقها ، أغار على الفرنجة مرّات عدة ، وأثخن فيهم ، وهدم مدنهم أمثال لاون (Léon) وبرشلونة . ومات سنة ٣٩٢ هـ. (١٠٠٢ م) .

وكان محبّاً للفلسفة ، فرمي بالزّندقة ، فأراد تبرئة نفسه ، فأمر بكتب المنطق والنّجوم فأخرجت من خزائن الحكَم وأحرقت ، ولكنّه قرّب العلماء والشّعراء ، وأحسن صلاتهم فنطقوا بحمده، وأشادوا بذكره.

وتولّى الأمر بعده ابنه عبد الملك وتلقّب بالملك المظفّر ، ومات بعد أن حكم سبع سنوات ، فخلفه أخوه عبد الرّحمن وتلقّب بالنّاصر

١ الطراز : ثوب ينسج للسلطان .
٢ الحاجب : رتبة الوزير الأول في الأندلس والمغرب .

لدين الله ، وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام والاستقلال بالملك دونه . ثمّ طمعت نفسه في الخلافة ، فطلب من هشام أن يوليه عهده ففعل . فنقم الأمويّون والقرشيّون وخلعوا هشاماً وبايعوا محمّد بن هشام من حفدة عبد الرّحمن الثّالث وتلقّب بالمهديّ . وكان النّاصر غائباً في غزوة ، فلمّا بلغه الخبر قفل إلى قرطبة ، فأرسل إليه المهديّ من قبض عليه ، واحتزّ رأسه ، وذهبت بموته الدّولة العامريّة . غير أنّ محمّد بن هشام لم يستقرّ ملكه على حال لأنّه جافى البرابرة لميلهم إلى العامريّين ، فأتمروا به وبايعوا سليمان بن الحكم ، وتسمّى بالمستعين ، فقامت الفتنة بين الأميرين فمرّة كان ينتصر المهدي ويهزم المستعين . ومرّة كان ينتصر المستعين فيستجيش المهدي ملك الإسبانيّين ، فيمدّه ويعيده إلى عرشه . وانتهبت العاصمة مراراً وخرب أجمل قصورها في المعارك المتتابعة ، وأصيبت مثلها المدن والقرى في جوارها ، ثمّ تمّ الأمر للمستعين ، فتغلّب البربر على الأحكام ، وارتفع شأنهم .

وكان عليّ بن حمّود الادريسي قد جاء الأندلس من المغرب فدعا البربر إلى مبايعته ، فأجابوه لما للادارسة من الكرامة عندهم ، فقتل المستعين وتلقّب بالنّاصر . ثمّ رجع الملك إلى أميّة لأن أهل قرطبة ثاروا بقاسم بن حمود ، وردّوا الملك على الأمويّين . ثمّ عاد الملك إلى بني حمّود ، ثمّ إلى بني أميّة ، وكان آخر خليفة منهم المعتضد بالله هشام بن محمّد فملك مدّة يسيرة ثمّ خلعه الجند فهرب وانقطعت به الدّولة الأمويّة ، وصار الأمر في قرطبة إلى الطبقة الأرستقراطيّة . وأمّا الولايات فإنّ رؤساء الطوائف فيها من بربر وعرب وموال اقتسموا خططها ، واستبدّوا بأمرها ، فعرفوا بملوك الطوائف .

ملوك الطوائف (١٠١٢ – ١١٤١ م و٤٠٣ –٥٣٦ ه)

الزيرية . الحمودية. الهودية . العامرية . العبادية. بنو الأفطس . الجهورية . النونية . تحاربهم . استنجادهم ملوك الفرنجة . حالة الآداب والعلوم .

بدأ استقـــلال ملوك الطوائف في عهد الأمويّين بعد أن ضعف سلطانهم ، واستبدّ العامريّون عليهم . فإنّ الدّولة الزّيريّة استقلّت في غرناطة سنة ٤٠٣ ه. في خلافة المرتضى ، وهي دولة بربريّة تنتسب إلى رأسها زاوي بن زيري ، وظلّ ملكها إلى سنة ٤٨٣ ه. (١٠٩٠ م) .

وكذلك الدّولة الحمّوديّة استقلّت في عهد المستعين الأمـــوي سنة ٤٠٧ ه (١٠١٦ م) . وتلقّبت بألقاب الخلافة ، وهي شيعيّة من المغرب تنتسب إلى إدريس من سلالة الحسن بن عليّ . وكان سريرها يتنقّل من قرطبة إلى مالقة إلى الجزيرة الخضراء . وانقرض ملكهم سنة ٤٥٠ ه. (١٠٥٨ م) .

واشتهر من ممالك الطوائف الدّولة الهُوديّة في سَرَقُسْطَـــة (Saragosse)من ٤١٠ – ٥٣٦ ه. (١٠١٩ – ١١٤١ م) وهي دولة عربيّة أشهر ملوكها المقتدر بالله وابنه المؤتَـمَن . وكان المؤتمن بارعاً في العلوم الرّياضيّة وله فيها تآليف حسان .

والدّولة العامريّة في بَلَنْسِيَة (Valence) من ٤١٢ – ٤٧٨ ه. (١٠٢١ – ١٠٨٥ م) وهم من موالي بني عامر .

والدّولة العبّادية في إشبيلية من ٤١٤ – ٤٨٤ ه. (١٠٢٣ – ١٠٩١م) وهي عربيّة من بني لَخْم من ولد النّعمان بن المنذر .

ودولة بني الأفطس في بَطَلْيُوس [1] (Badajoz) من سنة ٤٢١ – ٤٨٧ هـ. (١٠٣٠ – ١٠٩٤ م) وكانت دولة متحضّرة نهضت بالعلوم والفنون ، مع أنّها بربريّة من مِكناسة ، ولكنّها نشأت في الأندلس وتخلّقت بأخلاق أهلها .

والدّولة الجَهْوَرِيّة في قرطبة من سنة ٤٢٢ – ٤٦١ هـ. (١٠٣٠ – ١٠٦٨ م) قامت بعد أن زالت خلافة المعتضد وسقطت الدّولة الأمويّة ، وصار الأمر بقرطبة إلى الجماعة الأرستقراطيّين ،وكان عميد هذه الجماعة أبو الحَزْم جَهْوَر ، فاستولى على الأحكام ، واستقلّ بالملك ، فتوارثه أبناؤه من بعده .

ودولة ذي النّون في طليطلة من ٤٢٧ – ٤٧٨ هـ. (١٠٣٥ – ١٠٨٥م) وهي بربريّة من قبائل هوّارة .

وكان ملوك الطوائف يحارب بعضهم بعضاً ، ويتغلّب قويّهم على الضّعيف فيزيل ملكه كما أزال العبّاديّون ملك الجهوريّة ، والنونيّون ملك العامريّة . وربّما استنجد بعضهم على بعض ملوك الفرنجة ، فيغتنم هؤلاء الفرصة ، ويهاجمون الأندلس ، ويستولون على عواصمها ، ويخضعون ملوكها ، ويضربون عليهم الجزية ، ويجعلونهم عمّالاً لهم ؛ فعلَ فردينان الأوّل بالمظفّر ملك بطليوس ، وبالمأمون ملك طليطلة ؛ وفعل ألفُنْس السادس بملك سرقسطة وملك إشبيلية .

وظلّت الأندلس في اضطراب دائم لا تستقرّ على حال حتّى افتتحها يوسف بن تاشفين ومحا ملوك الطوائف ، إلا دولة سرقسطة فإنّ صاحبها اعتصم بالفرنجة فحموها حيناً ، ولم ينل منها المرابطون إلا في سنة ٥٠٣ هـ.

١ هكذا ضبطها ياقوت ، وضبطها ابن خلكان بفتح الياء قبل الواو الساكنة .

؛ ١١٠٩ م.) واستعادها الفنس الأوّل ملك أرَغون (Aragon)
سنة ٥١٢ هـ. (١١١٨ م) .

ومع سوء الحالة السياسية في عهد ملوك الطوائف فإنّ الآداب والعلوم نهضت نهوضاً عظيماً لتنافس الأمراء في تعزيزها ، وتقريب أصحابها ، وظهرت الفلسفة وعلى رأسها ابن باجّة ؛ واشتهر من هؤلاء الملوك جماعة من الأدباء والشعراء ، كالمظفر وابنه المتوكّل ملكي بطليوس ، والمعتمد بن عبّاد ملك إشبيلية .

دولة المرابطين (١٠٥٦ – ١١٤٦ م و ٤٤٨ – ٥٤١ هـ)

الملثمون . لماذا سموا المرابطين . قيام دولتهم في المغرب . يوسف بن تاشفين . استنجاد الأندلس به . استيلاؤه على الأندلس . عهد علي بن يوسف على الأندلس .

ترجع هذه الدولة بأصلها إلى قبيلة لمتونة من برابرة صنهاجة في المغرب . وكان من سنتهم أن يضربوا لثاماً على وجوههم فلقّبوا بالملثمين . وفي أصل هذا اللّثام أقوال كثيرة أشهرها أنّ قوماً من أعداء الملثمين كانوا يرتقبون غفلتهم حتى إذا غابوا عن بيوتهم طرقوا الحيّ وانتهبوا النّساء والأموال . فأشار بعض أشياخهم أن تبعث النّساء في زي الرّجال إلى ناحية ، ويقعد الرّجال في البيوت ملثّمين في زي النّساء . فلمّا أتاهم العدوّ ظنّهم نساء فأراد سبيهم ، فثاروا به واشتفوا منه ، ثمّ لزموا اللّثام تيمّناً به .

وسمّوا المرابطين لأنّ أحدهم يحيَى بن إبراهيم أسلم فجاء بفقيه اسمه عبد الله بن يس ليعلّم قبيلته القرآن وأحكام الدّين . ثمّ مات يحيَى فتفرّق النّاس عن الفقيه ، فلم يفتّ في عضده بل جمع فئة منهم واعتزل بهم في جزيرة من السّنغال ، وابتنى لهم رِباطاً [1] فسمّوا المرابطين . فلمّا كثر عددهم ، وبلغوا الألف ، خطب عبد الله فيهم ، وحضّهم على الجهاد في سبيل الحقّ ، وامرهم بإرشاد عشائرهم . وأبت عشائرهم أن تهتدي بهديهم ، فشنّوا الغارة عليها ، وقتلوا منها خلقاً كثيراً ، حتّى أسلمت . ثمّ تابعوا الغزوات في بلاد المغرب يدعون النّاس إلى دينهم وطاعتهم فأوقعوا الرّعب في النّفوس ، ونشروا الهول في تلك الأنحاء .

وجعل عبد الله قيادة الجيش ليحيَى بن عمر وكانت له زعامة في قبيلته لمتونة ، فابتدأت به دولة المرابطين سنة ٤٤٨ هـ. فلمّا مات خلفه أخوه أبو بكر ، ثمّ نزل أبو بكر لابن عمّه يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٣ هـ. (١٠٦١ م) فدوّخ يوسف المغرب وفتح فاس وطنجة وسبتة ، وبنى مدينة مَرّاكُش [2] وجعلها داراً له فعظمت هيبته وضاع ذكره .

وكانت الأندلس في تلك الأثناء تعاني أشدّ الضّيم ، فإنّ ألفنس السادس صاحب قشتالة غزاها غير مرّة ، وأثخن في المسلمين ، وأخضع ملوك الطوائف ، حتّى بلغ جزيرة طريف ، وأدخل قوائم فرسه في البحر وقال : « هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته » . فلمّا بلغ الضّعف بالمسلمين

١ الرباط والرابطة : مكان ينفرد به المسلمون للعبادة ، ويتأهبون فيه للجهاد . هو بيت دين وحرب .

٢ مراكش : لفظة بربرية معناها امش مسرعاً ، قيل سمي بها الموضع الذي بنيت فيه لأنه كان مأوى للصوص ، فإذا مر به المسافرون قال بعضهم لبعض امش مسرعاً تخلصاً منه .

حدّه أجمعوا رأيهم على استنفار يوسف بن تاشفين ، فكتب إليه المعتمد ابن عبّاد صاحب إشبيلية يعلمه بحال الأندلس ، وتغلب الفرنجة على أكثر ثغورها ، ويسأله النّصر والإعانة . وكتب إليه أهل الأندلس كافة يستنجدونه على العدوّ المغير . فجمع جيشاً كثيفاً ، وأجازه الزّقاق إلى الأندلس ، واتّخذ الجزيرة الخضراء مقرّاً له ، فأقبل عليه ملوك الطوائف بامدادهم .

وكان ألفنس يحاصر سَرَقُسْطة، فلمّا علم بقدومه ارتدّ عنها للقائه ، فنشبت بينهما معركة حامية الوطيس ، فدارت الدائرة على ألفنس ، فانهزم جريحاً ، وتبدّد جيشه في ١٢ رجب ٤٧٩ هـ. (٢٣ تشرين الأوّل ١٠٨٦ م) فازداد يوسف بن تاشفين عظمة بهذا الانتصار وتلقّب منذ اليوم بأمير المسلمين ، وأتاه به تقليد الخليفة العبّاسيّ المقتدي بأمر الله ، ولقبه ناصر الدّولة ، ثمّ رجع يوسف إلى المغرب ظافراً منصوراً .

وما لبث المسيحيّون بعد عودته أن استأنفوا نشاطهم ، وأعاد ألفنس الكرة على الأندلس ، واستولى على مدائنها ، ورأى في بَلَنْسية من صاحبها السيّد رُذْريق (Rodrigue)[1] معيناً . ففزع المعتمد ابن عبّاد إلى مراكش مستصرخاً أمير المسلمين ، وكتب إليه علماء الأندلس يستنجدونه لإنقاذها . فطمع في الاستيلاء عليها لما تحقّق من

١ هو صاحب الأسطورة التي بنى عليها كورنه قصة السيد . وكان هذا الرجل قائد جيش من المرتزقة ، يقاتل به بين يدي من يعطيه مالا فتارة يخدم به الهوديين ، وتارة يخدم به الفنس حتى تمكن من الاستيلاء على بلنسية ، وأسر عاملها القاضي ابن جحاف ، وأحرقه حيّاً . وأنشأ فيها إمارة له . غير أنه لم يهنأ بانتصاره بل مات قهراً بعد أن خذله المرابطون سنة ٤٩٣ هـ . (١٠٩٩ م) .

ضعف أهلها ، فأغزاها قائده سير بن أبي بكر ، فاستولى على قرطبة وإشبيلية ومُرْسية ودانية (Dénia) سنة ٤٨٤ هـ . (١٠٩١ م) ودافع المعتمد بن عبّاد عن مملكته دفاعاً شريفاً ، ثمّ أُسر واقتيد إلى أغمات قرب مراكش ، ومات فيها .

وافتتح سير بَطَلْيوس سنة ٤٨٧ هـ. (١٠٩٤ م) وأزال ملك بني الأفطس . ثمّ بلنسية سنة ٤٩٥ هـ. (١١٠١ م) بعد أن دافعت عنها شيمانة أرملة رُذْريق أكثر من سنتين .

ومات يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ. (١١٠٦ م) بعد أن دانت له الأندلس ، وأصبحت ولاية للمرابطين . وانتقلت إمارة المسلمين بعده إلى ولده عليّ ، فجعل مقرّه بمراكش ، وترك في الأندلس أخاه تميماً نائباً عنه .

ولم تنعم الأندلس في دولة عليّ ،فإنّ تعصّبه الشديد للدّين، واستمساكه بمذهب مالك ، وكره غيره من المذاهب جعله آلة بيد الفقهاء ، فساد التعصّب والإرهاب ، وكثرت الوشايات ، وخنقت حرّيّة التفكير . وفي أيّامه ظهر المهديّ محمّد بن تُومَرْت في جبال المصامدة بالمغرب فكان ظهوره وبالاً على دولة المرابطين ، وسبباً لقيام دولة الموحدين .

دولة الموحدين (١١٢٩ – ١٢٦٨ م و ٥٢٤ – ٦٦٧ ﻫ)

محمد بن تومرت . طريقة التوحيد . المهدي . الدعوة إلى جهاد المرابطين . موت المهدي . خليفته . دخوله الأندلس . عهد الازدهار في دولة الموحدين . انقراضها .

نشأ محمّد بن تُومرت في جبل السّوس من المغرب الأقصى ، وقومه بنو هرغة وهم بطن من بني مصمودة ، وهي قبيلة شديدة البأس كثيرة العدد . وبدت عليه دلائل التّقوى منذ حداثته ، فكان يزور قبور الأولياء ، ويتبرّك بها . وطلب العلم في بلده فوجد أنّ المدارس في المغرب لا غناء فيها ، فرحل إلى الشرق ، وجاء بغداد ، وتلمذ لأبي حامد الغزالي في المدرسة النظاميّة ، فأخذ عنه طرفاً صالحاً من العلم وأصول الدّين .

فلمّا رجع إلى المغرب شرع يدعو النّاس إلى التمسّك بأهداب الشرع ، وإقامة أحكام السنّة ، ويبيّن لهم فساد الملوك والأمراء وظلمهم ويدعوهم إلى عصيانهم . وأطلق على طريقته اسم التوحيد ، فتبعه خلق من بني هرغة ، فعُرفوا بالموحدين . ثمّ أوقع في خلدهم أنّ النبيّ بشّر بالمهديّ الذي يملأ الأرض عدلاً ، وقال إنّه يخرج من المغرب الأقصى . فقام إليه عشرة رجال ، وقالوا له : « أنت المهديّ » . وبايعوه وساروا في ركابه يبثّون له الدّعوة في بلاد المصامدة حتى كثُر اتباعه ، ورسخت تعاليمه ، فدعاهم إلى جهاد المرابطين ، وأباح لهم دماءهم « فبايعوه على الموت ؛ فجنّد منهم عشرة آلاف وقدم عليهم أبا محمّد البشير أحد صحابته العشرة ، ودعا لهم ؛ فراحوا يغزون في بلاد المغرب ، ويوقعون

بالمرابطين حتّى بلغوا مراكش فحصروها ولكنّها امتنعت عليهم ، ومات المهديّ سنة ٥٢٤ هـ. قبل أن يفتتحوها . وكان قد أوصى بعده لعبد المؤمن بن عليّ أحبّ صحابته إليه فبايعوه بالخلافة ، وتلقّب بأمير المؤمنين . وتابع عبد المؤمن جهاده حتّى أزال دولة المرابطين وأقام بها دولة الموحدين .

وجاءته الوفود من الأندلس تدعوه ، فأجاز إليها جيشاً من الموحدين وامتلكها ، وجعلها من ولاياته .

وبلغت دولة الموحدين أوج عزّها في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن [1] الخليفة الثاني بعد المهديّ ، ثمّ في عهد ولده أبي يوسف يعقوب [2] الخليفة المنصور . ومع تمسّك الموحدين بأصول الدّين ، كانوا في الأندلس أعلق بالحضارة من المرابطين ، فإنّ أبا يعقوب استقدم الفلاسفة إلى بلاطه كابن طُفَيل وابن رُشْد ، وعني بالعمارة ، ومن آثاره الباقية منارة الجامع الكبير في إشبيلية .

وظلّ الحكم للموحدين حتّى اقتسم المغرب دول ثلاث ، وهي المَرينية وعاصمتها فاس ، والزّيّانيّة وعاصمتها تِلِمْسان ، والحفصيّة وعاصمتها تونس .

١ خلافة أبي يعقوب من سنة ٥٥٨ — ٥٨٠ هـ . (١١٦٢ — ١١٨٤ م) .
٢ خلافته من سنة ٥٨٠ — ٥٩٥ هـ . (١١٨٤ — ١١٩٨ م) .

دولة بني الأحمر (١٢٣١ – ١٤٩١ م و ٦٢٩ – ٨٩٧ هـ)

حالة الأندلس بعد الموحدين . محمد بن نصر . اتفاقه مع الاسبانيين . سقوط قرطبة . لم يبق للمسلمين غير غرناطة . سبب بقائها طويلا . أبو عبد الله . الفتن الداخلية . غزوات الاسبانيين . سقوط غرناطة . الآداب في عصرهم .

زايل الموحدون الأندلس بعد انقطاع دولتهم ، فبسط محمّد بن هُود صاحب بطليوس سلطانه عليها فشمل به بَطَلْيوس ومُرْسية وقرطبة . ولكنّه كان أضعف من أن يذود الأعداء عن مملكته ، ويحرس استقلالها ، ويردّ المكايد عنها . فقد كان في أرْجونة (Arjona) من حصون قرطبة ، قبيلة عربيّة من بني الأحمر ينتهي نسبها إلى الخزرج ، وعميدها محمّد بن يوسف بن نصر . فاتفق هذا مع الإسبانيّين أن يمدّوه بجيش لقتال ابن هود على أن ينزل لهم عن بسائط الأندلس إذا استتبّ أمره فيها . فاغتنم الفرنج الفرصة وزحفوا بجموعهم يستولون على المدائن والحصون حتى بلغوا قرطبة فحصروها ستّة أشهر ، ثمّ سقطت في أيديهم سنة ٦٣٣ هـ . (١٢٣٥ م) بعد أن لبثت نحو عشرين سنة وخمس مائة عاصمة إسبانية المسلمة . وقتل ابن هود في ألمَرِيّة (Alméria) ولم يبقَ للمسلمين غير إقطاعة الأندلس وعاصمتها غرناطة ، يتولاها ابن الأحمر أمير المسلمين من قبل فردينان الثالث ، وعاشت هذه الدّولة الصّغيرة ما ينيف على خمسين سنة ومائتين . ويعود ذلك على أنّ الملوك الإسبانيّين كانوا يُشغلون عنها بمحاربة بعضهم لبعض ، وأنّها كانت تستنجد سلاطين المغرب في ضنكها فيجيزون إليها جيوشهم لدفع المسيحيّين

من أرباضها .

فلمّا تأذّن القدر بزوالها ، تولّى أمرها السلطان أبو الحسن عليّ ابن الأحمر سنة ٨٨٨ هـ. (١٤٨٣ م) فنازعه الملك أخوه أبو عبد الله محمّد الملقّب بالزّغل ، وبويع له بمالقة ، فقامت الفتنة بين الأخوين حتّى خضع الزّغل لأخيه .

وكان لأبي الحسن زوجتان إحداهما ابنة عمّه عائشة ، والثانية إسبانيّة مسيحيّة اسمها إيزابلّة ، فلمّا أسلمت سمّيت الثّريّا . وكان يؤثرها على عائشة ، ويخصّها بالإكرام والمودّة ، حتّى إنّه قدم أحد أولادها لولاية العهد . فاحتدمت الغيرة في صدر عائشة ، وفرّت من القصر ومعها أولادها ولجأت إلى وادي آش (Guadix) فعضدها الشعب وبايع ولدها أبا عبد الله . واعصوصب الشرّ بين حزب أبي عبد الله وحزب والده أبي الحسن ، ولا سيّما الثغريّون [1] وبنو السرّاج ، فقد انتصر الأوّلون لأبي الحسن ، والآخرون لأبي عبد الله ، فكانوا يقتتلون في الشوارع والطرق حتّى جعلوا الفوضى منتشرة في البلاد . وتزعم الرّواية العربيّة أن أبا عبد الله نكب بني السرّاج [2] وأفناهم ، وينكر ذلك المستشرقان أوغست مولّر ، وكليمان هيوار ، ويضيفان هذه النكبة ، إن صحّت ، إلى أبي الحسن .

واستمرّت الحروب بين الابن وأبيه حتّى رجحت كفّة الولد ، فأقام سريره في غرناطة ، ثمّ خرج غازياً الإسبانيّين فأسروه . فأجمع

١ الثغريون ، نسبة الى الثغر أي سكانه .
٢ على أسطورة نكبة بني السراج بنى شاتوبريان قصة آخر بني سراج .

أهل غرناطة على إرجاع والده ، وكان لاجئاً إلى مالقة ، وقد ذهب بصره . فأبى الملك وهو على هذه الحال ، وقدّم أخاه أبا عبد الله الزّغل وكان شجاعاً ، فحارب الإسبانيّين ، وأثخن فيهم ، فرأوا أن يرموه بابن أخيه أبي عبد الله ، فأطلقوا سراحه ، وأمدّوه بالعساكر ، فثار يطلب الملك من عمّه ، فطالت بينهما الفتنة حتّى استولى ابن الأخ على غرناطة ، وكان العمّ غائباً عنها ، فلمّا بلغه الخبر فتّ في عضده ، وعطف إلى وادي آش وهي مدينة من أعمال غرناطة ، وتحصن بها .

واستفاد الإسبانيّون من هذه الفتن الدّاخليّة ، فوالوا غزواتهم على المسلمين ، ثمّ ازدادوا قوّة بعد أن تزوّج فردينان الخامس ملك أرغون إيزابلّة الكاثوليكيّة ملكة قشتالة سنة ١٤٦٩ م (٨٧٤ هـ.) فاتحدت مملكتان قويّتان على دولة بني الأحمر ، وأصلوها حرباً عواناً يقود جيوشهم فيها فردينان ، وتتولّى إيزابلّة خدمة الجرحى بنفسها . وحوصرت غرناطة سنة ٨٩٦ هـ. (١٤٩٠ م) ، وسلّمها أبو عبد الله في غرّة ربيع الأوّل سنة ٨٩٧ هـ. (كانون الأول ١٤٩١ م) بمعاهدة أباحت للمسلمين واليهود حرّية الدّين .

وأعطي أبو عبد الله ضيعة يقيم فيها ، فخرج وأهله من قصر الحمراء[1] حزيناً منخلع القلب ، ومشى مطرقاً إلى منفاه ، حتّى إذا انعطفت به الطريق ، وكادت الحمراء تتوارى عنه ، أرسل إليها النظرة الأخيرة ، وهطلت عيناه بالدّموع . فقالت له أمّه عائشة : « ابكِ مثل النّساء

[1] قصر الحمراء من عجائب العمارة العربية . شرع في بنائه أبو يعقوب يوسف الأول خليفة الموحدين ، وأتمه من جاء بعده من الأمراء والملوك ، ويعزى بناء الحصن فيه إلى محمد بن يوسف أول ملوك بني الأحمر .

ملكاً لم تحافظ عليه مثل الرّجال » . ولا يزال هذا الموضع يسمّى إلى اليوم زفرة المغربي .

وأقام أبو عبد الله في ضيعته الجديدة إلى سنة ٨٩٨ هـ . (١٤٩٢ م) ثمّ عبر البحر إلى المغرب ، ونزل بفاس واتّخذها مقرّاً حتّى مات .

ولم يفِ ملوك إسبانية بعهد فردينان لابن الأحمر يوم فتح غرناطة ، بل طفقوا يضطهدون المسلمين ويرهقونهم حتّى أزعجوهم عن سائر الأندلس ، وكان آخر عهدهم بها .

وامتاز عصر بني الأحمر بتعزيز الآداب ، فنبغ في دولتهم جملة من الشعراء والكتّاب ، وعرف جماعة من سلاطينهم بالشعر والنثر كأبي عبد الله محمّد بن محمّد المخلوع ثالث ملوكهم .

ميزة العصر

التعصب . الاستبداد . الحرية . التساهل .

يكاد العصر الأندلسيّ ، على اختلاف أحواله ووجوهه ، يحتوي ميزة واحدة في السياسة والاجتماع ، يتلوّن بها من أربع نواحٍ متناقضة : ألا وهي التعصّب والاستبداد ، والتساهل والحريّة . فقد كان لوجود المسلمين في بقعة تتاخمها البلاد النصرانيّة ويناصبهم أهلها العداء ، دافع قويّ لإذكاء الشّعور الدّيني في نفوسهم ، يزيد في تأريث عصبيّته حميّة الفقهاء ، وما لهم من نفاذ وسلطان . فلم يكن لسوى المسلمين أن يتولّوا الخطط العالية في الأندلس ، وإلا عرّضوا أنفسهم لنقمة الفقهاء والعامّة ،

وأصابهم ما أصاب اليهود في غرناطة لما استوزر صاحبهم يوسف بن نغزلة .

وحرص الفقهاء على سلطانهم الدّيني ، جعلهم يثيرون العامّة ، ويستعدون الخلفاء والملوك على ذوي التفكير إذا تعاطوا الفلسفة ، ونظروا في القرآن ، ومحصوا أحكام الدّين ، وخرجوا بها عن الشرع والسنّة . فأصبح الشعب بادي السّخط على الفلاسفة يرميهم بالزّندقة ، ويزورّ لهم متنكّراً ، ويتمنى إهلاكهم . وأصبح ولاة الأمر إذا أرادوا التودّد إلى الفقهاء والعامّة ، تقدّموا بإحراق الكتب المتهمة ، وباضطهاد كلّ مفكّر غمزت عقيدته . فراجت سوق الدسائس والوشايات ، وتفاقمت السعايات والمكايد ، فساد الاستبداد ولقيت حرّية التفكير شرّاً وعنتاً ، فنكب من أجلها ابن رشد وأصحابه ، وأُبعد ابن هاني عن الأندلس ، ووئدت البدع فلم يكن لها حظّ في الغرب كما كان لها في الشرق، وامتدّت أيدي الوُشاة إلى رجال الدّولة ، فنالهم من نقمة الملوك ما نال سواهم ، فنكبت طائفة من الوزراء والقضاة كابن زيدون وابن الخطيب وابن زَمْرَك ، وسواهم .

على أنّ هذا لا ينفي مرور فترات قصيرة أو طويلة يقوم فيها بالأمر ملوك حزمة عادلون ، يؤيّدون حرّية الفكر دون أن يغضبوا الفقهاء والعامّة فتخفّ الوشايات والدّسائس ، وتنتعش الفلسفة شأنها في زمن الموحدين .

وكانت الأندلس دار خصب وغنى ، وموطن حضارة ولهو وجمال . فانصرف أهلها إلى متع الحياة يتذوّقونها ، فأسرفوا في طلب الملذّات ، انغمسوا في حمأة الدّعارة ، وتهتّك شاعرهم وكاتبهم ، فنطقت شفتاه

بأفحش الأقوال ، وتمادى في ذكر مجالس اللّهو والخمر والتعهّر ، غير متحوب ولا وجل . ولم يجد من الملوك والفقهاء وازعاً يزعه لأنّهم لم يروا في عبث النّاس ومجونهم ، ما يخشى منه على الدّين ما دامت له الحرمة في النفوس ، ولهم السلطان العزيز ، فارخوا عنان التساهل ، وأباحوا حرّية القول والعمل ، فساءت الأخلاق ، وأبرزت الخلاعة معصميها، فكان ضرر هذا التسامح أبلغ من ضرر التعصّب والاستبداد .

الشعراء الأندلسيون

ميزة الشعر

شعر الجهاد . شعر العصبية الحزبية . تقليد الأندلسيين للمشارقة. تجديدهم . رقة شعرهم . صوره . معانيه غير دقيقة .

هاجر الشعر إلى الأندلس مع العرب المهاجرين ، فكان الشعراء يحضون به الفرسان على الجهاد ، ويثيرون الحماسة في صدورهم عند مواقف الأهوال ، ويغذون به عصبيّة الأحزاب بين المضريّة واليمانية ، ويحرّضون النّاس على الفتنة والشغب . بيد أنّه ليس لدينا من هذا الشعر ما يسهل البحث فيه ، والكلام عليه ، إلا أنّنا نعلم أنّه لا يخرج بأسلوبه ولغته ومعانيه عن الشعر الأمويّ في المشرق ، ولا غرو فأصحابه إسلاميّون مشارقة .

وظلّ الأندلسيّون يولون وجوههم شطر المشرق في أكثر شؤونهم ، لأنّه مطلع أنوارهم ، ومهد حضارتهم ، ولأنّهم يرون في أهله المثل الأعلى الذي ينبغي أن يقتدى به . فراحوا يقتفون آثارهم ، وينسجون على منوالهم ، وأطلقوا على بعض مدنهم أسماء مدن كانوا يسكنونها في الشام فسمّوا غرناطة دمشق ، وإشبيلية حمص ، وشَريش فلسطين ، وجيان قِنّسرين .

ولم يلبث هذا التقليد أن صار منافسة ، فكاثروهم في إنشاء القصور والحدائق ، والمدارس والمكاتب ، والجوامع والمدائن ، وفي تقريب

الشعراء والعلمـــاء ، والقيـــان والمغنّين ، حتّى إنّهم كانوا يسعون في استقدامهم من الشرق ليباهوا بهم دولة بني العبّاس . وأطلقوا على نوابغ شعرائهم ألقاب شعراء الشرق وكناهم ، فكان غالب الأندلسيّ يكنى أبا تمّام ، وابن زيدون يلقّب بالبحتريّ ، وابن هاني بالمتنبي . ولمّا مات ابن هاني قال المعزّ الفاطمي : « كنّا نريد أن نفاخر به شعراء المشرق ، فلم يقدّر لنا ذلك » . وتلقّب خلفاؤهم ، وملوكهم بألقاب بني العبّاس فكان عندهم المنصور ، والمهديّ ، والمأمون ، والمعتصم ، والمعتضد وما أشبه ذلك .

وسرى حبّ الجديد في نفوس الأندلسيّين كما سرى في نفوس أهل الشرق ، لأنّ الجيل الذي نشأ في أوربة لم يكن عربيّاً خالصاً فيستمسك بالقديم استمساك العرب الصرحاء الذين اقتحموا الجزيرة في عهد الفتح ، وإنّما كان مزيجاً من عناصر مختلفة اختلطت بالتزاوج والسكنى ، فيها العربي والبربري ، وفيها القوطي والرّومي ، وفيها اليهودي واللاتيني . فكان له عقليّة غير عقليّة الجيـــل البدوي ، وتفكير غير تفكيره ، وحضارة غير حضارته . فسلك شعراء الأندلس مسلك شعراء بني العبّاس لتشابه الحياة بالترف والنعمة ، ولتشابه البلاد بالخصب والعمران . فوصفوا بيئتهم وأحوالهم ، وتهتّكوا وبالغوا في التهتّك ، وأباحوا لأنفسهم من المحرّمات ما أباح شعراء الشرق ، ورغبوا مثلهم في الأغراض الجديدة ، والمعاني الحضريّة عن الأغراض والمعاني القديمة ، وأبدلوا من الأسلوب البدوي أسلوباً حضريّاً صرفاً . ونفروا من الألفاظ الغريبة الوحشيّة إلى الألفاظ المأنوسة الرّقيقة ، ولولا الدّين واللّغة وبقيّة من دم العرب في عروقهم ، لأنكروا قديمهم أيّما إنكار .

والعرب أبعد النّاس عن نسيان قديمهم لتمكّن غريزة التقليد في نفوسهم ، ثمّ لما يتعلّق بهذا القديم من وشائج دينيّة وقوميّة . فقد كان الشعر الجاهلي والإسلامي ديوان المفاخر القبليّة ، والحجّة التي لا تقرع في تفسير معاني القرآن ومعرفة غريبه . والأندلسيّون فيهم عرق من العروبة ، ولهم لغة العرب ودينهم ، فلم يجدوا بدّاً من الحفاظ على القديم وإجلال مكانته ولا سيّما الطبقة الأرستقراطيّة من الملوك والأمراء والأشراف والفقهاء . فعزّ على شعرائهم أن يتحرّروا كلّ التحرّر بعد أن اتّفر لهم الجديد في حضارتهم ، فأصابهم ما أصاب شعراء بغداد في بني العبّاس . فكانوا يصطنعون الجديد في الغزل والمجون والخمر ووصف الطبيعة والعمران ، وغير ذلك ممّا لا يتناول الملوك والأمراء بمدح أو رثاء ، بل ربّما تركوا القديم في مدائحهم ومراثيهم ، فلم يحفلوا بأساليب الأعراب ، ومعانيهم وأوصافهم ، لتبسّطهم في الحضارة ، وبعد ما بينهم وبين البادية . ولما كان لبيئتهم من الأثر البليغ في استدرار قرائحهم ؛ فمن شعوب غريبة اتّخذوا عاداتها وأزياءها ، إلى عمارة زاهرة ملهمة ، إلى طبيعة ساحرة شاعرة .

والشعر الأندلسي فيه رقّة وجمال ، وفيه خيال لطيف وصور برّاقة ملوّنة ، ولكن ليس فيه من المعاني الدّقيقة ما في الشعر العبّاسي ، لأن أصحابه عنوا بتزيين ألفاظه ، وتوشية أوصافه ، والتنوّق في قوالبه ، أكثر من عنايتهم بتصيّد معانيه ، والغوص عليها في قرارتها البعيدة ؛ فكأنّهم أرادوا أن يتغنّوا ، فنظموه صالحاً للغناء . وشيء آخر جعل الشعر الأندلسي دون الشعر العبّاسي في دقّة المعنى وهو أن الأندلسيّين لم تتّسع صدورهم لاقتبال الفلسفة والمنطق كما اتّسعت صدور المشارقة ،

فلم يتثقّف بهما شعراؤهم تثقّف شعراء بني العبّاس . وغير خفيّ ما للفلسفة والمنطق من أثر في توليد المعاني ، وتوسيع الخيال ، وحسن توجيهه وترتيبه .

وليست لغة الأندلسيّين محكمة البناء كلغة المشارقة ، وذلك لبعد صقعهم عن البادية ، ووجودهم في بيئة خالصة العجمة من الشمال إلى الجنوب . ثمّ إنّ الجيل الذي نشأ هناك لم يكن عربيّاً صافياً وقد كان فيه جماعة استعربوا ونظموا الشعر وهم فرنجة خُلّص .

ولم يترك أهل الأندلس باباً من أبواب الشعر المعروفة إلا قرعوه ونوّعوا أغراضه وفنونه ، فمنه ما ترسّموا به أهل المشرق ، فواطأوهم في معانيهم ، وشاركوهم في أساليبهم ، وعارضوهم في مشهورات قصائدهم ، ولكنّهم لم يبلغوا شأوهم ولا شقّوا غبارهم . ومنه ما طبعوه بطابعهم الخاص ، وبذوا به المشارقة ، كوصف الطبيعة والعمران ، ورثاء الممالك البائدة ، ممّا سنبسطه في كلامنا على فنون الشعر الأندلسي وأنواعه .

المدح

اتباعهم خطة المشارقة . التصدير بالغزل ووصف الطبيعة . طريقة الأسلوب القديم. غريبهم.المغالاة. التملق. شعراء المدح.

اتّبع شعراء الأندلس في مدائحهم الخطّة التي جرى عليها المشارقة ، فحافظوا مثلهم على الأسلوب القديم ، وعنوا بالاستهلال وحسن التخلّص ، وإحكام البناء وشد أسره ، والتزموا الغزل في محاريب مدائحهم ، وربّما

جعلوا صدورها وصفاً للخمرة، أو للطبيعة، أو للبلد الذي نشأ فيه الشاعر .

وإذا شذّ بعضهم عن هذا السبيل ، فاستهلّ بالمدح من غير توطئة ، عابوا عليه ذلك ، وعنفوه . فقد مدح هلال البياني شاعر غرناطة ابن حَمْدين قاضي قرطبة بقصيدة أوّلها :

عَرِّجْ عَلى ذَاكَ الجَنَابِ العَالي ، وَاحْكُمْ عَلى الأمْوَالِ بالآمَالِ [1]

فِيهِ ابنُ حَمْدِينَ الّذي لِنَوَالِهِ ، مِنْ كُلِّ أرْضٍ شُدّ كلّ رِحَالِ [2]

فقال له القاضي : « ما هذا الوثوب على المدح من أوّل وهلة ! ألا تدري أنّهم عابوا ذلك كما عابوا الطّول أيضاً ، وان الأولى التوسّط؟ »

ووصفوا الفلاة والنّاقة والجواد جرياً مع الأسلوب القديم ، وحنّوا إلى بادية الأعراب وداراتها ، ولكنّهم لم يستفيضوا في وصفهم هذا بل اقتصدوا كلّ الاقتصاد .

ولم يفرطوا في استعمال الغريب إفراط المشارقة ، ولا أغرقوا في المغالاة إغراقهم إلا ما كان من ابن هاني فإنّه تعمد الغريب تعمّداً ، وخرج في غلوه إلى الإحالة ، محتذياً على مثال أبي الطيّب المتنبي .

وربّما خلطوا ألفاظ النّسيب بألفاظ المدح ، فعل القزّاز عندما امتدح المعتصم بن صُمادِح [3] بقوله :

١ الجناب : فناء الدار ، وما قرب من محلة القوم . قوله بالآمال : أي بآمالك .

٢ نواله : عطائه .

٣ المعتصم بن صمادح : أحد ملوك الطوائف . كانت مملكته صغيرة تشتمل على المرية وبجاية والصمادحية ، ولكنه كان كريماً مقرباً للشعراء ، فقصدوه ومدحوه . توفي سنة ٤٨٤ هـ . (١٠٩١ م) .

نَفَى الحُبُّ عَنْ مُقْلَتَيَّ الكَرَى ، كما قَدْ نَفَى عَنْ يَدَيَّ العَدَمْ[1]
فَقَدْ قَرَّ حُبُّكَ في خَاطِرِي ، كمَا قَرَّ في رَاحَتَيْكَ الكَرَمْ

ويختمون قصائدهم على الغالب بإهدائها إلى الممدوح ، مشبّهينها ببكر حسناء ، أو روضة غنّاء . قال ابن عمّار في كلمة مدح بها المعتضد ابن عبّاد :

وَإِلَيكَهَا كالرَّوْضِ زَارَتْهُ الصَّبَا ، وَحَنَى عَلَيْهِ الطَّلُّ حتى نَوَّرَا[2]

ولم يخل مدحهم من تملّق وخنوع ، واستعطاف .

واشتهر في المدح من شعراء بني أميّة ابن عبد ربّه[3] وأحمد بن شُهَيْد[4] وابن هاني . ومن شعراء الدّولة العامريّة في قرطبة ابن درّاج القَسْطَلي[5] وأبو عامر بن شُهَيْد[6] . ومن شعراء ملوك الطوائف ابن

١ الحب : أي حب المعتصم . العدم : الفقر .
٢ الطل : المطر الضعيف ، والندى . نور : أخرج نوره ، والنور : الزهر .
٣ أحمد بن عبد ربه القرطبي ولد سنة ٢٤٦ ھ . وتوفي سنة ٣٢٨ ھ . (٨٦٠ – ٩٣٩ م) وجده من موالي هشام بن عبد الرحمن الداخل . أشهر آثاره العقد الفريد ، وله ديوان شعر جيد .
٤ أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي القرطبي ، وزير الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر وأول من تسمى بذي الوزارتين في الأندلس .
٥ هو أبو عمر أحمد بن دراج الأندلسي القسطلي . كان كاتب المنصور بن أبي عامر وشاعره ، وهو معدود من الفحول . ولد سنة ٣٤٧ ھ . وتوفي سنة ٤٢١ ھ . (٩٥٨ – ١٠٣٠ م) .
٦ هو ابو عامر بن أبي مروان بن شهيد حفيد أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر . ولد سنة ٣٨٢ ھ . وتوفي بقرطبة سنة ٤٢٦ ھ . (٩٩٢ – ١٠٣٤ م) . اتصل بالمؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر وكتب له . وكان بارعاً في الشعر والنثر متفنناً في التصانيف وأشهرها التوابع والزوابع .

١ هو ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار ، استوزره المعتمد بن عباد ، وكان المعتمد والياً على شلب من قبل أبيه . وساءت سمعة ابن عمار والمعتمد فنفى المعتضد ابن عمار في أقاصي بلاد الأندلس. ولما توفي المعتضد وصار الملك الى المعتمد،دعا إليه ابن عمار ، وولاه شلب ثم استوزره،وقاد جيوشه.ثم خطر له أن يملك بلنسية بعد أن فتحها،ويخلع طاعة المعتمد. فقبض عليه المعتمد وسجنه ، فأخذ يستعطفه بقصائد شهيرة ، فلان المعتمد وعفا عنه ثم رجع عن عفوه وقتله بيده سنة ٤٧٧ هـ.(١٠٨٤ م) وكانت ولادته سنة ٤٢٢ هـ.(١٠٣٠ م)

٢ هو أبو بكر بن اللبانة من دانية في الأندلس ، اتصل بالمعتمد بن عباد ، وكان المعتمد يميزه ويستعذب شعره . ولما نكب المعتمد ، وحبس في المغرب وفى له ابن اللبانة ، ورحل إليه يؤنسه بشعره ويؤاسيه ، ويشكر له ما ناله من صلاته في دولته . واتصل بغير المعتمد من ملوك الطوائف .

٣ هو أبو محمد عبد الجبار بن حمديس الأزدي . ولد في جزيرة صقلية في بحر المغرب بالقرب من إفريقية سنة ٤٤٧ هـ . (١٠٥٥ م) وجاء الأندلس سنة ٤٧١ هـ . (١٠٧٨ م) واتصل بالمعتمد بن عباد في إشبيلية ، ونال منه سني الجوائز . وتوفي سنة ٥٢٧ بجزيرة ميورقة (١١٣٢ م) .

٤ هو أبو عبد الله محمد بن الحداد من شعراء المعتصم بن صمادح وابنه ممن ولم يكن مبتذلا في مدحه ولا متغالياً . توفي سنة ٤٨٠ هـ . (١٠٨٧ م) .

٥ هو أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الفهري وزير بني الأفطس في بطليوس وشاعرهم. توفي سنة ٥٢٠ هـ . (١١٢٦ م) .

٦ هو ذو الوزارتين لسان الدين محمد بن عبد الله المعروف بابن الخطيب . شاعر محمد بن أبي الحجاج أحد ملوك بني الأحمر ، ووزيره . وشى به حساده ومنهم تلميذه ابن زمرك . فنكبه السلطان فهرب إلى المغرب ، ثم سجن بفاس وخنق في سجنه سنة ٧٧٦ هـ . (١٣٧٤م) وكانت ولادته بغرناطة سنة ٧١٣ هـ . (١٣١٣ م) .

٧ هو أبوعبد الله محمد بن يوسف الصريحي المعروف بابن زمرك ولد في غرناطة سنة ٧٣٣ هـ.←

ونورد هنا مثالين على المدح ، تبدو فيهما ميزة هذا الفنّ عندهم ، وهي لا تكاد تختلف عن ميزة المدح عند المشارقة . قال ابن درّاج يمدح الحاجب المنصور بن أبي عامر ، معارضاً رائية أبي نواس في الخصيب[1] :

أَلَمْ تَعْلَمي أَنَّ الثَّوَاءَ هُوَ التَّوَى، وَأَنَّ بُيُوتَ العَاجِزِينَ قُبُورُ !؟[2]
تُخَوِّفُنِي طُولَ السِّفَارِ وَإِنَّــهُ لِتَقْبِيلِ كَفِّ العَامِرِيِّ سَفِيرُ

ومنها يصف وداعه لزوجه ، ويصوّر طفله في المهد أبرع تصوير ، ثمّ يعطف إلى وصف سفره في القفر والحرّ :

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلوَدَاعِ وَقَدْ هَفَا بِصَبْرِيَ مِنْهَـا أَنَّةٌ وَزَفِيرُ[3]
تُنَاشِدُنِي عَهْدَ المَوَدَّةِ وَالهَوَى، وَفِي المَهْدِ مَبْغُومُ النِّدَاءِ صَغِيرُ[4]
عَيِيٌّ بِمَرْجُوعِ الخِطَابِ، وَلَحْظُهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ خَبِيرُ[5]

(١٣٣٢ م) . واتصل بالوزير لسان الدين بن الخطيب . وأفاد منه أدباً وعلماً وشهرة . وعهد اليه محمد بن أبي الحجاج في كتابة سره، وهو الذي وشى بابن الخطيب ولي نعمته . ثم نقم عليه السلطان فقتله شر قتلة سنة ٧٩٦ هـ . (١٣٩٣ م) .

١ هي القصيدة التي يقول أبو نواس فيها :

ذريني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير
إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا فأي فتى بعد الخصيب تزور؟

٢ التوى : هلاك المال والعدم .

٣ هفا بصبري : ذهب به .

٤ مبغوم : لا يفصح في حديثه عن معنى .

٥ بمرجوع الخطاب : أي بجوابه .

تَبَوَّأَ مَمْنُوعَ القُلُوبِ، وَمُهِّدَتْ ... لَهُ أَذْرُعٌ مَحْفُوفَةٌ، وَنُحُورُ[1]

فَكُلُّ مُفَدَّاةِ التَّرَائِبِ مُرْضِعٌ، ... وَكُلُّ مُحَيَّاةِ المَحَاسِنِ ظِيرُ[2]

عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فيهِ، وَقَادَني ... رَوَاحٌ لِتَدْآبِ السُّرَى، وَبُكُورُ

وَطَارَ جَنَاحُ البَيْنِ بي، وَهَفَتْ بِهَا ... جَوَانِحُ مِن ذُعْرِ الفِرَاقِ تَطِيرُ[3]

لَئِنْ وَدَّعَتْ مِنِّي غَيُوراً فَإِنَّنِي، ... على عَزْمَتِي من شَجْوِها، لَغَيُورُ[4]

وَلَوْ شاهَدَتْني، وَالهَوَاجِرُ تَلْتَظِي ... عَلَيَّ، وَرَقْرَاقُ السَّرَابِ يَمُورُ[5]

أُسَلِّطُ حَرَّ الهَاجِرَاتِ إِذَا سَطَا ... على حُرِّ وَجْهِي، والأَصِيلُ هَجِيرُ[6]

وَأَسْتَنْشِقُ النَّكْبَاءَ، وَهْيَ لَوَافِحٌ، ... وَأَسْتَوْطِئُ الرَّمْضَاءَ، وَهْيَ تَفُورُ[7]

١ ممنوع القلوب : أي القلب الحصين العزيز الجانب . أذرع محفوفة : قد تكون من باب المجاز العقلي أسند فيه إلى الفاعل ما بني للمفعول ، والمراد أذرع حافة ، كما تقول حجاب مستور أي ساتر . أو قد تكون بمعنى مقشورة ، لا شعر فيها ، من حفت المرأة وجهها من الشعر قشرته. والمراد أذرع ناعمة نقية اللون. أو أنها محقوفة بالقاف المثناة: أي أذرع مثنية محنية لحمل الرضيع . ولكن حقف لم يرد متعدياً في كتب اللغة .

٢ ظير : مخفف ظئر : العاطفة على ولد غيرها المرضعة له .

٣ هفت : خفقت . الجوانح : ضلوع الصدر تحت الترائب واحدتها جانحة .

٤ يقول : إن حزنها عليه وهو راحل يحقر مضاء عزمه . فهو يغار على عزمته فما يريد أن تحقر بحزنها . كما أنه يغار عليها هي : فلا يريد أن تكون لغيره .

٥ الرقراق : كل شيء له بصيص وتلألؤ. يمور : يتحرك متردداً. والسراب يظهر إذا اشتد الحر.

٦ يقول : إنه يستقبل حر الهواجر بوجهه الحر : أي وجهه الكريم الخالص ، وقد سطا الحر وبلغ من شدته أن صار الأصيل هجيراً .

٧ النكباء : ريح بين ريحين . لوافح : محرقة في هبوبها . وقوله لوافح بالجمع لأن النكباء تشتمل على ثلاث رياح . استوطىء الرمضاء : أجدها وطيئة أي سهلة لينة . الرمضاء : الأرض الحارة الحامية من شدة الحر . تفور : تغلي .

وَللمَوْتِ في عَينِ الجَبان تَلوّنٌ ، وَللذُّعْرِ في سَمع الجريءِ صَفيرُ[1]
لَبَانَ لهَا أني مِنَ البَيْنِ جَازِعٌ ، وَأني على مَضِّ الخُطوبِ صَبُورُ[2]

ومنها في المدح :

وَلمّا تَرَامَوْا للسّلامِ وَرُفّعَتْ ، عن الشمسِ في أُفقِ الشرُوقِ ، ستورُ[3]
وقَدْ قَامَ من زُرْقِ الأسِنّةِ دُونَه صُفوفٌ ، ومن بيض السيوفِ سطورُ[4]
رَأَوْا طاعةَ الرّحمَنِ كيفَ اعتِزَازُها وَآيَاتِ صُنْعِ اللهِ كَيْفَ تُنيرُ[5]
وكيفَ استوَى بالبَدرِ وَالبَحرِ مجلسٌ ، وَقَامَ بِعِبْءِ الرّاسياتِ سَريرُ[6]
يَقولونَ وَالأوْجالُ تُخرِسُ ألسُناً ، وَحارَتْ عيونٌ منهمُ وَصُدورُ :[7]
لقد حاطَ أعلامَ الهُدى بكَ حائطٌ ، وَقدّرَ فيكَ المَكرُماتِ قَديرُ[8]

١ يقول : إن الجبان في مثل هذه الحال من الشدة يتصور له الموت ألواناً شتى ، حتى إن الشجاع على جراءته لا يسلم من الخوف . يريد إظهار شجاعته وصبره في الأهوال .
٢ يقول : لعرفت أني صبور على ألم الخطوب ، وان كنت فاقد الصبر عند فراقها .
٣ يريد أن ممدوحه ظهر للناس الذين أقبلوا للتسليم عليه كالشمس ، وشبه مجلسه بأفق الشروق .
٤ يقول : إن الحراس حوله بالرماح والسيوف ؛ يريد إظهار هيبة مجلسه .
٥ يقول : رأى الناس كيف اعتزاز من يطيع الله ، وكيف تضيء علامات صنائع الله في عبيده الطائعين ، ويريد بهذه العلامات نعم الله على ممدوحه .
٦ يقول : ورأوا كيف استقر المجلس بالبدر والبحر معاً ، وهما مستعاران للممدوح بجامع الشهرة والجود . وكيف حمل العرش جبالا راسيات ، وهي مستعارة بجامع الرزانة والثبات .
٧ الأوجال : جمع الوجل وهو الخوف .
٨ أعلام : جمع علم وهو شيء في الطريق يهتدى به . وقوله : حائط يريد به الله تعالى. وقدر فيك المكرمات : اي وحكم لك بها .

وقال ابن عمّار يمدح المعتضد بن عبّاد :

أدِرِ الزُّجاجةَ فالنّسيمُ قدِ انبرَى، وَالنجمُ قد صرفَ العِنانَ عنِ السُّرى[1]
وَالصّبحُ قد أهْدَى لنَا كافُورَهُ، لمّا استَرَدّ اللّيْلُ مِنّا العَنْبَرَا[2]
وَالرّوْضُ كالحَسْنَا كَسَاهُ زَهرُهُ وَشْياً، وَقلّدَهُ نَدَاهُ جَوْهَرَا[3]
رَوْضٌ كَأنّ النّهرَ فيهِ مِعْصَمٌ صَافٍ أطَلّ عَلى رِداءٍ أخضَرَا[4]
وَتَهزّهُ رِيحُ الصَّبَا فَتَخالُهُ سَيفَ ابنِ عبّادٍ يُبدِّدُ عَسكَرَا[5]
مَلِكٌ إذا ازْدحمَ المُلُوكُ بمَوْرِدٍ وَنحاهُ، لا يَرِدونَ حتى يَصْدُرَا[6]
أنْدى على الأكبادِ من قَطرِ النّدى، وَألَذُّ في الأجفانِ من سِنةِ الكرَى[7]
يَختارُ، إذْ يهبُ الخَرِيدةَ، كاعِباً، وَالطِّرْفَ، أجرَدَ، وَالحسامَ، مجَوْهرَا[8]

١ انبرى : اعترض ، والمراد هب . السرى : السير ليلا ، والمراد أنه طلع الصباح ، وغاب النجم بعد أن كان مطلقاً عنانه للسير في الظلام .

٢ الكافور : شيء يشبه الصمغ أبيض صلب يستخرج من أشجار في الهند والصين . وقد تعود الشعراء أن يستعيروا لونه لنور الصباح ، كما اعتادوا أن يستعيروا العنبر لظلام الليل .

٣ شبه قطرات الندى عند الصباح باللآلىء .

٤ شبه النهر الممتد في الروض بمعصم اليد . وشبه الروض حوله برداء أخضر .

٥ يقول : تهز الريح هذا النهر فتتموج مياهه طرداً وعكساً فكأن النهر سيف الممدوح ، وكأن هذه الأمواج في اضطرابها وتلاشيها عسكر يبدده الممدوح بسيفه .

٦ نحاه : قصده . يصدر : يرجع عن الماء ضد يرد . يبين شرف ممدوحه فيقول : إذا ازدحم الملوك بمورد ، وقصد ابن عباد هذا المورد ، توقف الملوك هيبة له فلا يشربون إلا بعد رجوعه عن الماء ؛ وهذا معنى بدوي قديم .

٧ أندى : أكثر خيراً ولطافة وبرودة . السنة : ابتداء النعاس في الرأس . يقول : هذا الملك أطيب للأكباد الحارة من قطر الندى ، وألذ في العيون من النعاس .

٨ الخريدة : البكر . كاعباً : ناهداً ، وهي مفعول يختار . الطرف : الكريم العتيق من الخيل.

قَدّاحُ زَنْدِ المَجْدِ لا يَنْفكُّ عن نَارِ الوَغى، إلاّ إلى نَارِ القِرَى[1]

لا خَلْقَ أفرَى من شِفارِ حُسامِه، إنْ كنتَ شبّهتَ المَوَاكبَ أسطُرَا[2]

أيْقَنْتُ أني مِنْ ذرَاهُ بِجَنّةٍ، لمّا سَقَاني مِنْ نَدَاهُ الكَوْثَرَا[3]

وعلمتُ حقّاً أنّ رَبعي مُخصِبٌ، لمّا سَألْتُ بِهِ الغَمَامَ المُمطِرَا[4]

مَن لا تُوَازِنُهُ الجِبالُ إذا احتَبى، مَن لا تُسابقُهُ الرّياحُ إذا جرَى[5]

ماضٍ، وَصَدرُ الرّمحِ يكهَمُ، وَالظبي تَنبو، وَأيدي الخَيلِ تَعثرُ في البَرَى[6]

مَلِكٌ يرُوقُكَ خَلْقُهُ أوْ خُلقهُ، كالرّوْضِ يَحسنُ مَنظراً أوْ مخبرَا

هصرَتْ يَدي غصنَ النّدى من كفّه، وَجَنَتْ به رَوْضَ السرُورِ مُنوَّرَا[7]

١ القرى : الضيافة .

٢ أفرى : أقطع . وقوله: إن كنت شبهت المواكب أسطرا، أي إن كانت الجيوش تشبه السطور في اصطفافها . فإنه إذا ضربها بسيفه يقطعها سطراً سطراً . وفي ذلك غلو قبيح .

٣ ذراه : كنفه . الكوثر : نهر في الجنة عند المسلمين . روي : « انه أحلى من العسل ، وأبيض من اللبن ، وأبرد من الثلج ، وألين من الزبد ، حافتاه من الزبرجد ، وأوانيه من فضة ، لا يظمأ من شرب منه » . وكنى بالكوثر هنا عن الشراب اللذيذ الذي يسقيه إياه ممدوحه ، أو عن العطايا السنية ، حتى ظن نفسه في الجنة .

٤ جرد من ممدوحه غماماً ممطراً يخصب ربعه .

٥ احتبى : جلس عاقداً حبوته . والاحتباء أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه إذا جلس ليصير كالمستند . ويكون الاحتباء باليدين أو بعمامة أو بثوب أو بسيف ونحوه . يقول : إن ممدوحه إذا جلس للشورى والحديث ، كان عقله أرزن من الجبال . وإذا جرى للحروب والغارات كان أسرع من الرياح .

٦ ماض ، أي ماض في الحروب . يكهم ، يكل . البرى : التراب .

٧ منوراً : مزهراً .

شَقِيَتْ بسَيفِكَ أمّةٌ لمْ تعتَقِدْ إلا اليَهودَ، وَإنْ تَسَمّتْ بَرْبَرَا[1]
أثمرْتَ رُمحَكَ مِن رُؤوسِ كُماتِهِمْ، لمّا رَأيتَ الغُصْنَ يُعشَقُ مُثمِرَا
وَصَبغتَ دِرْعكَ من دِماء ملوكهِم، لمّا علِمتَ الحُسنَ يَلبَسُ أحْمَرَا
نَمّقتَها وَشْياً بِذِكْرِكَ مُذْهَباً، وَفتَقتُها مِسكاً بحَمْدِكَ أذْفَرَا[2]
وَإلَيكَها كالرّوْضِ زَارَتْهُ الصَّبَا، وَحنَا علَيهِ الطّلُّ حتّى نَوّرَا[3]

الرثاء

طريقة المشارقة . حكمهم في الاستهلال . تفوقهم برثاء الممالك الزائلة . شعراء الرثاء .

لا يختلف الأندلسيّون عن المشارقة في رثاء الميت ، والتفجّع عليه ، والمغالاة في وصفه ، ووصف الرزء به . فالأسلوب والتفكير واحد ، والمعاني والتعابير متواطئة . وربّما عرض شعراء الأندلس إلى الأحداث التي نزلت بالأمم الخالية فأبادتها ، أو قوّضت عروش ملوكها ، وصرعت قرومها وأبطالها . وهم إنّما يقصدون التأسية ، بتعداد فواجع الدّهر ، ومصارع الرّجال ، وهذا قديم في الأدب العربي .

١ يطعن على البربر ، لأنهم خرجوا على الممدوح ، ويرميهم باليهودية .
٢ نمقتها : أي القصيدة . فتقتها : خلطتها . أذفر : شديد الرائحة .
٣ الطل : الندى ، أو المطر الضعيف . نور : أزهر .

ويستهلّون مراثيهم بالحِكم كالمشارقة ؛ وحِكمهم في الغالب ساذجة مبتذلة ، تعود في أكثرها على شكوى الدّهر ، وعدم الرّكون إلى الأيّام . بيد أنّهم فاقوا المشارقة برثاء الممالك البائدة لما في نفوسهم من محبّة صادقة لوطنهم ، وشغف عظيم بجمال طبيعته وعمرانه . فكان يشجوهم أن يروا ديارهم تسقط بلداً إثر بلد في أيدي الغرباء من غزاة ومكتسحين ؛ فيبكون عليها ويتفجّعون كما بكى ابن اللبّانة على دولة العباديين ، وابن عبدون على دولة بني الأفطس ، عندما أزالهما يوسف بن تاشفين ؛ وكما بكى أبو البقاء الرّندي على مدن الأندلس بعد أن استردّها النصارى وازعجوا عنها المسلمين .

وفي هذه القصائد الثلاث لوعة صادقة ، وتفجّع أليم ، ولا سيما نونية الرّندي . فإنّ العاطفة الدينيّة زادتها روعة والتياعاً . وفي هذه القصائد الثلاث تكاد تجتمع خصائص الرّثاء في الشعر الأندلسي . فمن حِكم ساذجة وضرب أمثال إلى ذكر الشعوب السالفة التي أهانها الدّهر ، إلى إمعان في تعظيم الخطب حتّى الاغراق . وإليك منتخبات منها تطلعك على ميزة الرّثاء عندهم ، ولا سيما رثاء الممالك .

قال ابن اللبّانة يرثي دولة بني عبّاد ، ويذكر خروج المعتمد من إشبيلية ، وحمله إلى المغرب أسيراً ، والنّاس قد حشروا بضفّتي الوادي ، يبكون على الملك المنكوب :

تَبكي السّمَاءُ بمُزْنٍ رَائحٍ غَادِ ، على البَهَاليلِ مِنْ أبنَاءِ عَبّادِ [1]
على الجِبَالِ التي هُدّتْ قوَاعدها ، وكانَتِ الأرْضُ منهمْ ذاتَ أوْتاد [2]

[1] المزن : السحاب ذو المطر . البهاليل : السادات الجامعين لكل خير ، مفردها بهلول .
[2] أوتاد الأرض : جبالها ، ومن البلاد رؤساؤها .

يا ضَيفُ، أقفرَ بَيتُ المكرُماتِ فخذ ... في ضَمِّ رَحلكَ، وَاجمعْ فَضْلة الزّادِ
وَيا مؤمِّلَ وَادِيهِمْ ليَسْكُنَهُ، ... خفَّ القطينُ، وَجفّ الزّرْعُ بالوادي
وَأنتَ يا فارِسَ الخيلِ التي جعَلَتْ ... تَختالُ في عُدَدٍ منها وَأعْدَادِ [1]
ألقِ السّلاحَ، وَخلِّ المَشرَفيّ فَقَدْ ... أصْبَحتَ في لَهَوَاتِ الضّيغمِ العادي [2]
إنْ يُخلَعوا فبَنو العبّاسِ قد خُلِعوا، ... وَقد خلتْ قبل حمص أرْضُ بغدادِ [3]
حَمَوْا حريمَهُمُ حتى إذا غُلِبُوا، ... سيقوا على نَسَقٍ في حَبلِ مُقتادِ [4]
نَسيتُ إلا غَداةَ النّهرِ كوْنَهُمُ ... في المُنْشَآتِ كأمْوَاتٍ بألحَادِ [5]
وَالنّاسُ قد ملأوا العِبرَينِ، وَاعتبرُوا ... من لُؤلُؤٍ طافياتٍ فَوْقَ أزْبَادِ [6]
حُطّ القِناعُ، فلم تُستَرْ مُخدَّرَةٌ، ... وَمُزِّقَتْ أوْجُهٌ تَمزيقَ أبْرَادِ [7]
حانَ الوَداعُ، فضَجّتْ كلُّ صَارِخةٍ ... وَصَارِخٍ مِن مُفَدّاةٍ، وَمِن فَادِ

١ يقول : تختال فيما هي عليه من سلاح وعدد كثير .
٢ اللهوات : جمع لهاة : اللحمة المشرفة من أعلى الفم . وأريد بها هنا الفم على الإطلاق ؛ وجمعت لأن الضيغم هنا بمعنى العدو المغير ، يعبر به عن الواحد والجمع .
٣ حمص : هي إشبيلية .
٤ المعنى : أنهم أسروا وسيقوا منظوماً بعضهم إلى بعض بالحبال .
٥ المنشآت : السفن . يقول : ما خطر ببالي أنهم يكونون في السفن كالأموات في القبور إلا يوم النهر ، وهو اليوم الذي غلبوا فيه وحملوا إلى سفائن النهر الكبير لتقلهم أسرى .
٦ العبرين : ضفتي النهر . اعتبروا : تعجبوا . اللؤلؤ : أراد به نساء المعتمد شبههن باللؤلؤ لجمالهن ورونقهن وبياضهن . ازباد : جمع زبد : رغوة البحر ، ويراد بها هنا البحر على الإطلاق .
٧ أبراد : جمع برد وهو الثوب . يقول : إن نساء المعتمد لشدة حزنها وفجيعتها ، كانت سافرة غير بقنعة تمزق وجوهها بأظافرها كما تمزق الأثواب .

سارَتْ سفائِنُهم، وَالنَّوحُ يصْحَبها كأنّها إبِلٌ يَحْدُو بهَا الحَادِي
كم سالَ في الماء من دمع، وكم حملتْ تلك القطائعُ من قَطْعاتِ أكْبَادِ [1]

وقال ابن عبدون يرثي دولة بني الأفطس :

ألدَّهرُ يَفجعُ بَعدَ العَينِ بالأثَرِ، فما البكاءُ على الأشباحِ وَالصُّوَرِ ؟ [2]
فلا يَغرَّنْكَ من دُنياكَ نَوْمَتُهَا، فما صِناعَةُ عَينَيها سِوى السَّهَرِ
مَا لِلّيَالي، أقَالَ اللهُ عَثْرَتَنَا، منَ اللّيالي، وَخَانَتهَا يَدُ الغِيَرِ [3]
كمْ دَوْلَةٍ وَلِيتْ بالنّصرِ خدمتَها، لم تُبقِ منها، وَسلْ ذكرَاكَ عن خبرِ [4]
هوَتْ بِدارًا، وَفلّتْ غربَ قاتلِهِ، وكانَ عَضْباً على الأملاكِ ذا أثَرِ [5]

١ القطائع : جمع القطيعة وهي الهجران ، وأراد بها هنا السفن التي تقطع بين الأهل والخلان .

٢ العين : ذات الشيء ونفسه ، ومن أمثالهم لا تطلب أثراً بعد عين يضرب لمن ترك شيئاً يراه ثم تبع أثره بعد فوت عينه . وقوله : فما البكاء أي فما يجدي البكاء .

٣ الغير : أحداث الدهر .

٤ الضمير في وليت يعود على الليالي ، وفي خدمتها يعود على الدولة . يقول : كم خدمت الليالي دولة فنصرتها ثم قلبت لها ظهر المجن فأزالتها .

٥ دارا : اسم لعدة ملوك من الفرس . ولعله يريد دارا الثالث الذي مات مقتولا سنة ٣٣٠ ق. م . غدر به بسوس أمير بختريان وهي ولاية من مملكته . وكان قد لجأ إليها في فراره من اسكندر ذي القرنين بعد انكساره في واقعة إربل . أما الرواية العربية فتعزو قتله إلى الاسكندر . ذكر ذلك المسعودي في مروج الذهب . فالشاعر هنا يريد بقاتله اسكندر المقدوني لا بسوس . الغرب : الحد . عضباً : سيفاً قاطعاً . الأملاك : جمع ملك . الاثر : هنا الخبر . ولعله أراد الأثْر وحركه للشعر . والأثر : جوهر السيف ورونقه . شبه الاسكندر بسيف قاطع ذي رونق يهوي على رؤوس الملوك ، أو له خبر عظيم مع الملوك .

وَاستَرْجعتْ من بني ساسان ما وَهبَتْ   وَلَمْ تَدَعْ لِبَني يُونَانَ مِنْ أثَرِ[1]

ومنها يتلهّف على أبناء المظفر ، وهم ملوك بني الأفطس :

بَني المُظَفَّرِ ، وَالأيّامُ مَا بَرِحَتْ   مَرَاحِلاً ، وَالوَرَى مِنها على سَفَرِ

سُحْقاً لِيَوْمِكُمُ يَوْماً ، وَلاحمَلَتْ   بِمِثْلِهِ لَيْلَةٌ في غَابِرِ العُمُرِ ![2]

مَنْ للأسِرّةِ ، أوْ مَنْ للأعِنّةِ ، أوْ   مَنْ للأسِنّةِ يُهديها إلى الثّغَرِ .[3]

مَنْ لليَرَاعَةِ ، أوْ مَنْ للبَرَاعَةِ ، أوْ   مَنْ للسّماحَةِ ، أوْ للنّفعِ وَالضرَرِ ؟[4]

أوْ دَفعِ كارِثَةٍ ، أوْ رَدعِ آزِفَةٍ ،   أوْ قَمعِ حادِثَةٍ تُعيي على القَدَرِ[5]

وَيحَ السّماحِ ،وَوَيحَ البأسِ لوْ سلِما ،   وَا حسرَةَ الدينِ وَالدنيا على عُمَرِ ![6]

سقتْ ثرَى الفضْلِ وَالعبّاسِ هامِيَةٌ   تُعزَى إليهمْ سَماحاً ، لا إلى المطَرِ[7]

١ ساسان : قيل إنه ملك من ملوك العجم حاربه دارا ملك الفرس ، ونهب كل ما كان له واستولى على ملكه فصار رجلا من العامة فقيراً يتردد في الأحياء ويستعطي فضرب به المثل . ونسب إليه كل من تكدى وباشر أمراً حقيراً . فيقال فلان من بني ساسان وإن لم يكن من أولاده .

٢ سحقاً : بعداً . ليومكم : أي اليوم الذي زلتم فيه ، وانقرض ملككم . الغابر : الباقي.

٣ الأسرة : جمع سرير والمراد سرير الملك . الثغر وحرك للشعر : كل فرجة على حدود البلاد يخشى منها هجوم .

٤ اليراعة : القلم .

٥ آزفة : مصيبة دانية الساعة . تعيي على القدر : تعجزه .

٦ عمر : هو ابن المظفر محمد بن عبد الله آخر ملوك بني الأفطس ، قتله يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٧ ﻫ . (١٠٩٤ م) .

٧ الفضل والعباس : من أمراء بني الأفطس . هامية : أي سحابة هامية . تعزى : تنسب . يقول : إن هذه السحابة تنسب إليهم من أجل سماحها وجودها لأنهم أهل السماح والجود ؛ والضمير في إليهم يعود على الأمراء الثلاثة عمر والفضل والعباس .

وقال أبو البقاء الرندي يرثي الأندلس :

لِكُلِّ شَيْءٍ إذا مَا تَمَّ نُقْصَانُ، فَلا يُغَرَّ بِطِيبِ العَيْشِ إنْسَانُ
هيَ الأمورُ، كما شاهدتَها، دُوَلٌ، مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ، سَاءَتْهُ أزْمَانُ
وَهذهِ الدّارُ لا تُبْقي عَلى أحَدٍ، وَلا يَدُومُ عَلى حَالٍ لهَا شَانُ
أين الملوكُ ذوُو التِّيجانِ من يمَنٍ، وَأينَ مِنهُمْ أكَالِيلٌ وَتِيجَانُ؟
أتى على الكُلِّ أمرٌ لا مَرَدَّ لَهُ، حتى قَضَوْا، فكأنَّ القَوْمَ ما كانوا
وَصَارَ ما كانَ من مُلكٍ وَمن مَلكٍ كما حكى عن خيالِ الطَّيفِ وَسنانُ[1]
دَارَ الزّمَانُ عَلَى دَارَا وَقَاتِلِهِ، وَأمَّ كِسرَى، فَمَا آوَاهُ إيوَانُ[2]

ومنهـــا :

دَهى الجزِيرَةَ أمْرٌ لا عَزَاءَ لَهُ، هَوَى لَهُ أُحُدٌ، وَانْهَدَّ ثَهلانُ[3]
فاسألْ بَلَنْسِيَةً ما شأنُ مُرْسيَةٍ، وَأينَ شَاطِبَةٌ أمْ أينَ جَيّانُ؟[4]
وَأينَ قُرْطُبَةٌ دارُ العُلُومِ فَكَمْ من عالِمٍ قدسَمَا فيها لَهُ شَانُ!
وَأينَ حِمصٌ وَما تحويه من نُزَهٍ، وَنَهرُها العَذبُ فَيّاضٌ وَملآنُ[5]
قَوَاعِدٌ كُنَّ أرْكانَ البِلادِ فَمَا عَسَى البَقَاءُ إذا لمْ تَبْقَ أركانُ!

١ وسنان : من أخذه ثقل النوم . والمعنى : صار كأنه حلم من الأحلام .
٢ مر الكلام على دارا وقاتله في رائية ابن عبدون .
٣ أحد : جبل بالمدينة . ثهلان : جبل بنجد . ومعنى البيت أن بادية العرب مهد الإسلام اضطربت لمصاب الأندلس .
٤ هذه أسماء مدن من قواعد الأندلس . أم : هنا بمعنى بل .
٥ حمص : إشبيلية .

تَبكي الحَنيفيّةُ البَيضاءُ من أسَفٍ، كما بكَى لفِرَاقِ الإلْفِ هَيمانُ[1]
عَلى دِيَارٍ مِنَ الإسْلامِ خَاليَةٍ، قَد أقفَرَتْ، وَلها بالكُفرِ عُمرَانُ
حَيثُ المَساجدُ قد صَارَتْ كنائسَ ما فِيهنّ إلاّ نَوَاقيسٌ وَصُلْبَانُ
حتى المَحاريبُ تَبكي، وَهيَ جامدةٌ، حتى المَنابرُ تَرْثي، وَهيَ عيدانُ[2]
يَا مَنْ لِذِلّةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزّهِمُ، أحالَ حالَهُمُ جوْرٌ وَطُغْيَانُ
بالأمسِ كانوا مُلوكاً في مَنَازِلِهِمْ، وَاليَوْمَ هُم في بلادِ الكُفرِ عُبدانُ
فَلَوْ ترَاهُمْ حَيارَى لا دليلَ لهُمْ، عَلَيهِمُ مِنْ ثِيَابِ الذّلّ ألوَانُ
وَلَوْ رَأيتَ بُكاهُمْ عندَ بَيْعِهِمُ، لهَالَكَ الأمرُ، وَاستَهوَتكَ أحزَانُ
يا رُبّ أمٍّ وَطِفلٍ حِيلَ بَيْنَهُما، كمَا تُفَرَّقُ أرْوَاحٌ وَأبْدانُ
وَطَفلةٍ مثلِ حسنِ الشمسِ إذ طلَعتْ كأنّما هيَ ياقُوتٌ، وَمَرْجَانُ[3]
يَقودُها العِلجُ عند السبيِ مُكرَهَةً، وَالعينُ باكيَةٌ، وَالقَلْبُ حَيْرَانُ[4]
لمِثلِ هذا يذوبُ القَلبُ من كَمَدٍ، إنْ كانَ في القَلبِ إسْلامٌ وَإيمانُ

١ الحنيفية : ملة الإسلام . البيضاء : كناية عن النقية . الهيمان : من أصابه كالجنون من العشق .
٢ المحاريب ، جمع محراب : وهو مقام الإمام من المسجد .
٣ طفلة : رخصة ناعمة .
٤ العلج : الكافر .

الشكوى والاستعطاف

آلام الملوك والوزراء . شكاويهم . استعطافهم . أصحاب هذا الفن .

هذا نوع يكاد يتّصل بالرّثاء لما فيه من بكاء على الماضي ، وتألّم من الحاضر . ويكاد يختصّ بطبقة الملوك والأمراء والوزراء ، لما نالهم من النكبات والمحن . فهبطوا من بعد رفعة ، وذلّوا من بعد عزّة ، فمن ذلك قول ابن اللبّانة في فخر الدّولة بن المعتمد بن عبّاد ، وقد رآه بعد سقوط دولتهم في سوق الصّياغة ينفخ الفحم بقصبة الصّائغ :

شكاتُنا فيك يا فخرَ العُلى عَظُمتْ ، وَالرُّزْءُ يَعظمُ فيمَن قَدرُهُ عَظُمَا
طُوّقتَ من نائباتِ الدهرِ مِخنَقَةً ، ضَاقتْ عليكَ ، وكم طوّقتنا نِعَمَا[1]
وَعادَ طوْقُكَ في دُكّانِ قارِعَةٍ ، من بَعدِ ما كنتَ في قصرٍ حكى إرَمَا[2]
صَرّفتَ في آلَةِ الصُّوّاغِ أنمُلَةً ، لمْ تَدرِ إلا النّدى وَالسيفَ وَالقَلَمَا
يَدٌ عَهِدتُكَ للتّقبيلِ تَبْسُطُهَا ، فَتَسْتَقِلُّ الثُّرَيّا أنْ تكونَ فَمَا
للنّفخِ في الصّورِ هوْلٌ ما حكاه سوَى هَوْلٍ رَأيتُكَ فيه تَنفُخُ الفَحَمَا[3]
وَدِدتُ إذ نَظرَتْ عَيني إليكَ بهِ ، لوْ أنّ عينيَ تشكو قبلَ ذاكَ عمَى[4]

١ مخنقة : قلادة .
٢ طوقك : أي البلية التي طوقتها . قارعة : أي قارعة الطريق، وهي معظمه وموضع قرع المارة . إرم : أي إرم ذات العماد ، مدينة مجهولة بنيت عليها الأساطير والخرافات .
٣ الصور : البوق ، ويوم ينفخ بالصور : يوم القيامة . الفحَم والفحْم واحد .
٤ به : الضمير عائد على هول .

ومنه استعطاف الوزير ابن عمّار للمعتمد بن عبّاد ، وهو في سجنْ إشبيلية :

سَجاياكَ ، إنْ عافيتَ ، أدنى وَأسمحُ ، وَعذرُك ، إن عاقبتَ ، أجلى وَأوْضَحُ[1]

وَإنْ كانَ بَينَ الخُطّتينِ مَزِيّــةٌ ، فأنتَ إلى الأدنى منَ اللهِ أجْنَحُ[2]

أقِلْني بما بَيني وَبينَكَ من رِضاً ، لَهُ نَحوَ رُوحِ اللهِ بَابٌ مُفتّحُ

وَعَفٍّ على آثارِ جُرْمٍ جَنَيْتُهُ ، بِهَبّةِ رُحمىَ منكَ تمحو وَتصْفَحُ

وَلا تَلْتَفِتْ رَأيَ الوُشاةِ وَقوْلَهُمْ ، فكُلّ إنَاءٍ بالّذي فِيهِ يَرْشَحُ[3]

وَقالوا : « سيَجزِيهِ فُلانٌ بفِعلِهِ . » فقلتُ : وَقَدْ يَعفُو فُلانٌ وَيَصْفَحُ

ألا إنّ بَطْشاً للمُؤيّدِ يُتّقَى ، وَلَكِنّ حِلْماً للمُؤيّدِ أرْجَحُ

وَبَيْنَ ضُلوعِيَ من هَوَاهُ تَميمَةٌ ، ستَشفَعُ لَوْ أنّ الحِمَامَ مُجَلِّحُ[4]

١ عافيت : وهبت العافية ، ودفعت المكروه . وقوله أدنى : أي أدنى إلى دفع المكروه .

٢ أجنح : أميل .

٣ قوله لا تلتفت رأي الوشاة : منصوب على نزع الخافض والصواب لا تلتفت إلى رأي الوشاة .

٤ التميمة : خرزة رقطاء تعلق في عنق الطفل دفعاً للعين المالحة . مجلح : مقدم هاجم .

الهجاء

ضعف الشعر السياسي . هجو البرابرة . هجاء التكسب . العبث . الفحش بالهجو . شعراؤه .

لم تقم في الغرب سوق رائجة للهجاء السياسي يناضل بها الشعراء عن أحزابهم ، فعل شعراء الشرق ، إلا ما كان بين المضرية واليمنية في عهد الأمراء . غير أن المؤرّخين لم يحفظوا لنا شيئاً منه يستحقّ الذكر إلا ما كان من هجوهم للفرنجة في ذكر حروبهم معهم ، أو هجوهم للبربر بعد أن اعتدّ هؤلاء بنفوسهم وأرادوا مفاخرة العرب ومكاثرتهم . فمن ذلك قول خلف بن فرج السُّميسر ، وكان في زمن ملوك الطوائف :

رَأيتُ آدَمَ في نَوْمي ، فَقُلْتُ لَهُ : «أبا البريّةِ إنّ النّاسَ قد حكموا : »
«أنّ البرابرَ نسلٌ منك.» قال: «إذاً حَوّاءُ طالِقَةٌ إن صَحّ ما زَعموا!»

ولم يكن للشعوبيّة شأن في الأندلس فينبغ منهم شعراء يهاجون العرب كما في المشرق . فاقتصر معظم الهجاء على التكسّب والعبث والمجون ، ولكنّه حفل بالفحش والاقذاع . ومن مشهوري الهجائين أبو بكر المخزومي الأعمى[1] شاعر غرناطة ، وبينه وبين نزهون بنت القلاعي الشاعرة معابثات فاحشة غير حرّية بالاثبات . وكذلك ولاّدة بنت المستكفي ولها هجاء فاضح في صاحبها ابن زيدون . وأكثر الشعراء الذين ظهروا في الأندلس اصطنعوا الهجاء ولكنّهم لم يبلغوا فيه مبلغ المشارقة . فكان هذا الفنّ ضعيفاً عندهم .

١ أبو بكر المخزومي كان حياً بعد الأربعين وخمس مائة للهجرة (١١٤٥ م) .

الحماسة والفخر

ضعف الشعر الحماسي . شعراء مداحون يصفون الحروب .

لم يشهر في الأندلس شعراء فرسان يخوضون معامع القتال ، ويذكرون بلاءهم في مواقف الأهوال ، وإنّما شهر شعراء مداحون وصفوا شجاعة ممدوحيهم ، ومعاركهم ، وحضوهم على الجهاد فكانوا أشبه بالمصوّرين يرسمون مشاهد الحروب ، ولا يصلّون نارها . لذلك لم يرتفع شأن الشعر الحماسي عندهم لأنّ هذا الفنّ لا يقوم قائمه إلا في مواطن الشعراء المغاوير . ولم يعرف من شعراء الحماسة إلا نفر لا يعتدّ بهم أمثال ابن وهبون[1] لأنّهم كانوا ينظمون الحماسة بدافع التقليد والتكلّف لا بدافع العاطفة والخاطر المطبوع . ودونك شيئاً من حماسيّات ابن وهبون ومفاخره :

أتخفى على الأيّامِ غُرُّ مَنَاقِبِي ، وَقَدْ بَذّ شأوِي شأوَ كلّ نِقَابِ[2]
ويَركبُني رَسْمُ الخمولِ ، وقد غدَتْ خِصَالُ العُلى والمجدِ طوْعَ رِكابِي؟
سأرْمي بِهِمّاتِي قُصَارَى مَرَاتِبي ، وإنْ كانَ أدناها يُطِيلُ طِلابي[3]
لِتَعْلَمَ أطْرَافُ الأسِنّةِ أنّني كَفِيلٌ بها عِندَ الصّدى بشَرَابِ[4]

١ هو عبد الجليل بن وهبون كان من شعراء المعتمد بن عباد ، وعرف بالمجون والانصراف إلى ألوان اللهو والعبث . والراجح أنه توفي في أوائل الربع الثاني من القرن السادس للهجرة.
٢ نقاب ، مصدر ناقب : أي فاخر وغالب .
٣ قصارى مراتبي : أي غايتها وأقصاها . يقول : إنه يريد أن يبلغ بهماته أبعد المراتب مع أن أدنى هذه المراتب يطيل تعب طالبه لعزّتها ، وما يحول من المصاعب دون البلوغ إليها .
٤ الصدى : العطش . يقول : سارمي بهماتي إلى هذه المراتب الرفيعة حتّى تعلم الرماح أنني كفيل بأن أرويها دماً عندما تعطش .

وتَشهَدَ أطرَافُ اليَرَاعاتِ أنّني   بهِنّ مُصيبٌ فَصْلَ كلّ خِطابِ
وليس نَديمي غيرَ أبيَضَ صَارِمٍ ،   ولَيسَ سَميري غير شخصِ كتابِ

وأصدق الفخر عندهم ما اصطبغ بالعاطفة الدينيّة ، لأنّ الشاعر الأندلسي كثير المباهاة بإسلامه لما بينه وبين جيرانه النصارى من العداء المستحكم والتنافس الشديد .

الحكم

ضعفهـا . حالة الفلسفة . حكمهم مبتذلة . شعراء الحكم .

الحِكم في الشعر الأندلسي ضعيفة النتاج ، ساذجة التفكير ، بدهيّة التصوّر ، لا تدلّ على ثقافة ناضجة وعلم واسع . لأنّ الفلسفة والمنطق لم ينتشرا في تلك الرّبوع إبّان دخولهما إليهما كما انتشرا في البلاد الشرقيّة ، ليستقي منهما الشعراء ، وإنّما كان يعنى بهما أفراد متخصّصون . ولم ينبغ فلاسفة الغرب المشهورون إلا في القرن السادس للهجرة بعد أن امحت معالم الفلسفة في المشرق . وسبب ذلك ما كان للفقهاء من سلطان على ملوك الأندلس فإنّهم قهروا حرّية التفكير ، وكفّروا كلّ متفلسف ومتمنطق ، وافتوا برجمه ونفيه وإحراق كتبه . وكان الدّهماء على جهلهم يجارون أهواء العلماء ، ويثورون على الفلاسفة ويبطشون بهم ، فيضطرّ السلطان إلى استرضائهم بإتلاف كتب الفلسفة كما فعل الحاجب المنصور ، وبمعاقبة المتهمين بها كما فعل صاحب إشبيلية بابن هانئ إذ

أمر بإبعاده لأنّه كان يأخذ بمذاهب الفلاسفة .

وابن هاني أكثر الشعراء الأندلسيّين احتفالاً بالحكمة وضرب المثل ، يتأثّر بذلك المتنبي ، ولكنّه يقصر عنه أشواطاً ، إذ أنّه لم تكن له عبقريّته ، ولم يكن لديه ذلك المعين الفلسفي الذي اغترف منه أبو الطيّب ، فجاءت حكمته غير ناضجة في كثرتها ، كما جاءت حكمة غيره من شعراء بلاده . وهي في الغالب قائمة على شكوى الدّهر ، وذكر الموت ، والتحذير من الدّنيا الغرور ، وأمثال هذه الأشياء الّتي ابتذلتها أفواه العامّة .

وأراد ابن وهبون أن يتفلسف فجاءت فلسفته معقدة تفتقر إلى صقل وتهذيب . وربّما كان أعمق تفكيراً من سواه لأنّه أدرك القرن السادس للهجرة حيث أخذت الفلسفة الأندلسية بالنضج والازدهار . فمن قوله :

نَفسي وَجسمي إنْ وَضَعتَهُمَا معاً، آلٌ يَذُوبُ ، وَصَخْرَةٌ خَلْقَاءُ[1]

لَوْ تَعْلَمُ الأَجْبَالُ كَيْفَ مآلهَا عِلْمي، لمَا امتَسكَتْ لهَا أَرْجَاءُ[2]

إنّا لَنَعْلَمُ مَا يُرَادُ بنَا فلِمْ تُعيي القُلوبُ، وتَغلِبُ الأهوَاءُ؟[3]

١ الآل : السراب . خلقاء : ملساء مصمتة . شبه النفس في اتصالها بالجسم بالسراب الذي يخدعك مرآه ، فتظنه ماء فإذا تتبعته متبيناً حقيقته ذاب أمامك ، فالنفس إذاً خداعة زائلة كالسراب والجسم يبقى بعدها كأنه الصخرة الملساء .

٢ الأجبال : جمع جبل . مآلها : مصيرها . الأرجاء : النواحي ، مفردها رجا . يقول : لو علمت الجبال أن مصيرها الفناء لدكت من الخوف والهلع .

٣ لم : سكنت للشعر والأصل لمَ . القلوب : العقول . يقول : نحن نعلم مصيرنا فلماذا تتعب العقول في البحث عنه ، وتغلب عليها أهواء النفس فتقودها إلى التفلسف فيما هو معلوم .

طَيْفُ المَنَايَا في أسَالِيبِ المُنى ، وَعَلى طَرِيقِ الصّحّةِ الأدْوَاءُ[1]
تَتَعاقَبُ الأضْدَادُ ممّا قد تَرَى جَلَسَتْ عَلَيْكَ الحِكمةُ الشّنعاءُ[2]

الزهد

أسباب ظهوره . الحروب . سلطة الفقهاء . التوبة بعد الكبائر . متزهدو الشرق . شعراء الزهد .

غير عجيب أن يظهر فنّ الزّهد في الشعر الأندلسي، وقد علمنا ما للفقهاء من سلطان على الخاصّة والعامّة ، فلا بدّ لهذا السلطان أن يقود إلى التعصّب للدّين ، والاستمساك بأحكامه ، ثمّ إلى التظاهر بالعبادة والتقوى ، والاقتداء بالأولياء الصّالحين ، والنفور من الدّنيا وزينتها والابتعاد عن زخرفها وغرورها ، فيكثر الشعراء المتزهدون حتى يصبح الزّهد صناعة مطلوبة ، وزيّاً مرغوباً فيه . فمنهم من ينظمه بعامل التقوى والصّلاح . ومنهم من ينظمه اقتداء بغيره وإرضاء للفنّ . ومنهم من ينظر إلى الدّنيا نظرة خائف فيذم غرورها ، ويذكر ذنوبه ، وجنونه بملذّات الحياة ، فيندم ويعتذر إلى الله ، ثمّ يعود إلى عبثه ومعاصيه . وهذه اختلاجات نفسية تحدث لصاحب الكبائر حيناً بعد حين .

ولا ريب أنّ كثرة الحروب ، وتوالي الفتن والمحن طبعت في

١ أدواء : جمع داء .
٢ يقول : إن الصور المتضادة في بحث الحياة والموت هي نتيجة الفلسفة الشنعاء .

نفوس الشعراء الحسّاسة آلاماً عميقة . فنظروا إلى تقلّب الأحوال نظرة تشاؤم فقادتّهم إلى الطعن على الدّهر وصروفه ، وذمّ الدّنيا وتلوّنها ممّا هو طبيعي في النفوس التي تتقلّب عليها أحوال مختلفة بين شدّة ورخاء ، وخوف وأمن ، وقلق وارتياح .

فمثل هذه الأحداث والغيَر على اختلاف صورها وألوانها تدفع الإنسان الدّقيق الشعور إلى التفكير في مصيره بعد هذه الحياة التي لا تبتسم إلا لتكشر عن الأنياب . فيهوله سوء المصير ، فيفزع إلى ربّه تائباً مستغفراً ، ولطالما قرّبت الشدائد إلى الله من ابتعدوا عنه . وإليك شيئاً من زهدياتهم . قال ابن عبد ربّه في توبته :

ألا إنّما الدّنيا غَضَارَةُ أيْكَةٍ ، إذا اخضرّ منها جانبٌ جفّ جانبُ[1]
هيَ الدّارُ، ما الآمَالُ إلاّ فَجَائعٌ عَلَيها، وَلا اللّذّاتُ إلاّ مَصَائِبُ
فكمْ سخّنتْ بالأمسِ عَيناً قَريرةً ، وَقرّتْ عيوناً، دمعُها اليوْمَ ساكِبُ[2]
فَلا تَكتَحلْ عَيناكَ مِنها بعَبرَةٍ ، على ذاهبٍ منها ، فإنّكَ ذَاهِبُ[3]

وقال ابن حمديس :

يا ذُنُوبي ثَقّلْتِ وَالله ظَهْرِي، بانَ عُذرِي فكَيفَ يُقبلُ عُذرِي[4]

١ الغضارة : الطراوة في النبات . الأيكة : واحدة الأيك وهو ملتف الشجر الكثير .
٢ سخنت عيناً : أبكتها دموعاً سخنة أي حارة ، والدموع الحارة كناية عن دموع الحزن . قرت عيوناً : أي صبت فيها ماء بارداً ، وبرودة العين كناية عن سرورها ، ودمع الفرح عندهم بارد .
٣ عبرة : دمعة قبل فيضها .
٤ بان : غاب . والمراد ليس له عذر .

كلّما تُبْتُ ساعَةً عُدْتُ أُخرَى لضُرُوبٍ من سُوءِ فِعلي وَهُجرِي[1]
يَا رَفيقاً بِعَبْـــدِهِ ، وَمُحيطاً عِلمُهُ باختِلافِ سرّي وَجَهرِي[2]
مِلْ بقَلْبي إلى صَلاحٍ فَسَادِي مِنهُ ، وَاجبُرْ بِرَأفةٍ منكَ كَسرِي[3]
وَأجِرْنِي بِمَا جَنَاهُ لِسَاني ، وَتَنَاجَتْ بِهِ وَسَاوِسُ فِكْرِي[4]

التصوف

نتيجة التزهد . متصوفو الشرق . شعراء التصوف .

التصوّف هو الغاية التي ينتهي إليها التزهّد في الإسلام ، وانتشار الزّهد في الأندلس أفضى إلى التصوّف . وكان لرحلات المشارقة إلى الغرب ، ورحلات المغاربة إلى الشرق يد في اتّصال متزهّدي الأندلس بالمتصوّفة المشرقيين . فأخذوا عنهم طرائقهم ومصطلحاتهم ، وآراءهم ، ونظموا الشعر الصّوفي مثلهم . وألمع شعرائهم ابن العربي الشهير[5] شيخ المتصوّفين ، وله موشّحات صوفيّة سائرة ، منها التي أوّلها سرائر

١ لضروب : لأنواع . هجري : إفحاشي في المنطق .
٢ باختلاف سري وجهري : يريد انه مؤمن صحيح الايمان في باطنه ، ولكن أعماله الظاهرة سيئة .
٣ منه : أي من قلبي .
٤ بما : الباء هنا سببية أي من أجل ما جناه لساني .
٥ هو محيي الدين بن العربي الحاتمي الطائي الأندلسي . ولد بمرسية ، وانتقل إلى اشبيلية ثم سافر إلى الشرق ، ومات في دمشق ، وقبره في محلة الصالحية . ولد سنة ٥٦٠ وتوفي سنة ٦٣٨ هـ . (١١٦٤ – ١٢٤٠ م) آثاره كثيرة أشهرها الفتوحات المكية في التصوف .

الأعيان . وفيها يقول :

سَرَائِرُ الأَعْيَانْ ، لاحتْ على الأكوانْ ، للنّـــاظِرِينْ ،
وَالعَاشِقُ الغَيْرَانْ ، مِن ذاكَ في حرّانْ، يُبْـدِي الأنِـينْ[1]

الوصف

تفننهم . تعدد موصوفاتهم . براعتهم في بعضها .

تفنّن الأندلسيّون في شتّى الأوصاف حتّى فاقوا المشارقة في بعضها كوصف الطبيعة النّاعمة ، والمدن العامرة . فكلّ شاعر منهم متّصل بالطبيعة ، مشغوف بعمارة بلاده ، وليس في الشرق مثلهم إلا أفذاذ معدودون . وكان لهم يد في وصف الفلوات الخالية ، والوحوش الضّارية ، والخيل والإبل . وبرعوا في وصف مجالس اللّهو والغناء والرّقص والشراب وآلته . ووصفوا الصّيد وأدواته ، والنّساء والغلمان وأحوالهم ، وطيف الخيال . ووصفوا الحروب والسّلاح والسفن . ووصفوا الدّنيا والموت وانقراض الممالك وغير ذلك ممّا يتناول الحضارة والعمارة ، والحياة الاجتماعيّة في حالتي السّلم والترف ، والحرب والعناء .

١ السرائر : الخفايا مفردها سريرة . الأعيان : حقائق الأشياء المدركة بالعيان . العاشق الغيران : الصوفي المريد المعرفة برغبة وتوجد . حران : رملة بالبادية، كنى بها عن شدة الظمإ ، والحران أيضاً الشديد العطش .

وصف المعارك

كثرة الحروب في الأندلس . وصف الجيوش . الحراقات . الشعراء .

لا بدع أن يكون لوصف المعارك نصيب وافر في الشعر الأندلسي ، فإنّ المسلمين لم يبيتوا ليلة في إسبانية إلا على حرب وشيكة ، أو حرب يَصْلون لظاها . وقد أحصيت الوقائع الّتي نشبت بينهم وبين الفرنجة منذ دخولهم الأندلس إلى يوم خروجهم منها ، فإذا هي سبعمائة واقعة وثلاثة آلاف ، ما عدا الفتن الداخليّة الّتي أثارها المسلمون بعضهم على بعض . فحفلت مدائح الملوك والأمراء بذكر المعارك والجيوش والعدد والحرّاقات . حتّى إنّ ابن عبد ربّه نظم أرجوزة في نحو خمسين بيتاً واربعمائة وصف فيها مغازي عبد الرحمن النّاصر وفتوحه من سنة ٣٠١ إلى ٣٢٢ هـ. (٩١٣ – ٩٣٣ م) .

وهذه الأرجوزة مع طولها لا تعدّ في طبقة الملاحم ، لضعف الخيال الشعري فيها ، فإنّها مجرّد أخبار وسرد حوادث ، تمتّ إلى التاريخ أكثر ممّا تمتّ إلى الشعر . وإليك شيئاً من أحاسنها :

فَأُشرِعَتْ بَيْنَهُمُ الرِّمَاحُ ، وَقَدْ عَلا التَّكْبِيرُ وَالصِّيَاحُ
وَفَارَقَتْ أغْمَادَهَا السُّيُوفُ ، وَفَغَرَتْ أفْوَاهَهَا الحُتُوفُ
وَالتَقَتِ الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ ، وَانْغَمَسُوا في غَمْرَةِ القِتَالِ[1]

[1] غمرة القتال : شدته .

في مَوْقِفٍ زَاغَتْ بِهِ الأبْصَارُ ، وَقَصُرَتْ في طُولِهِ الأعْمَارُ
وَهَبّ أهْلُ الصَّبْرِ وَالبَصَائِرِ ، فَأزْعَقُوا عَلَى العَدُوّ الكَافِرِ[1]
فَانْقَضّتِ العِقْبَانُ وَالسَّلالِقَهْ ، رَهْقاً عَلَى مُقَدّمِ الجَلالِقَهْ[2]
عِقبانُ مَوْتٍ تَخْطَفُ الأرْوَاحَا ، وَتُشْبِعُ السّيُوفَ وَالرِّمَاحَا
فَانْهَزَمَ الخِنْزِيرُ عِنْدَ ذَاكَا ، وَانْكَشَفَتْ عَوْرَتُهُ هُنَاكَا[3]

وللسان الدين بن الخطيب قصيدة كتبت على حيطان الحمراء ، ذكر فيها انتصار الغني بالله محمّد بن أبي الحجّاج ، واستعادته الملك بعد أن كان قد خلع عنه واضطرّ إلى مهاجرة الأندلس والاحتماء بالمغرب. وتشتمل هذه القصيدة على وصف السفن. والجياد ، والسيف والرّمح ، وموقف السلطان في الحرب ، وموقف جيشه . قال منها :

للهِ مَوْقِفُكَ الّذي وَثَبَاتُهُ ، وَثَبَاتُهُ مَثَلٌ بِهِ يُتَمَثّلُ[4]
وَالخيلُ خَطٌّ، وَالمَجالُ صَحيفَةٌ ، وَالسُّمرُ تَنقُطُ،وَالصَّوَارِمُ تَشكُلُ[5]

١ أزعقوا : أي أزعقوا السير : عجلوا به .
٢ السلالقة : أراد بها جمع سلوقي : الكلب المنسوب إلى سلوق وهو أحسن كلاب الصيد وأخفها، وسلوق قرية في اليمن . أراد بالعقبان الفرسان ، وبالسلالقة خيولهم . رهقاً : أي رهَقاً سكنت للشعر . والرهَق: العجل ، واللحاق مع الدنو من الملحوق . الجلالقة : الاسبانيون ، مفردها جليقي منسوب إلى جليقية في إسبانية ، وهي غاليس .
٣ الخنزير : العدو أو مقدم الجلالقة . العورة : كل خلل يحدث في الجيش إبان الحرب فيؤدي إلى انكساره .
٤ وثباته الأولى من وثب . والثانية من ثبت .
٥ جعل الرماح في طعنها كأنها تضع النقط على الصحيفة ، والسيوف في قطعها كأنها تضع الحركات .

وَالبيضُ قد كَسرَتْ حُرُوفَ جفونِهَا   وَعوَاملُ الأسَلِ المُثقَّفِ تَعمَلُ[1]
لله قَوْمُكَ عِندَ مُشتَجَرِ القَنَا،   إذ ثوّبَ الدّاعي المُهيبُ، فأقبَلوا[2]
قَوْمٌ إذا لَفَحَ الهَجيرُ وُجوهَهُم،   حُجِبُوا بِرَايَاتِ الجِهَادِ وَظُلِّلوا[3]

الغزل

دواعي الغزل في الأندلس . الأسلوب البدوي . الأسلوب الحضري . الأوصاف المادية . الأوصاف الروحانية . التذلل للحبيب . غزل المؤنث . غزل المذكر . الشعر الأشقر . العيون الزرق . الغزل النصراني . تشبيه الحبيب بالرياحين . تفننهم في استخراج التشابيه المألوفة . شعراء الغزل .

كان كلّ ما في الأندلس يدعو إلى الغزل والنسيب . فمن طبيعة فتانة ، إلى حضارة وعمران ، إلى حدائق ورياض ، إلى مجالس للّهو والخمر والغناء ، إلى سبي متواصل وأسواق للنخاسة رائجة ، يباع فيها الجواري والغلمان بأثمان بخسة لكثرتهم . فكان من ذلك أن أمعن أهل الأندلس في حياة النعمة والترف ، وأخلدوا إلى الحبّ والغزل . وكان

١ جفونها : أغمادها . العوامل : صدور الرماح . الأسل : الرماح . المثقف : المقوم . وقوله : كسرت حروف جفونها : أي فارقت أغمادها لا تريد الرجوع إليها ، وكسر الحروف والعوامل العاملة من التلميحات النحوية .
٢ مشتجر القنا : مشتبك الرماح . ثوب : استنجد واستغاث . الداعي المهيب : الممدوح .
٣ لفح : أصاب بالإحراق . الهجير : الحر الشديد .

للشعراء قسط وافر من هذه الحياة الرخيّة ، فتغزّلوا وأفرطوا في التشبيب. فمنهم من كان يحنّ إلى الأسلوب البدوي ، فيذكر أماكن العرب في البادية ، وعرائس الشعر عندهم ، أو يحذو حذو امرىء القيس وابن أبي ربيعة في القصص الغرامي واجتياز الأهوال إلى من يحبّ كما قال أبو عامر بن شُهيد معارضاً رائية عمر :

وَأُخرَى اعتَلَقْنَا دُونَهُنّ وَدونَها قصُورٌ ،وَحُجّابٌ ،وَوَالٍ ،وَمَعشرُ[١]

يُزَيّنُهَا مَاءُ النّعِيمِ ، وَحَفّهَا من العَيشِ فَينانُ الأرَاكةِ أخضرُ[٢]

إذَا رَامَهَا ذُوحَاجَةٍ صَدّ وَجْهَه ظُبي الباتِرَاتِ، وَالوَشيجُ المكسّرُ[٣]

وَمن قُبّةٍ لا يُدرِكُ الطّرْفُ رَأسَها تَزِلّ بهَا رِيحُ الصَّبَا ، فَتَحَدّرُ[٤]

إذا زَاحَمَتْ مِنها المَخَارِمَ صَوّبَتْ هُوِيّاً على بُعد المدى وَهْيَ تَجأرُ[٥]

تكَلّفتُها وَاللّيلُ قد جاشَ بحرُهُ ، وَقَدْ جَعَلَتْ أموَاجُهُ تَتكَسّرُ[٦]

١ اعتلقنا : أحببنا . دونهن : أي دون النساء . ودونها : أي دون الوصول إليها .

٢ فينان : ذو الأفنان ، أي الأغصان . الأراكة : شجرة تتخذ منها المساويك ، والمراد عيش ناعم غض .

٣ ظبى : جمع ظبة وهي حد السيف . الباترات : السيوف القواطع . الوشيج : الرماح وشجرها . وقوله المكسر ، كناية عن كثرة حروب أهلها .

٤ تزل بها : تمر سريعاً . الصبا : ريح تهب من الشرق ، وصف علو قبتها فقال إن الطرف لا يدرك أعلاها . ثم قال إن الريح تمر بها فتتحدر عنها ولا تزعزعها ، لعلوها وثباتها .

٥ المخارم : جمع مخرم وهو أنف الجبل، والمراد هنا أعالي القبة . صوبت : ضد صعدت . تجأر : تصوت . يقول : إذا زاحمت هذه الريح أعالي القبة انحدرت عنها لبعد مداها وهي تصوت .

٦ تكلفتها : أي تجشمت القصد إليها . جاش بحره : اشتد ظلامه . أمواجه تتكسر : أي يرخى فيه سدل فوق سدل .

وهذا الغزل بيّن التقليد والتكلّف، ولذلك لم يكن له حظّ كبير عندهم، لتمكّن الحضارة الجديدة من نفوسهم، وانفصالهم عن أهل البادية، فخرجوا على الأسلوب القديم في كثرتهم، وانصرفوا إلى وصف حياتهم، وما فيها من عبث ولهو ومجون، فتهتّكوا في غزلهم، وأسرفوا في التهتّك ولا سيّما شعراء ملوك الطوائف ومن جاء بعدهم، إذ بلغ الغزل عندهم إلى حالة مزرية في معانيه وألفاظه.

واعتمد الأندلسيّون على الأوصاف المادّية في ذكر أحبّتهم، كما اعتمد عليها المشرقيّون، فوصفوا الشّعر والعين، والخدّ والثغر والقامة وسواها، وحلّوها بالتشابيه الطبيعيّة المألوفة، وغاصوا في لجج أرواحهم، فوصفوا لوعة النفس العاشقة، واشتياقها لقرب الحبيب، والاستمتاع بجماله، ومواقف اللّقاء والوداع وغير ذلك ممّا هو داخل في أغراض النسيب. وأنسوا بعادة التذلّل للحبيب، والتعبّد له، ومناداته بالسيّد والمولى كقول الرّمادي[3]:

١ أبيض: سيف. سفاسق: جمع سفسقة، وهي طرائق السيف التي فيها الفرند. العسالة: الرماح اللدنة. الخط: مرفأ في البحرين تباع فيه الرماح. أسمر: رمح.

٢ إلى بيت ليلى: يعود إلى تكلفنا. الغضا: شجر عظيم يحسن فحمه لصلابته، وأرض لبني كلاب، وواد بنجد. وأراد بعين المستهام نورها الفائض من حرارة الشوق، أو من تلألؤ الدموع.

٣ هو أبو عمر يوسف بن هارون المعروف بالرمادي، شاعر قرطبي مجيد سريع القول، عاصر المتنبي، توفي سنة ٤٠٣ هـ. (١٠١٢ م).

أوْمَا لِتَقْبيلِ البِسَاطِ خُنُوعَا ، فوَضَعتُ خدّي في التّراب خُضُوعَا[1]
ما كان مَذهبُهُ الخُنوعَ لعَبدِهِ ، إلاّ زِيَادَةَ قَلْبِهِ تَقْطِيعَا

وشببوا بالجواري والغلاميّات والغلمان ، وذكروا مجالسهم ، ووصفوا حركاتهم وسكناتهم ، وقصّوا أخبارهم معهم . قال أبو عامر ابن شُهيد :

ظَبْيَةٌ دُونَ الظِّبَا قَدْ قُصِّصَتْ، فَأَتَتْ غَيْدَاءَ في شَكْلِ صَبي[2]
فُتِّحَ الوَرْدُ عَلَى صَفْحَتِهَا ، وَحَمَاهُ صُدْغُهَا بِالعَقْرَبِ[3]

وقال الرّفّاء[4] يصف محبوبه وقد رآه يبلّ عينيه بريقه ويظهر أنّه يبكي وليس بباك :

يَبُلُّ مَآقِي زَهْرَتَيْهِ بِرِيقِهِ ، وَيحكي البُكا عَمداً كما ابتسَمَ الزّهرُ[5]
وَيوهِمُ أنّ الدمعَ بَلّ جُفُونَهُ ، وَهل عُصِرتْ يوماً من النّرجِسِ الخمرُ[6]؟

وشاع عندهم التشبيب بالشعر الأشقر والعيون الزّرق لما كانوا يصيبون من سبي فرنجة الشمال وهم زرق شقر في الغالب ، ولم يشع

١ البساط : الأرض المنبسطة المستوية ، أو هو البساط بالكسر . خنوعاً : ذلا .
٢ دون الظبا : غير الظبا . غيداء : لينة الأعطاف مائلة العنق .
٣ صفحتها : خدها . العقرب : مستعار للشعر المتدلي على الصدغ .
٤ هو أبو عبد الله محمد بن غالب المعروف بالرفاء، ينتسب إلى رصافة الأندلس ، وهي بليدة عند بلنسية . توفي بمالقة سنة ٥٧٢ هـ . (١١٧٦ م) .
٥ أي كما ابتسم الزهر للندى .
٦ أراد بالنرجس عيونه ، وبالخمر ريقه .

ذلك عند المشارقة لغلبة السواد على الشعور والعيون ، ولإيثارهم إيّاه على الزّرقة والشقرة . قال الشَّنْتَريني[1] :

وَمُهَفْهَفٍ أبصرْتُ في أطْوَاقِهِ قَمَراً بآفاقِ المَحاسِنِ يُشرِقُ[2]
تَقضِي على المُهَجاتِ منهُ صَعدَةٌ، مُتألّقٌ فِيهَا سِنَانٌ أزْرَقُ[3]

وكان من جراء اختلاطهم بالنصارى ، أن شاع عندهم الغزل النصراني ، وذكر الكنائس والقساوسة والصّلبان كغزل ابن الحدّاد في نُوَيرة النصرانيّة ، وكان يهواها ، فلم ترضَ به بعلاً لاختلاف دينها عن دينه ، فهام بها وأكثر من التشبيب . وفيها يقول :

فَإنّ الحُسْنَ قَدْ وَلاّ كِ إحْيَائي وَإهْلاكي
وَأوْلَعَني بِصُلْبَانٍ ، وَرُهْبَانٍ وَنُسّاكِ
وَلَمْ آتِ الكَنَائِسَ عَن هَوًى فِيهِنّ لَوْلاكِ
وَهَا أنَا مِنكِ في بَلوَى ، وَلا فَرَجٌ لِبَلْوَاكِ
وَلا أسْطِيعُ سِلْوَاناً ، فَقَدْ أوْثَقْتِ أشْرَاكي
وكَمْ أبكي عَلَيكِ دَماً ، وَلا تَرْثِينَ للبَاكي
فَهَلْ تَدْرِينَ مَا تَقضِي عَلى عَيْنَيَّ عَيْنَاكِ ؟

١ هو أبو محمد عبد الله بن محمد البكري منسوب إلى شنترين بلدة في الأندلس . توفي بالمرية سنة ٥١٧ هـ . (١١٢٣ م) . وكان قليل الحظ ، وعاش محروماً .
٢ الأطواق ، جمع طوق : ما استدار وحلي به العنق .
٣ الصعدة : القناة المستوية ، والمراد قامته . والمراد بسنانها الأزرق عينه الزرقاء .

وَمَا يُذْكِيهِ مِنْ نَارٍ بِقَلْبِي نُورُكِ الذّاكِي[1]
نُوَيْرَةُ إنْ قَلَيْتِ فَإِنّي أَهْوَاكِ أَهْوَاكِ ![2]
وَعَيْنَاكِ الشَّهِيدَانِ بِأَنِّي بَعْضُ قَتْلاكِ

وأكثروا من تشبيه الحبيب بأنواع الرّياحين لكثرة الرّياض والبساتين عندهم ، ثمّ لشغفهم بالطبيعة النّاضرة النّاعمة . وربّما أمعنوا في ذلك حتّى يجرّدوا من محبوبهم روضة مختلفة الأزهار والألوان ، ومن ذلك قول ابن خَفَاجَة[3] في طيف الحبيب :

تَنَدّى بفِيهِ أُقْحُوَانَةُ أجْرَعٍ ، قد غازَلَتْها الشمسُ غِبَّ سَمَاءِ[4]
وَتَميسُ في أثْوَابِهِ رَيْحَانَةٌ ، كَرَعَتْ على ظَمَإٍ بجَدْوَلِ مَاءِ[5]
نَفّاحَةُ الأنْفَاسِ إلاّ أنّهَا حَذَرَ النّوَى خَفّاقَةُ الأفْيَاءِ[6]

١ الذاكي : المتقد .
٢ قليت : أبغضت وهجرت .
٣ هو ابو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن خفاجة . كان مقيماً بشرق الأندلس ، ولم يتعرض لاستماحة ملوك طوائفها مع رغبتهم في تقريب أهل الأدب ، وله ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان، ولا سيما وصف الطبيعة . ولد بجزيرة شُقر من أعمال بلنسية في سنة ٤٥٠ هـ. (١٠٥٨ م) وتوفي بها سنة (٥٣٣ هـ. ١١٣٨ م) .
٤ تندى : تبتل . الأقحوانة : زهرة صفراء في وسطها وحواليها ورق أبيض : تشبه بها الأسنان . الاجرع : الرمل الطيب النبت . غب : بعد . سماء : مطر . يريد أن أسنانه كأقحوانة ضاحكتها الشمس بعد أن سقاها المطر .
٥ ريحانة : المراد قامته . بجدول : الباء بمعنى من . والمراد قامة ريا بماء الشباب .
٦ الأفياء : جمع فيء وهو ما ينسخ الشمس ويكون من الزوال إلى الغروب . كما أن الظل ما نسخته الشمس وهو من الطلوع إلى الزوال . والمراد أن قامته ترتعش حذر النوى ارتعاش أفياء الريحانة .

وهذه التشابيه على ابتذالها ، توهم الجدة لما فيها من التلطّف في إخراج صورها البيانيّة ، ومثلها قول بعض الأندلسيّين :

غصبوا الصّباحَ فقسّموهُ خدوداً، واستوْعبوا قُضُبَ الأراكِ قدوداً[1]

ورأوْا حصى الياقوتِ دون نحورِهمْ، فتقلّدوا شُهُبَ النّجومِ عقوداً

لمْ يكفهمْ حدُّ الأسنّةِ والظُّبى، حتّى استعاروا أعيُناً وخدوداً

الخمريات

اللهو . مجالس الطرب . حب الخمر . الفحش والمجون .
الاستخفاف بالدين . شعراء الخمر .

عني الأندلسيّون بوصف الخمر لشغفهم بها ، وإقبالهم على شربها . لأنّ طبيعة بلادهم وما فيها من منازه ورياض وأنهار يحمل النفس على طلب اللّهو والشراب . فأجادوا نعتها ، ووصفوا معها آنيتها والساقي والنّديم ، ومجالسهم وما يجري فيها من غناء وعبث . وكانوا يتوكّؤون في كثير من معانيهم على أبي نواس ، وأولعوا بقوله :

تسقيكَ من طرْفها خمراً، ومن يدها خمراً، فما لكَ من سُكرَين من بُدِّ

فتناوله جملة من شعرائهم ، وتفنّنوا في الانسحاب عليه . وأحسن ابن عبد ربّه إذ يقول :

[1] استوعبوا : أخذوا الشيء بأجمعه .

بِأبي مَنْ زَهَا عَلَيّ بِوَجْـهٍ ، كَادَ يَدْمَى لمّا نَظَرْتُ إليْهِ[1]
نَاوَلَ الكأسَ وَاستَمَالَ بلَحْظٍ ، فَسَقَتْني عَيْنَاهُ قَبْلَ يَدَيْهِ[2]

وهم كالمشارقة يشوبون خمرياتهم بالفحش والمجون والاستخفاف بالدّين . وألطفها ما جاء ممتزجاً بألفاظ الطبيعة النّاضرة ، فإنّ فيه من العذوبة والخيال الشعري شيئاً غير يسير . قال ابن خفَاجَة :

وَأغْيَدَ في صَدْرِ الكَلامِ لحُسْنِهِ حُلِيٌّ ، وَفي صَدْرِ القصيدِ نَسيبُ[3]
يَرِفّ برَوْضِ الحسنِ من نورِ وَجهه وَقَامتِهِ ، نُوّارَةٌ وَقَضيبُ[4]
جَلاها ، وَقد غنّى الحَمامُ عشيّةً ، عَجوزاً ، عَلَيها للحَبَابِ مَشيبُ[5]
وَجاءَ بِهَا حَمرَاءَ أمّا زُجَاجُهَا فَنُورٌ ، وَأمّا مَوْجُها فَكَثيبُ[6]
وَغازَلَنا جَفنٌ هُناكَ كَنَرْجِسٍ ، وَمُبْتَسَمٌ كالأُقْحُوَانِ شَنيبُ[7]

١ زها : أشرق .
٢ استمال : مال .
٣ الأغيد : اللين الأعطاف المائل العنق . الحلي : ما يتخذ من الحجارة الكريمة للزينة . النسيب : وصف المحاسن ، والتعريض بذكر المحبوب . يقول : هذا الأغيد له في صدر الكلام المنثور نعوت كالحلي تزين حسنه ، وله في صدر المنظوم وصف وتعريض بهواه . والمراد أن ذكره يتردد في بدء كل منثور ومنظوم .
٤ النوارة : زهرة الشجر .
٥ جلاها : عرضها كما تعرض العروس . ومن معاني الخمر عند العرب أن يخطبوا الخمرة ويتزوجوها ، ويدفعوا مهرها . عجوزاً : خمرة معتقة . الحباب : ما يعلو الخمرة من الفقاقيع .
٦ أراد بموجها ما يطفو على وجهها من الحبب ، شبهه بالكثيب .
٧ مبتسم : أي ثغر مكان الابتسام . شنيب : صافي الأسنان .

فَلِلّهِ ذَيْلٌ للتّصَابي سَحَبْتُهُ ، وَعَيْشٌ بأطرَافِ الشّبابِ رَطيبُ[1]

ومن تفنّن ابن خفاجة في خمرياته قوله يصف ساقياً أحدب أسود :

رُبّ ابنِ لَيْـلٍ سَقَانَا ، وَالشّمسُ تُطْلِـعُ غُرّه[2]
فَظَلّ يَسْوَدُّ لَوْناً ، وَالكأسُ تَسطَعُ حُمرَهْ
كأنّهُ كِيسُ فَحْمٍ ، قد أُوقِدَتْ فيهِ جَمرَهْ

الصيد

قصائد وأراجيز . طريقة الجاهليين . طريقة المولدين .
شعراء الصيد .

وكان الصيد من ملاهيهم ، وملاهي ملوكهم . فوصفه الشعراء في قصائدهم وأراجيزهم ، وخلطوا فيه طريقة الجاهليين بطريقة المولدين . فكانوا يصفون جيادهم ، وانطلاقهم بها في اثر الطرائد ، وكلابهم وشدّتها فعل الشاعر الجاهلي . ثمّ يمعنون في وصف الجوارح ، وأدوات الصيد،وما يصاد من الوحوش والطيور فعل الشاعر المولد.وربّما مدحوا الأمير بذكر صيده ، كما قال ابن زَمْرَك في مدح سلطانه ابن الأحمر :

وَلَرُبَّ مُمتَدّ الأبَاطحِ مُوحِشٍ ، عَالي الرُّبى مُتَبَاعِدِ الأقْطَارِ[3]

١ التصابي : الميل إلى جهلة الفتوة ، وحب الصبوة .
٢ الغرة : كل ما بدا من ضوء أو صبح .
٣ الأباطح ، جمع أبطح : مسيل متسع عريض فيه دقاق الحصى .

هَمَلِ المَسَارِحِ لا يُرَاعُ قَنيصُهُ   إلاّ لِنَبْأَةِ فَارِسٍ مِغْـوَارِ[1]
عَرَضَتْ بِهِ المُسْتَنْفَرَاتُ كأنّها   خَيْلٌ عِرَابٌ جُلْنَ في المِضْمارِ[2]
أتْبَعْتَها غُرَرَ الجِيَادِ كَوَاكِباً،   تَنْقَضّ رُجْماً في سَمَاءِ غُبَارِ[3]
وَالهَادِيَاتُ يَؤُمّها عَبْلُ الشَّوَى،   مُتَدَفِّقٌ كَتَدَفّقِ التّيّارِ[4]
أزْجَيْتَها شَقْرَاءَ، رَائِقَةَ الحلى،   فَرَمَيْتَهُ مِنها بِشُعْلَةِ نَارِ[5]
أثْبَتَّ فِيهِ الرّمحَ ثُمّ تَرَكْتَهُ   خَضْبَ الجَوَانحِ بالدّمِ المَوّارِ[6]
حَامَتْ عَلَيْهِ الذّابِلاتُ كأنّها   طَيرٌ أوَتْ مِنْهُ إلى أوْكَارِ[7]

ومنها في وصف الطرائد :

وَأرَيْتَنا الكَسْبَ الذي أعْدَادُهُ   مَلأتْ جَمَالاً أعْيُنَ النُّظّارِ

١ الهمل : المتروك سدى . المسارح : المراعي . القنيص : الصيد المقنوص . النبأة : الصوت. يقول : هذا المكان تخوف منه الصيادون لتوحشه ، فتركوا مراعيه سدى ، وأصبح لا يهبطه إلا كل فارس مغوار .

٢ عرضت : مرت في عدوها عارضة على جنب واحد. المستنفرات : الطرائد التي نُفّرت فنفرت . عراب : عربية خالصة .

٣ الرجم : ما يظهر في السماء كأنه نجوم تتساقط ، وسكنت الجيم هنا لضرورة الشعر ، مفردها رجم .

٤ الهاديات : أوائل الطرائد النافرة . يؤمها : يتقدمها . عبل : ضخم . الشوى : الأطراف والقوائم ، والمراد طريد ضخم القوائم قوي .

٥ أزجيتها : سقتها . شقراء : صفة للمهرة . الحلى : زينتها من المصوغات .

٦ الجوانح : ما يلي الصدر من الأضلاع . الموار : الجاري .

٧ الذابلات : الرماح .

بِيضٌ وَصُفْرٌ خِلتُ مَطْرَحَ سَرْحِها   رَوْضاً تَفَتَّحَ عن شَقِيقِ بَهَارِ[1]
من كلِّ مَوْشيِّ الأديمِ مُفَوَّفٍ ،   رَقَمَتْ بَدائِعَهُ يَدُ الأقْدارِ[2]
خُلِطَ البَيَاضُ بصُفْرَةٍ في لَوْنِهِ ،   فَتَرَى اللُّجَيْنَ يَشوبُ ذَوْبَ نُضَارِ

الطبيعة والعمران

جمال التصوير . دقة الوصف . خصب الخيال . الابداع . الطبيعة الناعمة . السماء والأرض . حب الأندلسي للطبيعة . حبه لوطنه . تعصبه له . جمال الأندلس . الطبيعة في الأشياء المعنوية . في الأشياء المادية . في المدح والتخلص إليه . في الغزل . تشخيص الطبيعة . إحساسهم نحوها . درس نفسيتها . رقتهم . جمال تشابيههم .

إذا شئت أن تلتمس إبداع شعراء الأندلس وافتنانهم ، ودقّة وصفهم ، وجمال تصويرهم ، وحلاوة معانيهم ، وخِصب خيالهم ؛ فاسمعهم يذكرون الطبيعة النّاعمة النّاضرة ، وينعتون زينتها وحلاها ، وأصباغها وألوانها ، ويصوّرون حضارتها وعمرانها ؛ فترى شعرهم حافلاً بذكر الرّياض والأزهار ، والطيور والأشجار ، والجداول والأنهار ، والنجوم والأقمار ، والغيوم والأمطار ، والقصور وحدائقها ، والبِرَك ودوافقها ، والصّور والتماثيل ، والنقوش والتهاويل ، وما إلى

١ سرحها : رعيها . الشقيق : ما انشق نصفين من نبت وغيره . البهار : نبت طيب الرائحة ربيعي ، أصفر الورق ، أحمر الوسط .

٢ موشي : منقش . الأديم : الجلد . مفوف : فيه خطوط بيض على الطول .

ذلك من مفاتن في الطبيعة والعمران . والأندلسي أشغف النّاس بالطبيعة ، وألصقه بها ، لا يفتأ يتغنى بمحاسنها ، سَواءٌ كان جادّاً أو لاهياً ، ضاحكاً أو باكياً .

وإذا شئت أن تلتمس حبّ الوطن في الشعر العربي ، فاطلبه عند شعراء الأندلس ، فإنّه ممتزج بكلّ علَقة من دمائهم ، مصوَّر في كلّ جارحة من جوارحهم . والأندلس قِبلة شاعرها كيف اتّجه ، وأنّى اغترب ، لا ينقطع عن ذكرها ، ولا يرى بلداً في الدّنيا يضاهيها ؛ فجمالها فوق كلّ جمال ، وعمرانها دونه كلّ عمران ؛ وهي جنّة الخلد بحُورها ووِلدانها ، ورحيقها وكوثرها .

وليس بينه وبين الشاعر العبّاسي شبَه من هذه النّاحية ؛ لأنّ العاطفة الوطنية ضعيفة في شعر المشارقة ، لا تكاد تلمح لها خيالاً إلاّ في النّدْرَى . والظاهر أنّ وجود المسلمين في بُقعة تُحيط بها دول نصرانيّة ، لا تأتلي أن تجاهدهم لتخرجهم منها ذَوداً عن الدّين والوطن ، مكّن هذه العاطفة فيهم وجعلهم يقابلون أعداءهم بالمثل حتى أصبح حبّ الوطن مالكاً على نفوسهم .

وحُقّ لأهل الأندلس أن يتعبّدوا لوطنهم ، فإنّ هذا الصُّقْع الجميل جدير بأن يمتلك القلوب ويستهويها ، ولا سيّما قلوب الشعراء ، فإنّها أسرع من غيرها إلى تعشّق الجمال والخضوع لسلطانه ، واستشفاف سحره ، والفناء في مادّته وروحانيّته . وقد استحثّت الأندلس قرائح الشعراء بوحي طبيعتها وغذّتها أفضل غذاء ، وحبتها بخيال جميل لم يظفر بمثله من شعراء الشرق إلا الأقلّون . فإنّ قرطبة وإشبيلية وغرناطة كانت أبلغ أثراً في مخيّلات الشعراء من الشام والعراق ومصر . فإذا

هم والطبيعة إلفان لا يفترقان ، وروحان متّصلان ، وإذا الطبيعة لديهم نفس هَيُولانية. تقبل جميع الصّور وتتقمّص جميع الأجسام ، لا يخلو عنها غرض من أغراضهم ، ولا يتخلّى منها خاطر من خواطرهم . فإن مدحوا خصّوها بنصيب من مِدحتهم ، فجعلوا صورها بالأشياء المعنويّة :

هصرَتْ يَدي غُصْنَ النّدى من كفّه ، وَجَنَتْ به رَوْضَ السّرُورِ مُنَوَّرَا

أو بالأشياء المادّيّة :

أثمرْتَ رُمْحَكَ من رُؤُوسِ كماتِهِمْ ، لمّا رأيتَ الغُصْنَ يُعشَقُ مُثْمِرَا

ويهدي شاعرهم قصيدته إلى ممدوحه فما يرى غير الرّوض شبيهاً لها :

وَإلَيكَها كالرّوْضِ زَارَتهُ الصَّبَا ، وَحَنَا عَلَيهِ الطَّلُّ حتى نَوّرَا

وربّما أراد التخلّص إلى المدح فيستخدم الطبيعة سبيلاً إلى ممدوحه كما فعل أبو عامر بن شُهيد في مدح المؤتمن بن عامر فإنّه استهلّ مِدحته بذكر الخمر والسّاقي ، وانتهى إلى وصف سحاب ماطر :

وَغَمَامٍ بَاكَرَتْنَا غَيْمُهُ ، تُتْرِعُ الأفْقَ بِدَمْعٍ صَيِّبِ
مِثْلَ بَحْرٍ جَاءَنَا مِنْ فَوْقِنَا ، جِرْمُهُ مِنْ لُؤلُؤٍ لَمْ يُثْقَبِ[1]

ثمّ شرع يتحدّث إلى المزن كمن يتحدّث إلى إنسان عاقل حتى أعدّ سبب الانتقال إلى المدح :

فَسَألْنَاهُ ، وَقَدْ أعْجَبَنَا حَشْوُهُ العَينَ بمَرْأَى مُعْجِبِ:[2]

١ جرمه : جسمه . من لؤلؤ لم يثقب : أراد به البرد .
٢ حشوه : فاعل أعجبنا .

«أنتَ ماذا؟» قال: «مُزْنٌ عَلّمَتْ كَفَّهُ النَّفْحَةَ كَفّا دَرِبِ»[1]
«رَامَنِي بِالشَّرْقِ أنْ أسْقِيَكُمْ، رَحمَةً مِنهُ، بأقصَى المَغْرِبِ»[2]
فَسَألْنَاهُ: «أينْ ذَاكَ لَنَا،» قالَ: «هلْ يَخفى ضياءُ الكوكَبِ؟»
«مَلِكٌ نَاصَبَ مَنْ خَالَفَكُمْ، عَامِرِيٌّ المُنْتَمَى والمَنْصِبِ»[3]

وإن تغزّلوا متشوّقين إلى أحبّتهم عنّت لهم أيّام اللّقاء بالأندلس، فينقطعون عن الغزل منصرفين إلى وصف موضع اللّقاء كأن لذّة الاتّصال بالطبيعة كافية أن تؤدّي شرح أحوالهم إلى أحبّائهم الهاجرين.

ويصف عاشقهم حبيبه فيجعله جنّة مختلفة الأزهار؛ وربّما تعفّف فما يرى غير الطبيعة صورة لعفّته كقول أبي عمر بن فرج:

وَطَائِعَةِ الوِصَالِ عَفَفْتُ عَنها، وَمَا الشّيطَانُ فِيهَا بِالمُطَاعِ
وَمَا مِنْ لَحْظَةٍ إلاّ وَفِيهَا، إلى فِتَنِ القُلُوبِ بِهَا، دَوَاعِ
كَذَاكَ الرَّوْضُ مَا فِيهِ لِمِثْلي سِوَى نَظَرٍ وَشَمٍّ مِنْ مَتَاعِ
وَلَسْتُ مِنَ السَّوَائِمِ مُهمَلاتٍ، فَأتّخِذَ الرِّيَاضَ مِنَ المَرَاعِي[4]

ويطول بنا الأمر ان تتبعنا صور الطبيعة في مختلف أنواع الشعر الأندلسي، فحسبنا القول انّها حديثهم في جميع أغراضهم، والرّجوع

١ مزن: سحاب فيه مطر. النفحة: العطية. درب: متمرن معتاد. والمراد كفا الممدوح.
٢ المراد أن الممدوح جاء به من الشرق ليسقيهم في الغرب.
٣ ناصب: عادى وحارب. المنصب: الحسب والأصل.
٤ السوائم: الماشية ترعى حيث تشاء، مفردها سائمة. مهملات: متروكات ترعى بدون راع.

إلى أشعارهم يؤيّد صحّة ما نقول .

وكان من إمعانهم في إبراز صور الطبيعة وتشخيصها أن شُغِلوا عن وصف إحساسهم بجمالها ، وتذوّقهم أسرارها ، والتذاذهم الاتحاد بها ؛ فخلا شعرهم أو كاد يخلو من تصوير اختلاجات نفوسهم نحوها ، وانجذاب عواطفهم إليها ، مثال ذلك قول ابن خفاجة وهو أشعر من وصف الطبيعة عندهم ، وشُغِف بمحاسنها ، واتصل بها ، قال يصف نهراً :

مُتَعَطِّفٌ مِثلَ السِّوَارِ كأنَّهُ ، وَالزَّهرُ يَكْنِفُهُ ، مَجَرُّ سَمَاءِ[1]
قَدْ رَقَّ حتى ظُنَّ قُرْصاً مُفْرَغاً مِنْ فِضَّةٍ ، في بُرْدَةٍ خَضْرَاءِ[2]
وَغدَتْ تَحُفُّ بِهِ الغُصُونُ كأنّها هُدْبٌ يَحُفُّ بِمُقْلَةٍ زَرْقَاءِ[3]
وَالمَاءُ أسْرَعَ جَرْيَهُ مُتَحَدِّراً ، مُتَلَوِّياً كالحَيَّةِ الرَّقْطَاءِ[4]
وَالرِّيحُ تَعبَثُ بالغُصُونِ وَقَد جرَى ذَهَبُ الأصيلِ عَلى لُجَيْنِ الماءِ[5]

ولكن لم يفتهم بثّ الحياة بها ، ودرس نفسانيتها على ما يوحي إليهم خيالهم فِعلَ ابن زيدون في قافيته التي أرسلها إلى ولادة ، وفعل ابن

١ يكنفه : يحوطه . المجر : المجرة ، ودرب التبان عند العامة . يقول : إن هذا النهر متعطف مثل السوار وكأنه ، والزهر يحوطه ، المجرة يحوطها النجوم .

٢ شبه النهر المتعطف كالسوار بقرص من فضة ، وشبه ما يحيط به من النبات بالبردة الخضراء .

٣ الهدب : شعر أشفار العيون ؛ شبه الغصون في تهدلها على النهر بأشفار العين ، وشبه النهر المستدير بالعين الزرقاء .

٤ الرقطاء : ما شاب بياضها سواد أو عكس ذلك . شبه الماء واختلاف لونه في الظلال حين تلويه بالحية الرقطاء .

٥ الأصيل : بعد العصر إلى الغروب . اللجين : الفضة .

شهيد في وصف السحاب الماطر . وكثير من معاني الأندلسيّين في الطبيعة مطروق ، سبقهم إليه المشارقة ؛ ولكنّهم تلطّفوا في إخراجه ، وتفنّنوا في تصويره فظهرت عليه الجِدّة والطرافة كقول ابن الزَّقّاق :

ورِياضٍ مِنَ الشّقائِقِ أضْحَتْ يتَهادَى بها نَسيمُ الرِّياحِ
زُرْتُها ، وَالغَمامُ يَجْلِدُ مِنْها زَهَراتٍ تَفُوقُ لَوْنَ الرّاحِ
قُلتُ: «ما ذَنبُها؟» فَقالَ مُجيباً: «سرَقتْ حُمرَةَ الخدودِ المِلاحِ !»

وشَغَفُ الأندلسيّين بالطبيعة منحهم خيالاً جميلاً ، وتشابيه حلوة ، فكانت الرّقّة والنعومة ميزة أشعارهم ، والفضل في ذلك للأندلس وما لربوعها من تأثير في نفوسهم ، حتى كان حبّهم لها عبادة . قال ابن خَفاجَة :

يا أهْلَ أنْدَلُسٍ للهِ دَرُّكُمُ ، ماءٌ، وَظِلٌّ، وَأشجارٌ، وَأنْهارُ!
ما جَنّةُ الخُلْدِ إلاّ في دِيارِكُمُ ، وَلَوْ تَخَيّرْتُ ، هذا كنتُ أختارُ[1]

وكان للأندلس وطبيعتها القسط الأوفر في موشّحاتهم الشهيرة .

[1] هذا : أي هذا المكان ، يفضل الأندلس على جنة الخلد .

ابن هاني الاندلسي

٩٣٧ ؟ – ٩٧٢ م (٣٢٦ ؟ – ٣٦٢ هـ)

يرجع المؤرخون بنسبه إلى الأزْد من العرب اليمانية . ويقولون إنه من ولد يزيد بن حاتم بن قَبيصة بن المُهلّب بن أبي صُفْرة الأزدي . وقيل : بل هو من ولد أخيه روْح بن حاتم . وكان اسمه محمداً ، ويكنى أبا القاسم وأبا الحسن ، ويعرف بابن هاني الأندلسي . ويلقب بمتنبي الغرب . وكان أبوه هاني من قرية من قرى المَهْديّة بالمغرب ، وكان شاعراً أديباً ، فانتقل إلى الأندلس ، فولد له محمد بإشبيلية أو بقرية من قراها ، في أيام الخليفة الأموي الناصر لدين الله عبد الرحمن الثالث . فلما ترعرع لزم دار العلم بقُرطبة فتأدّب فيها ، ونظم الشعر ، وكان حافظاً لأشعار العرب وأخبارهم .

وذكر ابن خلّكان أنّه اتصل بصاحب إشبيلية وحظي عنده ، غير أننا لم نجد في ديوانه مدحاً له فيه يؤيد هذه الحظوة . وذكر أيضاً أنه كان كثير الانهماك في الملاذ متّهماً بمذْهب الفلاسفة . فلما اشتهر عنه ذلك سخط عليه أهل إشبيلية ، واتّهموا الأمير بمذهبه لميله إليه ، فأشار عليه بالغيبة عن البلد مدة ليُنسى خبره . فاجتاز البحر إلى عدوة المغرب وله من العمر سبع وعشرون سنة ، فلقي جوهراً مولى الخليفة المعز لدين الله ابن المنصور العُبَيدي صاحب إفريقية ، فامتدحه ، ثم ارتحل عنه إلى ابن الأندلسية جعفر بن علي بن أحمد بن حمدان أمير الزاب ، وكان هو

وأخوه يحيى يتوليان المَسيلة ، وهي مدينة الزاب ، بناها أبوهما علي . وكان جعفر سمحاً وافر العطاء ، فنظم ابن هاني فيه وفي أخيه المدائح الكثيرة ، فبالغا في إكرامه والإحسان إليه .

ثم نمى خبره إلى المعز بن المنصور فطلبه منهما فوجهاه إليه ، ومدحه بعدة قصائد أعجب المعز بها ، فقربه إليه وأكرمه وأجزل له الصلات . ولزمه الشاعر حتى خرج إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) وكان قد افتتحها قائده جوهر سنة ٣٥٨ هـ ، فشيعه ابن هاني ، ثم رجع ليأخذ عياله ويلتحق به . فلما تجهز رحل إليه في السنة نفسها حتى بلغ بَرْقة ، فلقي فيها منيته . وأورد ابن خلكان ثلاث روايات على موته ، قيل : أضافه شخص من أهلها ، فأقام عنده أياماً في مجلس الأنس ، فعربد عليه الحاضرون فقتلوه . وقيل : خرج من تلك الدار سكران فنام في الطريق وأصبح ميتاً ، ولم يعرف سبب موته . وقيل : إنّه وُجد في ساقية من سواقي برقة مخنوقاً بتكة سراويله . وأما لسان الدين بن الخطيب فيزعم أنه سكر ونام عرياناً ، وكان البرد شديداً ففُلج . والمشهور أنه مات وله من العمر ست وثلاثون سنة ، وقيل : اثنتان وأربعون . ولما بلغ المعزّ خبر وفاته تأسف عليه كثيراً وقال : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يُقدَّر لنا ذلك . »

شعره

كان ابن هاني يحتفل في شعره للفظ أكثر منه للمعنى ، وتقوم طريقته على اعتماد الألفاظ الغريبة التي يشتد وقعها في الآذان . ويبنيها في التركيب بناءً جزلاً متيناً فتخرج منها موسيقى ذات قعقعة وضجيج . ويسرف في

وصف التعابير عاطفاً بعضها على بعض أو موالياً فيها النعوت والتشابيه على غير طائل سوى المبالغة والإيهام والتهويل . فمن ذلك قوله :

أبني العوالي السَّمهريّة ، والسيو فِ المَشرفيّةِ ، والعديدِ الأكثرِ

وقوله :

للناس إجماعٌ على تفضيله ، حتى استوى اللُّؤَماءُ والكُرَماءُ
واللُّكْنُ والفُصَحاءُ والبُعَداءُ والـ قُرَباءُ والخُصَماءُ والشُّهَداءُ [1]

وقوله :

هذا الأغرُّ الأزهَرُ المُتَألِّقُ الـ مُتَدَفِّقُ المُتَبَلِّجُ الوُضّاءُ [2]

وقوله :

كبدرِ الدُّجى ، كالشمس ، كالفجرِ ، كالضُّحى ،
كصَرفِ الردى ، كالليثِ ، كالغيثِ ، كالقَطْرِ

ويتكلّف الصنعة والتوشية فتأتي ألفاظه براقة اللون تخادع النظر كما تخادع السمع . فيتراءى الجناس والتشطير والتسميط والتفريع ومراعاة النظير وغير ذلك من المحسنات اللفظية والمعنوية . وتمر استعاراته مجلجلة مطلقة القرائن تقرع الأذن ولا تعلق بالذهن مثل قوله :

وجَنَيْتُمُ ثمَرَ الوقائع يانِعاً بالنصرِ من وَرَقِ الحديدِ الأخضرِ

وهو إلى ذلك يتشبث بالتعابير والمعاني البدوية المطروقة ، فيجمع

١ اللكن : جمع ألكن ، وهو العي الثقيل اللسان .
٢ الأزهر : المشرق الوجه . المتدفق : الكريم الذي يتدفق عطاؤه . المتبلج : الطلق الوجه .

بينها وبين الوشي الحضري ، ويطوف خياله برمال البادية وبيوت الأعراب فيتغزل بجرائرهم ، ويردد أسماء قبائلهم وفرسانهم وأجوادهم . ولا يغفل عن ذكر التبابعة وملوك الفرس والروم .

وتطول قصائده حتى تناهز المائة أو تجاوزها . أو تبلغ المائتين فيكثر فيها الغريب المهجور ، فيورثها الغموض على ما فيها من غموض في اصطلاحاته المجازية،وربما بناها على قواف غليظة كالخاء والثاء والصاد والطاء فيزداد إغرابها وتوحشها ، ويشتد وقع ألفاظها .

ويعد ابن هاني من شعراء الوصف ؛ وأوصافه تجنح إلى الغلو الشديد لشغفه بتزيين الأشياء وتعظيمها ، وربما أفسد الواقع الفني بإفراطه حتى لا يصح أن يكون إكمالاً وإتقاناً للواقع الطبيعي . ولنا مثال صادق على أسلوبه الوصفي قوله من قصيدة يمدح بها ابراهيم بن جعفر بن علي الأندلسي ويصف مجلساً بناه قال :

إيوانُ مَلْكٍ ، لو رأته فارس ذُعرت ، وخرّ لسَمكه إيوانُها
واستَعظمت ما لم يُخَلّدْ مثلَه سابورُها ، قِدماً ، ولا ساسانُها
سجدت إلى النيران أعصرُها ، ولو بَصُرَتْ به ، سجدت له نيرانُها
بل لو تجادلُها به ألبابُهـا في اللهِ ، قامَ لحُسنِهِ بُرْهانُها
أوَما ترَى الدُّنيا وجامِعَ حُسنِها صُغرَى لَديه ، وهي يَعظُمُ شانُها
لولا الذي فُتِنت به لاستَعبَرَت ثكلى ،تَفُضَ ضُلوعَها أشجانُها[1]

[1] فتنت به : أي الدنيا فتنت بحسنها . استعبرت : بكت . ثكلى : لأنها فقدت حسنها لدى إيوان الأمير .

خَضِلُ البشاشة ، مُرْتَوٍ من مائِها فكأنّــه مُتَهَلِّلٌ جَذْلانُها
يَنْدى ، فتنشأُ ، في تَنَقُّلِ فيئِهِ ، غُرُّ السحائِبِ مُسْبِلاً هَطَلانُها
وكأنّ قُدْسَ ويَذبُلاً رَفَدا ذُرى أعلامِهِ ، حتى رسَت أرْكانُها[1]
تغدو القصورُ البِيضُ في جَنَباتِه ، صُوراً إليه ، يَكِلُّ عنه عِيانُها[2]
والقُبّة الخضراءُ طائرةٌ به ، تَهوي بِمُنْخَرَقِ الصَّبا أعنانُها[3]
ضُربت بأرْوِقَةٍ تُرَفرِفُ فوقَها ، فهوَى بفُتْخِ قَوادِمٍ خَفَقانُها[4]
علياءُ مُوفِيَةٌ على عَليائِه ، في حيثُ أسلَم مُقْلَةً إنْسانُها
بُطنانُها وَشيُ البُرودِ وَعَصْبُها ، فكأنّما قُوهِيُّها ظُهْرانُها[5]
نِيطَتْ أكاليلٌ بها منظومةٌ ، فغدا يضاحك دُرَّها مَرجانُها
وتعرّضَت طُرَرُ الستور كأنها عَذَباتُ أوْشِحَةٍ يَرُوقُ جُمانُها[6]
وكأنّ أفوافَ الرّياضِ نُشِرْنَ في صَفَحاتِها فتَفَوّفَتْ ألوانُها[7]

١ قدس ويذبل : جبلان . أعلامه : جباله .
٢ صوراً : مائلة ، جمع أصور . صوراء .
٣ أعنانها : نواحيها .
٤ فتخ القوادم : أي لينة الريش الكبار ، صفة للعقبان ، جمع فتخاء ، يقال للعقاب فتخاء الجناحين . يريد أن العقبان هوت عن أروقة القبة فلم تستطع بلوغها لعظم ارتفاعها .
٥ بطنان : جمع بطن . العصب : ضرب من البرود . القوهي : ثوب أبيض منسوب إلى قوهستان . الظهران : جمع ظهر .
٦ الطرر : الأطراف ، مفردها طرة . العذبات : جمع عذبة ، وهي طرف كل شيء ، وما تدلى منه . أوشحة : جمع وشاح . الجمان : اللؤلؤ .
٧ الأفواف : أي وشي الأزهار . تفوفت : توشت .

فأدِرْ لحاظكَ واكتحِلْ بمناظرٍ ، غَشّى فِرِنْدَ لُجَيْنِها عِقيانُها[1]
لِتَرَى فُنونَ السِّحرِ أمثِلَةً ، وما يُدري المَجهولَ ، لَعلّها أعيانُها
مُستَشرفاتٍ من خُدورِ أوانسٍ ، مصفوفَةً قد فُصّلَتْ تيجانُها
مُتَقابِلاتٍ في مَرَاتِبِها جَنَتْ حرْباً على البِيض الحِسانِ حِسانُها

وليس له في وصف الطبيعة شيء يذكر بخلاف غيره من شعراء الأندلس . فقد شغلته السياسة وقصور الأمراء عن النظر إلى جمال الطبيعة ، واستشفاف صورها وألوانها ، فلم يأنس بها ، ولا حنّ إلى بلاده وهو في المغرب حنين الأندلسيين إليها إذا ابتعدوا عنها . ولكنه كان صاحب لهو وشراب فوصف الخمرة وغالى في وصفها على طريقته ، وأحاطها بكثير من الصور والتشابيه ، وعظّم أمرها وبالغ في قدمها ، شأن الذين تقدموه من شعراء الخمرة ولا سيما أبو نواس . وهو وإن لم يأت بشيء جديد في أوصافها ، لقد كانت جدته في خصائصه التعبيرية التي تأدت بها معانيه المطروقة . قال يصفها في القصيدة نفسها بعدما وصف إيوان الأمير :

وَلَنِعْمَ مَغنى اللهوِ تَرْأَمُ ظِلَّه آرامُ وَجرةَ ، رُحنَ ، أو أُدمانُها[2]
وتخالها صفراءَ عارضت الدُّجى ، وسَرت ، فنادم كوكباً نَدمانُها

١ فرند لجينها : أي جوهر فضتها ووشيه ، وهو ما يرى فيه شبه مدب النمل ، وأصله للسيف . العقيان : الذهب .

٢ مغنى اللهو : أي مجلس الشراب . ترأم : تألف وتحب . آرام : جمع الرئم : الظبي الخالص البياض . وجرة : موضع ببلاد العرب معروف بكثرة ظبائه . والمراد بالآرام هنا النساء . الأدمان : الظباء البيض ، واحدتها أدمانة .

قَدُمَتْ تَزَايلُ أعصراً كَرّت على حَوبائها ، لما انقضى جُثْمانُها[1]
وأتت على عهدِ التبابعِ مُدّةً ، غَضّاً ، على مرّ الزمان ، زمانُها
يَمَنِيّةُ الأربابِ ، نجرانيّةُ الا أنسابِ ، حيثُ سمت بها نَجرانُها[2]
أو كِسرَوِيّةُ مَحتِدٍ وأرومةٍ ، شمطاءُ ، يُدعى باسمِها دِهقانُها[3]
أو قَرْقَفٌ مما تُنَشّي الرّومُ ، لا نَشَوَاتُها ذُمّت ، ولا نَشوانُها[4]
كان اقتَناها الجاثِليقُ يُكِنُّها ، ويصُونُ دُرّةَ غائِصٍ صَوّانُها[5]
في مَعشَرٍ من قومه ، عثَرت بهم نُوَبُ الزمانِ ، فَغالَهُمْ حِدْثانُها
كَرُمَتْ ثرًى مُتأرّجاً ، وتوَسّطَتْ أرضَ البطارقِ ، مُشرِفاً أفدانُها[6]
لم يُضرموا ناراً لهيبتِها ، ولم يَسْطِعْ بأكنافِ الفَضاءِ دُخانُها[7]
فكأنّ هَيْكلَهَا تَقَدّمَ رايَةً وكأنّ صَفّ الدّارِعِينَ دِنانُها[8]

١ تزايل : تفارق . الحوباء : الروح . والمراد روح الخمرة . الجثمان : المراد به الرغوة التي كانت تعلو الخمرة ، جعلها جسداً لروحها .
٢ يمنية الأرباب : أي أصحابها من اليمن . نجرانية الأنساب : أي خمرة منسوبة إلى نجران .
٣ شمطاء : أي عجوز . الدهقان : تاجر الخمر .
٤ القرقف : الخمر . تنشي : تربّي ، حذف الهمزة . النشوات : السكرات .
٥ الجاثليق : متقدم الأساقفة ، والمراد خمرة الدير التي يقتنيها الرهبان .
٦ متأرجاً : طيب الرائحة . البطارق : قواد الروم ، مفردها بطريق . الأفدان : القصور ، مفردها فدن ، مثل عسل .
٧ المراد أن الخمرة لم تطبخ على النار .
٨ الدنان : جمع دن ، وهو خابية الخمر الكبيرة .

غَنِيَتْ تَطُوفُ بِهَا وَلائِدُهُمْ كَمَا طَافَتْ بِرَبّاتِ الحِجالِ قِيانُها[1]
قد أُوتِيَتْ من عِلْمِهِم ، فكأنّها أحبارُ تِلكَ الكُتْبِ، أوْ رُهبانُها[2]
جازَتْهُمُ تَرْمَدُ في غُلَوائِهَا ، فَتَخَرَّمُوا ، وَخَلا لها مَيدانُها[3]
فكَلَتْكَ ناجُودٌ، تُديرُ كؤوسَها هِيفٌ تُجاذِبُ قُضْبَها كُثبانُها[4]

ووصف في مدائحه الحروب والجيوش والسلاح فبالغ في تعظيمها كما شاء خياله الجامح أن يغالي ولكن قصّر به النفس الملحمي عن التوسع فيها وتفصيل أحداثها وأجزائها . وكان تصويره للسفن البحرية أفضل منه للجيوش البرية ، فوصف أسطول المعز ، ودقّق في وصف الحرّاقات ونيرانها ، فأحسن تصويرها ؛ وأجوده ما جاء في قصيدته الدالية التي يقول فيها :

لكَ البرُّ وَالبَحرُ العَظيمُ عُبَابُهُ ، فَسِيّانِ أغْمَارٌ تُخَاضُ وَبِيدُ[5]
أمَا وَالجَوَارِي المُنْشآتِ التي سرَتْ لقد ظاهَرَتْهَا عُدّةٌ وَعَديدُ[6]

١ غنيت : أقامت بالمكان . الولائد : جمع الوليدة وهي الأمة . ربات الحجال : المخدرات . القيان : المغنيات .
٢ يبالغ بقدم الخمر فيقول إنها تحدث بما سمعته من رهبان الروم الأقدمين . ينظر إلى قول أبي نواس : ثم قصت قصة الأمم .
٣ ترمد : تعدو . غلوائها : نشاط شبابها . تخرموا : هلكوا .
٤ كلتك : أصابت كليتك . الناجود : الخمر . الهيف : جمع الهيفاء ، وهي الضامرة البطن الرقيقة الخصر . قضبها : أي قاماتها ، جمع قضيب . كثبانها : أي أردافها ، جمع كثيب ، والكلام على الاستعارة .
٥ العباب : موج البحر . الأغمار : المياه .
٦ الواو للقسم . الجواري : السفن . ظاهرتها : عاونتها .

قِبابٌ كما تُزْجَى القِبابُ على المَها ، وَلكنّ مَنْ ضَمّتْ عَلَيهِ أُسُودُ[1]

وَلله ، مِمّا لا يَرَوْنَ ، كَتائِبٌ مُسَوَّمَةٌ تَحْدُو بِها ، وَجُنُودُ[2]

أطاعَ لها أنّ المَلائكَ خَلْفَها ، كما وَقَفَتْ خلفَ الصّفوفِ رُدُودُ[3]

وَأنّ الرّياحَ الذّارِياتِ كَتائِبٌ ، وَأنّ النّجُومَ الطّالِعاتِ سُعُودُ[4]

وَما رَاعَ مَلْكَ الرّومِ إلا اطّلاعُها تُنَشَّرُ أعْلامٌ لَها وَبُنُودُ[5]

عَلَيْها غَمامٌ مُكفَهِرٌّ صَبيرُهُ ، لَهُ بارِقاتٌ جَمّةٌ وَرُعُودُ[6]

مَوَاخِرُ في طامي العُبابِ كَأنّهُ لعَزْمكَ بأسٌ أوْ لكَفّكَ جُودُ[7]

أنافتْ بها أعْلامُها ، وَسَما لَها بِناءٌ على غَيرِ العَراءِ مَشيدُ[8]

١ تزجى : تساق . المها : البقر الوحشي . وهو مستعار هنا ، مفرده مهاة . يقول : هذه السفن هي أشبه بالهوادج التي تساق وعليها النساء الحسان العيون ، ولكن ليس عليها نساء بل رجال كالأسود .

٢ مسومة : معلمة بعلامات الحرب .

٣ الردود : جمع رد ، وهو المعقل يرد البلاء .

٤ الذاريات : التي تذري التراب ، يريد أن الريح كانت موافقة للسفن في جريها ، فكأنها جنود تساعدها .

٥ البنود : جمع البند ، وهو العلم الكبير .

٦ مكفهر : متراكب . الصبير : السحاب الأبيض الذي يصير بعضه فوق بعض ، يشير إلى ما تقذفه هذه الحراقات من النار وما يتبع ذلك من أصوات ودخان .

٧ يقول : إن هذه السفن صورة لشدة بأس الممدوح في قهرها الأعداء ، وصورة لكرمه في ما ينال أصحابها من الغنائم .

٨ أنافت : ارتفعت . العراء : الفضاء .

وَلَيْسَ بِأعلى كَبْكَبٍ وَهوَ شاهِقٌ، وَلَيسَ مِنَ الصُّفّاحِ وَهوَ صَلودُ[1]
مِن الرّاسياتِ الشُّمّ لَوْلا انتِقالُها، فَمِنها قِنانٌ شُمَّخٌ وَرُيُودُ[2]
مِن الطَّيرِ. إلاّ أنّهُنَّ جَوارِحٌ، فَلَيْسَ لها إلا النّفُوسَ مَصيدُ[3]
مِن القادِحاتِ النّارِ تُضْرَمُ للصَّلى، فلَيْسَ لها يَوْمَ اللّقَاءِ خُمُودُ[4]
إذا زَفَرَتْ غَيظاً تَرامَتْ بمارِجٍ، كَمَا شَبّ مِنْ نارِ الجَحيمِ وَقودُ[5]
فأنْفَاسُهُنّ الحَامِيَاتُ صَوَاعِقٌ، وَأفْوَاهُهُنّ الزّافِرَاتُ حَدِيدُ
تُشَبُّ، لآلِ الجاثَليقِ سَعيرُها، وَمَا هيَ من آلِ الطّريدِ بَعيدُ[6]
لها شُعَلٌ فَوْقَ الغِمارِ كأنّها دِماءٌ تَلَقّتْها مَلاحِفُ سُودُ[7]

١ وليس : أي ليس هذا البناء، ويريد به أبراج السفن المرتفعة . كبكب : جبل خلف عرفات . الصفاح : الحجارة العريضة . الصلود : الصلب .

٢ قنان : جمع قنة وهي أعلى الجبل . ريود: جمع ريد الحرف الناتىء في عرض الجبل . يقول : هي معدودة من الجبال الراسية العالية لولا حركاتها وانتقالها . وفيها من الجبال رؤوس عالية ونواتىء .

٣ جوارح الطير : ما صاد منها . يقول : هذه السفن معدودة من الطير في سرعتها وامتداد أشرعتها واصطفاقها . ثم استدرك فقال إنها من الطير الجوارح التي تصيد النفوس .

٤ الصلى : مقاساة حرارة النار . اللقاء : الحرب حيث يلتقي الجيشان .

٥ زفرت غيظاً : أي غيظاً من العدو ، جعل لها إحساساً . المارج : الشعلة ذات اللهيب الشديد . الوقود : ما توقد به النار .

٦ الجاثليق : متقدم الأساقفة . آل الجاثليق : أي الروم . الطريد : الخليفة الأموي في الأندلس ، يشير إلى طرد الأمويين من الشرق .

٧ الغمار : جمع غمر ، الماء الكثير ومعظم البحر . شبه مياه البحر التي تتلقف شعل الحراقات بالملاحف السود .

تُعانِقُ مَوْجَ البَحرِ ، حتى كأنّهُ سَليطٌ لهَا ، فيهِ الذُّبالُ عَتيد ١
ترَى الماءَ مِنها وَهوَ قانٍ عُبابُهُ ، كما باشرَتْ رَدْعَ الخَلوقِ جُلودُ ٢
وَغَيرُ المَذاكي نَجرُها ، غيرَ أنّها مُسَوَّمَةٌ ، تحتَ الفَوارِسِ ، قُودُ ٣
فلَيْسَ لهَا إلاّ الرّياحَ أعِنّـــةٌ ؛ ولَيسَ لها إلا الحَبابَ كَديدُ ٤
ترَى كلّ قَوْداءِ التليلِ كما انثنَتْ سَوالِفُ غِيدٌ للمَهَا وَقُدُودُ ٥
رَحيبَةُ مَدّ الباعِ . وَهيَ نَتيجةٌ بغيرِ شَوًى ، عَذراءُ وَهيَ وَلُودُ ٦
تَكَبّرْنَ عَنْ نَقْعٍ يُثارُ ، كأنّهَا مَوَالٍ ، وَجُرْدُ الصّافناتِ عَبيدُ ٧
لها من شُفُوفِ العَبْقَرِيّ مَلابِسٌ مُفَوَّفَةٌ ، فيها النُّضَارُ جَسيدُ ٨

١ السليط : الزيت . الذبال : جمع ذبالة وهي فتيلة المصباح . عتيد : معد مهيأ . يقول : تعانق هذه الشعل المتساقطة موج البحر ، فكأنه لها زيت أعدت فيه الفتائل للاشتعال .
٢ القاني : الشديد الحمرة . الردع : الزعفران . الخلوق : ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران .
٣ المذاكي : الخيل . النجر : الأصل . مسومة : معلمة بعلامات الحرب . القود : جمع الأقود ، وهو الذلول المنقاد من الخيل .
٤ الحباب : معظم الماء . الكديد : الأرض الغليظة .
٥ قوداء التليل : طويلة العنق . السوالف : جمع سالفة ، وهي صفحة العنق ، وما تقدم منه . غيد : مائلة العنق ، جمع أغيد وغيداء . المها : البقر الوحشي .
٦ رحيبة مد الباع : المراد المجاديف . النتيجة : المولودة . الشوى : اليدان والرجلان . ولود : أي تحمل الجيوش وتنزلها على العدو فكأنها تلدها .
٧ تكبرن عن نقع يثار : أي أن السفن لا تثير الغبار في مجراها كما تصنع الخيل . الصافنات : جمع الصافن ، وهو من الخيل ما قام على ثلاث قوائم ، وطرف حافر الرابعة .
٨ الشفوف : جمع شف ، وهو الثوب الرقيق . العبقري : ضرب من البسط فاخر فيه أصباغ ونقوش ، وكل شيء فاخر ليس فوقه شيء . مفوفة : موشاة . النضار : الذهب . الجسيد : اللاصق .

كما اشتملتْ فوقَ الأرائكِ خُرَّدٌ ، أوِ التفعتْ فوقَ المنابرِ صِيدُ[1]
لَبُوسٌ تكفُّ الموجَ وهوَ غُطامِطٌ ، وتدرأُ بأسَ اليمّ وهوَ شديدُ[2]
فمنها دُرُوعٌ فوقَها وجَوَاشِنٌ ؛ ومنها خَفَاتِينٌ لهَا وبُرُودُ[3]

مذهبه وسياسته

كان ابن هاني شيعياً مغالياً في عقيدته يذهب مذهب العُبَيديين الفاطميين في الحلولية ، فيقول إن الله حلّ بالمهدي وغيره من الأئمة ، فجاء مدحه في المعزّ لدين الله معبّراً عن عقيدته الغالية ، يرفع الخليفة إلى منزلة الألوهية ويصفه بأوصافها ، ويضيف إليه جوهرها وأنوارها ، ويجعل له ما لله من القدرة والجبروت مندفعاً بعاطفته الشيعية من جهة ، وبحبّه للتكسّب من جهة أخرى . فمن ذلك قوله فيه :

أوتيتَ فضلَ خلافةٍ كنبُوّةٍ ، ونَجِيَّ إلهامٍ كوَحيٍ يُوحَى
أخليفةَ اللهِ الرِّضَى وسَبيلَهُ ، ومَنارَهُ ، وكتابَهُ المَشرُوحَا
يا خيرَ مَنْ حجّتْ إليهِ مطيّةٌ ، يا خيرَ مَن أعطى الجزيلَ مَنُوحَا
ماذا تقولُ؟.. جَلَلتَ عن أفهامِنا ، حتى استوَيْنا أعْجَماً وفَصِيحَا

١ اشتملت : تلففت بثيابها . الأرائك : جمع الأريكة ، وهي سرير منجد مزين . الخرد : الواحدة خريدة ، وهي البكر من النساء . التفعت : اشتملت . الصيد : جمع الأصيد ، وهو الملك ، أو الرجل الذي يرفع رأسه كبراً .
٢ الغطامط : البحر العظيم الأمواج . تدرأ : تدفع دفعاً شديداً . اليم : البحر .
٣ الجواشن : جمع الجوشن ، وهو زرد كالدرع يجعل للصدر . الخفاتين : جمع الخفتان ، وهو نوع من الدروع . يصف الحراقات المدرعة وما عليها من حديد وزرد .

نَطَقَتْ بكَ السَّبْعُ المَثاني ألسُناً ، فكَفَيْنَنا التَّعريضَ والتصريحَا[1]
تَسعى بنُورِ اللهِ بَينَ عِبادِهِ ، لِتُضيءَ بُرْهَاناً لَهُمْ وتَلُوحَا
وَجَدَ العِيانُ سَنَاكَ تحقيقاً ولَمْ تُحِطِ الظنُّونُ بكُنْهِهِ تَصريحَا
أخشاكَ تُنسِي الشمسَ مَطلَعَها كما أنسى المَلائِكَ ذِكرُكَ التسبيحَا
صُوِّرْتَ مِن مَلَكوتِ رَبِّكَ صُورَةً وأمَدَّها عِلْماً ، فكُنْتَ الرُّوحَا
أقسَمتُ لَوْلا أنْ دُعِيتَ خَليفَةً ، لَدُعِيتَ من بَعدِ المسيحِ مَسيحَا
شَهِدَتْ بمفخَرِكَ السَّمواتُ العُلى وتَنزَّلَ القرْآنُ فيكَ مَديحَا

وقال فيه أيضاً :

مَلِكٌ إذا نَطَقَتْ عُلاهُ بمَدحِهِ ، خَرِسَ الوُفُودُ وأُفْحِمَ الخُطباءُ
هُوَ عِلّةُ الدُّنْيا ومَنْ خُلِقَتْ له ، ولِعِلّةٍ مَا كَانَتِ الأشْيَاءُ
من صَفوِ ماءِ الوَحيِ ، وَهوَ مُجاجةٌ من حَوْضِهِ اليَنْبوعِ ، وَهوَ شِفاءُ[2]
من أيكَةِ الفِرْدَوْسِ حيثُ تَفتّقَتْ ثَمَرَاتُهَا ، وتَفَيّأَ الأفْيَاءُ
من شُعلَةِ القَبَسِ التي عَرَضَتْ على مُوسَى ، وقد حارَتْ بِهِ الظّلْماءُ
من مَعدِنِ التّقديسِ ، وَهوَ سُلالَةٌ من جَوْهرِ المَلَكوتِ ، وَهوَ ضِيَاءُ
من حيثُ يُقتَبَسُ النهارُ لمُبصِرٍ ، وتُشَقّ عن مَكنُونِها الأنْبَاءُ
فَتَيَقّظُوا من غَفْلَةٍ وتَنَبّهُوا ، ما بالصّباحِ عن العُيونِ خَفَاءُ
لَيْسَتْ سماءُ اللهِ ما تَرَوْنَهَا ، لكِنْ أرْضاً تحتَوِيهِ سَمَاءُ

١ السبع المثاني : فاتحة القرآن وهي سبع آيات .
٢ المجاجة : ما يرمى من الريق ، والمراد هنا ما يمجه حوض الوحي . الينبوع : أي المتدفق .

أمّا كَوَاكِبُهَا لَهُ فَخَوَاضِعٌ ، تُخْفِي السّجودَ، وَيَظْهَرُ الإِيمَاءُ
وَالشمسُ تُرَجِّعُ عن سَنَاهُ جفونَها فكأنّها مَطْرُوفَةٌ مَرْهَاءُ[1]
هَذَا الشّفِيعُ لأُمّةٍ يَأْتي بهَا ، وَجُدُودُهُ لجُدُودِهَا شُفَعَاءُ
هَذَا أمِينُ اللهِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَبِلادِهِ، إنْ عُدّتِ الأُمَنَاءُ

ومن قوله فيه :

ما شِئْتَ لا ما شاءتِ الأقْدَارُ ، فَاحكُمْ فأنتَ الوَاحِدُ القَهّارُ
وَكَأنّمَا أنتَ النّبيُّ مُحَمّدٌ ، وَكَأنّمَا أنْصَارُكَ الأنصَارُ
أنتَ الذي كانَتْ تُبَشّرُنَا بِهِ ، في كُتْبِهَا، الأحْبَارُ وَالأخبَارُ
هَذَا إمَامُ المُتّقِينَ وَمَنْ بِهِ قد دُوّخَ الطُّغْيَانُ وَالكُفّارُ
هَذَا الّذي تُرْجَى النّجاةُ بحُبّهِ ، وَبِهِ يُحَطّ الإصْرُ وَالأوْزَارُ
هَذَا الّذي تُجدي شَفَاعَتُهُ غداً، حَقّاً، وَتَخمَدُ أن تَرَاهُ النّارُ

ويجري في شعره على سياسة الشيعة في الطعن على بني أمية ورميهم بالكفر ، ويذكر مناصبتهم العداء لعلي ، واغتصابهم الخلافة جوراً وعدواناً ، وقتلهم الحسين بكربلاء ، إلى ما هنالك مما ينسبه الشيعيون إليهم ، ويعيرونهم به . ويعرض إلى انهيار دولتهم في الشام وكيف طردوا عنها . ويبشر بقيام المعزّ للقضاء عليهم في الأندلس وارتجاع الحقّ السليب . قال من قصيدة :

لَوْ يَستَطيعُ البَحرُ لاستَعدى على جَدْوَى يَدَيْكَ ، وَإنّه لَقَمِينُ[2]

١ المرهاء : المصابة بالمره ، وهو داء يصيب العين عند تركها الكحل . رجع هنا متعد .
٢ قمين : جدير . أي جدير بأن يستعدي عليك .

أمْدِدْهُ ، أوْ فاصْفَحْ لَهُ عن نَيلِه فَلَقَد تَخَوَّفَ أن يُقالَ : ضَنينُ

وَأذَنْ لَهُ يُغْرِقْ أُمَيَّةَ مُعْلِناً ، مَا كُلُّ مَأذُونٍ لَهُ مَأذُونُ

وَاعْذِرْ أُمَيَّةَ أنْ تَغَصَّ بِريقِهَا ، فَالْمُهْلُ مَا سُقِيَتْهُ وَالغِسلينُ[1]

ألقَتْ بأيدِي الذُّلِّ مُلقى عَمرِها بالثَّوْبِ ، إذْ فَغَرَتْ لَهُ صِفّينُ[2]

قد قادَ أمرَهُمُ ، وَقَلّدَ ثَغْرَهُمْ ، مِنهُمْ مَهِينٌ لا يَكَادُ يُبينُ[3]

لَتُحَكِّمَنَّكَ أوْ تُزَايِلُ مِعْصَماً كَفٌّ ، وَيَشْخُبُ بالدِّماءِ وَتِينُ[4]

أوَلَمْ تَشُنَّ بِهَا وَقَائِعَكَ الّتي جَفَلَتْ ، وَرَاءَ الهِنْدِ ، منها الصِّينُ[5]

هَل غيرُ أُخرَى صَيْلَمٍ ، إنّ الّذي وَقَاكَ تِلكَ بأُخْتِهَا لَضَمينُ[6]

بَلْ لَوْ سَرَيتَ إلى الخَليجِ بِعَزْمَةٍ ، سرَتِ الكَوَاكِبُ فيه وَهيَ سَفِينُ[7]

١ المهل : القطران الرقيق ، والقيح وما ذاب من نحاس أو حديد . الغسلين : ما يسيل من جلود أهل النار ولحومهم ودمائهم .

٢ عمرها : أي عمرو بن العاص ، يشير إلى ما ترويه الشيعة من أن الإمام عليّاً أدرك عمرو ابن العاص يوم صفين يريد قتله ، فخاف عمرو فكشف ثوبه عن عورته ، فاستحيا علي ورجع عنه . وقيل إن علياً طعنه طعنة جاءت في درعه فألقته إلى الأرض .

٣ ثغرهم : أي ثغر بني أمية . والمراد الأندلس . مهين : يريد به الحكم المستنصر بالله . وكان حازماً حسن التدبير . ولم يكن مهيناً كما يزعم الشاعر .

٤ كف : فاعل لتحكمنك وتزايل على التنازع . يشخب : يسيل . الوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه ، وهو يسقي العروق كلها بالدم .

٥ بها : الضمير يعود إلى الكف .

٦ الصيلم : الداهية . والمراد هل هي غير صيلم أخرى ، أي محاربتك للأمويين .

٧ الخليج : خليج النيل في مصر . الكواكب : أي الحراقات .

لوْ لم تكُنْ حزْماً أناتُكَ، لم يكُنْ للنّارِ، في حَجَرِ الزّنادِ، كمُونُ[1]
قدْ جاءَ أمْرُ اللهِ واقْتَرَبَ المدَى من كلّ مُطّلعٍ، وحَانَ الحينُ
ورَمَى إلى البَلَدِ الأمينِ بطرْفِهِ، مَلِكٌ، على سرّ الإلهِ، أمينُ[2]
لم يَدرِ ما رَجْمُ الظّنُونِ، وإنّمَا دُفعَ القضَاءُ إليْه، وهوَ يقينُ
كذَبَتْ رجالٌ ما ادّعتْ من حقّكم ومِنَ المَقالِ كأهلِهِ مَأفُونُ[3]
أبَني لُؤيٍّ، أينَ فضْلُ قديمِكُمْ، بَلْ أينَ حِلْمٌ كالجبالِ رصينُ؟[4]
نَازَعْتُمُ حقّ الوصيّ ودُونَهُ حَرَمٌ، وحِجرٌ مانعٌ، وحَجُونُ[5]
ناضَلْتُمُوهُ على الخلافَةِ بالّتي رُدّتْ، وفيكُمْ حدُّها المَسنُونُ[6]
حرّفْتُمُوها عَن أبي السّبْطَينِ عن زَمَعٍ، وليسَ من الهجانِ هَجينُ[7]
لَوْ تتّقُونَ اللهَ، لم يَطْمَحْ لهَا طَرْفٌ ولم يَشْمَخْ لهَا عِرْنِينُ
لكِنّكُم كنتُم كأهلِ العِجلِ لم يُحْفَظْ لمُوسَى فيهِمُ هرُونُ[8]

١ يريد أن الحزم يكمن في أناته كما تكمن النار في حجر الزناد .
٢ البلد الأمين : مكة .
٣ من حقكم : أي حقكم في الخلافة . مأفون : ضعيف الرأي .
٤ بنو لوي : القرشيون ، والمراد بهم الأمويون .
٥ الوصي : علي بن أبي طالب . الحرم : أي حرم مكة . الحجر : ما حواه الحطيم المدار بالكعبة من جانب الشمال . الحجون : جبل بمعلاة مكة .
٦ بالتي ردت : أي بالحجج والدعاوي التي ردت ، وكان وقع حدها في نحوركم .
٧ أبو السبطين : علي أبو الحسن والحسين سبطي النبي . الزمع : الدهش والخوف . الهجان : الكرام . الهجين : اللئيم ، من أبوه عربي ، وأمه أمة غير محصنة .
٨ أهل العجل : الاسرائيليون ، لأن قوماً منهم عبدوا العجل الذي صاغه لهم السامري من حلي فرعون . حتى جاء موسى فأنب هرون لبقائه معهم . يريد أن الأمويين كفروا فلم يحفظوا علياً للنبي محمد .

لَوْ تَسْأَلُونَ القَبرَ يَوْمَ فرِحتُمُ لأجَابَ أنّ مُحَمّداً مَحْزُونُ[1]
ماذا تُريدُ من الكِتابِ نَوَاصِبٌ ، ولَهُ ظُهُورٌ دُونَها، وَبُطُونُ[2]
هيَ بُغْيَةٌ أضْلَلْتُمُوها فَارْجِعُوا في آلِ يَاسِينٍ ثَوَتْ يَاسِينُ[3]
رُدّوا عَلَيهِمْ حُكمَهُمْ ،فعَليهِمُ نَزَلَ البَيَانُ، وَفيهِمُ التّبْيِينُ[4]
ألبَيْتُ بَيْتُ اللهِ ،وَهوَ مُعَظَّمٌ ، وَالنّورُ نُورُ اللهِ ، وَهو مُبِينُ
وَالسّتْرُ سِتْرُ الغيبِ ،وَهوَ مُحَجَّبٌ؛ وَالسّرّ سِرّ الوَحيِ ، وَهْوَ مَصُونُ
النّورُ أنتَ، وَكُلُّ نُورٍ ظُلْمَةٌ، وَالفَوْقُ أنت، وكلُّ فَوْقٍ دُونُ

ويزعم أن الأمويين أرادوا قتله لتشيعه ، فهرب من الأندلس إلى المغرب ، ونجا الشعر بنجاته ، ويريد بذلك أن يدل على إخلاصه للفاطميين وتمسكه بعقيدتهم . قال :

دَعاني لكُمْ وُدٌّ ، فلبّتْ عَزَائمي وَعَنسِي،وَليلي،وَالنّجومُ الشوَابكُ[5]
وَمُستكبِرٌ لم يُشْعِرِ الذُّلُّ نَفْسَهُ، أبيٌّ ، بأبكارِ المَهاوِلِ فَاتِكُ[6]

١ القبر : أي قبر النبي في المدينة .

٢ الكتاب : القرآن . النوا صب : الذين ينصبون العداء لعلي ويحاربونه ويريد بهم الأمويين . ظهور وبطون : أي ظواهر الآيات وبواطنها . دونها : أي دون إرادتهم في الإمامة .

٣ ياسين : من سور القرآن، وأراد بآل ياسين أهل البيت . ياسين الثانية : كنى بها عن الإمامة .

٤ البيان : أي بيان القرآن .

٥ عنسي : ناقتي .

٦ ومستكبر : أراد به نفسه معطوف على ما قبله . لم يشعر الذل نفسه : لم يلزق بها .

وَلَوْ عَلِقَتْهُ من أُمَيّةَ أحْبُلٌ ، لَتجُبَّ سَنامٌ من بني الشعرِ تامِكُ[1]
وَلمّا التَقَتْ أسْيَافُهَا وَرِمَاحُهَا شِراعاً، وَقدْ سُدّتْ عليّ المسالكُ
أجزْتُ عَلَيْها عابِراً، وَتركتُها، كأنّ المَنايا، تحتَ جَنبي ، أرائِكُ[2]
وَما نَقَمُوا إلا قَديمَ تَشَيّعي . فنَجّى هِزَبْراً شَدُّهُ المُتَدارِكُ[3]
وَما عرَفَتْ كرَّ الجِيادِ أميّةٌ ، وَلا حَمَلَتْ بَزَّ القنا وَهوَ شابِكُ[4]
وَلا جَرّدُوا نَصْلاً تُخافُ شَباتُه، وَلكنّ فُولاذاً غدا وَهوَ آنُكُ[5]
وَلم تَدْمَ في حَرْبٍ دُرُوعُ أُمَيّةٍ ، وَلكِنّهُم فيها الإماءُ العَوارِكُ[6]
إذا حَضَرُوا المُدّاحَ أخْجلَ مادحٌ وَأظلمَ دَيجُورٌ من الكُفرِ حالكُ[7]
ستُبدي لكَ التثريبَ عن آلِ هاشمٍ ظُباتُ سُيوفٍ حَشْوُهنّ المَهالكُ[8]
ألَلّهُ ! تَتْلو كُتْبَكُمْ ،وَشيوخُها ببَدْرٍ رَميمٌ ، وَالدّماءُ صَوائِكُ[9]
هُمُ لَحَظُوكُمْ ،وَالنّبُوءةُ فيكمُ ، كما لحَظَ الشّيبَ النّساءُ الفَوارِكُ[10]

١ أحبل : أشراك ، جمع حبل . جب : قطع . التامك : المرتفع ، والمراد أرفع الشعر .
٢ أرائك : جمع أريكة ، وهي السرير المزين الفاخر .
٣ شده : ركضه . المتدارك : المتلاحق .
٤ البز : السلاح .
٥ شباته : حده . الآنك : الرصاص .
٦ العوارك : جمع عارك ، وهي الحائض .
٧ حضروا : بمعنى أحضروا . الديجور : الظلام .
٨ التثريب : اللوم والتقبيح . آل هاشم : أي الفاطميون . الظبات : جمع ظبة ، وهي حد السيف .
٩ الرميم : البالي من العظام . الصوائك : اللواصق .
١٠ الفوارك : جمع فارك ، وهي المرأة التي تبغض زوجها وتنفر منه وتبتعد عنه .

وَقد أبهجَ الإيمانَ أن ثُلَّ عرشُها وأن خزرَتْ لحظاً إليها المَهالكُ [1]
بني هاشمٍ قد أنجزَ اللهُ وعدَهُ، وأطلعَ فيكم شمسَهُ وهيَ دالكُ [2]
ونادَتْ بثاراتِ الحُسينِ كتائبٌ، تُمطّي شراعاً في قناها المعاركُ [3]
تَؤمّ وصيّ الأوصياءِ، ودونَهُ صُدورُ القنا والمُرْهَفاتُ البواتكُ [4]
وضربٌ مُبينٌ للشّؤونِ، كأنّما هوَتْ بفَراشِ الهامِ عنهُ النّيازكُ [5]
فدُسْ بهم تِلْكَ الوُكونَ، فإنّني أرَى رَخَماً والبَيضُ بَيضٌ تَرائكُ [6]
لقد آنَ أنْ تُجزَى قُرَيشٌ بسَعيِها، فإمّا حَياةٌ، أوْ حِمامٌ مُواشكُ [7]

ولم يقتصر في سياسته الشيعيّة على الأمويين وحدهم بل شمل بها العبّاسيين معهم ، فصبّ عليهم هجاءه ، وعيرهم ضعفهم وانصرافهم إلى الملذات ، ونومهم عن نصرة الدين ، وتسلط الرّوم على بلادهم مع أن الملك الرّومي يلقى الهزيمة والهوان في محاربة المعزّ لدين الله . ويهزأ ببني

١ ثل عرشها : أي عرش الأمويين في الشرق . خزرت : نظرت بمؤخر عينها غضباً .
٢ دالك : مائلة للغروب .
٣ تمطي : تمد .
٤ وصي الأوصياء : أي المعز لدين الله . البواتك : القواطع .
٥ الشؤون : موصل أو ملتقى قبائل الرأس . فراش الهام : عظام الرؤوس الرقاق . عنه : الضمير يعود للضرب . النيازك : الرماح القصيرة ، واحدها نيزك .
٦ بهم : أي بالكتائب . الوكون : جمع وكن ، وهو عش الطائر . الرخم : طائر ضعيف أبقع يشبه النسر في الخلقة ، يختار لبيضه أطراف الجبال الشاهقة وشقوق الصخور ليعسر الوصول إليه . وأراد بالرخم الأمويين الضعاف في الأندلس . البيض : جمع بيضة ، وهي الخوذة التي تقي الرأس . الترائك : جمع تريكة ، وهي بيضة الطائر بعدما يخرج منها الفرخ .
٧ مواشك : مسرع .

العبّاس فيسميهم أبناء الطليق[1] وأبناء نُتَيلة ، ويهددهم بنهوض الخليفة الفاطمي إليهم ليزيل خلافتهم ، ويرد على الطالبيين حقوقهم ، ويخضع البلاد الخارجة التي استقلّت عنهم ؛ ويخمد شوكة البزنطيين الذين استطالوا عليهم ، فمن ذلك قوله يهنىء المعزّ بفتح مصر :

تقولُ بنو العباس : هل فُتِحتْ مصرُ ؟ فقُل لبني العبّاس : قد قُضِيَ الأمرُ !
وقد جاوزَ الإسكندريّةَ جَوْهَرٌ ، تُطالِعُهُ البُشرَى ، ويَقدُمُهُ النصرُ
وقد أوْفَدَتْ مِصرٌ إليهِ وُفودَها ، وَزِيدَ إلى المعقودِ من جسرِها جسرُ
فما جاءَ هذا اليوْمُ إلاّ وَقد غَدَتْ وَأيدِيكُمُ منها وَمن غيرِها صِفرُ
فلا تُكثِرُوا ذِكرَ الزّمانِ الذي خَلا ، فذلكَ عصرٌ قد تقضّى ، وَذا عصرُ
أفي الجَيشِ كنتُم تَمترُونَ ، رُوَيدكمْ ! فهذا القنا العرّاصُ وَالجحفلُ المجْرُ[2]
وَقد أشرَقَتْ خَيلُ الإلهِ طَوَالِعاً على الدّينِ وَالدّنيا كما طَلَعَ الفَجرُ
وَذا ابنُ نبيّ اللهِ يَطلُبُ وِترَهُ ، وَكانَ حَرٍ أن لا يضيعَ لهُ وِترُ[3]
ذَرُوا الوِرْدَ في ماءِ الفُرَاتِ لخَيلِهِ فلا الضّحلُ منه تمنَعونَ وَلا الغَمرُ[4]
أفي الشمسِ شكٌّ أنّها الشمس بعدما تجلّتْ عِياناً ، ليسَ من دونها سِترُ ؟

١ الطليق : المراد به العباس بن عبد المطلب ، وأمه نتيلة . تسميه الشيعة الطليق لأنه كان في جملة أسرى بدر ، فأطلقه النبي وعفا عنه .

٢ تمترون : تشكون . العراص : اللدن . المجر : الكثير .

٣ الوتر : الثأر .

٤ الضحل : الماء القليل ، وضده الغمر .

وَمَا هيَ إلاّ آيَــةٌ بَعْدَ آيَةٍ ، وَنُذْرٌ لكم إن كان يُغنيكمُ النُّذر[1]

فكونوا حَصيداً خامِدِينَ أوِ ارْعَوُوا إلى مَلِكٍ في كَفّهِ المَوْتُ وَالنّشرُ!

أطيعوا إماماً للأئمّةِ فـاضِلاً ، كما كانَتِ الأعمَالُ يَفضُلُها البِرّ

رِدُوا ساقياً لا تَنْزِفُونَ حِياضَهُ جَمُوماً كما لا تَنزِفُ الأبحُرَ الذّرّ[2]

فإنْ تَتَبّعوهُ ، فهوَ مَوْلاكمُ الذي لهُ برَسولِ اللهِ من دُونِكم فَخرُ

وَإلاّ ، فبُعْداً للبَعيدِ ، فبَيْنَهُ وَبَيْنَكُمُ ما لا يُقَرّبُهُ الدّهرُ

أفي ابنِ أبي السبطَيْنِ أم في طَليقكمْ تَنَزّلَتِ الآيَاتُ وَالسّوَرُ الغُرّ ؟[3]

بَني نَتلَةٍ ! ما أوْرَثَ اللهُ نَتْلَةً وَما نَسلتْ هل يستوي العبد وَالحرّ ؟[4]

وَأنّى بهذا ؟ وَهيَ أعدَتْ برِقّهَا أباكُم ، فإيّاكُمْ وَدَعوَى هي الكفرُ

ذَرُوا الناس رُدّوهم إلى من يسوسهم فما لكُمُ في الأمرِ عُرْفٌ وَلا نكرُ[5]

وقال أيضاً :

وَلم أرَ زَوّاراً كسَيْفِكَ للعِدَى ، فهل عند هامِ الرّوم أهلٌ وَترْحيبُ[6]

١ النذر : الانذار .

٢ لا تنزفون : لا تنفدون ما فيها من الجود . الجموم : الكثير الماء . الذر : صغار النمل .

٣ ابن أبي السبطين : أي المعز لدين الله . أبو السبطين : علي بن أبي طالب ، والد الحسن والحسين سبطي النبي . يريد أن القرآن نص على خلافة علي وأبنائه .

٤ نتلة ، والأصل نتيلة : أم العباس بن عبد المطلب جد العباسيين ، وهي نتيلة بنت جناب ابن مالك ، من بني النمر بن قاسط ، يقول : إنها أمة لم يورثها الله خلافة الرسول ولا أورث أولادها .

٥ يريد ما لكم من الأمر شيء يعرف أو ينكر .

٦ أهل وترحيب : أي هل تقول هام الروم لسيفه : أهلا ومرحباً ، حتى أكثر من زيارتهم .

إذا ذكروا آثار سيفك فيهم ، فلا القطر معدود ولا الرمل محسوب
وفيما اصطلوا من حرّ بأسك واعظ ، وفيما أذيقوا من عذابك تأديب
ولكن ، لعلّ الجاثليق يغرّه على حلب نهب هنالك منهوب[1]
وثغر بأطراف الشآم مضيّع ، وتفريق أهواء مراض وتخريب[2]
وما كلّ ثغر ممكن فيه فرصة ولا كلّ ماء بالجدالة مشروب[3]
ومن دون شعب أنت حاميه معرك وبيء وتصعيد كريه وتصويب[4]
وصعق بركن الأفق وابن طهارة يذبّ عن الفرقان بالتاج معصوب[5]
وجرد عناجيج وبيض صوارم ، وصيّابة مرد وكرّامة شيب[6]
وسفن إذا ما خاضت اليمّ زاخراً جلت عن بياض النصر وهي غرابيب[7]
تشبّ لها حمراء قان أوارها ، سبوح لها ذيل على الماء مسحوب[8]

١ يشير إلى استطالة الروم على حلب في السنوات الأخيرة من حياة سيف الدولة ، وبعد موته . الجاثليق : متقدم الأساقفة .

٢ الثغر : كل موضع يخشى منه دخول العدو إلى البلاد .

٣ الجدالة : الأرض .

٤ الشعب : الطريق في الجبل ، والناحية والحي العظيم . الوبيء : الوخيم . التصويب : ضد التصعيد في الجبل .

٥ الصعق : شدة الصوت . يذب : يدافع . الفرقان : القرآن .

٦ العناجيج : جمع عنجوج ، وهو النجيب من الخيل . الصيابة : الخيار من كل شيء . الكرامة : المفرط في الكرم ، مفرد نزله منزلة الجمع لوجود التاء فيه ومجاراة لصيابة .

٧ اليم : البحر . الغرابيب ، جمع غربيب : وهو الأسود . يريد أن السفن مطلية بالقار أي الزفت .

٨ حمراء : أي نار حمراء . القاني : الشديد الحمرة . الأوار : الدخان . وهي نار السفن الحراقة .

لَقيتُ بني مَرْوانَ جانبَ ثغرِهم ، وَحَظُّهُمُ من ذاكَ خُسرٌ وَتتبيبُ[1]
وَعَارٌ بِقَوْمٍ أنْ أعَدّوا سَوَابحاً صُفوناً بها عن نُصرَةِ الدينِ تنكيبُ[2]
وَقد عَجَزُوا في ثغرِهم عن عدوّهمْ بحَيثُ تجُولُ المُقرَباتُ اليَعابيبُ[3]
وَجَيشُكَ يَعتادُ الهِرَقلَ بسَيفِهِ ، وَمِن دونه اليَمُّ الغُطاميطُ وَاللُّوبُ[4]
يُخَضْخِضُ هذا المَوْجُ حتى عُبابُهُ إذا التجَّ من هام البطاريق مخضُوبُ[5]
فمأثورُ ذِكرِ المجدِ فيها مُفَضَّضٌ ، وَفوْقَ حديدِ الهندِ منهنّ تذهيبُ[6]
وَمن عَجبٍ أن تشجُرَ الرّومُ بالقَنا فتُوطأُ أغمارٌ وَهَضْبٌ شَناخيبُ[7]
وَنَوْمُ بَني العَبّاسِ فوْقَ جُنوبِهمْ وَلا نَصرَ إلا قَينةٌ وَأكاويبُ[8]
وَأنتَ كَلوءُ الدهرِ لا الطَّرْفُ هاجعٌ وَلا العزْمُ مرْدوعٌ وَلا الجأشُ منخوبُ[9]

١ التتبيب : الاهلاك . أي لا حظ لهم من هذه الحراقات ، لأنهم لا يملكون مثلها .
٢ السوابح : الخيل التي تسبح في عدوها . الصفون : جمع الصافن ، وهو من الخيل ما قام على ثلاث قوائم ، وعلى طرف حافر الرابعة .
٣ المقربات : الخيول الكريمة . اليعابيب : جمع يعبوب ، وهو الفرس السريع الطويل .
٤ الهرقل : أي ملك الروم . الغطامط : العظيم الأمواج . اللوب : جمع لابة ، وهي الحرة ، أرض ذات حجارة نخرة سود .
٥ العباب : معظم ارتفاع الماء . التج : اضطرب . البطاريق : قواد الروم ، واحدهم بطريق .
٦ فيها : أي في سيوف جيشك .
٧ تشجر : تطعن . الاغمار : المياه . الهضب : جمع هضبة ، وهي الجبل المنبسط على وجه الأرض . الشناخيب : جمع شنخوب وهو أعلى الجبل . يريد ان الروم دخلوا أرض الاسلام ، فوطئوا بحارها وجبالها .
٨ الأكاويب : أكواب الخمر ، واحدها كوب .
٩ الكلوء : الحافظ . الجأش : روع القلب . منخوب : جبان .

هم أهلُ جرّاها وأنتَ ابنُ حرْبها،   ففي القرْبِ تبعيدٌ وفي البُعد تقريبُ[1]
ولا عجبٌ والثغرُ ثغرُكَ كلُّهُ ،   وأنتَ وليُّ الثأرِ والثأرُ مطلُوبُ
وأنتَ نظامُ الدّينِ وابنُ نبيّهِ ،   وذو الأمرِ مدعوٌّ إليهِ ، فمندُوبُ

منزلته

قال أبو العلاء المعرّي حين أنشد شعره: « ما أشبهه إلاّ برحًى تطحن قروناً » . ولم يبتعد ابن رشيق عن المعري إذ يقول فيه : « وفرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى الا القليل النادر كأبي القاسم بن هاني ومن جرى مجراه . » فكلا الأديبين أصاب موضع الضعف من الشاعر لأن الموسيقى الضاجة الصاخبة لا يأنس بها الفن الجميل كما يأنس بالموسيقى الناعمة المترقرقة . وقد تعنف الموسيقى اللفظية وترتفع تموّجاتها فتلمس جانب العظمة والجلال ، دون أن يكون لها جلبة وضجيج

على أن الأدباء الأقدمين لم يتفقوا في أحكامهم على ابن هاني ، فالفتح بن خاقان يكيل له الثناء جزافاً ، على عادته في تقديم الشعراء والكتّاب إذ يقول : « علِقٌ خطير ، وروض أدب مَطير ، غاص في طلب الغريب حتى أخرج دره المكنون ، وبهرج بافتنانه فيه كلّ الفنون . وله نظم تتمنى الثريا أن تُتوّج به وتُقلّد ، ويودّ البدر أن يُكتَب فيه ما اخترع وولّد . »

ويرى ابن خلّكان أن أبا العلاء لم ينصف الشاعر بهذا المقال « وأن

[1] هم : أي العباسيون . أهل جراها « أي أهل ذنبها وجناتها . يعير العباسيين بأنهم على قربهم من الروم لا يستطيعون دفعهم » وأن المعز على بعده عنهم يحاربهم ويدفعهم .

الذي حمله على هذا الإفراط تعصّبه للمتنبي . واتفق الفتح بن خاقان وابن خلكان على تقبيح شعره لما فيه من الكفر وفساد العقيدة ، وإن يكن هذا العيب لا يلمس جوهر الشعر ، لأن الفن الجميل لا يقاس على صحة العقائد وصلاح الأخلاق .

وكان المغاربة يلقبون ابن هاني متنبي الغرب ، قال ياقوت في معجم الأدباء : « أبو القاسم الأزدي الأندلسي أديب شاعر مفلق ، أشعر المتقدّمين والمتأخرين من المغاربة ، وهو عندهم كالمتنبي عند أهـــل الشرق . »

ومن يتتبع ديوان الشاعر بالمطالعة والدرس يجد فيه أشياء كثيرة تذكره بشاعر سيف الدولة . فإن ابن هاني دخل المغرب قبل مقتل المتنبي بسنة واحدة ، فإذا كانت بينهما مشابهات في طريقة المدح أو في الألفاظ والمعاني ؛ فغير عجيب أن يكون متنبي الغرب قد انسحب على أذيال متنبي الشرق ، وإن تكن بعض هذه المشابهات تلائم روح الشاعرين وتعد من الميزات المشتركة بينهما ، وأغرب شيء أن معظمها من مساوىء أبي الطيب لا من حسناته .

ونعلم من شعر ابن هاني أنّه اطّلع على ديوان المتنبي وقرأه ، فقد ذكر ذلك في قصيدة هجا بها رجلاً أعاره الكتاب ، ثمّ أساء المعاملة في تقاضيه ، فرماه بالجهل ، وزعم أنّه أفسد شعر أبي الطيب بما أدخل عليه من التصحيف حتى أخمل ذكره في المغرب . ويقول انه عني بإصلاح فساده، فلمّا ردّ على المعاني رونقها، وأزال الشوائب التي علقت بها ، أخذ الرجل يطالبه بالكتاب ، فتوالت رسائله ورسله ، تلحّ في المقاضاة ، وتنحي عليه لوماً . قال فيها :

تَنَبّأ المُتَنَبّي فيكُمُ عُصُرًا ، وَلَوْ رَأى رَأيَكُمْ في شعرِه كَفَرَا
مَهلاً فلا المُتَنبي بالنّبيّ ، وَلا أعُدّ أمْثَالَهُ في شِعرِهِ سُوَرَا
تِيهتُمْ عَلَينا بمَرْآهُ ، وَعَلّكُمُ لم تُدْرِكُوا مِنهُ لا عَيناً وَلا أثَرَا
هذا ، على أنّكُمْ لم تُنصِفُوهُ ، وَلا أوْرَثْتُمُوهُ حَميدَ الذّكرِ إن ذُكرَا
وَيْلُمّهِ شاعِراً أخْمَلْتُمُوهُ ، وَلَمْ نَعْلَمْ لَهُ عِندَنا قَدراً وَلا خَطَرَا[1]
فقد حَمَلْتُمْ عَلَيهِ في قصائِدِهِ ما يُضْحِكُ الثّقَلَينِ : الجِنّ وَالبشَرَا
صَحّفتُمُ اللّفظَ وَالمعنى عليه مَعاً في حالَةٍ ، وَزَعَمتُمْ أنّه حَصَرَا[2]

ومنها :

أرَيْتُمُوني مِثالاً من رِوَايَتِكُمْ ، كالأعجميّ أنّى لا يُفصِحُ الخَبَرَا
أصَمُّ أعمَى ، ولكِنّي سَهِرْتُ لَهُ حتى رَدَدْتُ إليهِ السّمعَ وَالبَصَرَا
كانتْ مَعانيه لِيلاً ، فامتَعَضْتُ لهُ حتى إذا ما بهَرْنَ الشمسَ وَالقمرَا
ضَجِرْتُمُ وَأتانا من مَلامِكُمُ ، وَمن مَعارِيضِكُمْ ما يُشبه الضّجرَا[3]
تَتْرَى رَسَائِلُكُمْ فيه وَرُسْلُكمُ ، إذا أتَتْ زُمَراً أرْدَفتُمُ زُمَرَا[4]
فلوْ رَأى ما دَهاني من كِتابِكُمُ ، وَما دَهى شِعرَهُ منكم لَما شَعَرَا

١ ويلمه : مخففة عن ويل لأمه ، وهو دعاء على الشخص للذم أو للتعجب والمدح . الخطر : الشأن والقدر .

٢ حصر : استوعب . أي استوعب اللفظ والمعنى .

٣ المعاريض : جمع معراض ، وهو فحوى الكلام .

٤ تترى : متواترة ، وأصلها وترى ، لحقها الإبدال .

وَلَوْ حَرَصْتُمْ على إحياءِ مُهجتِهِ   كما حَرَصْتُمْ على دِيوانِه نُشِرا[1]

هَبُوا الكتابَ رَدَدْناهُ برُمَّتِهِ ،   فمَن يَرُدُّ لكُمْ أذهانَهُ أُخَرا

لئِن أعَدتُ عليكُمْ مِنهُ ما ظهَرا   فما أعَدتُ عَلَيكُمْ منهُ ما استَتَرا

أعَرْتُمُوني نَفِيساً منهُ في أدَمٍ ،   فمَن لكمْ أنْ تُعارُوا البحثَ والنظرا[2]

فهذه القصيدة تدلّ على إعجاب ابن هاني بالمتنبي ، وإن أنكر عليه النبوّة ، وأبى أن يعد أمثاله سوراً منزلة . وليس كلامه على خمول ذكره في المغرب إلا لكي يلقي الذنب على الرّجل الذي جمع شعره فأفسد روايته بتصحيفاته . وأظهر ما يبدو من التشابه بين الشاعرين ما في كلامهما من الجرأة على الدين ، وتسخيره لأهوائهما . على أن جرأة ابن هاني تعود إلى عقيدته الباطنية الغالية ، وجرأة المتنبي تعود إلى استخفافه بالعقائد والمذاهب ورغبته في الإفادة منها لتحقيق مطامعه .

وكلا الشاعرين يغالي في أقواله ويفرط في مقالاته حتى يجاوز الحقائق المعقولة في الحياة الدنيا ، ويبلغ حدّ الإحالة المستكرهة ، فيخرج بشعره إلى ضرب من الهذيان والتخليط .

ويتغزل ابن هاني كما يتغزل المتنبي بالحسان البدويات ساكنات الخيام ، ويتقلد مثله السيف لزيارة الحبيبة التي تحرسها الجيوش والخيول والسيوف والرماح ، ويذكر رمال بادية العرب ، ومنها بادية السماوة التي أقام بها أبو الطيب زمناً ، ولم يشهدها ابن هاني يوماً ، وتتردد في شعره أسماء المواضع التي حفلت بذكرها أشعار العرب الأقدمين . ويشبهه في

١ نشر : أي نشر من قبره ، وهذا يدل على أن المتنبي كان قد مات .

٢ الأدم : الجلد .

ضعف عاطفته وخشونة تعابيره الحية وتكلفه الصنعة فيها .

وتقع عند الشاعر المغربي على ألفاظ غريبة مهجورة كما تقع عليها عند الشاعر المشرقي ، وفيها ما تجفوه الطباع وتنبو عنه الأسماع لكراهة نبره . وكثيراً ما يلتقي الشاعران في استعمال ذا للإشارة وهي ضعيفة في صنعة الشعر ، دالّة على فساد الذوق ، وسوء الأداء .

وكان ابن هاني على اسفافه إلى التكسب بشعره ، لا يغفل عن الفخر بنفسه وذكر شجاعته وإقدامه ، والمباهاة بسيفه وسنانه مثل قوله :

لي صَارِمٌ، وَهوَ شيعيٌّ كَحامِلِهِ ، يَكادُ يَسْبِقُ كَرّاتي إلى البَطَلِ
إذا المُعزُّ مُعزُّ الدّينِ سَلّطَهُ ، لمْ يَرْتَقِبْ بالمَنايا مُدّةَ الأجَلِ

ويعدو على منافسيه شعراء بني أمية فيهاجمهم ويطاولهم ، ويشكو إلى المعزّ استئثارهم بجوائز الملك دونه لأنّه لم يسلك سبيلهم في مدح الأمويين ، بل جعل آماله في الخليفة الفاطمي دون سواه . قال :

أرَى شُعَرَاءَ المُلكِ تَنحِتُ جانبي وَتَنبو عن الليثِ المَخاضُ الأوَارِكُ[1]
تَخُبّ إلى مَيْدانِ سَبقي بِطاؤُها ؛ وَتلكَ الظّنونُ الكاذِباتُ الأوَافِكُ
رَأتْني حِماماً فاقشعرّتْ جلُودُها ، وَإني زَعيمٌ أن تَلينَ العَرَائِكُ[2]
تُسيءُ قَوَافيها ، وَجُودُكَ مُحسِنٌ ، وَتُنشِدُ إرْناناً وَمَجدُكَ ضَاحِكُ[3]
وَتُجدى وَأُكدى وَالمناديحُ جَمّةٌ ، فما لي غنيّ البالِ وَهيَ الصّعالِكُ؟[4]

١ المخاض : الحوامل من النوق . الأوارك : التي ترعى الأراك .
٢ زعيم : كفيل . العرائك : جمع العريكة وهي الطبيعة .
٣ الإرنان : رفع الصوت بالبكاء .
٤ تجدى : تعطى . وأكدى : وأمنع . المناديح : جمع مندوحة ، وهي السعة .

أبَتْ لي سَبيلَ القوْمِ في الشعرِ همّةٌ طَموحٌ وَنَفسٌ للدنيّةِ فاركُ[1]
وَما اقتادَتِ الدُّنيا رَجائي، وَدُونَها أكفُّ الرّجالِ اللاويات المَواعِكُ[2]
وَما سرّني تأميلُ غيرِ خَليفَةٍ ، وَأنّيَ لِلأرْضِ العَريضَةِ مالِكُ

على أنّه لم يبلغ مبلغ المتنبي في مفاخره وادّعاءاته ، ولا في تبجّحه بحروبه وغزواته ، ولا في انقضاضه على الشعراء والحساد من أعلى سمواته .

وكان ابن هاني أكثر الشعراء الأندلسيين احتفالاً بالحكمة وضرب المثل ، يتأثر بها خطى أبي الطيب ، ولكنه يقصر عنه أشواطاً ، إذ لم تكن له عبقريته ، ولم يكن لديه ذلك المعين الفلسفي الذي اغترف منه شاعر سيف الدولة ، فجاءت آراؤه غير ناضجة في كثرتها ، وندّت عنه الأمثال فما انقادت له طيعة . وحكمته في الغالب قائمة على شكوى الدهر ، وذكر الموت والتحذير من الدنيا الغرور ، وعلى أمثال هذه الأشياء التي ابتذلتها أفواه العامة ، فمن قوله في رثاء ولد :

وَهَبَ الدّهرُ نَفيساً فاستَرَدْ ، رُبّمَا جَادَ لَئيمٌ ، فَحَسَدْ
إنّمَا أعْطَى فُوَاقَيَ نَاقَةٍ ، بِيَدٍ شَيْئاً ، تَلَقّاهُ بِيَدْ[3]
خابَ مَنْ يَرْجُو زَمَاناً دائِماً تُعْرَفُ البَأساءُ مِنْهُ وَالنَّكَدْ
فَإذا مَا كَدّرَ العَيْشَ نَمَا ، وَإذا مَا طَيّبَ الزّادَ نَفِدْ

١ فارك : مبغضة .
٢ اللاويات : الماطلات والجاحدات . المواعك : المواطل .
٣ الفواق ، بضم الفاء وفتحها : ما بين الحلبتين من الوقت ، لأن الناقة تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدر ، ثم تحلب . فقوله : أعطى فواقي ناقة على تثنية الفواق ، والمراد أعطى وقتاً قصيراً .

ويعمد في تعزية أهل الميت إلى عادة القدماء في ضرب الأمثال بالملوك الأعزّة ، والأمم السالفة ، والوعول الممتنعة في قلل الجبال ، والأسود الخادرة في الغياض ، وبالظباء المتصرفة في القفار ، والنسور والعقبان والحيات لشدّة بأسها وطول أعمارها ، ليستخلص حكمة ساذجة ، وهي أن هؤلاء الملوك والجبابرة من الشعوب الخالية لم يعف الموت عنهم . ومثلهم الحيوانات الضارية أو الممتنعة في الجوّ والآكام والأودية ، أو الطويلة الأعمار . ولو نجا حيٌّ من الموت لكان أولئك الناس وتلك الحيوانات أولى من غيرها بالنجاة .

وقصر عن المتنبي في تصوير المعارك ، وزحف الجيوش والتحامها ، وتبيان أسلحتها ، وتفصيل حركات الخيل وانتقالاتها ، فلم يتم له التوسع اللحمي كما تمّ لشاعر الأمير الحمداني ، غير أنّه أجاد وصف السفن الحربية وتفصيل وقع نيرانها دون أن يصور المعركة البحرية التي التقى فيها أسطول الخليفة الفاطمي وأسطول ملك الرّوم .

ولم تكن له براعة المتنبي في ابتداع التصاوير . ولا حدّة ذهنه في اختراع المعاني . فأكثرها مطروق مجتلب ليس له فيه سوى جزالة التأدية ، وقوّة السبك ، على نَفَس شعري لا يُنكر . وهو في لغته وروحه أقرب إلى الشعراء المشارقة منه إلى الشعراء الأندلسيّين .

ابن زيدون

(٣٩٤ – ٤٦٣ ﻫ (١٠٠٣ – ١٠٧٠ م)

كان أبو الوليد أ. مد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي مز أبناء قرطبة ، ولد في خلافة هشام بن الحكم ابن عبد الرّحمن الناصر ، والأمر يومئذ للمظفر ابن الحاجب محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور . وكان المنصور قد حجر على الخليفة واستقل بالسلطان دونه . فلمّا مات سنة ٣٩٢ ﻫ (١٠٠٢ م) انتقل الملك إلى ابنه المظفر ، فجرى على خطة أبيه في تنحية هشام . وتوفي المظفر سنة ٣٩٩ ﻫ (١٠٠٨ م) فصار الأمر بعده إلى أخيه عبد الرحمن الناصر ، فطمعت نفسه في الخلافة ، ولم يكن لهشام أولاد ، فطلب منه أن يوليه عهده ، فلم يردّ طلبه لضعف عزيمته . فغضب الأمويون وخلعوا الخليفة وسجنوه ، وبايعوا المهدي محمد بن هشام ، فتمكن الخليفة الجديد من قتل الناصر سنة ٣٩٩ ﻫ (١٠٠٩ م) فزالت بموته الدولة العامرية . ولكن المهدي جافى البربر فثاروا به ، وبايعوا المستعين سليمان بن الحكم ابن سليمان بن عبد الرحمن الناصر . ثمّ حاصروا قرطبة ، فاشفق أهلها على مدينتهم ، فأخرجوا هشام بن الحكم من السجن ، وجددوا له البيعة وقتلوا المهدي على أمل أن يتخلّصوا من الفتنة التي أثارها عليهم . فلم يُجدهم ذلك نفعاً ، لأن المستعين ألحّ على قرطبة بالحصار حتّى افتتحها عنوة سنة ٤٠٣ ﻫ (١٠١٣ م) فقتل هشاماً ، وانتهبت العاصمة وخرب

أجمل قصورها .

وكان عليّ بن حمود الادريسي قد جاء الأندلس من المغرب ، فدعا البربر إلى مبايعته . فأجابوه ، فدخل قرطبة سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) وقتل المستعين ، وتلقب بالناصر .

واستمرّ النزاع بين الأمويين والادارسة : والخلافة في قرطبة تتنقل بينهم حتى خُلع المعتدّ بالله سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م) فانقطعت بـه الدولة الأموية . وقتل المعتلي سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٤ م) فذهبت بموته دولة الادارسة الحمودية ، وقامت بعدها حكومة الجماعة الأرستقراطية ، وعلى رأسها أبو الحزم جَهْوَر بن محمد بن جهور من ملوك الطوائف .

وكان ابن زيدون في أثناء هذه الحوادث التي تقاذفت الأندلس طوال خمس وعشرين سنة يقيم في قرطبة ، وأبوه وقتئذ من وجوه الفقهاء فيها ، فتثقف ثقافة حسنة ، واستحكمت ملكته الشعرية وهو في حدود العشرين من عمره . وكان منحازاً في زمن الفتنة بعد انقطاع الدولة الأموية إلى العميد أبي الحزم بن جهور ، متصلاً بابنه الوليد ، وبينهما من الألفة والتصافي ما جعل ابن زيدون « يَعتدّ ذلك حساماً مسلولاً ، ويرى أنّه يردّ به صعب الخطوب ذلولاً . » على حدّ تعبير ابن حيّان . واستوزره أبو الحزم فقدمه إلى النظر على أهل الذمة لبعض الأمور العارضة ، وقصره بعد على مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء ؛ ولُقب بذي الوزارتين ، فأحسن التصرّف في ذلك ، وغلب على قلوب الملوك الذين كان يبعث سفيراً إليهم .

وكان يهوى ولاّدة بنت المستكفي ، تولى أبوها الخلافة الأموية بعد مقتل عبد الرحمن الخامس ، ولم يطل أمره حتى خلعه أهل قرطبة

سنة ٤١٦ ﻫ (١٠٢٥ م) فهرب إلى الثغر ومات هناك . وأقامت ابنته ولاّدة في قرطبة . قال ابن بسام : « وكانت في نساء أهل زمانها ، واحدة أقرانها ، حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر . وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر . يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرّتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها . » اﻫ.

فتعشقها أبو الوليد بن زيدون ، وجرت له معها أخبار مشهورة . وكانت ولادة شاعرة تداعبه أحياناً بهجائها ، وأحياناً تضرب له بالشعر مواعيدها . فمن ذلك ما حدّث عن أول اجتماع لهما قال : « وكنت في أيام الشباب ، وغَمرة التصاب ، هائماً بغادة ، تدعى ولاّدة . فلما قُدّر اللقاء ، وساعد القضاء ، كتبت إليّ :

تَرَقَّبْ إذا جَنَّ الظّلامُ زِيارَتي ، فإني رَأيتُ اللّيْلَ أكْتَمَ للسرّ
وَبي مِنكَ ما لَوْ كانَ بالبَدْرِ ما بدا ، وَباللّيلِ ما أدجَى ، وَبالنّجمِ لم يَسرِ »

وكان الوزير أبو عامر بن عَبدوس الملقب بالفار ، مشغوفاً بحبّها ، يبغي التفرّد بها . وكانت هي كثيرة العبث به ، وفي ذلك يقول ابن زيدون :

وَغَــرّكَ مِنْ عَهْــدِ وَلاّدَةٍ سَرَابٌ تَرَاءى ، وَبَرْقٌ وَمَضْ
هيَ المَاءُ يَـأبى عَلى قَـابِضٍ ، وَيَمْنَعُ زُبْدَتَـهُ مَنْ مَخَضْ

على أن ملاحقة ابن عبدوس لها جعلت الغيرة تدبّ في نفس الشاعر ،

فيقول فيهما :

عَيَّرْتمُونا بأنْ قد صَارَ يَخْلُفُنَا في مَن نُحِبُّ، وَما في ذاكَ من عَارِ
زَادٌ شَهِيٌّ، أَصَبْنا مِنْ أطَايِبِه بَعضاً، وَبَعضٌ صَفَحنا عنه للفَارِ

وأرسل إليها الوزير ابن عبدوس مرة امرأة تستميلها إليه، وتذكر لها محاسنه ومناقبه، وترغّبها في التفرّد به. فبلغ ابن زيدون ذلك، فكتب عن لسانها رسالته الشهيرة في سبّ أبي عامر والتهكم عليه، وأرسلها إليه من قِبَل ولاّدة، فبلغت منه كلّ مبلغ، واشتهر ذكرها في الآفاق، وافتضح بها الوزير. وفيها من التلميحات والتندرات ما يذكرنا برسالة التربيع والتدوير للجاحظ. وقد شرح هذه الرسالة غير واحد من أدباء المشارقة، منهم جمال الدين بن نُباتة المصري، وسمى شرحها « سَرح العيون، في شرح رسالة ابن زيدون » وهو شرح مفصّل ذكر فيه ترجمات الأعلام الواردة في الرسالة، مع تفسير الألفاظ والأمثال وإيضاح المعاني » فمن قوله فيها :

« أما بعد، أيها المُصابُ بعقله، المُورَّطُ بجهله. البيِّنُ سَقَطُه، الفاحشُ غَلَطُه. العاثِرُ في ذَيْلِ اغتِراره، الأعمى عن شمس نهاره. الساقطُ سقوطَ الذُّبابِ على الشراب، المُتهافتُ تَهافُتَ الفَراشِ في الشهاب. فانّ العُجبَ أكذَب، ومَعرفةَ المرءِ نَفسَه أصوَب. وإنك راسلتني مُستهدياً من صِلَتي ما صَفِرَت منه أيدي أمثالك، مُتصدّياً من خِلَتي لِما قُرِعَت دونه أنوفُ أشكالِك. مُرسلاً خليلتَكَ مُرتادَة، مستعملاً عشيقتك قَوّادة. كاذِباً نفسَكَ أنّكَ ستَنزِلُ عنها إليّ، وتَخلُفُ بعدها عليّ :

وَلَستَ بأوّلِ ذي هِمّةٍ دعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنّائِلِ

ولا شكَّ أنها قَلَتكَ إذ لم تَضَمَّن بك ، ومَلَّتكَ إذ لم تعزّ عليك . فإنّها أعذَرتْ في السِّفارة لك ، وما قصّرت في النّيابة عنك . زاعمة أنّ المُروءةَ لفظٌ أنت معناه ، والإنسانيّةَ اسمٌ أنت جسمه وهيُولاه . حتى خيّلت أن يوسفَ (عليه السلام) حاسَنَكَ فغَضَضْتَ منه ، وأن امرأةَ العزيز رأتك فسَلَتْ عنه . وأن قارونَ أصاب بعض ما كَنَزْتَ ، والنَّطِفَ عثَرَ على فضلِ ما ركَزْتَ[1] ، وكِسرى حملَ غاشيَتَكَ[2] ، وقَيصرَ رعَى ماشِيتَك . والإسكندر قتَلَ دارا في طاعتِك ، وأردشيرَ جاهدَ ملوكَ الطوائفِ[3] بخُروجِهم عن جماعتِك . والضّحّاك[4] استَدعى مسالمَتَك ، وجَذِيمَةَ الأبرَش[5] تمنّى منادمتك . وشيرين[6] نافست بُوران[7] فيك ، وبِلْقيس[8] قد غايَرت الزّبّاء عليك . وأنَّ مالك بن نُوَيرة[9] إنّما أردَفَ لك ، وعُروَةَ بن جعفر

١ النطف : قيل إنه رجل من بني يربوع كان فقيراً ، أغار على مال مرسل إلى كسرى من اليمن ، فانتهبه فاغتنى ، فضرب به المثل فقيل : لو كان عنده كنز النطف . ركز : دفن الكنوز من المال والمعادن .

٢ الغاشية : غطاء السرج وما ألبس جفن السيف من الجلود .

٣ ملوك الطوائف : يراد بهم ملوك الفرس ، لا ملوك الأندلس .

٤ الضحاك : قيل إنه رجل ملك الأرض ، وكانت أمه جنية فلحق بالجن .

٥ جذيمة الأبرش : ملك الحيرة ، قيل إن الزباء ملكة تدمر قتلته .

٦ شيرين : امرأة كسرى مشهورة بجمالها .

٧ بوران : امرأة المأمون بنت الحسن بن سهل مشهورة بجمالها .

٨ بلقيس : ملكة سبأ .

٩ مالك بن نويرة : شاعر وفارس جاهلي ، أدرك الإسلام وأسلم . قتله خالد بن الوليد ، وكان يقال له الردف ، والردف الراكب خلف الراكب وجليس الملك عن يمينه ، يشرب بعده ، ويخلفه إذا غزا .

إنّما رحل إليك . وكليبَ بن ربيعة إنّما حمى المرعى بعِزّتك ، وجَسّاساً إنّما قتله بأنفتك . ومُهلهِلاً إنّما طلَبَ ثأرَه بهِمّتك ، والسّمَوأل إنّما وفى عن عهدك . والأحنَفَ[1] إنّما احتبى[2] في بُردتِك . وحاتماً إنّما جاد بوَفْرِكَ ، ولقي الأضيافَ ببِشْرِك . وزيدَ بن مُهلهِل[3] إنّما ركبَ بفَخِذَيك ، والسُّلَيكَ بن السُّلَكة إنّما عدا على رِجليك ، وعامر بن مالك[4] إنّما لاعب الأسِنّة بيَدَيك . وقيس بن زُهير إنّما استعان بدَهائك ، وإياسَ بن مُعاوية[5] إنّما استضاء بمصباح ذكائك . وسَحبانَ إنّما تكلّم بلسانك ، وعمرو بن الأهتم[6] إنّما سُحِر ببيانك . الخ . . . »

وأفضت الحال بين الرجلين إلى عداء شديد ، فأخذ ابن عبدوس يسعى بمنافسه لدى أبي الحزم بن جهور . وشدّ ساعده جماعة من الواجدين على ابن زيدون ، يذكر منهم ابن حيّان عبد الله بن أحمد ابن المكويّ أحد حكام قرطبة ، فاتهموه بالخيانة العظمى ، وزعموا أنّه يحوك الدسائس لنزع السلطة عن الجهورية وإرجاعها إلى بني أمية . فغضب أبو الحزم عليه ، وأمر به إلى السجن ، فقضى فيه زمناً يبعث بالقصائد إلى الأمير يمدحه ويعاتبه ويسأله إطلاق سبيله ، فلا يجيبه .

١ هو الأحنف بن قيس مشهور بحلمه ووقاره .

٢ احتبى : اشتمل بثوبه ، أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

٣ زيد بن مهلهل : هو زيد الخيل شاعر فارس جاهلي أدرك الإسلام وأسلم . كان طوالا عملاقاً يركب الفرس العظيم فتخط رجلاه في الأرض . وعرفت له ستة أفراس بأسمائها .

٤ عامر بن مالك : سيد بني عامر ، ويكنى أبا براء ، ويلقب بملاعب الأسنة : فارس جاهلي .

٥ إياس بن معاوية المزني ولي القضاء في زمن عمر بن عبد العزيز .

٦ عمرو بن الأهتم : جاهلي ، قيل إن الجن استهوته .

ويمدح ابنه أبا الوليد ويستشفعه ، فلا يجد عنده ما كان يأمله ؛ أو ينظم الشعر متشوّقاً إلى ولاّدة ذاكراً أيّامه الحلوة معها .

وروى ابن حيّان أن أبا الوليد تشفّع له عند والده ، وانتشله من نكبته ، غير أن الفتح بن خاقان يقول في « القلائد » ان الوليد لم يعطف عليه ، ولا ردّ عنه الأذى ، فتحيل لنفسه حتّى فرّ من سجنه ، وتوارى في قرطبة . فلما توفي أبو الحزم سنة ٤٣٥ ﻫ (١٠٤٣ م) وقام بالأمر بعده ابنه أبو الوليد أعاد ابن زيدون إلى سابق نعمته ، فاتفق أن عرض له مطلب بحضرة ادريس بن عليّ الحسني في مالَقة ، فأطال المقام عنده ، حتّى ساء ظنّ أبي الوليد ، فعزله قبل رجوعه إليه . ثمّ عاد إلى حسن رأيه فيه ، فعهد إليه في السفارة بينه وبين رؤساء الأندلس ، فاكتسب بذلك الجاه والرفعة عند هؤلاء الملوك ، واجتذبه المعتضد بالله عبّاد بن محمد بن عبّاد صاحب إشبيلية ، فهاجر إليه من وطنه سنة ٤٤١ ﻫ (١٠٤٩ م) ، فاستخلصه واستوزره ، وألقى بيده مقاليد ملكه . فلزمه يقوم بخدمته ، حتّى توفي وانتقل الملك إلى ابنه المعتمد ، فجرى على خطة أبيه في استيزار ابن زيدون والاعتماد عليه .

وكانت الدولة الجهورية قد ضعفت في قرطبة بعد مرض أبي الوليد وعجزه ، وقيام ابنه عبد الملك بالأمر دونه . فطمع ابن ذي النون صاحب طُلَيطُلة بقرطبة . فاستنجد عبد الملك بالمعتمد ، وردّ الذُنّونيين عن بلده . ثمّ استولى المعتمد على قرطبة ، وأخرج منها أبناء جهور ، وضمها إلى مملكته سنة ٤٦١ ﻫ (١٠٦٨ م) وقيل إن ابن زيدون هو الذي زيّن له امتلاكها وحضّه عليه .

ومكث الشاعر الوزير مع المعتمد بن عباد في قرطبة ، حتّى ثار

أهل إشبيلية على اليهود من أجل رجل مسلم سجنه صاحب المدينة عبد الله بن سَلام لأنّه بطش بيهودي وسط السوق وجرحه، وحرّك عليه العامة زاعماً أنّه سبّ الشريعة . فأنكرت العامة حبسه ، وساءت الحال ، فكتب صاحب المدينة إلى المعتمد يخبره بخبر الحادث . فعجّل إنفاذ ولده الحاجب سراج الدولة إلى إشبيلية في جيش من نخبة علمائه ووجوه رجاله لمشارفة القصة ، والاحتياط على العامة . وكان أبو بكر بن عمّار وابن مَرتين يحسدان ابن زيدون لعلو مرتبته في تدبير الملك ، وهما من خاصة المعتمد بن عبّاد ، ومن كبار رجال دولته ، فكانا يتضوّران من منافسة ابن زيدون لهما . فأشارا على الملك بأن يوفده إلى إشبيلية في جملة من أوفدهم لتهدئة الثورة ، لما له من المكانة لدى الإشبيليين . فندبه المعتمد لهذه المهمة ، على ما كان يشكو من المرض وتقدم السن ، فلم يطل به الأمد حتى اشتدّ المرض عليه ، ونهكت الحمى قواه ، فقضى نحبه بإشبيلية صدر رجب (٤٦٣ هـ) فدفن فيها .

شعره

أكثر شعر ابن زيدون في الغزل والمدح والرثاء والشكوى والعتاب . وأجمله ما قاله في سجنه أو في بعده عن قرطبة متشوقاً إليها وإلى ولاّدة ، ذاكراً سوء حاله ، متظلّماً مما لحق به من الضيم والمهانة ، متلهّفاً على أيّامه الحلوة الماضية ، إذ كان الحبيب مصافياً ، والزمان مؤاتياً . فعرفت له قصائد وجدانية خالصة ، صادقة التعبير عن مشاعره وحياته ، زاخرة الإحساس بآلامه وآماله ، ووافقتها لغة ناعمة الألفاظ ، نقية الديباجة ، لطيفة الجرس ، بارعة الصنعة ، يستاغها السمع بلذة وارتياح ، وتهفو

إليها النفس متملية منها نفحات النشوة الفنية .

وشعر ابن زيدون ، على الإجمال ، لا يعلق به الغريب الوحشي ، ولا تخالطه التعابير الخشنة والقوافي الغليظة إلا قليلاً ، فمعظمه يجري على سنَن السهولة والرقة ، حتّى في مدائحه ومراثيه . وإن اختلفت لغتها بعض الشيء عن لغة غزله بولاّدة ، فظهرت عليها الجزالة وشدة الأسر حيناً بعد آخر ، لأنّه كان في غزله بولاّدة أندلسيّاً خالصاً ؛ ولم يكن كذلك في مدائحه ومراثيه ، أو في معاتباته للأمراء والوزراء .

غزله

لابن زيدون غزل تقليدي يجري في أكثره على نهج شعراء المشارقة المتقدمين ، وهو الذي يصدر به مدائحه ، فيذكر الإبل التي حملته إلى دار الحبيبة، مع أن الإبل لم تحفل بها الأندلس في أيامه، وإنّما حفلت بها زمن الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين . فذكره لها في شعره يعود على تتبعه طريقة المدح القديم ، لا على تصوير صادق لحياته وبيئته . وتبدو الحبيبة في غزله هذا بدوية وسط القباب ، محجبة في خدر تحرسه الخيول والسيوف والرماح . وقومها غيارى غاضبون على العاشق الذي يزورها لأنّهم يعدون الغرام جريرة لحرصهم على حصانة النساء . فمن ذلك قوله في استهلال قصيدة مدح بها الوزير محمد بن جهور :

أما علِمتْ أن الشفيعَ شبَابُ ، فيقصُرَ عن لوْم المُحِبِّ عِتابُ؟
علامَ الصِّبا غَضٌ يَرِفُّ رُوَاؤهُ ، إذا عَنَّ من وَصْلِ الحِسانِ ذهابُ[1]

[1] الرواء : الحسن . عن : ظهر واعترض .

وَفيمَ الهَوى مَحْضٌ يَشِفُّ صَفاؤه إذا لم يكنْ منهنّ عنهُ ثوابُ ؟
وَمُسعِفَةٍ بالوَصْلِ إذ مَرْبَعُ الحِمى لها كلّما قِظْنا الجَنابَ جَنابُ[1]
وَقَلّ لها نِضْوٌ بَرَى نَحضَهُ السُّرَى وَبَهماءُ غُفْلُ الصَّحصَحانِ تجابُ[2]
إذا ما أحبّ الركبُ وَجهاً مَضَوْا لَهُ فَهانَ عَلَيهِم أنْ تَخُبَّ رِكابُ[3]
عَرُوبٌ ألاحَتْ من أعاريبِ حِلّةٍ تَجاوَبُ فيها بالصّهيلِ عِرابُ[4]
غيارَى من الطّيفِ المُعاوِدِ في الكرَى مُشيحون من رَجمِ الظنون غِضابُ[5]
وماذا عليها أن يُسَنّيَ وَصْلَها طِعانٌ ، فإنْ لم يُغْنِنا ، فضِرابُ[6]
ألم تَدرِ أنّا لا نَراحُ لِريبةٍ ، إذا لم يُلَمَّعْ بالنّجيعِ خِضابُ[7]
وَلا نَنشَقُ العِطرَ النّمُومَ أريجُهُ ، إذا لم يُشَعْشَعْ بالعَجاجِ مَلابُ[8]

١ المربع : مكان نزول القوم في الربيع . الحمى : المكان الذي يحمى فيه الكلأ لئلا يرعاه غير النازلين فيه . قظنا : أقمنا في زمن القيظ . الجناب : الناحية ، وما قرب من محلة القوم .
٢ النضو : البعير المهزول . برى : أهزل . نحضه : لحمه . السرى : سير الليل . البهماء : الفلاة لا يهتدى فيها . الغفل : الخالية من العلامات التي تدل عليها . الصحصحان : الأرض المستوية الجرداء . تجاب : تقطع .
٣ تخب : تسرع . الركاب : الإبل .
٤ العروب : المرأة الضحاكة ، والمتحببة لزوجها . ألاحت : بدت . الحلة : محلة القوم . العراب : الخيل العربية الكريمة السالمة من الهجنة .
٥ مشيحون : محاذرون . رجم الظنون : التكلم بالظن ، ويراد به التهمة .
٦ يسني : يسهل وييسر .
٧ نراح لريبة : نقبل عليها . يلمع : يلون . النجيع : الدم .
٨ الأريج : الرائحة الطيبة . يشعشع : يخلط . العجاج : أي غبار الحرب . الملاب : العطر .

وكمْ رَاسَلَ الغَيْرَانُ يُهدِي وَعيده ... فما رَاعهُ إلا الطُّرُوقَ جوَابُ[1]
وَلَمْ يَثْنِنَا أنّ الرَّبابَ عَقيلَةٌ ، ... تَسَانَدُ سَعْدٌ دُونَهَا وَرِبَابُ[2]
وَأنْ رُكِزَتْ حوْلَ الخُدورِ أسنّةٌ ... وَحُفَّتْ بقُبِّ السّابحاتِ قِبَابُ[3]
وَلوْ نَذِرَ الحَيّانِ غِبَّ السُّرَى بنَا ... لكَرّتْ عُظالى، أوْ لَعَادَ كُلابُ[4]

على أن الغزل الذي نظمه مستقلاً بنفسه يختلف عن هذا بلغته وروحه وعاطفته ، ونريد به الغزل الذي قاله في ولاّدة فجاء معبراً عن حياته وأحواله أصدق تعبير ، فلغته ناعمة ، وروحه حضرية ، وعاطفته رقيقة ؛ وألطف غزلياته وأعلقها بالقلب ما بثّ فيه لواعجه وهو بعيد عنها إما في السجن أو خارج قرطبة ؛ فيجتمع له فيه الشوق واللوعة والألم والشكوى ؛ ويحفل بذكريات الأيام الماضية ومعاهد لهوه معها ، فتتراءى له في القصور والرياض والحدائق ، وعلى مجالس الشراب والغناء ، وفي الحفلات والأعياد والمواسم . وقلما صرح باسمها وشهرها ، بل كان يؤثر أن يكني عنها بذكر صفاتها الملوكية ، معترفاً بأنّه دونها منزلة ، ولكن الحبّ يجعل بينهما تكافؤاً .

وكانت ولاّدة أديبة مثقفة تميل إلى الأدباء وتعاشرهم ؛ وماجنة لعوباً تعبث بالقلوب وتحطمها . تمنح مودتها لمن تشاء ، وتستردها متى تشاء ؛ فلم تكن في ودها كاذبة ، ولا في رجوعها عنه غادرة ، وإنّما

١ الطروق : أي طروق الحي ليلا .
٢ الرباب : اسم امرأة . العقيلة : الكريمة المخدرة . سعد والرباب : قبيلتان من قبائل العرب .
٣ القب : جمع الأقب ، وهو الضامر من الخيل . السابحات : الخيل التي تسبح في عدوها .
٤ نذر به : علمه . الحيان : أي سعد والرباب . عظالى وكلاب : يومان من أيام العرب .

هو طبعها المرح الهازىء، يستلذ خفقان القلوب، فتتبدّل واحداً بعد آخر ، تنقّلَ الفراشة من زهرة إلى زهرة . وكان ابن زيدون يعلم تقلب أهوائها ، ولا يجهل أن أدباء قرطبة يتنافسون في معاشرتها واسترضائها، ولا سيما الوزير ابن عبدوس الذي لا ينقطع عن ملاحقتها ليتفرّد بها . فنراه يخصّ جانباً من غزله بذكر الحسّاد الذين يحاولون أن يفتنوها عنه ، ويرجو منها أن تدوم على العهد ، وتذكر صافي مودّته ؛ ويشرح لها سوء حاله بعدها ، وشدّة شوقه إليها ؛ ويأبى أن تضعف ثقته بها ، فيتصوّر الغدر والخيانة فيها .

وليس حنينه إلى قرطبة دون حنينه إليها ، فإنّه كغيره من شعراء الأندلس شديد التعلّق بموطنه ، فإذا ابتعد عنه أخذ يتشوّق إليه ، ويتلهّف على أيّامه الماضية فيه ، ويعدّ نفسه غريباً في كلّ بلد ينزله بعيداً عنه . فغزله بولاّدة حافل بذكريات ملاهي قرطبة ومنازهها ، وجمال طبيعتها وعمرانها؛ ووصفه لقرطبة وحدائق الزهراء بالقرب منها ، يبعث في نفسه الشوق إلى ولاّدة ، فيشرع في مخاطبتها وبثّ تباريحه لها ؛ ويجعل الطبيعة شريكة له في آلامه وبكائه وأحزانه ، تحس بإحساسه وتحنو عليه حنو الخليل الوفي ، فبين قرطبة وولاّدة تتداعى أفكار الشاعر وعواطفه ، وتلتقي وجدانية الطبيعة ووجدانية الحبّ في المجرى السحري من الفيض الباطن . فمن ذلك قصيدته الشهيرة التي بعث بها إلى ولاّدة ، وهو بعيد عنها :

أضْحى التنائي بديلاً من تَدَانينَا ، وَنابَ عن طيبِ لُقْيَانا تجافينَا
ألاّ وَقد حانَ صُبْحُ البَيْنِ، صَبّحنَا حَيْنٌ فقَامَ بنَا للحَيْنِ ناعينَا [1]

١ الحين : الهلاك .

مَنْ مُبلغُ المُلبِسينا، بانتِزاحِهِمُ، حُزْناً معَ الدّهرِ لا يَبلى وَيُبْلينَا
أنّ الزّمانَ الّذي ما زَالَ يُضْحكُنا أُنساً بقُرْبهِمُ قد عادَ يُبْكينَا
غِيظَ العِدا من تَساقينا الهَوَى فدعَوا بأنْ نَغَصّ فقالَ الدّهرُ: آمينَا
فانحَلّ ما كانَ مَعقُوداً بأنْفُسِنا، وَانبتّ ما كانَ مَوْصُولاً بأيْدِينَا[1]
وَقد نكُونُ وَما يُخشَى تَفَرّقُنا، فاليَوْمَ نحنُ وَما يُرْجَى تَلاقِينَا
يا ليتَ شِعرِي وَلم نُعتِبْ أعادِيَكم، هل نالَ حظّاً من العُتْبى أعادِينا؟[2]
لم نَعتقِدْ بعدَكمْ إلا الوَفاءَ لَكُم رَأياً، وَلم نَتَقلّدْ غَيرَهُ دِينَا
ما حَقّنا أن تُقِرّوا عَينَ ذي حَسَدٍ بنا وَلا أنْ تَسُرّوا كاشِحاً فِينَا[3]
كُنّا نرَى اليأسَ تُسلِينا عوَارِضُهُ، وَقد يَئِسنا فما لليأسِ يُغْرِينَا؟
بِنْتُمْ وَبِنّا فما ابتَلّتْ جَوَانِحُنا شَوْقاً إليكم، وَلا جَفّتْ مآقِينَا[4]
نَكادُ حِينَ تُناجِيكُمْ ضَمائرُنا، يَقضي علَينا الأسَى، لَوْلا تأسّينَا
حَالَتْ لفقدِكُمُ أيّامُنا فَغَدَتْ سُوداً وَكانَتْ بكُمْ بِيضاً لياليِنَا
إذْ جانِبُ العَيشِ طَلْقٌ من تألُّفِنا وَمَرْبَعُ اللّهوِ صَافٍ من تَصَافِينَا
وَإذْ هَصَرْنا فُنُونَ الوَصْلِ دانيةً قُطُوفُهَا فجَنَيْنا مِنْهُ ما شِينَا[5]

١ انبت : انقطع .
٢ نعتب : نرضي . العتبى : الرضا ، أي رضاكم .
٣ الكاشح : المبغض المعادي .
٤ الجوانح : الضلوع تحت الترائب مما يلي الصدر ، واحدتها جانحة . وقوله : ما ابتلت جوانحنا ، يريد ما يجده العاشق من حرارة الشوق في صدره .
٥ هصر الغصن : أماله وكسره . القطوف : جمع قطف ، اسم لما يقطف من الثمار . شينا : مسهل شئنا .

لِيُسقَ عَهدُكُمُ عهدُ السرُورِ، فما كنتُمْ لأرْوَاحِنَا إلاّ رَيَاحينَا

لا تَحْسَبُوا نَأيَكُمْ عنّا يُغَيّرُنا إنْ طَالمَا غَيّرَ النّأيُ المُحِبّينَا

وَاللهِ مَا طَلَبَتْ أهْوَاؤنا بَدَلاً منكمْ وَلا انْصَرَفتْ عنكُم أمانِينَا

يا سارِيَ البرْقِ غادِ القصرَ وَاسقِ به مَن كان صِرْفَ الهوَى وَالوُدِّ يَسقينَا[1]

وَاسألْ هُنالكَ: هل عنّى تَذكُّرُنا إلْفاً تَذكُّرُهُ أمْسَى يُعَنّيِنَا؟[2]

وَيا نَسيمَ الصَّبَا بَلّغْ تَحيّتَنَا، مَنْ لوْ على البُعدِ حيّاً كان يُحَيّينَا

فهلْ أرَى الدّهرَ يَقضِينا مُساعَفَةً منهُ وَإنْ لم يكُنْ غِبّاً تَقاضِينَا[3]

رَبيبُ مُلكٍ كَأنّ اللهَ أنْشَأهُ مِسْكاً وَقَدّرَ إنشاءَ الوَرَى طِينَا

أوْ صَاغَهُ وَرِقاً مَحْضاً وَتَوّجَهُ مِن ناصعِ التّبرِ إبْداعاً وَتَحْسِينَا[4]

إذَا تَأوّدَ آدَتْهُ رَفاهِيَةً تُومُ العُقُودِ وَأدمَتْهُ البُرَى لِينَا[5]

كانَتْ لَهُ الشّمسُ ظِئراً في أكِلّتِهِ بَلْ ما تَجَلّى لها إلاّ أحايِينَا[6]

كأنّمَا أثبتَتْ في صَحْنِ وَجنَتِهِ زُهْرُ الكَوَاكبِ تَعوِيذاً وَتَزْيِينَا[7]

ما ضَرّ أنْ لمْ نَكنْ أكْفاءَهُ شَرَفاً، وَفي المَوَدّةِ كافٍ مِنْ تَكَافِينَا

١ غاد : باكر .

٢ عناه : أنصبه وهمه .

٣ الغب : ورد يوم وظمء آخر . والمراد أن التقاضي مستمر غير منقطع .

٤ الورق : الفضة . التبر : الذهب .

٥ تأود : تثنى . التوم : جمع التومة ، وهي اللؤلؤة . البرى : الخلاخيل ، واحدتها برة .

٦ الظئر : المرضع . الأكلة : جمع الكلة ، وهي الستر الرقيق يتوقى به من البعوض .

٧ الزهر : النيرة المتلألئة . التعويذ : تعليق العوذة ، وهي الرقية تعلق على الطفل لتقيه في زعمهم ، من العين والجنون .

يا رَوْضَةً طالمَا أجْنَتْ لَوَاحِظَنَا ... وَرْداً جَلاهُ الصِّبا غضّاً وَنِسرينَا[1]
وَيَا حَيَاةً ، تَمَلَّيْنَا بِزَهْرَتِهَا ... مُنًى ضُرُوباً ، وَلَذّاتٍ أفانِينَا[2]
وَيَا نَعِيماً خَطَرْنَا من غَضَارَتِهِ ... في وَشْيِ نُعمى سَحَبنا ذيلَهُ حِينَا[3]
لَسْنَا نُسَمّيكِ إجلالاً وَتَكْرِمَةً ... وَقَدْرُكِ المُعتلي عن ذاكَ يُغنينَا
إذا انفرَدتِ وَما شُورِكتِ في صِفَةٍ ... فحَسبُنا الوَصْفُ إيضَاحاً وَتَبْيينَا
يا جَنّةَ الخُلْدِ أُبْدِلْنا بسِدْرَتِهَا ... وَالكَوْثَرِ العَذبِ زَقّوماً وَغِسلينَا[4]
كأنّنا لم نَبِتْ وَالوَصْلُ ثالِثُنَا ، ... وَالسعدُ قد غضّ من أجفانِ وَاشينَا
سِرّانِ في خاطِرِ الظّلماءِ يكتُمُنا ، ... حتى يكادَ لِسانُ الصّبحِ يُفشينَا[5]
لا غَرْوَ في أنْ ذَكَرْنا الحزْنَ حينَ نَهتْ ... عنهُ النُّهَى وَتَرَكْنا الصّبرَ ناسِينَا[6]
إنّا قرَأنا الأسَى يَوْمَ النَّوَى سُوَراً ... مكتوبةً ، وَأخذنا الصّبرَ تَلْقِينَا
أمّا هوَاكِ ، فلَمْ نَعْدِلْ بمَنهَلِهِ ... شُرْباً ، وَإنْ كانَ يُرْوِينا فيُظمِينَا
لم نَجْفُ أُفقَ جَمالٍ أنتِ كوْكبُهُ ، ... سالِينَ عَنهُ ، وَلم نَهجُرْهُ قالِينَا[7]

١ أجناه : جعله يجني . النسرين : الورد الأبيض .
٢ تملينا : تمتعنا . أفانين : أنواع .
٣ الغضارة : النضرة . سحب الذيل : كناية عن التخطر والاختيال .
٤ السدرة : أي سدرة المنتهى ، وهي شجرة نبق عن يمين العرش الإلهي . الكوثر : نهر في الجنة . الزقوم : شجرة في جهنم ، وطعام أهل النار . الغسلين : ما يسيل من جلود أهل النار .
٥ سران : أي نحن سران .
٦ النهى : جمع نهية ، وهي العقل .
٧ قالين : مبغضين .

وَلا اختياراً تَجَنّبْنَاهُ عن كَثَبٍ   لكن عَدَتنا على كُرْهٍ عَوَادِينَا[1]
نَأسَى عَلَيكِ إذا حُثّتْ مُشَعشَعَةً   فِينا الشَّمُولُ وَغَنّانَا مُغَنّينَا[2]
لا أكؤسُ الرّاحِ تُبدي من شَمائِلِنا   سِيّما ارْتياحٍ وَلا الأوْتارُ تُلهِينَا[3]
دُومي على العَهدِ ما دُمنا مُحافِظَةً،   فالحُرّ مَنْ دانَ إنْصافاً كما دِينَا
فما استَعَضْنا خليلاً منكِ يَحبِسُنا؛   وَلا استَفَدنا حَبِيباً عنكِ يَثْنِينَا
وَلَوْ صَبا نحوَنا، من عُلْوِ مَطْلَعِهِ،   بدرُ الدجى لم يكن حاشاكِ يُصْبِينَا
أبكي وَفاءً وَإن لم تَبْذُلي صِلَةً،   فالطّيفُ يُقنِعُنا وَالذّكرُ يَكفِينَا
وَفي الجَوابِ مَتاعٌ إنْ شَفَعتِ بهِ   بِيضَ الأيادي الّتي ما زِلتِ تُولينَا[4]
عَلَيكِ مِنّا سَلامُ اللهِ ما بَقِيَتْ   صَبابَةٌ بكِ نُخفيها، فتَخْفِينَا[5]

وقال يذكر ولادة وهو في الزهراء :

إني ذكَرْتُكِ بالزّهْراءِ مُشتاقَا،   وَالأفقُ طلقٌ وَوَجهُ الأرْضِ قد رَاقَا
وَللنّسيمِ اعتِلالٌ في أصَائِلِهِ،   كأنّهُ رَقّ لي فاعتَلّ إشْفَاقَا
وَالرّوْضُ عن مائِهِ الفضّيّ مُبتَسِمٌ   كما شقَقتَ عن اللَّبّاتِ أطوَاقَا[6]

١ عدتنا : صرفتنا . العوادي : الأشغال الشديدة التي تصرفك عن الشيء .
٢ نأسى : نحزن . حث الخمرة : حضها . أي أقبل على شربها . المشعشعة : الممزوجة بالماء . الشمول : الخمر أو الباردة منها .
٣ الشمائل : الطباع . السيماء : العلامة .
٤ شفعت به : أي ضممت إليه وزدته .
٥ تخفينا : تظهرنا وتفضحنا .
٦ اللبات : جمع لبة ، موضع القلادة من الصدر . والمراد أن الماء الفضي يتألق في الروض تألق نحر الحسناء إذا كشفت عنه الأطواق .

يَوْمٌ كأيّامِ لَذّاتٍ لنا انصَرَمَتْ، بِتْنا لها حِينَ نامَ الدّهرُ سُرّاقَا
نَلهُو بما يَستَميلُ العينَ من زَهَرٍ جالَ النَّدى فيه حتى مالَ أعناقَا[1]
كأنّ أعيُنَهُ إذ عايَنَتْ أرَقي ، بكَتْ لما بي فجالَ الدّمعُ رَقرَاقَا[2]
وَرْدٌ تألّقَ في ضَاحي مَنابِتِهِ ، فازْدادَ منهُ الضُّحى في العينِ إشرَاقَا[3]
سَرَى يُنافِحهُ نَيْلوفَرٌ عَبِقٌ ، وَسْنانُ نَبّه مِنهُ الصّبحُ أحدَاقَا[4]
كُلٌّ يَهيجُ لنا ذِكرَى تَشَوّقِنَا إليكِ ،لم يَعْدُ عَنها الصّدرُ إن ضَاقَا

وقال يذكر فراق حبيبته :

وَدّعَ الصّبرَ مُحِبٌّ وَدّعَكْ ، ذَائِعٌ من سِرّهِ ما استَوْدَعَكْ
يَقْرَعُ السِّنَّ على أنْ لمْ يَكُنْ زَادَ في تِلْكَ الخُطَا إذْ شَيّعَكْ
يَا أخَا البَدْرِ سَنَاءً وَسَناً ؛ حَفِظَ اللهُ زَمَاناً أطْلَعَكْ
إنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيلي ، فلَكَمْ بِتُّ أشكُو قِصَرَ اللّيْلِ مَعَكْ

وقال يخاطب الليل :

يا لَيْلُ طُلْ ، لا أشتهي ، إلاّ بوصلٍ ، قِصَرَكْ
لو بات عندي قمَري ، ما بتُّ أرْعى قَمَرَكْ

١ أعناقاً : تمييز ، والمراد مالت أعناقه .
٢ جعل الزهر يشعر بأرقه فيبكي إشفاقاً عليه ، شبه الندى على أوراق الزهر بدمع يترقرق .
٣ الضاحي : الظاهر ، والبارز للشمس .
٤ ينافحه : يخاصمه ويغالبه بالنفح . النيلوفر : ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة ، له أصل كالجزر ، وساق أملس ، يطول بحسب عمق الماء ، فإذا ساوى سطحه أورق وأزهر .

يا لَيْـلُ ، خبّر أنني ألْتذّ عنْهُ خبَرَكْ
باللهِ ، قُلْ لي هل وفى ؟ فقال : لا ، بل غدَرَكْ

ولم يمل ابن زيدون إلى الموشحات ، فليس في ديوانه شيء منها ، مع أنها تناسب الأغراض التي تناولها في الغزل والشكوى ، ووصف الطبيعة ومجالس اللهو ، وكان هذا الفن قد عرف في أيامه ، وظهر من الوشاحين المشهورين عبادة القزّاز المتوفى في السنة ٤٢٢ ﻫ (١٠٣٠ م) غير أنّه نظم المخمسات من القصائد فخالف بها نظام القافية الواحدة ، وقد سبقه المشارقة إلى هذه الطريقة ، فرويت لهم أمثال هذه المسمطات على اختلاف أجزائها ، منها مثلثات قُطْرُب ، ومزدوجات ابان بن عبد الحميد . وذكر ابن رشيق في « العمدة » أن بشاراً كان يصنع المخمسات والمزدوجات عبثاً واستهانة بالشعر . ومن مخمسات ابن زيدون قصيدة قالها وهو مسجون يذكر قرطبة ومنازهها ، وأيام لهوه فيها . ويصف نفسه في السجن ، فيفاخر معتزّاً به . منها قوله :

أقُرْطُبَةُ الغرّاءُ ، هل فيك مطمَعُ ؟ وهل كبِدٌ حرّى لِبَيْنِك تُنقَعُ [1]
وهل لليالِيكِ الحميدةِ مَرجِعُ ؟ إذ الحسنُ مرأى فيك والحسنُ مسمعُ
وإذ كنَفُ الدُّنيا لَديكِ مُوَطّأُ

ألَيسَ عجيباً أن تَشُطَّ النوَى بكِ ؟ فأحيا كأنْ لم أنسَ نفْحَ جَنابِكِ ؟
ولم يلتئِمْ شَعبي خِلالَ شِعابِكِ ، ولم يكُ خَلقي بَدْؤهُ مِن تُرابِكِ [2]
ولَم يَكْتنِفْني من نواحِيكِ مَنشَأُ

١ تنقع : تروى .
٢ الشعب : الصدع والتفرق . الشعاب : النواحي .

نهارُكِ وضّاحٌ ، وليلكِ ضَحيانُ ، وتُربُكِ مَصبوحٌ ، وغصنُكِ نشوانُ[1]
وأرضُكِ تُكسى حينَ جوّكِ عُريانُ وَريّاكِ رَوْحٌ للنفوسِ وَرَيحانُ
وَحَسْبُ الأماني ظِلُّكِ المُتَفَيَّأُ

أأنسى زمَاناً بالعُقاب مُرَفَّلا ، وعيشاً بأكنافِ الرُّصافةِ دَغفَلا[2]
وَمَغْنىً إزاءَ الجعفَريّةِ أقبَلا ، لَنِعمَ مَرادُ النفسِ رَوْضاً وَجدولا[3]
وَنِعْمَ مَحَلُّ الصَّبوةِ المتبَوّأُ

وَيا رُبَّ مَلهىً بالعَقيقِ وَمجْلسِ ، لدى تُرعةٍ ترنو بأحداقِ نَرجِسِ
بِطاحُ هَواءٍ مُطمِعِ الحالِ مُؤيِسِ مَغيمٍ ولكن من سنا الراحِ مشمِسِ
إذا ما بَدَتْ في كأسِها تتَلألأُ

وقد ضَمّنا من عَينِ شُهدَةَ مَشهَدُ بدأنا وعدنا فيه ، والعَوْدُ أحمَدُ
يَزُفُّ عروسَ اللهوِ أحوَرُ أغيَدُ ، له مَبسِمٌ عَذبٌ وخدٌّ مُوَرَّدُ
وكفٌّ بِحِنّاءِ المُدامِ تُقَنّأُ[4]

وكائِنْ عَدَونا مُصعِدينَ على الجسرِ إلى الجوسَقِ النّصريّ بينَ الرُّبى العُفرِ[5]
ورُحنا إلى الوَعساءِ من شاطىءِ النهرِ ، بحيثُ هُبوبُ الريحِ عاطرَةُ النشرِ[6]
علا قُضُبَ النُّوّارِ ، فهي تَكَفّأُ[7]

١ ضحيان : بارز ظاهر . مصبوح : ممطور صباحاً .
٢ مرفل : معظم ، أو يتبختر فيه ، من رفل الإزار أرسله . دغفل ، عيش واسع مخصب .
٣ المغنى : المنزل . المراد ، مكان الارتياد أي الذهاب والمجيء .
٤ تقنأ : تصبغ بالأحمر القاني .
٥ كائن : كم . الجوسق : القصر . العفر : جمع عفراء ، وهي الأرض البيضاء لم توطأ .
٦ الوعساء : رابية من رمل لينة .
٧ النوار : الزهر الأبيض . تكفأ ، أي تتكفأ : تمور متحركة .

ومنها :

وَيا حبّذا الزَّهراءُ بَهجةَ منظرٍ ، ورِقّةَ أنفاسٍ ، وصِحّةَ جوهرِ
وناهيكَ من مبدا جمالٍ ومحضرٍ ، وجنّةِ عدْنٍ تطّبيكَ وكوثرِ[1]
بمرْأى يزيدُ العُمرَ طيباً وينسأُ[2]

مَعاهدُ أبكيها لِعهدِ تصرّما ، أغضُّ من الورْدِ الجنيّ وأنعما[3]
لبِسنا الصِّبا فيها حبيراً منمنما ، وقُدنا إلى اللذّاتِ جيشاً عرمرما[4]
له الأمنُ رِدْءٌ ، والعداوةُ مربأُ[5]

كساها الرّبيعُ الطلقُ وَشيَ الخمائلِ ؛ وراحت لها مرْضى الرياحِ البلائلِ
وغادى بنوها العيشَ حُلوَ الشمائلِ ؛ ولا زالَ منّا بالضحى والأصائلِ
سلامٌ على تلكَ الميادينِ يُقرأُ

ومنها :

ولا يُغبطُ الأعداءَ كوْنيَ في السجنِ ؛ فإني رأيتُ الشمسَ تُحصَنُ بالدَّجنِ[6]
وما كنتُ إلا الصارمَ العضبَ في جفنِ ، أو الليثَ في غابٍ أو الصقرَ في وكنِ[7]
أو العِلْقَ يُخفى في الصّوارِ ويُخبأُ[8]

١ تطبيك : تدعوك .
٢ نسأ : أجل وأخر المدة .
٣ أغض : أنضر وأطرى .
٤ الحبير : الناعم الجديد . منمنم : مزخرف منقوش .
٥ ردء : ظهير ومعين . المربأ : المرقب .
٦ الدجن : الغيم .
٧ الجفن : الغمد . الوكن : عش الطائر .
٨ العلق : الشيء النفيس . الصوار : وعاء المسك .

المدح والرثاء

لابن زيدون مدائح كثيرة في أبي الحزم بن جهور ، وابنه أبي الوليد محمد ، وفي المعتضد بن عباد وابنه المعتمد ، ومدح غيرهم من أمراء الطوائف الذين زارهم واتصل بهم كأبي المظفر صاحب بَطَلْيوس ، وباديس صاحب غرناطة . وله رثاء في أبي الحزم جهور ، وفي المعتضد ، وفي القاضي أبي بكر بن زكوان ، وفي أم ابن جهور ، وفي أم المعتضد وابنته . ويستهل مدائحه في الغالب بالغزل على الطريقة القديمة ، وأما مراثيه فيستهلها بتعظيم المصاب أو بتعزية ابن الفقيد ، ومدحه ، أو بالحِكَم العامة التي تتناول ذكر الدهر ومصائبه . وليس في مدائحه ومراثيه إلا ما هو معروف عند الشعراء الذين تقدموه ، من ذكر كرم الممدوح وشجاعته وإقدامه ، وتقواه ، إلى ما هنالك من الصفات التي تواضع الشعراء على إضافتها إلى ممدوحيهم . ولا تخلو أقواله من المبالغات التي رافقت الشعر العربي من أقدم عصوره ، ولكنه لا يفرط فيها ، ولا يبلغ بها حد التبغض.

ويتميز مدحه لأبي الحزم بن جهور وابنه أبي الوليد بما يتخلله ، بعض الأحيان ، من شكوى سوء حاله ، وهو في السجن ، وتبرئه مما نسب إليه . ويطلب رضى الأمير على شيء من الاعتداد بأدبه . وقد يفاخر الشعراءَ ويساميهم ليستأثر بالحظوة عند ممدوحه . فمن ذلك قصيدته التي كتب بها إلى أبي الحزم من سجنه ، قال فيها بعد مقدمة غزلية :

من يسألِ الناسَ عن حالي فشاهدُها ... مَحْضُ العِيان الذي يُغني عن الخبَرِ
لم تَطوِ بُرْدَ شبابي كَبْرَةٌ ، وأرى ... برْقَ المشيبِ اعتلى في عارِضِ الشَّعَرِ[1]

[1] العارض : صفحة الخد .

قبلَ الثلاثينَ إذ عَهْدُ الصِّبا كَثَبٌ ، وللشبيبةِ غصْنٌ غيرُ مُهتَصَرِ[1]
ها إنها لوعَةٌ في الصدرِ قادِحَةٌ نارَ الأسى ، ومَشيبي طائرُ الشرَرِ
لا يُهنِيءِ الشامِتَ المُرتاحَ خاطِرُهُ أنّي مُعَنّى الأماني ضائعُ الخطَرِ[2]
هلِ الرِّياحُ بنَجمِ الأرضِ عاصِفَةٌ ، أمِ الكسوفُ لغيرِ الشمسِ والقمَرِ[3]
إن طالَ في السجنِ إيداعي فلا عَجَبٌ ؛ قد يودَعُ الجفنَ حدُّ الصارمِ الذَّكَرِ[4]
وإن يُثبِّطْ أبا الحزمِ الرِّضى قَدَرٌ عن كشفِ ضُرّي فلا عتبٌ على القدرِ
ما للذنُوبِ التي جاني كبائرِها غيري يحَمِّلُني أوزارَها وزَري[5]
مَن لم أزَلْ من تأنّيهِ على ثِقَةٍ ؛ ولم أبِتْ من تجَنّيهِ على حَذَرِ
ذو الشيمةِ الرَّسلِ إن هِيجَتْ حفيظتُه ، والجانبِ السهلِ والمستَعتَبِ اليَسَرِ[6]
مَن فيه للمُجتلي والمُبتلي ، نَسَقاً ، جمالُ مَرأى عليه سَرْوُ مُختَبَرِ[7]
مُذلِّلٌ للمَساعي حُكمَها شَطَطاً عليه ، وهو العزيزُ النفسِ والنفَرِ[8]

١ كثب : قريب .
٢ المعنى : المتعب . الخطر : المقام ، المنزلة .
٣ نجم الأرض : نباتها . يريد أن الرياح لا تؤثر في النبات الضعيف .
٤ الجفن : الغمد .
٥ الأوزار : الأثقال والذنوب . الوزر ، بالتحريك : الملجأ ، ويريد به الممدوح .
٦ الشيمة الرسل : الخلق السهل . الحفيظة : الغضب . المستعتب : الذي تطلب إليه العتبى ، أي الرضى . اليسر : السهل .
٧ المجتلي : الناظر . المبتلي : المختبر . السرو : المروءة في شرف .
٨ المساعي : المعالي . الشطط : التباعد عن الحق . النفر : القوم والرهط .

وزيرُ سِلْمٍ كفاهُ يُمنُ طائِرِهِ شُؤمَ الحروبِ ورأيٌ مُحصَدُ المِرَرِ[1]
أغْنَتْ قريحتُهُ مُغْنى تجاربه ، ونابتِ اللمحةُ العَجْلى عن الفِكَرِ
كم اشترى بكَرَى عينيه من سَهَرٍ ، هُدوءُ عينِ الهدى في ذلك السَّهَرِ
في حضرةٍ غابَ صرفُ الدهرِ خشيتَه عنها ، ونامَ القطا فيها فلمْ يَثُرِ[2]
مُمتَّعٌ بالرّبيعِ الطَّلْقِ نازِلُها ، يُلهيهِ عن طيبِ آصالٍ ندى بُكَرِ[3]
ما إن يزالُ يبثُّ النبْتَ في جَلَدٍ مذ ساسها ويُفيضُ الماءَ من حَجَرِ[4]
قد كنتُ أحسبُني والنَّجمَ في قَرَنٍ ، ففيمَ أصبحتُ مُنحطّاً إلى العَفَرِ[5]
أحينَ رفَّ على الآفاقِ من أدبي غرسٌ له من جَناهُ يانعُ الثَّمَرِ
وسيلةٌ سبباً ، إلاّ تَكُنْ نَسَباً ، فهو الودادُ صفا من غيرِ ما كَدَرِ
وبائنٍ من ثَناءٍ ، حُسنُهُ مَثَلٌ ، وَشيُ المحاسنِ منه مُعلَمُ الطُّرَرِ[6]
يُستودَعُ الصُّحفَ لا تخفى نوافِحُه إلا خفاءَ نسيمِ المِسكِ في الصُّرَرِ[7]

١ محصد : مفتول . المرر : واحدتها مرة ، وهي طاقة الحبل .
٢ القطا : طير بحجم الحمام ، قيل إنه يسير جماعات ليلا في طلب الماء فإذا وجد الماء نام ولم يثر .
٣ الآصال : جمع أصيل ، وهو وقت بين العصر والمغرب . البكر : جمع بكرة ، وهي الغدوة .
٤ الجلد : الأرض الصلبة المستوية المتن .
٥ القرن : الحبل ، أي كنت أحسبني والنجم مجموعين في حبل واحد . العفر : ظاهر التراب.
٦ البائن : الظاهر . المعلم : الثوب له علم من طراز وغيره . الطرر : جمع طرة ، وهي جانب الثوب الذي لا هدب له ، استعار ذلك للشهرة .
٧ نوافحه : روائحه ، والضمير عائد على الثناء .

من كلّ مختالةٍ بالحِبرِ رافِلَةٍ فيه اختيالَ الكَعابِ الرُّودِ بالحِبَرِ[1]
تُجفى لها الروضةُ الغنّاءُ أضحكها مجّالُ دمعِ الندى في أعينِ الزَّهَرِ
يابَهجَةَ الدهرِ حيّاً، وهو، إن فَنِيتْ حياتُه، زينَةُ الآثار والسِّيَرِ
لي في اعتمادِكَ بالتأميلِ سابِقَةٌ، وهِجرَةٌ في الهوى أُولى من الهِجَرِ
ففيمَ غضَّتْ همومي من عُلى هِمَمي، وحاص بي مطلَبي عن وِجهة الظفَرِ[2]
هل من سبيلٍ، فماءُ العَتبِ لي أسِنٌ، إلى العُذوبةِ من عُتباكَ والخَصَرِ[3]
نَذَرْتُ شُكرَكَ لا أنسى الوفاءَ بهِ، إن أسفَرَتْ ليَ عنها أوجُهُ البُشَرِ[4]
لا تَلْهُ عني فلم أسألكَ مُعْتَسِفاً رَدَّ الصِّبا بعد إيفاءٍ على الكِبَرِ[5]
واستوْفِرِ الحظّ من نُصْحٍ وصاغيَةٍ، كلاهما العِلقُ لم يوهَبْ ولم يُعَرِ[6]
هَبْني جهِلتُ فكان العِلقُ سيّئةً؛ لا عُذْرَ منها سوى أني من البَشَرِ
إن السيادةَ بالإغضاءِ لابسةٌ بهاءَها، وبهاءُ الحُسن في الخَفَرِ[7]

١ الكعاب : الجارية التي نهد ثدياها . الرود : مسهل رؤد ، الشابة الحسنة . الحبر : جمع حبرة ضرب من الثياب . وقوله : من كل مختالة ، أراد بها الصحيفة .
٢ حاص : حاد ومال .
٣ الأسن : الماء المتغير . العتبى : الرضا . الخصر : البرودة
٤ عنها : أي عن العتبى . البشر : جمع بشرى .
٥ لم أسألك معتسفاً : أي جائراً عن الحق والهدى ، يعني لم أسألك مستحيلا . إيفاء : إشراف ، من أوفى على الشيء ، أي أشرف عليه .
٦ استوفر : استكثر . الصاغية : خاصة الانسان . العلق : الشيء النفيس .
٧ الإغضاء : خفض البصر ، يقال : أغضى حياء ، وأغضى على الشيء سكت عنه . والمراد هنا : الإغضاء على الذنب حياء . الخفر : الحياء .

لك الشفاعةُ ، لا تُثْنى أعِنّتُها ، دونَ القَبولِ بمقبولٍ من العِذَرِ[1]
والبَسْ من النعمةِ الخضراءِ أيكتَها ظِلاً حراماً على الآفاتِ والغِيَرِ[2]
نَعيمَ جنّةِ دُنيا، إن هي انصرَمتْ، نعِمتَ بالخُلدِ في الجنّاتِ والنُّهُرِ[3]

ويكثر من التحدث بأيدي ممدوحيه عليه دون أن يبسط كفه مستجدياً ، فقد كان مكتفياً بعز الوزارة وخيرها . لا يرجو إلا دوام النعمة ، أو عودتها إليه عندما تزول عنه . ولا يختلف مدحه للمعتضد بن عباد وابنه المعتمد عن مدحه لأبي الحزم بن جهور وابنه أبي الوليد سوى أنه لم يلق الضيم في إشبيلية كما لقيه في قرطبة ، فلا تشتمل مدائحه لصاحبيها على الشكوى والتظلم والعتاب ، بل نراه راضياً شاكراً قرير العين ، يخاطب المعتضد بقوله :

وعدنا إلى القصرِ الذي هوَ كعبةٌ ، يُغاديهِ منّا ناظرٌ أو مُطَرَّفُ[4]
فإذ نحنُ طالعناه ، والأفقُ لابِسٌ عَجاجتَه،والأرضُ بالخيلِ تَرْجُفُ[5]
رأيناكَ في أعلى المُصلّى كأنّمَا تَطَلّعَ من مِحْرَابِ داودَ يوسُفُ
ولما حضرنا الإذنَ، والدهرُ خادِمٌ، تُشير فيُمضي ، والقَضَاءُ مُصَرِّفُ
وصَلنا فقبّلنا الندى منكَ في يدٍ، بها يُتلَفُ المالُ الجسيمُ، ويُخلَفُ

١ وجه الكلام : لك الشفاعة بمقبول من العذر . العذر : جمع العذرة ، وهي المعذرة .
٢ الأيكة : ملتف الشجر . الغير : أحداث الدهر .
٣ النهر : جمع نهر ، والمراد أنهار جنات الخلد .
٤ المطرف : من أصيب طرفه . والمراد أصيب طرفه من شدة اثبات نظره في الشيء الرائع .
٥ العجاجة : الغبار .

لقد جُدتَ حتى ما بنفسٍ خَصاصَةٌ ، وأمّنتَ حتى ما بقلبٍ تَخَوُّفُ
ولولاكَ لم يَسهُلْ من الدهرِ جانبٌ ، ولا ذَلّ مُقتاد ، ولا لان مَعطِفُ
لكَ الخيرُ ، أنّى لي بشُكرِكَ نَهضَةٌ ، وكيفَ أُؤدّي فرضَ ما أنتَ مسلِفُ ؟
أفدتَ بَهيمَ الحالِ منيَ غُرّةً ، يُقابِلُها طَرْفُ الجموحِ فيُطرَفُ[1]
وبَوّأتَهُ دُنياكَ دارَ مُقامَةٍ ، بحيثُ دنا ظِلٌّ وذُلّلَ مَقطِفُ[2]
وكم نِعمَةٍ ألبستَها سُندُسيّةٍ ، أُسربَلُها في كلّ حينٍ وأُلحَفُ[3]
مواهِبُ فيّاضِ اليَدَينِ كأنّما من المُزْنِ تُمرَى أو من البحرِ تُغرَفُ[4]
فإن أكُ عَبداً قد تملّكتَ رِقّه ، فأرْفَعُ أحوالي وأسنى وأشرَفُ

وكان المعتمد بن عباد شاعراً مجيداً ، يحب الشعراء ويكثر من مجالستهم ، ويأنس بمنادمتهم ، فوجد فيه ابن زيدون أميراً كريماً ، وصديقاً مؤاخياً ، وصنواً له في الأدب ، فمدحه معجباً به ، محبّاً له ، مطمئن النفس إليه . وربما جرت بينهما مماتنات شعرية على سبيل الاخوانيات ، منها أن المعتمد كتب إليه بهذين البيتين :

أيها المُنحَطّ عني مجلِساً وله في القلبِ أعلى مجلِسِ
بفؤادي لكَ حبٌّ يقتَضي أن تُرى تُحملُ فوق الأرْؤسِ

١ بهيم الحال : أي الحال السوداء . شبهها بالفرس الأدهم . الغرة : البياض في جبهة الفرس . الجموح : الفرس الذي يتغلب على فارسه ويذهب به لا ينثني . أراد به الرجل المعتز عليه بحاله الحسنة .

٢ ذلل مقطف : أي هان قطف ثمار هذه الدنيا الوارفة الظلال .

٣ السندسية : نسبة إلى السندس ، وهو ضرب من الديباج أو الحرير .

٤ تمرى : تستدر .

فأجابه بقوله :

أسَقيطُ الطَّلِّ فوقَ النَّرجِسِ ، أم نسيمُ الروضِ تحت الحِندِسِ [1]
أم نِظَامٌ للآلِ نَسَقٍ ، جامِعٌ كلَّ خطيرٍ مُنفِسِ [2]
أم قريضٌ جاءني عن ملِكٍ مالكٍ بالبِرِّ رِقَّ الأنفُسِ
دلّهتْ فِكريَ ، من إبداعِهِ ، حَيرةٌ في مَنطِقٍ لي مُخْرَسِ [3]
بِتُّ منه بين سهلٍ مُطمِعٍ ، خادعٍ ، يُتْلى بِحَزنٍ مُؤيِسِ
يا نَدى يُمنى أبي القاسم غِمْ ؛ يا سَنا شمسِ المُحيّا أشمِسِ [4]
يا بَهيجَ الخُلُقِ العَذبِ ابتَسِمْ ؛ يا مَهيجَ الأنفِ الصَّعبِ اعبِسِ [5]
يا جمالَ الموكبِ الغادي ، إذا سارَ فيه ، يا بهاءَ المَجلِسِ
أنت لم يُقْنِعكَ أن ألبستَني نِعمةً تُذكِرُ عَهدَ السُّندُسِ
فتلَطَّفْتَ لأنْ حلّيتَني ، مُولِياً طُولى ، مُحلّى ملبَسِ [6]
ذاكَ تَنويهٌ ثَنَاني فَخرُهُ سامِيَ اللَّحظِ ، أشمَّ المَعطِسِ [7]

١ الحندس : الظلام .
٢ النسق : المتسقة على طريقة نظام . المنفس : النفيس .
٣ دلهت : حيرت وأدهشت .
٤ أبو القاسم : كنية المعتمد . غم : أمر من غام ، غامت السماء : كساها الغيم .
٥ مهيج : اسم مفعول من هاجه . ومهيج الأنف أي حميه ، كناية عن الرجل العزيز . حرك الأنف للشعر .
٦ الطولى : الحالة الرفيعة .
٧ التنويه بالشيء : رفع شأنه ، وأراد به شعر المعتمد فيه . المعطس : الأنف .

شَرَّفَتْ بِكْرَ المَعَالي خِطْبَةٌ مِنكَ ، فانعَمْ بِسُرُورِ المُعْرِسِ[1]
تُمنَحُ التأيِيدَ ، يُجلى لك عن ظفَرٍ حلوٍ ، وعزٍّ أقعَسِ[2]
وارتَشِفْ مَعسولَ نصرٍ أشنَبٍ ، تجتَنيهِ من عَجاجٍ ألْعَسِ[3]
وارتَفِقْ بالسّعدِ في دَستِ المُنى تَصْبَحِ الصُّنعَ دِهاقَ الأكؤسِ[4]
فاعتراضُ الدهرِ ، فيما شِئتَه ، مُرتقىً في صدره لم يَهجِسِ[5]

ومن رثائه قوله في أم المعتضد وتعزية ابنها :

ألا هل درَى الداعي المثوِّبُ إذ دعا بنَعيكِ أن الدِّينَ من بعضِ ما نعى[6]
وأنَّ التُّقى قد آذَنَتنا بفُرقَةٍ ، وأنَّ الهُدى قد بانَ منكِ فوَدّعا
لرُزئِكِ تَنهَلّ الدموعُ ، فمِثلُهُ ، إذا حلّ ، ودَّ القلبُ لو كان مدمَعا
لقد أجهش الإخلاصُ بالأمس باكياً عليكِ ، كما حنّ اليقينُ فرجَّعا[7]
ودُنيا وجَدنا العيشَ في غَفَلاتها طريقاً إلى وِرْدِ المَنيّةِ مَهْيَعا[8]
نُعَلَّلُ فيها بالمُنى ، فتَغُرّنا بوارِقُ ليس الآلُ منها بأخدَعا[9]

١ المعرس : من اتخذ له عرساً أي زوجاً .
٢ عز أقعس : عز ثابت .
٣ الأشنب : أراد به الأبيض . العجاج : الغبار . الألعس : أراد به الأسود .
٤ تصبح : تسقي صباحاً . الصنع : الإحسان . دهاق : ممتلئة .
٥ يهجس : أي يخطر بباله .
٦ المثوب : الذي يلوح بثوبه ليرى .
٧ أجهش : تهيأ للبكاء .
٨ المهيع : الطريق البين .
٩ الآل : السراب ، أو الذي يشاهد في الضحى كالماء بين الأرض والسماء يرفع الشخوص .

أُصِبنا بما لو أنَّ هَضْبَ مُتَالِعٍ أُصيبَ به لانهدّ ، أو لتَضَعضَعا[1]
مَنارٌ من الإيمانِ لم يَعْدُ أن هوَى ، وَحَبْلٌ من التقوى وهَى فتَقطّعا
وشمسُ هدىً أمسى لها التربُ مَغرِباً وكان لها المِحرابُ في الخِدرِ مطلَعا[2]
لئِن أُتبِعتْ منّا غمامةَ رحمة ، لقد ظلّلت ذاك السريرَ المُرَفّعا
سريرٌ بأملاكٍ وزُهرٍ ملائكٍ ، إلى جنّةِ الفِرْدوسِ راح مشيَّعا[3]
لِتَبكِ الأيامى واليَتامى فقيدةً ، هي المُزْنُ أحيا صَوبُه، ثم أقشعا[4]
أضَلّهُمُ فِقْدانُها ، فكأنّما أضلت سوامُ الوحشِ في الجَدبِ مرْتعا[5]
مُسَبِّحَةُ الآناءِ قانِتَةُ الضُّحى ، ثوَت ، فثوَى مَغنى التأوّهِ بَلقَعا[6]
تبيتُ مع الإخباتِ مُسعَرَةَ الحَشا ، تَقيّةَ مَن يخشى إلى اللهِ مرجِعا[7]
إذا ما هي استوفت من البِرّ غايةً تأتّت لأخرى ، لا ترى تلك مَقنَعا[8]
كأنّ قضاءَ الواجباتِ مُحَرَّجٌ تَقَبُّلُهُ ، إلاّ بأن تَتطوّعا[9]

١ متالع : جبل بالبادية .
٢ المحراب : الموضع ينفرد به الملك فيتباعد عن الناس ، وأكرم مواضع البيت .
٣ الأملاك : الملوك .
٤ الأيامى : جمع أيم ، وهي المرأة التي مات زوجها . المزن : السحاب ذو الماء . صوبه : وبله . أقشع : زال وانكشف .
٥ السوام : من الابل وغيرها التي ترتع في المرعى .
٦ الآناء ، أي آناء الليل : أجزاء منه ، أو ساعات . القانتة : المصلية . والقائمة على طاعة ربها . المغنى : المنزل . البلقع : المقفر .
٧ الإخبات : التقوى والخشوع . التقية : الحذر والاتقاء .
٨ تأتت لأخرى : ترفقت لها وأتتها من وجهها .
٩ محرج : مضيق ، أي ضيق عليها الاكتفاء به . تتطوع : تتبرع وتتنفل .

أصَرْفَ الرَّدى! لو أنَّ للسيفِ مَضرِباً لمَا رُعتَنا. أو أن للقوْسِ مَنزِعا[1]
فلو كنتَ إذ ساترْتَ رامَ مجاهِرٌ ذِمارَ الهدى كان المَحوطَ الممنَّعا[2]
إذاً لثَناهُ الجيشُ من كلِّ أليَسٍ يُشايعُ قلْباً في الحِفَاظِ مُشيَّعا[3]
ومُعتضِدٌ باللهِ يحمي ذِمارَهُ . فلا سِرْبَ يُلفى في حِماهُ مُروَّعا
ولكن عرَرْتَ المَلْكَ مَن حيثُ لا يرى فلم يستطعْ للحادثِ الحتمِ مَدفعا[4]
يَغيظُ العِتاقَ الجُرْدَ ألاّ ترى لها مجالاً فتَعْنُو في المرابط خُشّعا
وتأسَفُ بِيضُ الهندِ أن ليس تُنتضى ، وسُمرُ القَنا ألاّ تُهزَّ وتُشرَعا
لئِن ساءَكَ الدهرُ المسيء فلم يكن بأوّلِ عَهدٍ واجبَ الحِفظِ ضَيّعا
شَهِدنا، لقد طَرّزتَ بُرْدَ جَمالِهِ ، وقلّدتَهُ عِقدَ البَهاءِ مُرَصَّعا
وما فخرُه إلاّ بأن كان مُصغياً لأمرِكَ ، إن ناديتَ لبّى فأسرَعا
أتى العَثْرةَ العُظمى، فهل أنتَ قائلٌ له حينَ أشفى من كبّابته : لَعَا؟[5]
وها هو مُنقادٌ لحُكْمِكَ فاحتكِم لتَبلُغَ ما تهوى، ومُرْهُ ليَصْدَعا[6]

١ منزع : مرمى .
٢ ساترت : أخفيت العداوة . الذمار : ما يلزمك حفظه وحمايته . والمراد بذمار الهدى الفقيدة .
٣ الأليس : الأسد . يشايع قلباً : أي يواليه . الحفاظ : الذود عن المحارم . المشيع : الشجاع كأنه شيع بقوة قلبه .
٤ عررت : أصبت بمكروه .
٥ أشفى : أشرف ، أي أشفى على الهلاك . لعا : كلمة تقال للعاثر لينهض ناجياً .
٦ ليصدع : ليطيع .

لَعَمرُ التي ودّعتَ أمسِ مُفارِقاً ، لقد وَرَدتْ حوضَ السعادةِ مَشرَعا[1]
تَمَنّتْ وفاةً في حياتكَ بعدما حشَدتَ لها الآمالَ مرأًى ومسمَعا
فوَفّيتَها ما لم يدعْ لضَميرها، إلى غايةٍ من بعده ، مُتَطَلَّعا
خفضْتَ جَناحَ الذلّ في العزّ رَحمةً لها ، وعزيزٌ أن تَذِلّ وتَخْضَعا
تَرُوحُ أميراً في البلادِ مُحَكَّماً ، وتَغدو شفيعاً في الذنوبِ مشفَّعا
عَزاءً فدتكَ النفسُ عزْمَ مُسَلِّمٍ لمَوقِعِ أمرٍ لم يزَلْ مُتَوَقَّعا
متى ظَنّتِ الأيامُ أنّكَ جازِعٌ أو استشعرَت في فلّ صَبرِك مطمَعا
فما اربَدّ وجهُ الخطبِ إلاّ لقيتَه بِصَفحةِ طلقِ الوجهِ أبلجَ أرْوَعا[2]
وما كنتَ أهلاً أن يُصيبكَ حادثٌ فتُصْبِحَ عنه مُقصَدَ القلبِ موجَعا[3]
فلوْلاكَ لم يسمحْ من الدهرِ جانبٌ ، ولا اهتزّ أعطافاً، ولا لانَ أخدَعا[4]
فأنتَ الذي لم ينتَقِمْ غِبَّ قدرَةٍ ، ولم يُؤثِرِ المعرُوفَ إلاّ ليَشفعا[5]
متى تُسدِ نُعمى قيل: أنعَمَ مثلَها، يُقَل: جَلَل ، حتى إذا قيل: أبدعا[6]
وإن يَسَلِ العافونَ جدواكَ يُعطِهِم جَوادٌ ، إذا لم يسألوه ، تبرّعا[7]

١ حوض السعادة : أي الحوض الذي يرده الناجون في الجنة . المشرع : مورد الماء .
٢ الأبلج : المشرق الواضح . الأروع : من يعجبك بحسنه .
٣ المقصد : المطعون .
٤ الأخدع : عرق في صفحة العنق وهو شعبة من الوريد ، ويكنى بالتواء الأخدعين عن الصلف والكبرياء .
٥ يشفع : يزيد .
٦ الجلل : الأمر اليسير . أبدع : أتى بما لم يسبق إليه .
٧ العافون : طالبو المعروف . الجدوى : العطاء .

ويُغرَى بتوكيدِ الإساءةِ مُذنبٌ ، فيلقاكَ بالإحسانِ أغرَى وأوْلَعا[1]
خلائقُ مُمهاةُ الفِرِنْدِ ، كأنّها حدائقُ روضِ الحَزنِ جيدَ فأينَعا[2]
تُنافِحُها مِنهُ أحاديثُ سُؤدَدٍ ، تخالُ فَتيتَ المِسكِ عنها تضوّعا[3]
تَغلغَلُ في الآفاق أسرَى من الصَّبا وأشهرَ من شمسِ النهارِ وأسرَعا
فلو صرَفتْ صرفَ المَنون جلالةٌ ، لكُنتَ مُحيًا مَن تَوَدّ مُمتَّعا
فلا زِلتَ ممنوعَ الحمى مُسعفَ المنى إذا كان شانيكَ المُصابَ المُفجَّعا
ودُمتَ مُلتقّى أنجُمِ السعدِ باقياً لِدينٍ ودُنيا . أنتَ فخرُهما معا

منزلته

أطلق أهل الغرب لقب البحتري على ابن زيدون كما أطلقوا لقب المتنبي على ابن هاني لإعجابهم بشعراء المشارقة المشهورين ، ولا سيما الأقطاب الثلاثة أبو تمام ، وأبو عبادة البحتري ، وأبو الطيب المتنبي . وقد رأوا في لغة ابن زيدون وإشراق ديباجته ما يشبه رونق الديباجة البحترية ، في وضوحها ، وائتلاف ألفاظها ، وحسن إيقاعها ، وإتقان الصنعة فيها ، وإن تكن لغة البحتري أجزل وأدخل في كلام العرب من لغة الشاعر المغربي ، وإن تكن الصنعة عنده أقرب إلى روح البلاغة العربية من

١ يغرى : يولع . يريد أن المذنب لا يخشى تأكيد إساءته لطمعه بإحسانك إليه.

٢ مهاة : مرققة محددة مسقية ماء . الفرند : السيف وجوهره ووشيه . الحزن : ضد السهل . جيد : أي جاده الغيث .

٣ تنافحها : تغالبها بنفح الروائح الطيبة . تضوع : انتشر .

صنعة الشاعر القرطبي ؛ ونرى ذلك على الأخص في الاستعارات والتشابيه الإضافية التي أخرجها ابن زيدون أندلسية خالصة، لبعد الجامع بين طرفيها، وعنودها عن قبول التشبيه الصريح مع أن علاقتها به وحده ، ومرجعها إليه دون غيره . وقد مر بنا فيما أوردنا من شعره كثير من تلك الأوجه البيانية . مثل قوله :

« خلائِقُ مُمْهاةُ الفِرِندِ . يزف عروسَ اللهو أحورُ أغيدُ . وكفّ بِحِنّاء المدام تُقَنّأُ . هل من سبيل فماء العَتب لي أسِنٌ . البس من النعمة الخضراء أيكتها . أفدتَ بهيمَ الحال مني غُرّة . نصرٌ أشنب . عجاج ألعس . وارتفق بالسعد في دست المنى » إلى ما هنالك من أمثال هذه الأشياء التي اختلفت بها صنعته عن صنعة الشاعر الطائي ، على ما عنده من استعارات وتشابيه وكنايات لا يندّ بها عن نهج المشرقيين .

ويتميز ابن زيدون بغزله العاطفي الرقيق ، فلا يلحقه البحتري في هذا المضمار ،ولا سيما غزله بولادة لما فيه من حرقة وغيرة وتلهف وحرمان، ولكنه يقصر أشواطاً عن شاعر المتوكل في براعة الوصف ودقته ، وسمو الخيال في تصوير القصور وآثار العمران،وان أجاد في جعل الطبيعة تشاطره اللوعة والبكاء عندما ذكر ولادة في رياض « الزهراء » .

وهو كالبحتري لا يتطلب المعاني المبتكرة ولا الصور العميقة بقدر تطلبه حلاوة اللفظ ، وطرق البيان في تأدية المعنى الذي يلوح له ، وقلما حفل بالحكمة وضرب المثل ، وأكثر آرائه من الأفكار المشتركة التي لا يستقل بها شاعر عن آخر . وأجاد المدح والرثاء ، والعتاب والاستعطاف على غير تذلّل. وأجمل معاتباته ما قاله في سجنه متشوّقاً إلى ولادة وقرطبة وسابق عزه ولهوه .

المعتمد بن عباد

١٠٣٩ – ١٠٩٥ م (٤٣١ – ٤٨٨ هـ)

هو المعتمد على الله محمد بن عبّاد ، وكنيته أبو القاسم . أشهر ملوك الطوائف بالأندلس . انتقل إليه عرش إشبيلية بعد موت والده المعتضد بالله (١٠٦٨ م و ٤٦١ هـ) وكان شجاعاً مقداماً ، فسمت به نفسه إلى تملك قرطبة عاصمة البلاد في زمن الملوك الأمويين ، فدخلت في أمره وعظم بها ملكه ، فجعل عليها ابنه الحاجب سراج الدولة عبّاد ، وقفل إلى إشبيلية مقر ملكه .

وكان المأمون بن ذي النون أمير طُلَيْطُلَة يطمع في قرطبة ، فعقد حلفاً مع صديقه ألفنس السادس ملك لاون وقشتالة ، وأصبح في وسعه أن ينتقم من عدوه ابن عبّاد ويستولي على قرطبة . فوجه إليها جيشاً من طليطلة ، فدخلها جيشه على غرة ، ثم تحول إلى الزهراء يريد امتلاكها ، فتصدى له سراج الدولة بن المعتمد يدافع عن قصور الملوك وذخائرهم فسقط في المعمعة صريعاً ، فانهزم الحرس ، وتم النصر لطليطلة (١٠٥٧ م). على أن المعتمد بن عبّاد عاد إلى قرطبة فارتجعها . وجعل عليها ولده المأمون . ولكن ألفنس السادس لم يترك ملوك الطوائف ينعمون في إماراتهم ، فاستولى على طليطلة ، بعدما حالف ابن عبّاد . ثم أخذ يهدّد إشبيلية ويغزوها غير حافل بالمعاهدة . فرأى المعتمد أن يستوقف شر الملك الإسباني بأداء الجزية والنزول له عن الحصون المتاخمة . فأرسل إليه يسأله الهدنة ،

ويبدي رغبته في تسليم الحصون . فأوفد ألفنس جماعة على رأسهم بعض قواده ومعهم يهودي اسمه ابن شاليب ، ماهر في نقد الدراهم الزائفة . فوجه المعتمد إليهم بالمال . فطلب ابن شاليب أن ينظر فيه قبل تسلمه ، فاستاء الوفد الإشبيلي ، وعدوا ذلك إهانة لهم ولأميرهم . فلما علم المعتمد بالأمر احتدم غيظاً ، وأمر بصلب ابن شاليب وزج من معه في السجن ، وقيل بل قتلهم جميعاً . ثم فكر فيما يجر عليه هذا الحادث من وخيم العاقبة . فوطّن النيّة على استدعاء يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في مراكش ليأتي إلى نصرته . فلباه الأمير المغربي بجيش عظيم ، وكسر الإسبانيين في معركة الزلاّقة الشهيرة (١٠٨٦ م و ٤٧٩ هـ) .

على أن هذا الانتصار أطمعه في الاستيلاء على الأندلس وضمها إلى سلطانه لما رأى من ضعف ملوك الطوائف وعجزهم عن مدافعة ملوك إسبانية . فعاد إليها بعد زمن ، وأخذ يستولي على إماراتها واحدة بعد أخرى ، حتى بلغ إشبيلية. وكان المعتمد يتوقع غارة المرابطين ويستعد لها، فهب إلى مقاومتهم يخوض المعارك بنفسه . ولبث يدافع عنها دفاع اليائس المستميت ، والمرابطون يأخذونه من كل جهة إلى أن دخلوها في أيلول ١٠٩١ م (رجب ٤٨٨ هـ) فاعتقلوه وساقوه وأسرته إلى أغمات ، قرب مراكش ، بعدما قُتل ابنه المأمون في قرطبة ، وابنه الراضي في رندة . فبقي سجيناً حتى مات .

ووصف الفتح بن خاقان حياة هذا الملك الشاعر في كتابه « قلائد العقيان » فذكر ما كان عليه من النعمة والرفعة قبل نكبته ، وكيف كانت حضرته مسرحاً لآمال طلاب المعروف ، ولواؤه جامعاً لمشاهير الفرسان ، ولياليه مجالس زاهرة باللهو والشراب ومطارحة الأدباء والشعراء . وقد أكثر

الشعراء الذين اتصلوا به من مديحه ، وبالغوا في تعداد مناقبه وصفاته ، ورثاه كثير منهم بعد موته يذكرون أيامه ويتلهفون عليها .

شعره

كان المعتمد أيام ملك أبيه المعتضد في مدينة شِلْب ينعم بالملذات والشباب الغض . فلما صار الملك إليه وانتقل إلى إشبيلية طفق يحنّ إلى أيامه الماضية ، ويذكرها بشعره ، أو يصف مجالس لهوه وشرابه مثل قولـــه :

ولقد شربتُ الراحَ يسطَعُ نورُها ، والليلُ قد مدّ الظّلامَ رِداءَ
حتى تبدّى البَدْرُ في جوزائهِ ملِكاً تناهى بَهْجَةً وبَهاءَ

وكان يستدعي الشعراء إلى مجالسته ويسمع أشعارهم ، ويحسن جوائزهم ، ويسمعهم من شعره ما يصف به بعض أحواله . وقد يخطر في باله صديق أديب غائب عن مجلس شرابه ، فيرسل إليه بشعر يدعوه به ، كما أرسل إلى الطبيب أبي محمد المصري ، فجاءه على عجل إجابة لرغبته ، ونال من عطائه شيئاً كثيراً .

وكان لا يحس الألم والشقاء ، وهو في عز ملكه ، فجاءت أشعاره كلها في وصف الطبيعة والخمر والملاهي ، وبدت أوصافه في أكثرها مادية تغلب الشهوة عليها ، وتشيع الصنعة فيها ولا تخلو من التكلف . وقلما تغزل غزل متحرق محروم . فقد أحبّ اعتماد الرُّمَيكيّة وتزوجها ، فلم يذق طعم الفراق والهجران ، ليتردد الألم في شعره ، إلا ما كان من أبيات قليلة لا تعبر عن وجدان عميق ، وإنما هي ذكرى جفوة حبيب إذ يقول :

أيا نفسُ لا تجزعي ، واصبري ، وإلاّ فإنّ الهوَى مُتلِفُ
حَبيبٌ جفاكِ ، وقَلْبٌ عَصَاكِ ، وَلاحٍ لَحَاكِ ولا يُنْصِف
شُجونٌ منَعنَ الجُفونَ الكرَى ، وعوّضنَها أدْمُعاً تَنْزفُ

ويضطر حيناً أن يخرج من إشبيلية لتدبير أمر من أمور دولته ، فيذكر فراق الأحبّة فيقول :

ولمّا التَقَينا للوَداعِ غُدَيّةً ، وقد خَفَقَت في ساحة القصرِ راياتُ
بَكَينا دماً حتى كأنّ عُيونَنَا بجرْيِ الدموعِ الحمرِ منها جِراحاتُ

وأول نكبة لقيها وتألم لها هي مقتل ابنه سراج الملك ، وكان فتى في ريعان شبابه ، فقد برز إلى أعدائه منفرداً ، وسيفه في يمينه ، فدافعهم أكثر ليله ، ثم سقط قتيلاً في الطريق ، فترك على حاله ، وقد تمزقت ثيابه فبدا عارياً ، فمر به في السحر شيخ من أئمة الجامع ، فلما رآه خلع عليه رداءه وستره به ، ومضى في سبيله ، ولم يُعرف من هو. فكان المعتمد إذا تذكر صرعته بكى وأنشد: « ولم أدرِ من ألقَى عليه رداءه. » ولكنه لم يستطع رثاءه ، فكان كل همه أن يطلب ثأره ، فلم تحفظ له فيه قافية ، ولا كلمة للوعته شافية ، إلاّ ما قاله في تأبين أخويه المأمون والراضي ، وأشار إليه ببيت واحد. وهو رثاء حزين يدل على أسى الوالد وحسرته ، ويذكر فيه لوعة الأم والأخوات، ولا يخلو من الصنعة . قال، وقد رأى قُمْرِيّة تنوح على غصن ، وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغماً، فذكر أولاده المقتولين :

بكَتْ أن رأتْ إلفَينِ ضمّهما وَكرُ مساءً وقد أخنى على إلفِها الدّهرُ

وناحتْ فباحتْ ، واستراحتْ ، بسرّها ، وما نَطَقَت حرفاً يبوح به سرُّ

فما ليَ لا أبكي . أمِ القلبُ صخرَةٌ ؟ وكم صخرَةٍ في الأرْض يجري بها نَهرُ

بَكَتْ واحِداً لم يَشْجُها غيرُ فقدهِ ، وأبكي لألافٍ عَديدُهُمُ كُثْرُ

بُنَيٌّ صغيرٌ ، أو خليلٌ مُفارِقٌ . يُمَزِّق ذا قَفرٌ ويُغرِقُ ذا بحرُ

ونجمانِ زَينٌ للزمان احتَواهُمَا بقُرطُبَةَ النّكداءِ أوْ رَنْدةَ القبرُ

غَدَرْتُ إذاً إن ضنَّ جَفني بقَطرَةٍ وإن لَوَّمَتْ نفسي فصاحبَها الصبرُ

فقل للنجومِ الزُّهرِ تبكيهما معي ، لِمثلِيهما فلتَحزَنِ الأنجُمُ الزُّهرُ !

ويظهر أنه كان ينبغي لهذا الملك الشاعر أن يتألم لتجيش عاطفته ، فقد حركها مقتل أولاده . وزادها استثارة سقوطه عن العرش ، وسوقه مع أهله ذليلاً من قصر إشبيلية إلى سجن اغمات ، فتبدلت الحياة من النعيم بؤساً . ومن الهناء شقاء ، فعاش في غربته محروماً كل لذة تعوّد أن يتمتع بها . ولم يكن لديه من المال ما يقتات به . فكانت بناته تغزل بالأجرة ليحصلن رزقهنّ ورزق أبيهنّ ، وهو لا يستطيع أن يرد عنهن مكروهاً ، ولا ان يدفع الضيم عن امرأته اعتماد الرُّمَيكيّة التي أحبها كثيراً ، وماتت ودفنت معه في اغمات .

فهذه النكبات كانت قاسية عليه . ولكنها جاءت من حظ أدبه ، لأنّه لولاها لما أخرج هذه الأشعار الوجدانية التي تحس أنها فائضة من أعماق النفس تصور حالة الملك الأسير وحالة أسرته أصدق تصوير ، بعيدة عن التصنع الذي عهدناه في شعره السابق ، إذ كان يتلهى بالنظم ذاكراً ملاهيه وشرابه ، ويتغزل غزل متنعم ، لا غزل محروم ، فلم

تتدفق عاطفته تدفقها في نكبته وسجنه . حتى إن الأبيات التي قالها عندما دخلوا عليه القصر في إشبيلية ، ووضعوا القيود في رجليه ، لم تكن من نسيج الشعر الذي قاله في أغمات بعدما عانى الذل هو وزوجه وأولاده ، لأنه كان لا يزال يشعر بقوته وعز سلطانه . قال :

تَبدّلتُ ، من عزِّ ظلِّ البُنودِ ، بِذُلِّ الحَديدِ وثِقْلِ القُيودِ
وكان حديدي سِناناً ذليقاً ، وعَضْباً رقيقاً صَقيلَ الحُدودِ[1]
فقد صارَ ذاكَ وذا أدهَماً يَعَضّ بِساقيَّ عَضّ الأسودِ[2]

فلما حلّ بأغمات أسيراً شرع يصعّد الزفرات ، ويحن إلى قصره ولياليه وسكانه . وكان الحصن الزاهر من أحب المواضع إليه ، لإطلاله على النهر ، وإشرافه على القصر ، واشتماله بالشجر والزيتون . وكان كثيراً ما يدير به الراح ، ويجعله موضع انشراحه ، فأخذ يحنّ إليه ويذكره بشعره قال :

غريبٌ بأرض المَغرِبَيْنِ أسيرُ ، سيَبكي عليه مِنبَرٌ وسَريرُ
مضى زَمَنٌ والمُلكُ مستأنِسٌ به ، وأصبحَ منه اليومَ وهو نَفُورُ
فيا لَيت شِعري هل أبيتنّ لَيلَةً ، أمامي وخلفي روضةٌ وغَديرُ
بِمنبِتَةِ الزيتونِ، مُورِثَةِ العُلى، يُغَنّي حَمامٌ، أو تَدُنُّ طيُورُ
بِزاهِرِها السامي الذُّرى جاده الحيا تُشيرُ الثّريّا نحوَنا ، ونُشيرُ
ويَلْحَظُنا الزاهي وسَعْدُ سُعودِهِ غَيورَينِ ، والصَّبُّ المُحبُّ غَيُورُ

١ ذليقاً : محدداً .
٢ الأدهم : القيد .

وعندما استقبله الفطر في اغمات ، ذكر ما كان يجري في قصره من الحفلات الفخمة أيام هذا العيد ، وكيف كانت بشائر السرور والسعادة تلوح على وجوه أولاده . وإذا بناته وأبناؤه يدخلون عليه يؤدون رسم التبريك ، فنظر إليهم ، فرأى فتيات كالزهر في أطْمار بالية ، ودموعهن في العيون حائرة ، حافيات الأقدام ، بأيديهن المغازل ، وقد غير البؤس تلك الوجوه الجميلة ؛ فجاش الشعر في خاطره ، فكانت لنا منه هذه الأبيات النابضة بالإحساس الوجيع :

فيما مضى كنتَ بالأيام مسرورا ، فساءك العيدُ في أغمات مأسورا
ترى بناتِكَ في الأطمارِ جائعةً ، يَغزِلنَ للناسِ لا يملِكنَ قِطْميرا[1]
بَرَزْنَ نحوَكَ للتسليمِ خاشعةً أبصارُهُنّ ، حَسيراتٍ، مكاسيرا[2]
يَطَأْنَ في الطين ، والأقدامُ حافيةٌ، كأنها لم تَطَأْ مِسكاً وكافورا[3]
أفطرتَ في العيد، لا عادَت إساءته! فكان فِطرُكَ للأكبادِ تَفطيرا[4]
قدكان دهرُكَ ،إن تأمُرْهُ ،مُمْتَثِلاً ، فردّكَ الدهرُ مَنهيّاً ومأمورا
مَن باتَ بعدَكَ في مُلكٍ يُسَرّ به ، فإنّما باتَ بالأحلام مَغرُورا

ودخل عليه ولده أبو هاشم ، وهو في تلك الحال السيئة ، والقيود ملتوية على ساقيه ، لا يقوى على مشي . وكان أبو هاشم ولداً صغيراً ،

١ القطمير : شق النواة أو القشرة التي عليها .
٢ حسيرات : متلهفات معييات .
٣ كأنها : الضمير يعود على الأقدام . الكافور : طيب من شجر بجبال الهند والصين، وهو أنواع ، ومنافعه كثيرة .
٤ تفطيراً : تشقيقاً .

فلما رآه المعتمد بكى وتلهف ، ثم قال هذه الأبيات يخاطب بها قيده :

قيدي ! أما تعلمُني مُسلِمَا ، أبيتَ أن تُشفِقَ أو ترحَما !
دمي شرابٌ لكَ ، واللحمُ قدْ أكلتَهُ ، لا تَهشِمِ الأعظُمَا
يُبصِرُني فيكَ أبو هاشِمٍ ، فيَنْثَني والقلبُ قد هُشِّمَا
إرْحَمْ طُفَيلاً طائشاً لُبُّهُ ، لم يَخشَ أن يأتيكَ مُسترْحِمَا
وارْحَمْ أُخَيّاتٍ لَهُ مِثْلَهُ ، جرّعتَهُنّ السُّمَّ والعلْقَمَا[1]
مِنهُنّ مَن يَفهَمُ شيئاً ، فقد خِفنا عليه ، للبكاءِ ، العَمَى
والغَيرُ لا يَفهَمُ شيئاً ، فَمَا يفتَحُ إلاّ لِرَضَاعٍ فَمَا

وكانت أشعاره في اغمات زفرات متقطعة تدوّن الأحداث التي تمر به وتؤثر في نفسه ، فجاءت مذكرات حزينة لأيام شقائه . نتتبّع فيها حياته في الأسر وما كان يمر به من أحوال تثير شجونه . وتهيج شاعريته . فقد مرّ عليه في معتقله سرب قطا يمرح في الجو ويسرح حرّاً ، ورأى نفسه محبوساً ، دونه ودون سربه أبواب موصدة ، يقاسي عض القيود ، وألم التفكير في أولاده وحرمانهم النعيم المفقود . فقال في ذلك :

بكَيتُ إلى سِربِ القَطا إذ مرَرْنَ بي سوَارِحَ لا سجنٌ يَعوقُ ولا كَبْلُ
ولم تَكُ ، واللهِ المُعيدِ ، حَسادَةً ، ولكن حنيناً أنّ شكلي لها شَكْلُ
ألا اسرَحْ فلا شَملٌ صديعٌ ، ولا الحشا وَجيعٌ ، ولا عينانِ يُبكيهِما ثُكلُ

[1] العلقم : كل شيء مر .

وما ذاكَ مما يَعتَريهِ ، وإنّما وَصَفتُ الذي في جِبلةِ الخَلْقِ من قبلُ[1]
هَنيئاً لها أن لم يُفَرَّقْ جَميعُها ، ولا ذاق منها البُعدَ عن أهلِهِ أهْلُ
وأن لم تَبِتْ مثلي تطيرُ قلوبُها ، إذا اهتزّ بابُ السجن أو صلصلَ القُفلُ
لِنَفسي إلى لُقيا الحِمامِ تَشَوُّفٌ ، سوايَ يحبّ العيشَ في ساقه كَبْلُ[2]
ألا عَصَمَ اللهُ القَطا في فِراخِها ، فإنّ فراخي خانها الماءُ والظِلُّ !

بهذه الأشعار وبأمثالها كان الملك الأسير ينفّس عن كربه ، وهيهات أن يجد السلوان ، فلا شيء يجعله ينسى ماضيه إلا أن يوارى في رمسه . فظل يندب حظه وحظّ أولاده ، ويذكر أيامه السالفة ، حتى أحس دنوّ الأجل ، فطلب أن تُكتب على قبره هذه الأبيات :

قبرَ الغريبِ ، سقاكَ الرائحُ الغادي ! حقّاً ظفِرْتَ بأشلاءِ ابنِ عبّادِ[3]
بالطاعِنِ الضّاربِ الرامي إذا اقتتلوا ، بالخِصْبِ إن أجدَبوا ، بالرِّيّ للصادي
نَعَمْ ، هو الحقُّ وافاني به قَدَرٌ من السماءِ ، ووافاني لميعادي[4]
ولم أكُنْ قبل ذاكَ النعشِ أعلَمُهُ أنّ الجبالَ تَهادَى فوقَ أطوادِ[5]

١ الجبلة : الخلقة والطبيعة . وما ذاك مما يعتريه : أي فراق الأحبة ، وتوجع الحشا ، والبكاء للثكل .
٢ تشوف : تطلع .
٣ الرائح الغادي : مطر المساء والصباح . الأشلاء : البقايا .
٤ الحق : الموت .
٥ تهادى أي تتهادى : تتمايل في مشيها . الأطواد : الجبال ، واحدها طود .

فلا تَزَلْ صَلَوَاتُ اللهِ دائِمَةً على دَفِينِكِ ، لا تُحصى بتَعدادِ[1]

وكانت هذه الأبيات آخر زفرة من زفرات الملك الحزين .

منزلته

لم يقل المعتمد بن عباد الشعر إلا في أحواله الخاصة ، فما هو من شعراء المدح ، ولا هو من شعراء الهجاء ، لأن الله أغناه بعزة الملك عن الاستجداء والتكسب ، أو التعرض للناس بالذم والشتائم . وعرفت له بعض الاخوانيات في ما كان يجري بينه وبين شعراء دولته من مطارحات أدبية يبادلهم فيها الثناء والمودة كما بيّنّا ذلك في كلامنا على ابن زيدون، ولا تُعَدُّ، على كل حال ، من المديح الذي ينحدر بصاحبه إلى السؤال والكدية ؛ وإنّما هي إطراء ملك شاعر يعجبه الشعر الجميل فيحدب على أصحابه ، ولا يكتفي بالهبات السنية بل يتبعها المدح والثناء استكمالاً للمعروف ، أو تلبية للنزعة الأدبية في نفسه .

ولا يعود خلود ابن عباد في الأدب إلى هذا الشعر ، ولا إلى غيره من المنظومات التي قالها وهو خافض العيش في نعيم دولته ، وإنّما يعود خلوده على ذلك الشعر الوجداني الخالص الذي قاله في نكباته بعدما قُتل أولاده الثلاثة ، وأُسر في حرب المرابطين فقادوه من قصره ذليلاً مهاناً إلى اغمات ، فكان أشبه بأبي فراس الحمداني ، فكلاهما كان لسجنه المظلم يد بيضاء على خلوده وعلى الأدب معاً ، فلولا الأسر لما جرى طبعهما بتلك النفثات الرائعة ، ولا كتب اسماهما في سفر الخلود .

١ على دفينك : الخطاب لقبر الغريب .

وكلاهما أمير شجاع عزيز النفس ، أمضّه الضيم بعد العز ، فأخرج ما في صدره من العواطف الإنسانية الجميلة معبرة عن همومه وآلامه ، ناشرة نفحاتها الملوكية . ويختلف المعتمد بن عبّاد عن أبي فراس في أنّه لم يكن يأمل فرجاً ، ولا ينتظر فداء، وكان يشكو في أسره ضيق العيش ويتضور لفقر أولاده وزوجته ، ودخولهم عليه حفاة بالأسمال البالية ، فتلوّن شعره بألوان قاتمة من اليأس والبؤس لم يتلون بها شعر أبي فراس .

الموشحات الاندلسية

التعريف بالموشحات

الأقفال . الأبيات . الأجزاء . الخرجة . أوزانها .

الموشحات فنّ جديد في شعر المتقدّمين استنبطه أهل الأندلس وسمّوه موشحاً لما فيه من الصّنعة والتزيين ، فكأنّهم نظروا إلى وشاح[1] المرأة وما فيه من ترصيع وتكريس[2] ، وتفصيل فشبّهوه به في أسماطه وأبياته وأقفاله .

ولابن سناء المُلك تعريف ضاف بالموشحات في كتابه « دار الطراز » يستخلص منه أن الموشح يتألّف في الأكثر من ستّة أقفال وخمسة أبيات ، ويقال له التام . وربّما تألّف من خمسة أقفال وخمسة أبيات وقيل له الأقرع . والتام ما ابتدىء فيه بالأقفال ، والأقرع ما ابتدىء فيه بالأبيات .

والأقفال أجزاء مؤلّفة يلزم أن يكون كلّ قفل منها متفقاً مع سائرها في وزنه وقوافيه وعدد أجزائه كقول ابن الخطيب :

جادَكَ الغَيثُ، إذا الغيثُ همَى ، يَا زَمَانَ الوَصْلِ بالأنْدَلُسِ !

١ الوشاح : شبه قلادة من أديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها،أو هو كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما ، معطوف أحدهما على الآخر .

٢ التكريس : أن ينظم اللؤلؤ والخرز في خيط ثم يضما مفصولين بخرز كبار ، ومنه قلادة ذات كرس أو ذات كرسين .

لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إلاّ حُلُماً في الكَرَى، أوْ خُلسَةَ المُختَلِسِ

فهذا القفل يتردّد ما يشابهه وزناً وقافية وعدد أجزاء، ست مرّات في الموشّحة لأنّها تامّة .

والأبيات أجزاء مؤلّفة يلزم أن يكون كلّ بيت منها متّفقاً مع سائر أبيات الموشح في الوزن وعدد الأجزاء لا في القافية ، كقول ابن الخطيب بعد القفل الذي أوردناه :

إذْ يَقُودُ الدّهْرُ أشْتَاتَ المُنَى ، نَنْقُلُ الخَطْوَ عَلى مَا تَرْسُمُ [1] ،
زُمَـــراً بَيْنَ فُـــرَادَى وَثُنَا ، مِثْلَمَا يَدْعُو الحَجِيجَ المَوْسِمُ [2]
وَالحَيَا قَدْ جَلّلَ الرّوْضَ سَنَا ، فَثُغُورُ الزّهْرِ فِيــهِ تَبْسِمُ [3]

فهذا البيت يتردّد في سائر الموشحة خمس مرّات بوزنه وعدد أجزائه ، ويختلف في قافيته ، مثال ذلك السمط الثاني منها حيث يقول في قفله :

وَرَوَى النُّعمَانُ عَنْ مَاءِ السّمَا، كَيفَ يَرْوِي مَالِكٌ عَنْ أنَسِ [4]

١ أشتات : جمع شت . ترسم : تأمر . يقول : إن الدهر كان طائعاً لنا يقود إلينا المنى ونحن نسير على ما ترسم هذه المنى لنا .

٢ زمراً: جماعات، مفردها زمرة؛ نصبت على الحال من ضمير تنقل. فرادى: واحداً واحداً. ثنا: اثنين اثنين. الحجيج: من يحجون إلى الأماكن المقدسة . الموسم: مجتمع الحج في مكانه .

٣ الحيا : المطر . جلل : غطى .

٤ النعمان : ملك الحيرة ابن المنذر اللخمي ، والمراد هنا شقائق النعمان . ماء السماء : أم المنذر اللخمي وجدة النعمان ، والمراد هنا المطر . مالك : إمام المدينة وأحد الأئمة الأربعة. وأنس والده . يقول : إن زهر الشقائق روى لنا عن والده المطر كيف كان يروي مالك عن والده أنس رواية صدق . وصدق رواية الشقيق عن المطر باد في إزهاره وحسن منظره ، وفي المصراع الأول توريتان ظاهرتان .

فَـكَـسَاهُ الحُسْنُ ثَوْباً مُعْلَمَا ، يَزْدَهِي مِنْهُ بِأَبْهَى مَلْبَسِ[1]

ويقول في بيته[4] :

فِي لَيَالٍ كَتَمَتْ سِرَّ الهَوَى ، بالدُّجَى لَوْلا شُمُوسُ الغُرَرِ[2]
مَالَ نَجْمُ الكَأسِ فِيهَا وَهَوَى مُسْتَقِيمَ السَّيرِ ، سَعْدَ الأَثَرِ[3]
وَطَرٌ مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ سِوَى أَنَّـهُ مَـرَّ كَلَمْحِ البَصَرِ

ويتركّب القفل من فقرة واحدة وجزئين فصاعداً إلى أربع فقر وثمانية أجزاء أو عشرة . فمثال الفقرة الواحدة والجزئين :

بِاللهِ يَا سَفَّاكْ ، أَغْمِدْ ظُبَاكْ !

ومثال الفقرتين والجزئين :

أَيُّهَا السَّاقِي إِلَيكَ المُشْتَكَى ، قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعِ

ومثال الفقرة الواحدة والأجزاء الثلاثة :

يا ليلةَ الوَصْلِ ، وَكَأسَ العُقَارْ ، دون استتارْ ، علّمتماني كيفَ خلعُ العذارْ

ومثال الفقر الأربع والأجزاء الستّة :

مَـا لِلمُوَلَّهْ ، من سُكرِهِ لا يُفِيقْ ، يَا لَـهُ سَكْرَانْ
مِنْ غَيْرِ خَمْرِ ، ما للكَئيبِ المَشوقْ ، يَنْدُبُ الأَوْطَانْ

١ معلماً : مطرزاً مرقوماً .
٢ الغرر : جمع غرة ، أي طلعة وجوه الحسان .
٣ شبه كأس الخمر وهي تدور عليهم ، وهم في لهو وهناء ، بنجم مطلعه سعد بسير في أصحابه سيراً مستقيماً ، ويترك لهم آثاراً طيبة .

والبيت يكون مفرداً ، وأجزاؤه ثلاثة أو أكثر ؛ فمثال الثلاثة :

إنَّ المَسَاوِيكَا ، مَحْسُودَةٌ فِيكَا ، عَلَى لَمَى فِيكَا

وقفله :

يَا لَيْتَنِي مِسْوَاكْ عُـــودِ الأَرَاكْ !

ويكون مركّباً ، وأكثره ما جاء على فقرتين وثلاثة أجزاء كما في موشحة ابن الخطيب ، وربّما زاد على ذلك أو نقص . وقد يجيء فيه نصف جزء كقول بعضهم وهو فقرتان وثلاثة أجزاء ونصف جزء :

مَنْ أَوْدَعَ الأَجْفَانْ صَــوَارِمَ الهِنْدِ
وَأَنْبَتَ الرَّيْحَـانْ ، في صَفْحَةِ الخَـدِّ
قَضَى عَلَى الهَيْمَانْ ، بِالدَّمْعِ وَالسُّهْدِ
أَنِّى وَلِلكِتْمَانْ

وقفله :

لِلهَائِمِ المُغْرَمْ ، بِدَمْعٍ نَمْ ، إذْ يُسْجَمْ ، بِمَا يُكْتَمْ[1]
مِنَ السِّرِّ ، في عاطلٍ حالٍ . عَزِيزٍ سَاطْ ، عَلَيَّ بالدُّعْجِ[2]

والقفل الأخير في الموشحة يقال له الخَرْجة ، وشرطها أن تكون عامية غير معربة إلا في المدح ، فمثال العاميّة :

١ الباء في قوله بما يكتم متعلق بنم .
٢ العاطل : ضد الحالي ، والحالي المتزين بالحلى . ساط : اسم فاعل من سطا . الدعج : العيون الشديدة السواد مع سعة ؛ مفردها دعجاء .

أنَا قُولْ: قُوقُو، لَيسْ باللهْ تَذوقُو

وأكثر ما تجعل على ألسنة الجواري والغلمان والسكارى ، وربّما جاءت على ألسنة الحيوان والطير والأشياء المعنويّة كالحبّ والحرب وما أشبه . ولا بدّ أن يرد في البيت قبلها قال أو قلت أو يقول ، أو ما يغني عنه كغنى وشدا ، فإن الخرجة التي أوردنا قد مُهد لها في البيت قبلها بقوله :

لمّا أنْ تسرْبلْ، ثوبَ الحسن زيّا أرَدْتُ أُقبّلْ لماهُ الشّهيّا

فقَالَ تمثّلْ بالشّعْرِ أبيّا، ومالَ تدلّلْ، بأجْلى مقَالِ :

أنَا قُولْ: قُوقُو، لَيسْ باللهْ تَذوقُو

والموشحات منها ما جاء على أوزان العرب ، ومنها ما خالفها . فأمّا الموزون فيعده أصحاب الصنعة مرذولاً إلا إذا اختلفت قوافي قفله كما في موشحة ابن الخطيب « جادك الغيث » أو أخرج من الوزن بكلمة أو حركة تتخلّل أبياته ، مثال الكلمة :

صَبرْتُ، والصّبرُ شيمَةُ العَاني، ولَمْ أقُلْ للمُطيلِ هِجْرَاني :

مُعَذّبي كَفَاني !

فهذا من المنسرح ، وأخرجه منه معذّبي كفاني . ومثال الحركة :

يَا وَيْحَ صَبٍّ إلى البرْقِ لَهُ نَظَرُ، وَفي البكاءِ معَ الوُرْقِ لهُ وَطَرُ

فحركة الخفض في البرق والورق والتزامهما كالقافية خرجا بالبسيط عن وزنه .

وقد تكون أقفال الموشح موافقة لأبياته في الوزن وقد تكون مخالفة لها .

وأمّا ما خالف أوزان العرب فمنه ما له وزن خاص يدركه السمع ويعرفه الذّوق من غير احتياج إلى ميزان العروض ، وهذا كثير في الموشحات . ومنه مفككك النظم لا يحسّ له وزن ولا وقع ، وهذا يحسن في الغناء ، ولا يحسن في الإنشاد .

وربّما بنيت الموشحة على بيت من الشعر مشهور يجعل على سبيل التضمين في القفل أو البيت . وربّما بنيت على عدّة أبيات من قصيدة ، كقول ابن الوكيل مضمناً من قصيدة ابن زيدون : « أضحى التنائي... »

مَنْ هَامَ بالغِيدِ، لاقَى بهِمْ هَمّا
بَذَلْتُ مَجْهُودي، لأَحْوَرِ أَلْمَى[1]
يَهُمّ بِالجُودِ، وَرَدَّ مَا هَمّا

وَعِندما قَدْ جَادْ، بالوَصْلِ أوْ قدْ كادْ، أضْحى التنائي بديلاً من تدانينا

يَا جِيرةً بَانَتْ عَنْ مُغْرَمٍ صَبٍّ
لِعَهْدِهِ خَانَتْ، مِنْ غَيرِ ما ذَنْبِ
مَا هَكَذَا كَانَتْ عَوَائِدُ العُرْبِ

لا تَحسَبوا البُعدا، يُغَيِّرُ العَهْدَا، إنْ طَالما غيّرَ النّأيُ المُحبّينَا

١ الألمى : من كان باطن شفته مشرباً سواداً ، وبارد الريق .

اختراعها

مقدم بن معافر . ابن المعتز . دخولها الشرق . الخروج على نظام الشعر في الشرق . الأندلس والجديد فيها . تأثير اختلاط العرب بالفرنجة . استعراب الاسبانيين . تأثير الاختلاط في : الأزياء ، ولغة التخاطب ، والغناء ، والأدب والموشحات ، وأناشيد التروبادور .

قال ابن خلدون في مقدّمته : « وأمّا أهل الأندلس فلمّا كثر الشعر في قطرهم ، وتهذّبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخّرون منهم فنّاً سمّوه بالموشح . » اه.

وقال أيضاً : « وكان المخترع له بجزيرة الأندلس مقدَّم بن معافر الفَريري من شعراء الأمير عبد الله بن محمّد المرواني ، وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربّه صاحب كتاب العقد ، ولم يظهر لهما مع المتأخّرين ذكر ، وكسدت موشّحاتهما . فكان أوّل من برع في هذا عُبادة القزّاز شاعر المعتصم بن صُمادح صاحب المَريّة . » اه.

وأورد ابن خلدون بعض توشيح لعبادة يقول فيه :

بَـدْرُ تَمّْ ، شمسُ ضُحى ، غُصْنُ نَقَا[1] ، مِسْكُ شَمّ
مَـا أتَمّ ، مَـا أوْضَحَا مَا أوْرَقَا ، مَـا أنَمّ

فيتبيّن من كلام صاحب المقدّمة أنّ الموشحات ظهرت بالأندلس في القرن الثالث للهجرة ، لأنّ ولاية الأمير عبد الله بن محمد كانت من

١ النقا : الكثيب من الرمل .

سنة ٢٧٥ إلى ٣٠٠ هـ. (٨٨٨ – ٩١٢ م) . على أنّه لم يصل إلينا شيء من موشحات مقدم بن معافر ، ولا من موشحات ابن عبد ربّه ؛ لأن موشحاتهما كسدت وأُهملت ولم يروها النّاس . وأقدم ما وصل إلينا ما جاءنا عن عبادة القزّاز المتوفّى سنة ٤٢٢ هـ. (١٠٣٠ م) .

وفي ديوان ابن المعتزّ العبّاسي موشّحة لطيفة ، لو صحّت نسبتها إليه لما بقي فضل اختراع هذا الفنّ لأهل الأندلس ؛ لأن ابن المعتزّ كان معاصراً لمقدّم بن معافر ، ومقدم كسدت موشّحاته لغثاثتها ، وابن المعتزّ خلدت موشّحته لجودتها[1] . غير أنّنا نشكّ في نسبتها إليه لأسباب : منها أن مؤرّخي ابن المعتزّ لم يذكروه في عداد الوشّاحين ، ولا ذكروا موشّحته هذه . ومنها أنّ هذه الموشّحة رويت لشاعر آخر يقال له الحفيد بن زهير[2] . ومنها أنّ ديوان ابن المعتزّ لا يحتوي غير

١ أول هذه الموشحة :

أيها الساقي إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

. . .

ونديم همت في غرته وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق إليه واتكا وسقاني أربعاً في أربع

٢ رويت للحفيد بن زهير كما رويت لابن المعتز في كتاب « العذارى المائسات في الأزجال والموشحات » لجامعه فيليب قعدان الخازن . ولعله الحفيد بن زُهر لأن أبناء زهر اشتهروا في الأندلس بعلومهم وآدابهم ، ولا سيما أبو بكر بن زهر الذي شرقت موشحاته وغربت كما يقول ابن خلدون . وقد ورد اسمه محرفاً من زهر إلى زهير في مقدمة ابن خلدون وفي العذارى المائسات . فلا يبعد أن يكون وقع هذا التحريف على الحفيد أيضاً . توفي الحفيد ابن زهر بمراكش سنة ٥٩٥ هـ . (١١٩٩ م) . وكان على صلة وثيقة ببني عبد المؤمن في دولة الموحدين، وخاصة الخليفة الموحدي المنصور . حدث صاحب طبقات الأطباء عن أخت الحفيد وابنها ونفوذهما في فروع الطب جميعاً وفي أعراض النساء خاصة . وكانت أخت الحفيد الطبيبة الخاصة بالمنصور .

هذه الموشّحة ، فلو عرف صاحبه فنّ التوشيح لأكثر منه لأنّه يلائم أغراضه التي اختصّ بها ، كوصف الطبيعة ومجالس اللّهو والشّراب . ومنها أنّه لم ترو موشّحة لشاعر مشرقي غير ابن المعتزّ في العصر العبّاسي الثاني ، ولا رويت موشحة لشاعر في العصر الثالث . ومنها أنّ المؤرّخين اتّفقوا على نسبة الموشّحات إلى أهل الأندلس لأنّها من مستنبطاتهم ، ولم يذكروا مشرقيّاً في الوشاحين قبل ابن سناء الملك المصري ، من شعراء العصر العبّاسي الرّابع . فهذه الأسباب تعزّز شكّنا في موشّحة ابن المعتزّ ، وتعزّز اعتقادنا أنّ الشرق لم يعرف هذا الفنّ إلا في أواخر الأعصر العبّاسية ، بعد أن شاع وازدهر في الأندلس ، وظهر بها أمثال عبادة القزّاز ، وأبي بكر بن زُهْر[1] ، وابن بَقيّ[2] ، والأعمى التّطيلي[3] ، وابن باجّة[4] ، وسواهم من الوشّاحين المشهورين .

ولم يحدث هذا الفنّ الجديد دون أن يلقى مقاومة وإنكاراً ، فإنّ جماعة المحافظين على القديم تجهّموه وعدّوه خروجاً على الأصول

١ أبو بكر محمد بن زهر الاشبيلي من أنبغ عائلة زهر المشهورة بالأندلس . كان طبيباً وأديباً ، اتصل بدولة المرابطين ، والموحدين من بعدهم ، ومات مسموماً في آخر سنة ٥٩٥ هـ . (١١٩٨ م) وكانت ولادته سنة ٥٠٧ هـ . (١١١٣ م) .

٢ هو أبو بكر يحيى بن بقي القرطبي له موشحات بديعة، توفي سنة ٥٤٠ هـ.(١١٤٥ م) .

٣ هو أبو جعفر أحمد بن عبد الله التطيلي ، منسوب إلى تطيلة مدينة بالأندلس ، نسبه إليها صاحب نفح الطيب.وأما صاحب قلائد العقيان فقد نسبه إلى طليطلة.عاش بين القرن الرابع والخامس للهجرة (القرن العاشر والحادي عشر) واشتهر بالشعر والنثر والتوشيح .

٤ هو أبو بكر محمد بن باجة التجيبي السرقسطي ، الفيلسوف الطبيب المعروف بابن الصائغ، كان شاعراً أديباً وشاحاً ، ووزيراً للأمير أبي بكر الصحراوي صاحب سرقسطة من قبل المرابطين . توفي مسموماً في مدينة فاس بالمغرب سنة ٥٣٣ هـ . (١١٣٨ م) .

وضعفاً ، وعابوا أصحابه ، ولكن سيله طما وطغى واجترف مقاوميه .

ولا بدّ من القول إنّ الخروج على نظام الشعر ظهر عند المشارقة في صدر الدّولة العبّاسيّة . فإنّ بعض الشعراء أخذوا ينظمون الفنون العلميّة والقصص الطويلة مزدوجات ، إذ لا يستطاع نظمها على قافية واحدة ، كما فعل أبان بن عبد الحميد في كليلة ودمنة . ونظموا أيضاً المسمطات والمخمسات ، كما فعل قُطْرُب في مثلثاته . غير أنّ فحول الشعراء تحاموا هذه الأنواع ورأوا فيها عجزاً وضيقاً ، وآثروا التزام القافية الواحدة ، إلا بشّاراً وابن المعتزّ . فقد ذكر ابن رشيق أن الأوّل كان يصنع المخمسات والمزدوجات عبثاً واستهانة بالشعر . وأما الثّاني فصنع مزدوجة في ذمّ الصّبوح ، وأخرى في سيرة المعتضد .

وسرى فنّ المسمطات والمزدوجات من الشرق إلى الغرب كما سرى غيره من الفنون والعلوم . فنظم فيه شعراء الأندلس ، فعل ابن عبد ربّه في مزدوجته التي ذكر بها غزوات الخليفة الناصر . والأندلسيّون أسرع إلى الخروج على القديم من المشارقة ، لأن الشرق مهد العربيّة ، وطلل البادية ؛ لا ينفك البدو يختلفون إلى أمصاره ، وأبناء الأمصار يختلفون إلى باديته . فروح العربية فيهم أرسخ وأقوى ، مهما غلوا في تجديدهم ، وأفرطوا في إنكار قديمهم . وأمّا الأندلس فلم تكن قرارة العرب قدماً ، وهي من شمالها محاطة بدول نصرانية عجميّة ، ومن جنوبها بقبائل بربريّة مغربيّة . ولولا إعراق بعض الأسر الأندلسيّة في العربية ، ومناصرة الملوك للأدب والأدباء ، وشغفهم برواية الشعر الجاهلي ، وتردّدهم في الشرق ، وتردّد المشارقة في بلادهم ؛ لما رسخت ملكة الفصاحة هنالك . وخصوصاً أنّ العرب الذين نزحوا إلى الأندلس أكثروا من

الزّواج بالنّساء الإسبانيّات ، وسواهنّ من الأوربّيّات ، فولدن لهم أولاداً يعتلج في عروقهم الدّم الشرقي والغربي ، فكانت لهم عادات وطباع وأزياء وفنون يختلفون بها عن عرب المشرق جدّ الاختلاف ، ويقتربون بها من النصارى الإسبانيّين كلّ الاقتراب .

وقد ظهر أثر هذا الاختلاط في استعراب النصارى واليهود من أهل الأندلس ، وإتقانهم لغة الضّاد وآدابها . وفي طراز بنائهم المستعرب (Mozarabe) ، وفي انتشار العلوم الدّخيلة بالممالك الإسبانيّة ، وفي استعمال الحروف العربيّة ببعض ولاياتها ، ويسمّون ذلك عندهم بالأدب العجمي (Litteratura aljamiada) . ثمّ في اتّخاذ المسلمين أزياء النصارى . فقد ذكر صاحب نفح الطيب أن عرب الأندلس غلب عليهم ترك العمائم ، فكان عزيز بن خطّاب أكبر عالم في مُرسية يخطب في حضرة السلطان وهو حاسر الرّأس . وكان ابن هُود وابن الأحمر بدون عمامة ايضاً . وكثيراً ما كان سلاح السلاطين والجنود كسلاح النصارى ، وأقبيتهم كأقبيتهم . وأثرت العجمة في لغة التخاطب عندهم ، فانحرفوا بها عمّا تقتضيه الأوضاع العربيّة ، حتى إذا تكلّم أحدهم بالإعراب ، وجرى على قوانين النحو ، استثقلوه واستبردوه .

وكذلك الغناء ، أثّر فيه اختلاط العرب بالإسبانيّين تأثيراً بليغاً ، وأثّر أيضاً في الشعر الذي يتغنى به . وكانت مجالس الطرب في الأندلس على انتشار عظيم ، وانعقاد مستمر . فإن جمال الأندلس ومنازهها ، وغنى أهلها ، من دواعي اللّهو والعبث . ولا شيء أدعى إلى اللّهو من الغناء والطرب ، فلا غرو أن يشيع هذا الفنّ ، ويكون له المقام الرّفيع ، وتكثر مجالسه ويعظم قدر المغنّين . وبحسبك أن تعلم كيف احتفى عبد

الرّحمن الثاني بزرياب ، لتتبيّن منزلة الغناء والمغنّين .

ولا ريب أن لزرياب يداً مشكورة في رفع شأن الغناء بالأندلس لما أدخل عليه من التحسين . قال فيه ابن خلدون : « فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف ، وطما منها بإشبيلية بحر زاخر . »

ولم يكن للإسبانيّين موسيقى راقية قبل الفتح الإسلامي . فلمّا افتتحت الأندلس وانتشر الغناء العربي ، تهذّبت موسيقاهم ، واصطبغت بألوان عربيّة بيّنة . منها أنّهم اتّخذوا الشبّابة من آلات الغناء وهي عربيّة الأصل . ولهم أناشيد يسمّونها بالزّجل (Segrel) وهي مأخوذة من الزّجل العربي . وعندهم طرب بمعنى ألّف الألحان ، وطروب بمعنى مؤلّف الألحان . وعندهم ربع صوت ، وثلث صوت . وأجزاء الأصوات عربيّة لا يستعملها في أوربّة غير الإسبانيّين . وتقاطيعهم الصّوتية تجري على نغم واحد كالتقاطيع العربيّة . ومن ألفاظهم ما يراجع في الغناء غير مرّة ، كما يراجع لفظ يا ليل في الغناء العربي .

وكان الأدب الإسباني قبل دخول العرب رومانيّاً يتعهّده الرّهبان في أديارهم منذ القرن الخامس للمسيح . ولكنّه لم يشمل طبقات الشعب كلّها ، لأنّ العامّة لم تتأثّر بالعلوم اللاتينيّة الراقية ، وإنّما كان منها شعراء ومغنّون لهم أدب شعبي خاص لا يختلف ، فيما نرى ، عن أدب عامة الغاليين لما بين الأمّتين من الاتّصال ، ولما كان لجماعات الجُنكلر[1] من يد في نشر هذا الأدب .

وجماعات الجُنكلر عُرفوا في غالية بين القرن السّابع والثامن ،

١ الجنكلر : جماعة من الرواة والقاصين والمغنين .

وكانوا يطوفون البلاد رجالاً ونساءً ، يتغنّون بأناشيدهم . وأناشيدهم منها حماسيّة ، ومنها غراميّة ، ومنها قصص نثريّة . وليست هذه الأغاني شعراً صحيح الأوزان مطّرد القوافي ، وإنّما هي مقاطع لا ضابط لها ؛ وربّما اتّحدت في أواخرها المخارج الصّوتيّة اتّحاداً غير ملتزم .

فأما وقد علمنا ما كان بين العرب والإسبانيّين من الامتزاج القوي في السكنى والزّواج والبناء واللّغة والعلوم والأزياء والغناء ، فغير عجيب أن يشمل هذا الامتزاج الأدب ، فيسمع العرب أناشيد الجنكلر فتنبههم في القرن التاسع إلى استنباط أناشيد للغناء الشعبي من نوع الزّجل طليقة القوافي والأوزان ، ثمّ ترقت بلغتها وترتيبها عندما أقبل الشعراء على نظمها فعُرفت بالموشحات . وكان لهم من مزدوجاتهم ومخمّساتهم سابقة في الخروج على القافية الموحّدة ، غير أنّهم لم يتخلّوا منها أصلاً لتعودهم إيّاها ، ثمّ لأنّها عنوان رقيّ شعرهم ؛ فجاءت موشحاتهم مختلفة الأوزان والقوافي ، شاذّة عن النّظام الشعري المألوف .

ودليلنا على أن العرب استنبطوا الموشحات من أجل الغناء ، هو أنّهم كانوا يراعون فيها التلحين مطلقاً وإن أفضى إلى إفساد التعبير . قال ابن سناء الملك : « والموشحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين : قسم يستقلّ التلحين به ولا يفتقر إلى ما يعينه عليه ، وهذا أكثرها . وقسم لا يحتمل التلحين ، ولا يمشي إلا بأن يتوكـّأ على لفظة لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكّازاً للمغني كقول ابن بقي :

مَنْ طالبٌ ثأرَ قتلى. ظَبَيَاتِ الحُدُوجْ . فتّانَاتِ الحَجيجْ[1]

١ الحدوج : مراكب النساء، مفردها حدج . وقوله فتانات الحجيج أي يفتن الحجيج عن حجهم.

فإن التلحين لا يستقيم إلا بأن يقول : لا لا بين الجيمين من هذا القفل . » اه.

أما أغاني الجنكلر فليس بين أيدينا شيء منها فنقابله بالموشحات . وإنّما نعتمد على أناشيد التروبادور التي ظهرت بجنوب فرنسة في القرن العاشر . وكان أصحابها يقصدون القصور ، ودور الملوك ، ومواسم الأعياد يتغنّون بها ، أو يغني لهم فيها جماعة الجنكلر . وهي تتناول أغراضاً شتى كالغزل ووصف الطبيعة ، والمدح والهجاء والقصص . وأغراض الموشحات يقوم معظمها على الغزل والطبيعة والمدح . وأناشيد التروبادور غنائية منسجمة الألفاظ،حسنة التوقيع،غير أنّها ضعيفة الميزة الأدبيّة في معانيها الهزيلة ، وأغراضها المكرورة . ولها أسماط وأجزاء لا تتوافق أوزانها أحياناً ، ولا تلتزم فيها القافية كما تلتزم في الشعر ؛ وإنّما تلتزم في كلّ ثلاثة أجزاء أو ستّة ، وفي نهاية كلّ سمط ، ويراعى في التزامها الوزن الذي وردت فيه أوّلاً . فهي من هذا القبيل أشبه شيء بالموشحات .

ونهضت أناشيد التروبادور في القرن الحادي عشر وهو الزّمن الذي نهضت فيه الموشحات ، ولكن لم يصل إلينا منها إلا منذ منتصف القرن الثاني عشر ، في حين أنّه وصلت إلينا موشحات منذ القرن الحادي عشر .

فاتّفاق منظومات التروبادور والموشحات في أكثر النواحي يحملنا على الاعتقاد أن العرب تأثروا بالأدب الإسباني الفرنسي[1] ، كما تأثر

١ غلبت الصبغة الفرنسية على الأدب الاسباني الشعبي لتسرب عنصره في الأندلس مع التجار اليهود خاصة ثم مع المرسلين الكاثوليكيين الذين جازوا البيرنه ، وأنشأوا الديورة الكبار تضم أولاد الفقراء،ويعلمهم فيها أساتذة فرنسيون.وقد درس المؤرخ غستون←

الإسبانيّون والفرنسيّون بالأدب العربي . فأخذ العرب فكرة التحرّر من نظام الأوزان في أغانيهم ، وأخذ أولئك القافية والصور الخيالية الجميلة .

فالموشحات إذاً ليست بعربيّة بحتة ، إنّما هي مستعربة (mozarabes) كأهل الأندلس ، وما في الأندلس من فنون وعادات وأزياء . وكانوا في بدء نشأتها يحلّونها بالألفاظ الأعجميّة كما ذكر ابن بسّام في الذّخيرة .

أغراضها ومعانيها

الغزل . الطبيعة . الخمر . المدح . تأثير الطبيعة . استمداد المعاني منها . المعاني لطيفة غير عميقة . قلة الابتكار .

فأمّا وقد علمنا أن الموشحات اخترعت من أجل الغناء ، فلا غرو أن تكون أغراضها في أوّل الأمر مناسبة لهذا الفنّ ، فما ينظم فيها غير الغزل والخمر والمجون ووصف الطبيعة . واتبعوا بها المدح لأن أبهى مجالس الغناء كانت تعقد في قصور الملوك والأمراء . والتغني بمناقبهم عدة التكسّب للشاعر والمغني معاً . ثمّ توسّعوا فيها إلى سائر أغراض الشعر كالهجو والرّثاء ، والزّهد والتصوّف .

وأكثر ما نظمت فيه الموشحات ما اجتمع به الغزل والطبيعة والخمر

باري صلة الأدب الفرنسي بالأدب الاسباني ، ودل بحجج راهنة على تأثير الأول في الثاني حتى قال : « إن الأدب الأندلسي في أول عهده هو فصل من تاريخ الأدب الفرنسي في القرون المتوسطة . » اهـ .

والمدح . وربّما استهلّوا بالغزل وانتقلوا إلى المدح ، ثمّ رجعوا إلى الغزل ، فجعلوه ختاماً للموشّح .

على أنّه مهما تعدّدت أغراض الموشّحات فللطبيعة النصيب الأوفر . فأهل الأندلس وقد علمت شغفهم بطبيعة بلادهم ، لا يفترون عن ذكرها في توشيحاتهم ، كما لا يفترون عن ذكرها في أشعارهم . وهي في الموشّحات ، أظهر وأشمل . فما تقرأ موشّحة لهم إلا رأيت الطبيعة ماثلة بألوانها وأصباغها ، وأزهارها ورياضها ، ومدنها وعمرانها ، يتغنى بها الوشّاح أكثر ممّا يتغنى بمحبوبه . فهي الحبيب المالك عليه شغاف قلبه ، المستولي على جميع أحساسه ، يروقه منظر الزّهر البليل عند الصّباح ، وتشوقه بهجات ألوانه ، ويملأ فؤاده عبيره ، ويخلبه الماء المنساب في الجداول والأنهر ، وتطربه الأطيار تغرّد على غصون الشجر . وكلّ صورة من صور الطبيعة عنده شاعرة حسّاسة ، يغوص على طبائعها ، ويستشفّ دخائلها ، ويتبيّن سرورها وألمها . فإذا بابن الخطيب يقول :

أيُّ شيءٍ لامرئٍ قَدْ خَلَصَا ، فَيَكونَ الرَّوْضُ قد مُكِّنَ فيه [1]

تَنْهَبُ الأزْهَارُ منهُ الفُرَصَا ، أَمِنَتْ مِنْ مَكْرِهِ ما تَتَّقيه [2]

فَإِذَا المَاءُ تَنَاجَى وَالحَصَى ، وَخَلا كُلُّ خَليلٍ بِأَخيه

١ خلص : صفا ، الظاهر من معناه أنه لو صفا شيء لمخلوق لتمكن الروض من الحصول على هذا الصفاء لأنه أحق به من سواه . وقوله مكن فيه أي مكّن منه؛ ومن معاني في أن تكون مرادفة لمن .

٢ يقول: لو صفا شيء لمخلوق لحصل الروض على هذا الصفاء ، وكانت أزهاره تنهب الفرص من هذا الشيء الصافي ، لأنها أمنت ما كانت تحذر من مكره .

تُبْصِرُ الوَرْدَ غَيُوراً بَرِمَا ، يكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ ما يكْتَسِي[1]
وَتَرَى الآسَ لَبِيباً فَهِمَا ، يَسْرِقُ السَّمْعَ بِأُذْنَيْ فَرَسِ[2]

ويقول ابن زمرك في ريح الصَّبا :

بَلِيلَةُ الأرْدَانْ ، قَدْ ضُمِّخَتْ بالعَنْبَرْ[3]
يُشِيرُ غُصْنُ البَانْ مِنْها بِفَضْلِ المِئْزَرْ[4]

ففي هذا القفل ماء وهواء وغصن وحياة وحركة وطيب . وما ألطف قوله في الصَّبوح :

غَرَّدَ الطَّيرُ فَنَبِّهْ مَنْ نَعَسْ ، يَا مُدِيرَ الرَّاحْ
وَتَعَرَّى الفَجرُ عَنْ ثَوْبِ الغَلَسْ ، وَانْجَلَى الإصْبَاحْ

وقوله وفيه من تأثير الأشعّة واللّون شيء كثير :

فَالشُّهبُ، من غَارَةِ الصَّبَاحْ، تُرْعَدُ خَوْفاً وَتَخْفُقُ
وَأَدْهَمُ اللَّيْلِ في جِمَاحْ، أعِنّةَ البَرْقِ يُطْلِقُ

١ يقول : كما أنه لا يصفو شيء لمخلوق ، فكذلك لا يصفو للروض فان الكدر يشمل الأزهار فبينما يكون الماء والحصى متناجيين يبدو الورد غيوراً متضجراً ، يكتسي حمرة من غيظه وغيرته ، إذ ليس له خليل يخلو به .

٢ الآس : شجر ورقه عطر ويعرف عند العامة بالريحان ، وثمره بالحنبلاس وهو تحريف لحب الآس . شبه الآس بالرجل الحذر العاقل الذي لا يغفل عن استراق الأمور وفهمها ، أو شبهه بالرقيب المتنبه ليستمع الأخبار .

٣ الأردان : مقدم الأكمام .

٤ الفضل : بقية الشيء وزيادته .

وَالأفقُ في مُلتَقَى الرِّيَاحْ، بِأدْمُــعِ الغَيْثِ يَشْرَقُ[1]

* * *

وَالسُّحْبُ بالجَوْهَرِ استَقَلّتْ، فَالبَرْقُ سَيْفٌ مُجَوْهَرُ،
صِفَاحُهُ المُذْهَبَاتُ سُلّتْ، في رَاحَـةِ الجَـوّ تُشْهَرُ[2]

* * *

كَمْ بالصَّبى ثَمّ مِنْ مَقِيلْ، بِطِيبِـهِ الزَّهْرُ يَشْهَدُ[3]
وَالنّهْرُ كَالصَّارِمِ الصّقيلْ، في حِلْيَـةِ النُّورِ يُغْمَدُ
وَرُبّ قَــالٍ بِـهِ وَقِيـلْ، للطّيْرِ في حِـينَ تُنْشِدُ[4]

وقوله متشوّقاً إلى غرناطة وكان بعيداً عنها :

نَسِيمُ غَرْنَاطَةٍ عَلِيـلْ، لَكِنّـهُ يُبْرِىءُ العَلِيـلْ
وَرَوْضُهَا زَهْرُهُ بَلِيـلْ، وَرَشْفُـهُ يَنْقَعُ الغَلِيلْ[5]

* * *

سَقَى بِنَجْدٍ رُبَى المُصَلّى، مُبَاكِراً رَوْضَـهُ، الغَمَامْ[6]
فَجَفْنُهُ كُلّمَا استَهَـلاّ، يَبْتَسِمُ الزّهْرُ في الكِمَامْ[7]

١ يشرق : يغص .
٢ الصفاح ، جمع صفيحة : وجه السيف العريض .
٣ بالصبى : أي في عهد الصبى . المقيل : موضع القيلولة وهي نومة نصف النهار .
٤ قال وقيل : أي تجاوب الطيور ومساجلاتها .
٥ ينقع : يسكن . الغليل : شدة العطش .
٦ الغمام : فاعل سقى . نجد : ما ارتفع وأشرف من الأرض .
٧ استهل : العين دمعت ، والمطر انصب . الكمام : جمع كم وهو الغلاف الذي يحيط بالزهر وينشق عنه .

وَالرَّوْضُ بالحُسْنِ قد تَجَلّى ، وَجَرَّدَ النَّهْرُ عَنْ حُسَامْ

* * *

وَدَوْحُهَــا ظِلُّهُ ظَليلْ ، يَحْسُنُ في رَبْعِـهِ المَقيلْ
وَالبَرْقُ ، وَالجَوُّ مُسْتَطِيلْ ، يَلْعَبُ بِالصَّارِمِ الصَّقِيــلْ

* * *

عَقيلَةٌ تَاجُهَا السَّبِيكَهْ ، تُطِلّ بِالمَرْقَبِ المُنِيفْ[1]
كَأَنّهَا فَوْقَــهُ مَليكَهْ ، كُرْسِيُّهَا جَنَّــةُ العَرِيفْ[2]
تَطبَعُ من عَسْجَدٍ سَبِيكَهْ ، شُمُوسُهَا كُلُّهَا تُطِيفْ[3]

وإليك المدح كيف تظهر فيه الطبيعة كلّ الظهور ، قال ابن زمرك يهنىء السلطان ابن الأحمر بشفائه :

قَــدْ أَنْعَمَ اللهُ بِالشِّفَاءْ ، وَاسْتُكْمِلَتْ رَاحَةُ الإِمَامْ
فَلْتَنْطِقِ الطّيرُ بِالهَنَاءْ ، وَلْيَضْحَكِ الزّهْرُ في الكِمَامْ

* * *

وُجُودُهُ بَهْجَــةُ الوُجُودْ ، وَبُرْؤُهُ رَاحَــةُ النّفُوسْ
قَدْ لاحَ في مَرْقَبِ السّعُودْ ، وَاستَبْشَرَتْ أَوْجُهُ الشّمُوسْ[4]

١ العقيلة من كل شيء أكرمه ؛ ويريد بها غرناطة . السبيكة والمرقب : موضعان في غرناطة .
٢ جنة العريف : موضع في غرناطة كان مصيفاً لأمراء العرب ، ولا تزال آثاره قائمة .
٣ العسجد : الذهب . المراد أن جنة العريف تبدو محاسنها وخضرتها ، وأشعة الشمس عليها كسبيكة من ذهب ؛ مشرقة شموسها ، طوافة متنقلة .
٤ المرقب : المكان المشرف المطل . فاعل لاح ضمير يعود على برؤه .

فَالدَّوْحُ يُومي إلى السُّجُودْ، أَكْمَامُهُ حَطَّتِ الرُّؤوس[1]

* * *

وَالزُّهْرُ في رَوْضَةِ السَّمَاءْ، كَالزَّهْرِ قَدْ رَاقَ بِابْتِسَام[2]

وَالصُّبْحُ مُسْتَشْرِفُ اللِّوَاءْ، وَالبَدْرُ يَسْتَقْبِلُ التَّمَام[3]

ومعاني الموشّحات لطيفة سائغة كأغراضها ، ناعمة الخيال ، مشرقة الصّور ، لامتزاجها بصور الطبيعة النّاعمة وألوانها . إلا أنّها مكرورة معادة ، طافية غير بعيدة الغور ؛ وقلّما وقعت على معنى يستوقفك ببراعته وعمق صورته ، وإنّما أنت تؤخذ على الأكثر ، برقّة الألفاظ وحسن موسيقاها ، ولطف ما فيها من الأساليب البيانيّة المختلفة الوجوه . فيلهيك هذا الجمال الخارجي عما في داخلها من معانٍ تافهة ، أو مبتذلة . وربّما رأيت فيها غموضاً مع خفّتها ، وقرب متناولها ، لغلبة الصّناعة اللّفظيّة عليها ، كما في موشّحة لسان الدّين بن الخطيب حين يقول : « وروى النعمان عن ماء السّما . . . » أو لحبّ الإغراب ، وسقم التعبير ، وضيق الألفاظ عن إيضاح المعنى . كقول ابن الخطيب أيضاً :

أيُّ شَيْءٍ لامرِىءٍ قَدْ خَلَصَا، فَيَكُونَ الرَّوْضُ قد مُكِّن فيه

وقد تقرأ الموشّحة فما تجد ارتباطاً في معانيها ، ولا تختلف في نظرك عن تلك الأغاني الشعبيّة الّتي تسمعها في زماننا ، فتطربك بألحانها ،

١ يريد أن الطبيعة فرحت بشفاء ممدوحه وشكرت الله ، فالشموس فرحت ، والأثمار سجدت وظهر سجودها بأن أكمام زهرها أنزلت رؤوسها .

٢ الزهر : الأقمار .

٣ مستشرف : منتصب .

دون أن تأبه لما فيها من سحف المعنى ، وتفككك وانحلال . فهذه موشحة أبي بكر بن زُهر من أشهر الموشحات ، تقرأها فتلذّ لك صورها وألوانها ، وما فيها من ألفاظ الحبّ والخمر والطبيعة ؛ فإذا تدبرت معانيها ، لم تقع على شيء حقيق باللّذّة والاستمتاع ، وإنّما هي قطعة صالحة للغناء :

مَـــا للمُـــوَلَّهْ ، من سُكرِهِ لا يُفيقْ ، يَا لَـــهُ سَكْرَانْ
مِنْ غَيْرِ خَمْرِ ، ما للكَئيبِ المَشوقْ ، يَنْدُبُ الأَوْطَـــانْ

* * *

هَـــلْ تُسْتَعَادْ ، أيامُنَـا بالخَليجْ ، ولَيَـــالِينَـــا ؟
أوْ يُسْتَفَـــادْ ، مِنَ النّسيمِ الأريجْ ، مِسْكُ دَارِينَـــا[1]
أوْ هَلْ يَـكَـادْ ، حسنُ المكانِ البَهيجْ ، أنْ يُحَيِّيـنَـــا

* * *

رَوْضٌ أظَلّـــهْ ، دَوْحٌ عَلَيْهِ أنيقْ ، مُورِقُ الأفْنَـــانْ
وَالمَـــاءُ يَجْري ، وَعَائِمٌ وَغَريقْ ، مِنْ جَنَى الرَّيْحَانْ

وكذلك موشحة أبي بكر بن الأبيض[2] ، ليس فيها معنى شريف ، على لطف ألفاظ الغزل فيها :

بَرِّدْ غَلِيـــلْ صَبٍّ عَلِيلْ ، لا يَسْتَحِيلْ فيهِ عنِ العَهْدِ[3]

١ الأريج : العطر ، فعيل بمعنى الفاعل . دارين : فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند ويباع بها ، فصار ينسب إليها ، يقال مسك دارين . ومراد الشاعر أن هذا النسيم الأريج يشبه مسك دارين برائحته .

٢ أبو بكر بن الأبيض توفي سنة ٥٤٤ هـ . (١١٤٩ م) .

٣ الغليل : حرارة الحب . وقوله فيه : أي في هذا الغليل .

وَلا يَزَالْ ، في كلّ حَالْ ، يرْجو الوِصَالْ ، وَهْوَ في الصَّدّ

وموشحة ابن الخطيب ، وهي أسيَر الموشّحات وأخلدها ذكراً ، إذا حبست نفسك عن الاستسلام إلى موسيقاها ، والافتتان بصورها البيانيّة وألوانها ، وغصت على معانيها تتقصّاها في مواطنها ، رأيت أنّك أمام أوصاف عادية متداولة ، ومعانٍ متعارفة مبتذلة . فكأنّ الوشّاح الأندلسي جعل همّه في إخراج موشح لطيف سائغ يصلح للغناء ، لا يعنيه أن يكون فيه معنى مبتكر ، أو معنى دقيق .

لغتها

ضعفها . المجاز والمحسنات اللفظية . الموسيقى .

كانت لغة الشعر التقليدي في الأندلس ضعيفة بالإضافة إلى لغة الشعر العبّاسي ، فجاءت لغة الموشّحات ألين وأضعف ، وهي فنّ استعرب ولم يكن عربيّاً ، وابتُدع ولم يكن تقليديّاً . ووجد من أجل الغناء ، والغناء يتطلّب الألفاظ السهلة السمحة ، والتعابير اللّطيفة الليّنة . وهذه تقود غالباً إلى الضعف والرّكاكة لطواعيتها ، وائتلافها بمبتذلات العامّة . وزادها فساداً ما اشترط في خرجاتها أن تكون عامية التعبير ، فاجترأ الوشّاحون على التساهل اللّغوي في غير الخرجة ، ول بعضهم :

يَا ظَالِمِي حقّاً ، يَكْفِيكَ مَا ألقى
أفْتَنْتَنِي عِشْقَا
بِمُرْهَفَيْ عَيْنَاكْ ، أمَّا كَفَاكْ !

وأفرطوا في استعمال المجاز على أنواعه ، فحفلت موشّحاتهم بالكنايات والتّشابيه والاستعارات ، وافتنّوا في أوجه البديع ، والتزموه التزاماً ، لا لتحسين المعنى ، وإنّما لتحسين اللّفظ ، وتوشيته . فابن الخطيب كان له مندوحة عن قوله :

وَرَوَى النُّعْمَانُ عَنْ مَاءِ السَّمَا، كَيفَ يَرْوِي مَالِكٌ عَنْ أَنَسِ

ولكن التورية قادته إلى هذا التلعّب بمعاني الألفاظ . ولم يكن لإقحام مالك بن أنس من داع لولا قوله : « وروى » ، فالرّواية تعني الحديث ، ومالك محدّث عظيم .

وهذه الأشياء وأمثالها كثيرة في الموشحات ، وهي الّتي أورثت بعضها غموضاً على سهولة ألفاظها ورقّتها .

وللموشّحات ألفاظ وتعابير خاصّة لا تكاد تختلف في ذكر الطبيعة والخمر والحبيب ، فيها كثير من السّماء وشموسها وغمامها ، وفيها كثير من الأرض ورياضها وأنهارها ، ولها وقع جميل في النفس ، وإن خلت من المعاني البارعة .

تأثيرها

انتشارها . الغناء فيها . دخولها المغرب والمشرق . أثرها السيء في الأدب . الأزجال . الانحدار إلى العامية . الموشحات في عصر الانبعاث .

كان لظهور الموشّحات أثر بليغ في الشعر والشعراء ، لأن اعتمادها على الغناء جعلها تطير على أفواه المغنّين ، ويتلقّفها النّاس من كلّ

صوب ، ويحفظونها ويتناقلونها ، حتى غلبت على الشعر واحتلّت مكانه ، وأصبح الملوك يأنسون بها في مدائحهم ، ويطربون إلى سماعها ؛ ويجيزون عليها كما يجيزون على القصائد . وبلغ من شغف الشعراء بها ، أنّه ما اشتهرت موشّحة ، وتداولتها الألسنة ، إلا انبرى جماعة منهم إلى معارضتها . فقد نظم ابن سهل [1] موشّحته التي أوّلها :

هَلْ دَرَى ظَبيُ الحِمى أن قد حمَى قَلبَ صَبٍّ ، حَلّه عن مَكْنَسِ [2]
فَهْوَ في حَرٍّ ، وَخَفْقٍ مِثْلَمَا لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالقَبَسِ [3]

فغنى فيها المغنّون ، وتحدّث بها النّاس . فتصدى لها لسان الدّين بن الخطيب يعارضها بموشّحته : « جادك الغيث » . فسارت كلّ مسير ، وحجبت موشّحة ابن سهل ، ورويت لها عدّة معارضات ، قصرت عنها في المضمار .

ولم تنحصر الموشّحات في الأندلس ، بل جاوزت بحر الزّقاق إلى المغرب والمشرق ، فنظم فيها المغاربة والمشارقة ، ولكنّهم لم يبلغوا شأو الأندلسيّين ، إلا ابن سناء المُلك المصري ، فإن له موشحة شرّقت وغرّبت ، وهي التي يقول في أوّلها :

١ هو ابراهيم بن سهل الإسرائيلي الاشبيلي الشاعر المشهور ، من الاسبانيين المستعربين الذين تأدبوا بأدب العرب ، وشعره رقيق عاطفي حسن الغزل ، توفي سنة ٦٤٩ هـ . (١٢٥١ م) وهو في الأربعين ، قيل مات غريقاً .

٢ حمى الحمى : منعه ودفع عنه ، والمراد هنا استقل وحده بقلبه . مكنس : الكناس وهو مأوى الظبي في الشجر . وقوله حله عن مكنس : أي نيابة عن مكنس .

٣ القبس : شعلة من النار تؤخذ في طرف عود .

كلّلي، يا سُحبُ تيجانَ الرّبى بالحُلي ، وَاجعلي، سِوَارَها منعطِفَ الجدوَلِ[1]

* * *

يا سَما، فيكِ وَفي الأرْضِ نجومٌ، وَما ، كُلّما أغرَبْتِ نجماً أشرَقتْ أنجُمَا[2]

وَهْيَ مَا ، تهْطِلُ إلاّ بالطّلا وَالدّمى[3]

على أن هذا الفنّ ، مع جماله ورشاقته ، كان له أثر سيء في الأدب ، إذ قاده إلى الانحطاط ؛ قال ابن خلدون : « ولمّا شاع فنّ التوشيح في أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلاسته ، وتنميق كلامه ، وترصيع أجزائه ، نسجت العامّة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضريّة من غير أن يلتزموا فيه إعراباً ، واستحدثوه فنّاً سمّوه بالزّجل ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد . » اه.

فإقبال العامّة على هذا الفنّ لسهولته وحسن مؤاتاته ، انحدر بالشعر إلى العاميّة ، فصار إلى ساقط القول . فرجعت الموشحات إلى أصلها ، غير أنّ الشعراء المحدثين من أهل زماننا ، عادوا بها إلى الفصحى ، ورفعوا منزلتها ، واعتمدوا عليها في منظوماتهم الطويلة . كما فعل سليمان البستاني في الياذة هوميروس ، وأحمد شوقي في قصصه التمثيليّة .

١ تيجان الربى : أعاليها . الحلي : أي أنواع الزهر . سوارها : نهرها أو جدولها . وقوله : منعطف الجدول : أي تنساب مياهه منعطفة .

٢ المراد بنجوم الأرض أنواع الأزهار . وما : مسهل ماء .

٣ وهي : أي النجوم . الطلا : أي الطلاء وهي الخمر . الدمى : جمع دمية وهي الصورة المنقشة المزينة ، والمراد بالدمى وشي الطبيعة وأزهارها المسببة عن المطر ، وهو مجاز مرسل . وقوله تهطل بالطلاء مجاز مرسل . والمراد ما يتسبب عن المطر ، فإنه يروي الكروم فتمتلىء أعنابها ، ثم تعصر هذه الأعناب خمراً .

والموشح ، إذا روعيت فيه الفصاحة ، والأوزان الشعرية ، شائق فتّان للطفه وحسن مساغه ، فهو شعر الحبّ والطّبيعة والجمال والفنّ ، وشعر القصائد الطويلة التي لا يضيق عليها الخِناق وزن واحد وقافية واحدة . وهو فتح مبين في الأدب العربي ، يعود الفضل فيه إلى الأندلس ، وأهل الأندلس .

منزلة الشاعر الأندلسي

إقبال أهل الأندلس على الشعر . الشاعر نديم الملك ووزيره . حياة نعمة يهددها الخطر .

شغف أهل الأندلس بالشعر كما شغف به المشارقة ، فنقشوه على جدران قصورهم ومنازلهم ، وجعلوه سلوى خلواتهم ومحافلهم . وأقبل على نظمه الرّجال والنّساء ، فكادت الشواعر تضاهي في العدد الشعراء . وفيهنّ طبقة من المحسنات البارعات كولاّدة بنت المستكفي ، وتلميذتها مهجة القرطبية ، وحمدة بنت زياد خنساء المغرب ، وحفصة بنت الحاج الركونيّة ، وعائشة بنت أحمد القرطبية ، ونزهون القلاعية الغرناطية . وجميعهنّ مشهورات بالجمال والظرف ، إلا عائشة فقد استغنت بالفهم والأدب والفصاحة . ونبغ شعراء من الملوك والوزراء والأطباء والفلاسفة والفقهاء ؛ فشاع الشعر في صقع الأندلس شيوعاً عظيماً ، ولاكته الأفواه من كلّ جانب ، وأصبح الملوك لا يستوزرون غير الشعراء . فكان

الوزير نديم الملك وشاعره ومدبّر مملكته . فاعتزّ الشعراء ، وارتفعت منزلتهم ، وحفلت بهم دور الأمراء ، ودرت عليهم أخلاف الرّزق . فتنعّموا ورفهوا ، وأُترفوا ومرحوا ، ولهوا وعبثوا .

غير أنّهم كانوا مهدّدين بزوال النعمة . فإنّ الشعراء الوزراء لم ينجوا من حساد يكيدونهم ، ووشاة يدسون لهم بغية إسقاطهم ، كما وقع لابن زيدون عند بني جَهْوَر ، ولابن الخطيب عند بني الأحمر . وقد تطمع نفس الوزير في الاستقلال بالملك ، فيخفق مسعاه ، وينتقم منه سلطانه ؛ فعلَ المعتمد بن عباد بوزيره الشاعر ابن عمّار .

وسلطة الفقهاء بالأندلس جعلت الشعراء دريئة للويلات ، ولطالما نكب الشاعر لأخلاقه أو لآرائه ، كما جرى لابن هاني فقد نفاه أمير إشبيلية خوفاً من الفقهاء والعامّة ، لأنّهم اتّهموه بمذهب الفلاسفة ، وفسّقوه لخلاعته .

ومع ذلك فالشاعر الأندلسي كان رفيع المنزلة ، لمكانة الوزير الشاعر في دولته . ثمّ لولع الأندلسيّين بالشعر ، وإقبال طبقاتهم عليه .

الكتاب الاندلسيون

ميزة النثر

تأثر الأندلسيين بالمشارقة . مجاراتهم إياهم في سائر الفنون .

تأثّر أهل الأندلس المشرقيّين في النثر ، كما تأثروهم في الشعر ، فترسموا خططهم في أساليب الإنشاء ، وألوان التعبير ، وجاروهم في نظام الدواوين ، واستيزار الكتّاب والشعراء ، وتعدّدت أغراضهم وفنونهم ، تعدّدها عند أولئك . فمنها الترسل على ضروبه . ومنها إنشاء الكتب المصنّفة في العلم والأدب . ومنها الإنشاء الخطابي ، وهو أضعف الفنون لضعف الفصاحة الفطريّة عندهم .

الترسل

أصحابه وزراء ومقربون من رجال الحكم . تطوره من المطبوع إلى المصنوع . غلبة الصناعة عليه . جفاء معانيه . أغراض الترسل .

ارتفع شأن الترسل في الأندلس ، كما ارتفع في الشرق ، لأن الذين تعهّدوه كانوا إمّا وزراء ، وإمّا مقربين إلى ولاة الأمور . فعزّزوا هذا الفنّ ، ونشروا لواءه ، وصاروا به إلى التّنميق والتزيين . وكان

تطوّره عندهم يجري على سنن تطوّره في الشرق، فهو في عصوره الأُوَل ، مرسل مطبوع ، لا يُلتزم فيه سجع ، ولا يُتكلّف فيه توشية ، وإنّما هي البلاغة تقضي بعض الأحيان بأن يسجعوا ويوشّوا دون انتقاص في الطبع ، ولا إزراء بالمعنى ، ولنا في رسائل ابن زيدون ، وابن شهيد ، صور واضحة للنثر الترسلي في إبّان ازدهاره . فهو أشبه شيء بنثر ابن المقفّع والجاحظ وأمثالهما من بلغاء الكتّاب المطبوعين .

ثمّ صار الترسل إلى تكلّف السجع والتزيين ، وتقليب الجمل على المعنى الواحد ، والإكثار من الأدعية والأمثال ، والشواهد الشعريّة ، ولكن على غير إفساد في الذّوق ، أو إهمال للمعنى ، كما في رسائل ابن بُرْد الأصغر[1] ، وابن عبدون ، وابن خفاجة،وابن الحدّاد . وهو أشبه بترسل العبّاسيّين في العصر الثالث والرّابع .

وما آذن القرن السادس للهجرة بالأفول حتّى غلبت الصّناعة على الفنّ ، واتّسعت دائرة التكلّف . فإذا الإنشاء في القرن السابع والثامن عبارات مرصوفة . وألفاظ مترادفة مملّة ، وتلميحات تاريخيّة وبيانيّة لا حدّ لها ، ومعانٍ جافية تافهة . وصور شتّى من المسجوع والمورّى والمتجانس ، ممّا تجد له أمثلة في رسائل ابن الخطيب وأشباه ابن الخطيب .

وتناولوا في ترسلهم الاخوانيات على أنواعها ، والمقامات بعد ظهورها في المشرق ، ومقدّمات الكتب ، ومختلف الأوصاف والنّعوت ، ولكنّها لم تخلُ من مجون وتعهّر . وأحسنها ما جاء في ذكر الطبيعة ، والكلام على مناظرة الأزهار والبلدان ، فإنّهم أبدعوا في هذا الفنّ ،

١ هو أبو حفص الأصغر أحمد بن برد ، شاعر ، كاتب ، محسن الديباجة ؛ عاش زمن الدولة العامرية في قرطبة .

وانفردوا به دون سواهم .

وإليك أمثلة من نثرهم على اختلاف العصور ، ففيها بيان لأنواع الترسل ، وتطوّره بين عهد وآخر . فمنها رسالة ابن زيدون الجدّيّة ، ورسالته الهزليّة . والأولى كتبها وهو مسجون إلى ابن جَهْور ، صاحب قرطبة ، يستعطفه . والثّانية كتبها على لسان ولاّدة إلى الوزير ابن عبدوس منافسه في حبّها ، يهجوه ويتهكّم به . قال من رسالته الجدّيّة :

« هَذَا العَتْبُ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ ، وَهَذِهِ النَّبْوَةُ غَمْرَةٌ[1] ثُمَّ تَنْجَلي . وَهَذِهِ النَّكْبَةُ : « سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ . » وَلَنْ يُرِيبَنِي مِنْ سَيِّدِي أَنْ أَبْطَأَ سَيْبُهُ[2] أَوْ تَأَخَّرَ ، غَيْرَ ضَنِينٍ ، غَنَاؤُهُ . فَأَبْطَأُ الدِّلاءِ فَيْضاً أَمْلَؤُهَا ، وَأَثْقَلُ[3] السَّحَائِبِ مَشْياً أَحْفَلُهَا . وَأَنْفَعُ الحَيَا مَا صَادَفَ جَدْباً ،[4] وَأَلَذُّ الشَّرَابِ مَا أَصَابَ غَلِيلاً . وَمَعَ اليَوْمِ غَدٌ ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ، لَهُ الحَمْدُ عَلَى اهْتِبَالِهِ[5] ، وَلا عَتْبَ عَلَيْهِ فِي إغْفَالِهِ :

فإنْ يكنِ الفعلُ الذي ساء وَاحِداً ، فَأَفْعَالُهُ اللائي سَرَرْنَ ، أُلُوفُ »

١ النبوة : الجفاء . الغمرة : الشدة .

٢ سيبه : عطاؤه .

٣ غناؤه : نفعه . لأن الدلو إذا تدفق عليها الماء بقوة وملأها سريعاً فاضت بقوة ونقصت ، وأما إذا فاضت بطيئة كانت أحفل ، لأنها تمتلىء على مهل . أو لأن الدلو إذا أنزلت إلى البئر ، وكان فيضها عند إصعادها بطيئاً تلقاها المتاح أملأ مما لو تذبذبت بين جدران البئر وتدفقت .

٤ أحفلها : أملؤها . الحيا : المطر . الجدب : القحط والمحل .

٥ اهتباله : اغتنامه . أي اغتنام أجله

ومنها رسالة أبي عامر بن شُهيد في صفة بعوضة ، وله الباع الطويل في الوصف والتصوير :

« ألْبَعُوضَةُ مَالِكَةٌ ، لا حِسَّ لَهَا سِوَاهَا[1] ، تَحْقِرُهَا عَيْنُ مَنْ يَرَاهَا ، تَمْشِي إلى المَلِكِ بِنَدْبِهَا[2] ، وَتَضْرِبُ في بُحْبُوحَةِ[3] دَارِهِ بِطَبْلِهَا ، تُؤْذِيهِ بِإقْبَالِهَا ، وَتُعَرِّفُهُ بِإرَاقَةِ دَمِهِ مَا لَهَا . فَتُعْجِزُ كَفَّهُ ، وَتُرْغِمُ أنْفَهُ ، وَتُضَرِّجُ خَدَّهُ ، وَتَفْرِي لَحْمَهُ وَجِلْدَهُ . زَمْجَرَتُهَا تَسْلِيمُهَا ، وَرُمْحُهَا خُرْطُومُهَا ، تُذَلِّلُ صَعْبَكَ إنْ كُنْتَ ذَا قُوَّةٍ وَعَزْمٍ ، وَتَسْفِكُ دَمَكَ وَإنْ كُنْتَ ذَا حِلْفٍ وَعَسْكَرٍ ضَخْمٍ . تَنْقُضُ[4] العَزَائِمَ وَهْيَ مَنْقُوضَةٌ ، وَتُعْجِزُ القَوِيَّ وَهْيَ بَعُوضَةٌ ، لِيُرِيَنَا اللهُ عَجَائِبَ قُدْرَتِهِ ، وَضَعْفَنَا عَنْ أضْعَفِ خَلِيقَتِهِ . »

ومنها ما كتبه ابن برد الأصغر في المناظرة بين الأزهار . مبتدعاً فنّاً جديداً ؛ أسلوبه قصصي ، وخياله لطيف . فقد أراد أن يفضّل الورد على سائر الأزهار فأنطقها وجعلها تجتمع وتتحادث ، وتبايعه بالرّئاسة . ودونك بعض ما جاء في المبايعة :

« ثُمَّ قَامَ الخِيرِيُّ[5] فَقَالَ : وَالّذِي أعْطَاهُ الفَضْلَ دُونِي ، وَمَدَّ لَهُ بِالبَيْعَةِ يَمِينِي ، مَا اجْتَرَأْتُ قَطُّ إجْلالاً لَهُ ،

١ لا حس لها سواها : أي مع أنها ذات ملك ، لا صوت لها إلا منها .
٢ بندبها : بصوتها ودعائها .
٣ بحبوحة : وسط .
٤ الحلف : العهد بين القوم ، والصداقة . تنقض : تهدم وتحل وتكسر .
٥ الخيري : المنثور الأصفر .

وَاسْتِحْيَاءً مِنْهُ عَلَى أَنْ أَتَنَفَّسَ نَهَاراً ، أَوْ أُسَاعِدَ فِي لَذَّةٍ صَدِيقاً أَوْ جَاراً ، فَلِذَلِكَ جَعَلْتُ اللَّيْلَ سِتْراً . »

ومنها ما كتبه ابن خفاجة في وصف نزهة ، وهو يلتزم السجع والصّناعة ، ولكن بلاغته لا تنحطّ :

« ذَهَبْتُ فِي لُمَّةٍ[1] مِنَ الإِخْوَانِ نَسْتَبِقُ إِلَى الرَّاحَةِ رَكْضاً ، وَنَطْوِي التَّفَرُّجَ أَرْضاً . فَلَا نُدْفَعُ إِلَّا إِلَى غَدِيرٍ نَمِيرٍ ، قَدِ[2] اسْتَدَارَتْ مِنْهُ فِي كُلِّ قَرَارَةٍ سَمَاءٌ ، سَحَائِبُهَا غَمَّاءُ ،[3] وَانْسَابَ فِي كُلِّ تَلْعَةٍ حُبَابٌ ، جِلْدُهُ حَبَابٌ ، فَتَرَدَّدْنَا[4] بِتِلْكَ الأَبَاطِحِ نَتَهَادَى تَهَادِيَ أَغْصَانِهَا ، وَنَتَضَاحَكُ[5] تَضَاحُكَ أُقْحُوَانِهَا . وَلِلنَّسِيمِ ، أَثْنَاءَ ذَلِكَ المَنْظَرِ الوَسِيمِ ، تَرَاسُلُ وَشْيٍ ، عَلَى بِسَاطِ وَشْيٍ[6] . فَإِذَا مَرَّ بِغَدِيرٍ نَسَجَهُ دِرْعاً وَأَحْكَمَهُ صُنْعاً . وَإِنْ عَثَرَ بِجَدْوَلٍ شَطَّبَ مِنْهُ[7]

١ اللمة : الصاحب في السفر للواحد والجمع .

٢ التفرج : تكشف الغم . نمير : ماء ناجع عذباً كان أو غير عذب .

٣ القرارة : القاع المستدير يجتمع فيه ماء المطر . سماء : استخدم هنا معناها المجازي في قوله استدارت ، وهو المطر ، ومعناها الحقيقي في قوله سحائبها غماء . غماء : لا فرجة فيها .

٤ التلعة : ما ارتفع من الأرض . الحباب : الحية ، وهو هنا مستعار للجدول والنهر . الحباب : نفاخات الماء .

٥ الأباطح : جمع أبطح وهو المسيل الواسع العريض فيه دقاق الحصى . تهادى : نتمايل .

٦ الوشي الأول بمعنى الوشاية ، والوشي الثاني بمعنى التوشية ويريد به الزهر .

٧ قوله نسجه درعاً : أخذه من قول الشاعر :

نسج الريح على الماء زرد　　يا له درعاً منيعاً لو جمد

شطب : أي جعل فيه خطوطاً كخطوط نصل السيف .

نَصْلاً ، وَأَخْلَصَهُ صَقْلاً ، فَلا تَرَى إلاّ بِطَاحاً[1] ، مَمْلُوءَةً سِلاحاً ، كَأَنَّمَا انْهَزَمَتْ هُنَالِكَ كَتَائِبُ فَأَلْقَتْ بِمَا لَبِسَتْهُ مِنْ دِرْعٍ مَصْقُولٍ ، وَسَيْفٍ مَسْلُولٍ . »

ومنها رسائل ابن الخطيب ومقاماته ، وهي مملّة في أكثرها لطولها وتكلّفها ، وجفافها ، وغلبة الصّنعة عليها . مثال ذلك قوله من رسالة :

« سَيِّدِي الّذِي هُوَ فَصْلُ جِنْسِهِ[2] ، وَمَزِيَّةُ يَوْمِهِ عَلَى أَمْسِهِ ، فَإنِ افْتَخَرَ الدِّينُ مِنْ أَبِيكَ بِبَدْرِهِ[3] افْتَخَرَ مِنْكَ بِشَمْسِهِ . رَحَلْتُ عَنِ المَنْشَإِ وَالقَرَارَةِ ، وَمَحَلِّ الصَّبْوَةِ وَالغَرَارَةِ[4] ، فَلَمْ تَتَعَلَّقْ نَفْسِي بِذَخِيرَةٍ ، وَلا عَهْدِ جِيرَةٍ خِيرَةٍ ، كَتَعَلُّقِهَا بِتِلْكَ الذَّاتِ الّتِي لَطُفَتْ لَطَافَةَ الرَّاحِ ، وَاشْتَمَلَتْ بِالمَجْدِ الصُّرَاحِ ، شَفَقَةً أَنْ تُصِيبَهَا مَعَرَّةٌ[5] ، وَاللهُ تَعَالَى يَقِيهَا ، وَيَحْفَظُهَا وَيُبْقِيهَا . إذِ الفَضَائِلُ فِي الأَزْمَانِ الرَّذْلَةِ غَوَائِلُ ، وَالضِّدُّ عَنْ ضِدِّهِ مُنْحَرِفٌ بِالطَّبْعِ وَمَائِلٌ[6] . »

١ البطاح : جمع بطحاء ، وهي المسيل الواسع فيه دقاق الحصى .

٢ فصل جنسه : هذا من كلام المناطقة في التعريف بالحد الحقيقي ، وهو تعيين الشيء بجنسه وفصله . تقول : الإنسان حيوان ناطق ، فالحيوان جنس يشمل الإنسان والبهيمة ، والناطق فصل يميز نوع الإنسان عن نوع البهيمة . وهنا ابن الخطيب يجعل ممدوحه الفصل بين الإنسان والبهيمة ، أي أنه جعله النطق نفسه .

٣ بدر : اسم والد الممدوح .

٤ القرارة : المستقر . الصبوة : جهلة الفتوة . الغرارة : الغفلة عن الأمور .

٥ الصراح : الخالص من كل شيء . معرة : أذية .

٦ يقول : الفضائل تغتال أصحابها في الأيام الرديئة الخسيسة : لأن أكثر الناس أرذال ، فإذا رأوا فاضلا كرهوه وانحرفوا عنه لمضادته لهم .

التصنيف والمصنفون

تعزيز أنواع العلوم . استنساخ الكتب .

قام التصنيف إلى جانب الترسل ، فلم يترك الأندلسيّون علماً أو فنّاً ظهر في المشرق إلا وقد بحثوا فيه ، ونالوا قسطاً منه ، قلّ أو كثر : وكان لرحلاتهم إلى الشرق ورحلات المشرقيّين إليهم ، وتنافس ملوكهم في تعزيز العلوم ، واستقدام العلماء واستنساخ الكتب ، وإنشاء المدارس والمكاتب[1] ، أثر كبير في بثّ النهضة العلميّة بصقع الأندلس .

وتباينت درجات إنشائهم بتباين أغراض مصنّفاتهم ، وكانت الأدبيّة أرقاها لغة ، وأصفاها فنّاً . ولم يسلم بعضها من صناعة التزيين والتزام السجع كالذّخيرة لابن بسّام ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان .

علوم اللغة

المعاجم . الصرف والنحو . الشروح اللغوية .

كثُر المشتغلون باللّغة من الأندلسيّين والمشرقيّين الذين هاجروا إلى الأندلس ، فتركوا طائفة نفيسة من المعاجم والشروح اللّغويّة ، وكتب

١ لم تكن تخلو قرية في الأندلس من مدرسة صغيرة ، ما عدا كبريات المدارس في المدن . وكان للطب أربع مدارس في قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية ، يؤمّها التلاميذ على اختلاف مللهم ونحلهم . وبلغ عدد المكاتب نحو ستين مكتبة أعظمها مكتبة قرطبة ، وقد أتينا على ذكرها في اللمحة التاريخية .

الصرف والنحو ؛ واشتهر منهم أبو عليّ القالي[١] صاحب الأمالي في اللّغة والنوادر ؛ وأبو بكر الزُّبَيدي[٢] وله مختصر العين ، ولحن العامّة ، والواضح في اللّغة ، وطبقات النحويّين ، والأبنية في النحو ؛ وابن سيدَه[٣] وله المُحكَم في اللّغة ، وهو معجم مشهور ، في أجزاء عدّة ؛ والمخصّص وهو في سبعة عشر مجلّداً ، مرتّب على معاني اللّفظ كفقه اللّغة والألفاظ الكتابيّة . ومنهم الأعْلَم الشَّنْتَمَري[٤] وله شرح الجمل في النحو للزّجّاجي ، وشرح ديوان المتنبي ، وديوان زهير ، والشعراء الستّة . وابن خَرُوف[٥] وله شرح كتاب سيبويه ، وكتاب الجمل للزجّاجي . والشّريشي[٦] وله شروح ثلاثة لمقامات الحريري ، شرح كبير ووسط وصغير . وهناك غيرهم كثيرون .

١ قدم أبو علي القالي من الشرق إلى الأندلس في زمن عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠ هـ . (٩٤١ م) واستوطن قرطبة وألف أماليه للحكم بن الناصر ،ومات بقرطبة سنة ٣٥٦ هـ. (٩٦٦ م) وكانت ولادته بمنازك من ديار بكر سنة ٢٨٨ هـ . (٩٠٠ م) .

٢ كان أبو بكر محمد الزبيدي مؤدباً لهشام المؤيد بن الحكم ؛ سكن في قرطبة ، وأصله من إشبيلية وتوفي بها سنة ٣٧٩ هـ . (٩٨٩ م) وعاش ثلاثاً وستين سنة .

٣ هو أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بابن سيده من أهل مرسية ؛ وكان أعمى ،وكان أعلم الناس بالغريب . توفي سنة ٤٥٨ هـ . (١٠٦٥ م) وعمره نحو الستين .

٤ هو أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم لأنه كان مشقوق الشفة العليا . ولد في شنتمرية من بلاد الأندلس سنة ٤١٠ هـ . (١٠١٩ م) وإليها نسب ، ورحل إلى قرطبة، وكف بصره في آخر حياته. ومات باشبيلية سنة ٤٧٦ هـ .(١٠٨٣ م).

٥ ابن خروف هو أبو الحسن علي بن محمد الحضرمي الاشبيلي. توفي سنة ٦١٠ هـ. (١٢١٣ م).

٦ هو الكمال أبو العباس أحمد من أهل شريش في الأندلس وإليها نسب . أقام في بلنسية ثم رحل إلى إشبيلية فالمشرق ، ثم رجع إلى شريش ومات بها سنة ٦١٩ هـ. (١٢٢٢ م) وكانت ولادته سنة ٥٥٧ هـ. (١١٦١ م) .

العلوم الدخيلة

العلوم الطبيعية . العلوم الرياضية . الفلسفة والمنطق .
السياسة والاجتماع. التاريخ والجغرافية. الفنون والصنائع.

رحلت العلوم الدّخيلة من الشرق إلى الغرب ، فتلقّاها الأندلسيّون إمّا من علماء المشارقة ، وإمّا من كتبهم ، فكانت لهم ثمّ للأوربيّين من بعدهم نوراً وهدى . فلمّا تثقّفوا بها ، واختمرت في صدورهم ، وامتزجت بأفكارهم ، تصدّروا للتّصنيف فيها ، حتّى فاقوا المشرقيّين في بعضها .

العلوم الطبيعية

فمنها العلوم الطبيعيّة كالطبّ والصّيدلة ، فقد اشتهر فيهما طائفة جليلة كأبي القاسم الزّهراوي[1] وكان بارعاً في تشخيص الأمراض موفقاً في علاجها ، وامتاز من أطباء الشرق المسلمين بتعاطيه الجراحة ، وإتقانه إيّاها ، في حين أن الشرقيّين كانوا يتحامونها ذهاباً منهم إلى أن الدين يحرمها . فكان أطباؤهم لا يعرفون صفات أعضاء الإنسان إلا من مطالعتهم لكتب يونان . فأحيا أطبّاء الأندلس هذا الفنّ وعلى رأسهم أبو القاسم ؛ وكان ماهراً في بتر الأعضاء واستخراج الأجسام الّتي تُبتلع فتعترض في الحلق . وله كتاب اسمه التصريف لمن عجز عن التأليف ، جعله على قسمين الأوّل في الطبّ النظري ، والثاني في الطبّ العملي أو الجراحة ، ترجم إلى اللاتينيّة ، واهتمّ أطباء الفرنجة بقسمه الجراحي .

١ هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي منسوب إلى الزهراء في الأندلس ويسميه الفرنجة (Abulcasis) توفي سنة ٥٠٠ هـ . (١١٠٦ م) .

ونبغ في الطبّ من الأندلسيّين أبناء زُهْر[1] ، وهم أسرة عربيّة توارثت علم الطبّ خلفاً عن سلف كما توارثه أبناء بَخْتَيْشوع في العراق .

واحترف الطبّ أشهر فلاسفة الأندلس كابن باجّة ، وابن طُفَيل[2] ، وابن رُشْد[3] . واشتهر في علم النبات والعقاقير والأدوية ابن البَيْطار[4] وله كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية .

١ عرف منهم بالطب أبو مروان عبد الملك بن محمد بن زهر الإيادي ؛ رحل إلى الشرق فتطبب زمناً ثم عاد إلى الأندلس ومات باشبيلية ، فقام بعده ابنه أبو العلاء زهر بن عبد الملك ، وله كتاب الأدوية . توفي سنة ٥٢٥ هـ . (١١٣٠ م) . وخلفه ابنه أبو مروان عبد الملك بن زهر ، وكان متصلا بعبد المؤمن خليفة الموحدين ، وله مؤلفات عدة . وجاء بعده ولده أبو بكر محمد بن عبد الملك المشهور بعلمه وأدبه وموشحاته . وكانت اخته وابنتها عالمتين بطب النساء . ونبغ بعده ولده أبو محمد عبد الله ، وحظي عند الخليفة الناصر محمد بن يعقوب رابع خلفاء الموحدين ، وتوفي مسموماً كأبيه سنة ٥١٩ هـ . (١١٢٥ م) وهو في الخامسة والعشرين ، وترك ولدين عني أصغرهما بصناعة الطب ، واسمه أبو العلاء محمد .

٢ هو أبو بكر محمد بن عبد الملك القيسي ، المعروف بابن طفيل ، الفيلسوف الطبيب ، وصاحب رسالة حي بن يقظان ؛ وزر لأبي يعقوب يوسف ثاني الخلفاء الموحدين ، وتوفي سنة ٥٨١ هـ . (١١٨٥ م) .

٣ هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ويسميه الفرنجة (Averrhoès) ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ . (١١٢٦ م) واتصل بالخليفة الموحد أبي يعقوب يوسف . وهو أعظم فلاسفة الأندلس وفي مقدمة فلاسفة المسلمين ، وأشهرهم عند الاوربيين ، مفكر حر وطبيب بارع ؛ توفي بمراكش سنة ٥٩٥ هـ . (١١٩٨ م) ونقل إلى قرطبة .

٤ هو ضياء الدين محمد بن عبد الله بن البيطار النباتي الشهير ، ولد بمالقة ورحل إلى الشرق وسكن دمشق حتى مات سنة ٦٤٦ هـ . (١٢٤٨ م) .

العلوم الرياضية

ومنها العلوم الرّياضيّة ، فقد نبغ طائفة كبيرة في علم الحساب والهندسة والنجوم والموسيقى . وكان حظّ التنجيم كحظّ الفلسفة ، فإنّ أصحابه اضطهدوا ورموا بالزّندقة ، فصاروا يشتغلون به سرّاً ، ولا يتظاهرون . ويذكر صاحب نفح الطيب أنّ أوّل من اشتهر في الأندلس بعلم الحساب والنجوم أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة ، لأنّه كان يشرّق في صلاته ، وكان عالماً بحركات الكواكب وأحكامها . ومنهم أبو القاسم اصبغ بن السمع وكان بارعاً في علم النجوم والهندسة ، وله كتاب المدخل في الهندسة ، وكتاب كبير في الهندسة ، وكتابان في الاسطرلاب ، وزيج[1] على مذهب الهند المعروف بالسند هند . ومنهم أبو القاسم بن الصفّار وكان عالماً بالهندسة والعدد والنجوم ، وله زيج مختصر على مذاهب السند هند ، وكتاب في عمل الاسطرلاب . ومنهم أبو الحكم عمر الكرماني من أهل قرطبة ، وكان راسخاً في علم العدد والهندسة . ومنهم الفيلسوف ابن رشد قيل إنّه أوّل من تنبّه للسُّفَع[2] على وجه الشمس ، وكتب عنها .

وأمّا الموسيقى فقد نهضت نهضة عظيمة في الأندلس ، وأقبل عليها عامّة النّاس وخاصّتهم ، والفضل في ترقيتها لزرياب[3] ، فإنّه ترك

١ الزيج : كتاب تعرف منه أحوال حركات الكواكب .

٢ السفع : جمع سفعة وهي سواد اشرب حمرة .

٣ هو أبو الحسن علي بن نافع مولى المهدي الخليفة العباسي ، فارسي الأصل ، وزرياب لقب له غلب عليه في بلاده من أجل سواد لونه مع فصاحة لسانه ، تشبيهاً له بطائر أسود حسن التغريد عندهم . وكان تلميذاً لإسحق الموصلي ببغداد، غنى بين يدي الرشيد مرة، ←

من أصواته بحراً زاخراً اغترف منه المغنّون بعده . قيل إن محفوظاته من الأغاني بلغت عشرة آلاف مقطوعة . وكان العود على أربعة أوتار ، فزاد فيه وتراً خامساً ، وهو الأوسط الأحمر . وكان مضرابه من الخشب ، فجعله من قوادم النّسر ، وهي ألين على الأوتار وألطف .

وكان لزرياب عشرة أولاد : ثمانية ذكور ، وثنتان أنثيان ، وكلّهم غنّى ومارس الصّناعة ، وأبرعهم في الذّكور عبيد الله وعبد الرّحمن وقاسم ، وفي الإناث حمدونة .

الفلسفة والمنطق

ومنها الفلسفة والمنطق ، فقد تلقّاهما الأندلسيّون من كتب المشرقيين المنقولة والمصنّفة ، فانصرف إلى دراستهما جماعة من المفكّرين مستهدفين لنقمة الفقهاء والعامّة . وكان المستنصر بالله الحكم بن عبد الرّحمن الخليفة الأمويّ معنيّاً بجمع كتب الحكمة وسائر العلوم ، وجاء بعده محمد بن

فاعجب به وأحبه ، فحسده استاذه إسحق ، وهدده ان لم يرحل عن بغداد ، وأعطاه مالا. فرحل زرياب إلى المغرب، ثم سمت همته إلى دخول الأندلس وكان عليها الحكم بن هشام ثالث أمراء بني أمية . فكتب إليه يستأذنه في الذهاب إليه ، ويعلمه بمكانته من صناعة الغناء . فسر الحكم بكتابه وأرسل إليه يجمل له المواعيد ، فعبر زرياب بعياله بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء . فجاءته الأخبار بوفاة الحكم فهم بالرجوع . وكان معه منصور اليهودي المغني رسول الحكم إليه ، فثناه ورغبه في قصد ابنه وخليفته عبد الرحمن الثاني ، وكتب إليه بخبر زرياب ، فجاء جواب عبد الرحمن يظهر رغبته فيه . وكتب إلى عماله أن يحسنوا إليه ويوصلوه إلى قرطبة . وأمر خصياً من خصيانه أن يتلقاه ببغال وآلات حسنة ، فدخل الأندلس سنة ٢٠٦ هـ . (٨٢١ م) فأنزله عبد الرحمن في دار فخمة وأجرى عليه وعلى أولاده المشاهرات ، والعيديات ، وأقطعه من الضياع والبساتين ما يقوّم بأربعين ألف دينار ، وكان يجالسه على النبيذ ويسمع غناءه .

أبي عامر الحاجب المنصور ، فشغف بالفلسفة وعزّز جانبها ، فنقم عليه الفقهاء ، وتجهّموه ، فاسترضاهم بأن أحرق كلّ كتاب اتّهموه .

وما انتصف القرن الخامس للهجرة إلا كانت كتب الفارابي وابن سينا ورسائل إخوان الصّفاء قد ذاعت في الأندلس وتداولتها الأيدي ، فنهضت الفلسفة نهضة لا بأس بها ، ونبغ ابن باجّة أبو الفلاسفة الأندلسيّين ، وله رسالة تدبير المتوحّد ، ورسالة الوداع في الترقّي الرّوحاني والاتّصال بالعقل الفعّال .

وبلغت الفلسفة أوجها في عهد الموحدين ، ولا سيّما زمن خلافة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، فإنّه فتح أبواب داره للفلاسفة ، وقرّبهم ورفع شأنهم . فكان في بلاطه ابن طُفيل صاحب رسالة حي ابن يقظان ، ثمّ ابن رشد رأس فلاسفة الأندلس وأشهر فلاسفة العرب عند الأوربيّين .

وهناك مفكّرون دينيّون اطّلعوا على الفلسفة والمنطق ، ووقفوا على مذاهب الفرق الإسلاميّة ، وغير الإسلاميّة ، فاتّخذوا فلسفتهم لتأييد مذهب ديني ينتحلونه ، كما فعل ابن حزْم[1] وكان في بدء أمره

[1] هو الفقيه أبو محمد علي بن أحمد بن حزم فارسي الأصل ، يرجع جده الأعلى يزيد إلى بني أمية بالولاء . ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ ﻫ . (٩٩٤ م) وكان والده وزيراً للدولة العامرية التي استبدت بعرش أمية وحجرت على الخليفة . وصارت الوزارة إليه بعد والده ، فوزر للمستظهر بالله عبد الرحمن الخامس الخليفة الأموي ، وزهد في السياسة بعد زوال الدولة الأموية فانصرف إلى العلم . وكان من تعصبه للظاهرية وسلاطة لسانه أن كرهه الفقهاء وحملوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته ، فأقصاه الملوك ، وأتلفوا كتبه . قيل انها بلغت أربع مائة مجلد في نحو ثمانين ألف ورقة . فذهب إلى كورة لَبْلَه في الأندلس ، ومكث بها حتى مات سنة ٤٥٦ ﻫ . (١٠٦٣ م) .

شافعيّاً ، فتعصّب لمذهبه ، وناضل عنه . ثمّ صار ظاهريّاً ، فكره جميع المذاهب من أجل مذهبه الجديد ، وطعن عليها وندّد بأصحابها وشنع على الفرق الإسلاميّة وسبّها ، ولم يسلم من شتائمه النصارى واليهود وسواهم من أصحاب الأديان والنحل . وكتابه الفِصَل[1] في الملل ، والأهواء والنحل ، يريك من صاحبه علماً واسعاً ، وعقلاً راجحاً ، وتعصّباً ذميماً .

وكان للفلسفة الأندلسيّة أثر بليغ في الأفكار الأوربيّة ولا سيّما فلسفة ابن رشد .

السياسة والاجتماع

ومنها السياسة والاجتماع ، وأشهر من صنّف فيهما ابن حزم وابن أبي رَنْدَقَة الطُّرطُوشي[2] . فأمّا الأوّل فله كتاب طوق الحمامة في فلسفة الحبّ وعلاماته وصفاته ، وأحوال المحبّين وما يعتريهم ويعرض لهم . وفيه مباحث نفسيّة لا بأس بها . وهو ، فيما نعهد ، خير كتاب من نوعه في العربيّة .

وأمّا الثاني فله سراج الملوك في سياسة السلطان ونظام الدّولة ، وصفات الوزراء والجلساء ، وعلاقة السلطان ببيت المال ، وغير ذلك ممّا يختصّ بسياسة الرّئيس وشروط السيادة .

١ الفصل ، جمع فصلة : النخلة المنقولة من محلها إلى محل آخر لتثمر . أو هو الفصْل في الملل والنحل .

٢ هو أبو بكر محمد بن الوليد القرشي الفهري ، ويعرف بابن أبي رندقة . ولد بطرطوشة (وقد تفتح الطاء الأولى) من بلاد الأندلس حوالي سنة ٤٥١ هـ . (١٠٥٩ م) وإليها نسب . وتأدب على ابن حزم بإشبيلية، ثم رحل إلى الشرق ، ومات بالإسكندرية سنة ٥٢٠ هـ . (١١٢٦ م) .

التاريخ والجغرافية

ومنها التاريخ والجغرافية ، فقد كان لهما حظّ وافر في الأندلس ؛ ولا سيّما الجغرافية فإنّها نهضت نهضة لم تلقَ مثلها في الشرق، إذ تحسّنت مباحثها ، ووضعت لها الخطط المنظّمة . وأمّا التاريخ فإنّ أصحابه كانوا كالمشارقة يذكرون الحوادث والأخبار والخرافات من غير نقد ولا تمحيص .

وأشهر المؤرّخين ابن القُوطيّة[1] ، وله تاريخ الأندلس من الفتح إلى سنة ٢٨٠ هـ. (٨٩٣ م) . وابن الفَرَضي[2] ، وله تاريخ علماء الأندلس . والمظفّر بن الأفطس[3] صاحب بَطَلْيوس ، وله المظفّري ، وهو تاريخ في خمسين مجلّداً يشتمل على مغازٍ وسير وأخبار . وأبو القاسم صاعد[4] ، وله طبقات الأمم في ذكر العلوم عندهم . وابن حيّان[5] ، وله المبين في تاريخ الأندلس ، ستّون جزءاً ، والمقتبس في تاريخها أيضاً ، عشرة أجزاء . والفتح بن خاقان ، وله

١ هو أبو بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية نسبة إلى جدته سارة حفيدة غيطشة ملك القوط . ولد بقرطبة ، وبرع في اللغة والحديث والأخبار والحفظ ؛ وتوفي بقرطبة سنة ٣٦٧ هـ . (٩٧٧ م) .

٢ هو أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي الفرضي ولد بقرطبة سنة ٣٥١ هـ . (٩٦٢ م) ورحل إلى القيروان ومصر ، ثم تولى قضاء بلنسية حتى مات سنة ٤٠٣ هـ. (١٠١٢ م) .

٣ هو المظفر بن الأفطس من ملوك الطوائف توفي سنة ٤٦٠ هـ . (١٠٦٧ م) .

٤ هو أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد قاضي طليطلة ؛ ولد في المرية سنة ٤٢٠ هـ . (١٠٢٩ م) وتوفي سنة ٤٦٢ هـ . (١٠٦٩ م) .

٥ هو أبو مروان حيان بن خلف بن حيان ؛ ولد بقرطبة سنة ٣٧٧ هـ . (٩٨٧ م) وتوفي سنة ٤٦٩ هـ . (١٠٧٦ م) .

قلائد العقيان في ذكر الملوك والوزراء والقضاة والفقهاء والأدباء . وله أيضاً مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في ملح أهل الأندلس ؛ ذكر فيه من لم يذكرهم في القلائد . وابن بسّام[1] ، وله الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة وآدابها في القرن الخامس للهجرة . وابن بَشكُوال[2] ، وله الصّلة وهو تكملة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ، في مجلّدين . والبيّاسي[3] ، وله كتاب الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام ؛ ابتدأ فيه بمقتل عمر بن الخطّاب ، وختم بخروج الوليد بن طريف الشاري على هرون الرّشيد ، وهو في مجلّدين . وابن الأبّار القُضاعي[4] ، وله تكملة الصّلة ؛ ذكر فيها أعيان الأندلس وأدباءها . وله الحلّة السيراء في أخبار المغرب من المائة الأولى للهجرة إلى المائة السابعة ؛ تبدأ بموسى ابن نصير . وابن سعيد المغربي[5] ، وله المُغرب في حلى المغرب ، في نحو خمسة عشر مجلّداً ، ذكر به أخبار ملوك الأندلس والفاطميّين والإخشيديّين وبني أيّوب وسواهم . ولسان الدّين بن الخطيب ، وله

١ ابن بسام الشنتمري توفي سنة ٥٤٢ ﻫ . (١١٤٧ م) .

٢ هو أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال الخزرجي الأنصاري القرطبي ؛ ولد سنة ٤٩٤ ﻫ . (١١٠٠ م) وتوفي بقرطبة سنة ٥٧٨ ﻫ . (١١٨٢ م) .

٣ هو أبو الحجاج يوسف بن محمد الأنصاري البياسي ، منسوب إلى بياسة بلد في الأندلس ؛ اشتهر بالحفظ والرواية . ولد سنة ٥٧٣ ﻫ . (١١٧٧ م) وتوفي بمدينة تونس سنة ٦٥٣ ﻫ . (١٢٥٥ م) .

٤ هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي المعروف بابن الأبار ، ولد في بلنسية وكتب لصاحبها محمد بن حفص ، وتوفي سنة ٦٥٨ ﻫ . (١٢٥٩ م) .

٥ هو أبو الحسن نور الدين علي بن موسى بن سعيد ولد بغرناطة سنة ٦١٠ ﻫ . (١٢١٣ م) ورحل إلى مصر والعراق والشام ، ودون ما شاهده في كتب عدة . توفي سنة ٦٧٣ ﻫ . (١٢٧٤ م) .

الإحاطة في تاريخ غرناطة ، ثلاثة أجزاء ، يفتتحه بقسم جغرافي ، خطّط فيه ولاية غرناطة وما يتبعها من القرى ، وذكر عادات العلماء وأزياءهم ، والجند وسلاحهم ، ومن نزل غرناطة من القبائل . وذكر ملوكها ووزراءها وقضاتها وفقهاءها وأدباءها وزهادها ، ومتصوفيها منذ الفتح إلى زمنه .

وأشهر الجغرافيّين أبو عُبَيد البكري[1] ، وله معجم ما استعجم ؛ وهو معجم جغرافي للمواضع التي ورد ذكرها في أشعار العرب ، وله أيضاً المسالك والممالك . والشريف الإدريسي[2] ، رأس الجغرافيّين ، وله نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، صنفه لروجر الثاني ملك صقلية مطابقاً لكرة من فضّة نقش عليها صور الأقاليم السبعة ببلادها وبحارها وأنهارها ومسافاتها . وزاد على ما في الكرة وصف أحوال البلاد كعمارتها ، وأجناس نباتها ، وصناعتها وتجارتها ، وأشكال أهلها ومذاهبهم وأزيائهم ولغاتهم . وجغرافية الادريسي اعتمد عليها الأوربيّون قدماً في تقويم البلدان ولا سيّما الشرق . وذكر جرجي زيدان[3] أنّه : « يؤخذ من خريطة محفوظة في متحف سان مرتين بفرنسا أنّ الإدريسي كان على بيّنة من حقيقة منابع النّيل فصوّرها بحيرات عند خطّ الاستواء كالتي اكتشفها أهل هذا التمدّن في القرن الماضي — نعني فكتوريا نيانزا والبرت

١ هو عبد الله بن عبد العزيز البكري أصله من مرسية ، وسكن قرطبة ؛ توفي سنة ٤٨٧ ﻫ . (١٠٩٤ م) .

٢ هو أبو عبد الله محمد بن محمد الادريسي العلوي، ولد بسبتة سنة ٤٩٣ ﻫ. (١٠٩٩ م) وتثقف بقرطبة ، ورحل في البلاد ثم اتصل بروجر الثاني ملك صقلية ووضع له جغرافيته الشهيرة . توفي سنة ٥٤٨ ﻫ . (١١٥٣ م) .

٣ جرجي زيدان ؛ تاريخ آداب اللغة العربية . ج : ٣ ص : ٨٥ .

نيانزا — رسمها الإدريسي قبلهم بمئات من السنين » اهـ. وابن جُبَير[1] ، وله كتاب رحلته ؛ وصف به ما شاهده من عجائب البلدان وبدائع صنائعها ، ومساجدها ودواوينها وأحوالها .

الفنون والصنائع

أقبل الأندلسيّون على الفنون المختلفة يتعاطونها فنهضوا بها ، وبلغوا غاية الاتقان والجمال في بعضها . وكان لهم عناية فائقة بالعمارة ، فقد مزجوا الفنّ العربي بالقوطي ، واستخرجوا منهما طرازاً مستعرباً رائعاً لا تزال آثاره ناطقة في القصور والمعابد وحسبك جامع قرطبة ، وقصر إشبيلية ، وحمراء غرناطة ، فإنّهنّ من أعاجيب الزّمان .

وشغفوا بالنّحت والتّصوير ، فزيّنوا قصورهم وحدائقهم وأحواضهم بالتّماثيل والصّور ، ونقشوها على أوانيهم وأثاثهم ؛ حتى إنّهم نقشوا على اسطوانة في جامع قرطبة عصا موسى ، وعلى أخرى أهل الكهف ، وعلى غيرها غراب نوح .

ولما بنى النّاصر الزّهراء ، وسمّاها باسم جاريته الحسناء ، نقش صورة الجارية على باب المدينة ، وأنشأ في المدينة حوضاً عظيماً زخرفه

١ هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني، ولد في بلنسية سنة ٥٣٩ هـ. (١١٤٤م) ودرس على جماعة من الأدباء والعلماء ، وبرع في الشعر والأدب ، وسكن غرناطة ، ثم أولع بالأسفار فرحل رحلته الأولى إلى مصر والشام والحجاز والعراق وصقلية ، وتفقد الآثار والصنائع وأحوال البلدان وأهلها ثم عاد إلى غرناطة ، وصنف رحلته المشهورة . ورحل ثانية بعد أن فتح صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس ، وعاد إلى غرناطة ثم انتقل إلى سبتة . ورحل ثالثة من سبتة إلى مكة فبيت المقدس ، ثم تحول إلى الإسكندرية فأقام بها يحدث حتى مات سنة ٦١٤ هـ. (١٢١٧ م) . وطبعت رحلته الأولى في ليدن ، وترجمت إلى الإيطالية ، وترجم قسم صقلية إلى الفرنسية .

بالنّقش والتّصوير ، ونصب عليه اثني عشر تمثالاً في صورة الإنسان .

وبلغ من تقدّم الفنون عندهم أنّهم حاولوا الطيران فنجحوا بعض الشيء ، فقد حدّثنا صاحب نفح الطيب أن أبا القاسم عبّاس بن فرناس[1] : « احتال في تطيير جثمانه ، وكسا نفسه الرّيش ، ومدّ له جناحين ، وطار في الجوّ مسافة بعيدة ، ولكنّه لم يحسن الاحتيال في وقوعه فتأذّى في مؤخّره ، ولم يدرِ أنّ الطائر إنّما يقع على زِمِكّه[2] ، ولم يعمل له ذنباً . » اهـ.

وكان مؤمن بن سعيد الشاعر معاصراً له فقال فيه من أبيات :

يَطِمُّ عَلى العَنْقَاءِ في طَيَرَانِهَا، إذا ما كسا جُثمانَهُ رِيشَ قَشعَمِ[3]

الأدب والأدباء

المجاميع الأدبية . العقد الفريد . جمع آداب الأندلس .
الذخيرة . قلائد العقيان . النقد الأدبي . التوابع والزوابع .

كان للأندلسيّين قسط وافر في الأدب ، نال منه خاصّتهم وعامّتهم ، نساؤهم وصبيانهم . واستهواهم الشعر الجاهلي ، فحفظوه ورووه ، واستفادوا من بلاغته . وانصرف منهم طائفة إلى تصنيف المجاميع الأدبيّة ،

١ عاش ابن فرناس في القرن الثالث للهجرة زمن إمارة محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الأموي . ملك من سنة ٢٣٨ – ٢٧٣ هـ . (٨٥٢ – ٨٨٦ م) وله فيه شعر حسن رواه ابن عبد ربه في العقد .

٢ الزمك : منبت ذنب الطائر .

٣ يطم : يعلو ويغلب . القشعم : النسر العتيق المسن .

فمنهم من جمع آداب الشرق دون أن يلتفت لفت بلاده إلا في الندْرَة كابن عبد ربّه صاحب العقد ، فإنّ كتابه أقدم مجموعة ظهرت في الأندلس ، ومن أوائل المجموعات الأدبيّة عند العرب ، ولكنّه عني بأخبار شعراء الشرق وخطبائه ، وكتّابه ، ومغنيه وقيانه . وأورد جمهرة من أقوالهم ونوادرهم وملحهم ؛ ولم يزوِ شيئاً لأدباء الأندلس إلا ما كان من قوله . وقلّما روى لغيره في معرض كلامه على ملوك بني أميّة بقرطبة ، فكأنّه لم يجد في عصره أديباً أندلسيّاً يستحقّ الذّكر ؛ وهذا ما حمل الصّاحب بن عبّاد على أن يقول عندما انتهى إليه العقد : « هذه بضاعتنا ردّت إلينا . »

ويشتمل العقد على أخبار وأقوال ونوادر لا تجدها إلاّ به ، ولولاه لذهبت ضياعاً . وفيه لمحات تاريخيّة عن الخلفاء والملوك والأمراء وأيّام العرب في الجاهليّة . وفيه فصول في العروض والطبّ والألحان . وهو خمسة وعشرون كتاباً باسم خمس وعشرين جوهرة من جواهر العقد ؛ أوّلها كتاب اللّؤلؤة في السّلطان . وإنشاؤه بليغ مطبوع مرسل ، فيه إيجاز ووضوح وبهاء . طبع في ثلاثة مجلّدات ، ثمّ في أربعة .

ومنهم من جمع آداب أهل الأندلس دون سواهم كابن بسّام في الذّخيرة . والفتح بن خاقان في قلائد العقيان ، ومطمح الأنفس . وابن بَشكُوال في الصّلة . غير أنّهم خلطوا أخبار الأدباء بأخبار الملوك والوزراء والفقهاء وسواهم ، وأكثروا من ذلك ، فغلبت على كتبهم الصّبغة التاريخيّة .

ويؤخذ عليهم أنّهم اعتمدوا الصّنعة في إنشاء مجاميعهم ، فأفسدوها بتكلّفهم ، ولا سيّما الفتح في قلائده . ولم يكن لهم يد بارعة في النقد

إلا ما كان من أحكام شاملة ليس فيها غناء .

والنقد في الأندلس لم يرتفع له شأن إلا عند أبي عامر بن شُهيد ، حتى إنّه فاق نقد المشرقيّين في بعض نواحيه . لأنّ أبا عامر سلك طريقاً في كتابه التوابع والزّوابع[1] لم يسلكه واحد منهم ، فكان ينظر في نقده إلى نفس الأديب ، وأعضاء جسده .

والتوابع والزّوابع تحفة من تحف الأدب ، لم يبقَ منه إلا فصول أوردها ابن بسّام في الذّخيرة ؛ وهو قصص أدبيّة خياليّة يجتمع فيها ابن شهيد بالأدباء ، وينتقدهم ويعارضهم في منظومهم ومنثورهم . ويكون ذلك بأن يطير إلى أرض التوابع والزّوابع مع جني يقال له زُهير ابن نُمير ، يركبه على أدهمه ، ويزيره شياطين الشعراء والكتّاب ، فتجري بينه وبينهم مساجلات ومناظرات ، فمنهم من يجلّهم ويعترف بفضلهم شأنه مع عُتَيبة بن نَوْفَل صاحب امرىء القيس ، فإنّه تهيب الإنشاد في حضرته ، وهمّ بالحَيْصة . وشأنه مع حسن الدنان شيطان أبي نواس ، فقد أدركته منه الهيبة ، وأخذ في إجلاله لمكانه من العلم والشعر . ومنهم من يخزيهم ويخذلهم كما جرى له مع أبي الطبع طوق ابن مالك تابع البحتري ، فإنّه باراه في الإنشاد ، فاسودّ وجه أبي الطبع وكرّ راجعاً ولم يسلّم . وكما جرى له مع زبدة الحقب جنّي بديع الزّمان ، فإنّه عارضه في وصف الماء ، فلمّا سمع زبدة وصفه ، غار في الأرض وهو مبهوت خجل .

ويتخلّل تلك الأقاصيص آراء في النقد متعدّدة ، فمنها كلامه

[1] التوابع : الجن الذين يتبعون الإنس ، واحدها تابع وتابعة . الزوابع : جمع زوبعة وهي اسم لشيطان ، أو رئيس الجن .

على تأثير النّفس في الإنشاء وهذا لم يسبق إليه فيما نعهد . قال : « مقدار طبع الإنسان إنّما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه . فمن كانت نفسه مستولية على جسمه من أصل تركيبه ، كان مطبوعاً روحانيّاً ، يُطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيآتها ، وأروق لباساتها . ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من أصل تركيبه ، كان ما يطلع من الصّور ناقصاً عن الدّرجة الأولى في التّمام والكمال . » اهـ. ومنها قوله في تأثير تركيب الأعضاء : « إنّهم يُدركون بالطبيعة ، ويقصّرون بالآلة . وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الدّاخلة من فساد الآلة القابلة الرّوحانيّة ، والخادمة لآلات الفهم ، والباعثة لرقيق الدّم في الشريان إلى القلب . وزيادة غِلَظ أعصاب الدّماغ ، ونقصانها عن المقدار الطبيعي ، وما يعين على ذلك بالحسّ وطريق الفراسة ، من فساد الآلات الظاهرة كفَرْطحة الرّأس وتَسفيطه ونُتوء القَمَحْدُوَة ، والتواء[1] الشدق ، وخَزَر العين[2] ، وغِلَظ الأنف ، وانزواء الأرنبة[3] . » اهـ.

ومهما يكن في هذه الأحكام من غموض ومجازفة يحولان دون اتّخاذها قواعد مطردة ، فإنّها دون شكّ خطوات مباركة خطاها ابن شُهيد في مهيع النّقد الحديث .

١ فرطحة الرأس : عرضه . تسفيطه : محاكاته للسفط وهو وعاء كالقفة . القمحدوة : مؤخر القذال .
٢ خزر العين : انكسار بصرها وضيقها وصغرها ، أو نظرها بأحد الشقين ، أو حولها .
٣ الأرنبة : طرف الأنف . وانزواء الأرنبة : تجمعها وتقبضها .

عصر الانحطاط

(١٢٥٨ – ١٧٩٨ م و ٦٥٦ – ١٢١٣ هـ)

« يبتدىء باستيلاء هولاكو على بغداد »
« وينتهي بدخول نابوليون الأول مصر. »

فصول البحث وأغراضه

لمحة تاريخية

تفاقم الويلات . فيض العناصر العجمية . ميزة العصر .

الشعراء المحدثون (عصر الانحطاط)

ميزة الشعر .

الكتّاب المحدثون (عصر الانحطاط)

ميزة النثر . انشاء المترسلين . انشاء المصنفين . العلوم والآداب .

لمحة تاريخية

تفاقم الويلات
فيض العناصر العجمية

الحروب والويلات . تخدير العقول . تكاثر العناصر العجمية . انحدار اللغة . عهد بني عثمان .

تركنا العصر العبّاسي الرّابع[1] ، والممالك الإسلاميّة نهبة النّاهب ، يتداولها الغزاة والفاتحون ، ويقوّض عمرانها المغول المكتسحون ، وتنتشر فيها العناصر العجميّة انتشاراً مروّعاً ، يتضاءل دونه العنصر العربي حتّى يكاد يذوب ويضمحلّ . ولبسنا هذا العصر منزوفاً بالدّماء ، محفوفاً بالأرزاء ، ما تقرّ به عين ، ولا يهدأ خاطر ، لا تطمئن نفس ، ولا يهجع ناظر . السّيوف بين الهام والأعناق ، والرّماح في النّحور والتّرائب . البلاد فريسة للبثق والتحريق ، والنّهب والتهديم . النساء مردفات ، والأطفال بين سبيٍ وذبيح .

فالمغول بفارس يشنّون الغارات على العراق والشام ، ويوغلون في البلاد قتلاً وتخريباً ، ويبتعثون الذّعر أمامهم ، فينبعث كالوباء المنتشر . فما تناسى النّاس هولاكو وفظائعه ، إلا ليبتلوا بتيمورلنك

[1] أدباء العرب ج ٢ . العصر العباسي الرابع .

ومجازره[1] . والفرنجة بفينيقية وفلسطين يقتحمون الدّيار المصريّة والشاميّة . والمماليك يجهدون في دفعهم عنها ، ولكنّهم يختلفون فيما بينهم على المال والسلطان فيحتربون ، ويتذابحون ، ويتفانون . والكرج والأرمن يتسايلون من الشمال مغيرين عائثين ، ثمّ يعودون بالسّبايا والغنائم .

تلك حالة مصر وسورية والعراق في هذا العصر . وأمّا جزيرة العرب ، والمغرب فقد كان يتنازعهما دول صغيرة تختصم وتتحارب ، فما اطمأنّ عرش بواحدة إلا انتقل إلى غيرها . وأمّا الأندلس فقد خلت مرابعها من المسلمين بعد أن شرّدهم الفرنجة عنها .

وفي منسلخ القرن السابع للهجرة ، شهدت آسية الصغرى دولة مسلمة فتية ترث ملك السلاجقة المحطم ، وتقيم على أنقاضه عرشاً تركيّاً لبني عثمان ثمّ لا تلبث أن تنمو وتترعرع ويشتدّ ساعدها ، فتغزو فيتّسع ملكها ، فتتوغّل في بلاد الرّوم حتّى تفتتح القسطنطينيّة سنة ٨٥٧ هـ. (١٤٥٣ م) وتجعلها عاصمة لها .

ثمّ يقوم أحد سلاطينها سليم الأوّل ، فيولي وجهه شطر الشرق فيغزوه سنة ٩٢٢ هـ. (١٥١٦ م) وينتزع سورية ومصر من أيدي المماليك الشراكسة ، ويخلع المتوكّل على الله الخليفة العبّاسي ، ويأخذ منه الرّاية والبردة والسيف، ومفاتيح الحرمين . فتنتقل الخلافة للمرّة الأولى من العرب بل من قريش إلى الأتراك .

ثمّ يمتدّ سلطان العثمانيّين إلى سائر البلاد العربيّة كالعراق والحجاز

١ قصد تيمورلنك المغولي سورية سنة ٨٠٣ هـ . (١٤٠٠ م) وخرب حلب وحمص وحماة وبعلبك ودمشق ، وفتك بأهلها ، وأحرق الجامع الأموي ، وكثيراً من المعابد والمدارس ، وسبى النساء ، وداس الأولاد بخيله وبقره .

واليمن وتونس والجزائر ، ويُستعمل عليها وُلاة من الأتراك .

فغير عجيب أن يكون لتوالي الحروب والمحن ، وتقتيل العلماء ، وتحريق المكاتب ، وتفاقم العناصر العجميّة ، واستدادها بالأحكام ، أثر بليغ في تخدير العقول ، وحطّ الآداب والعلوم . ولولا أنّ هؤلاء الأعاجم أسلموا ، وكان بهم حاجة إلى العلوم لما سلمت لغة القرآن .

على أن مصر والشام كانتا قبل أن يستولي عليهما بنو عثمان ، مباءة الأدباء والعلماء الهاربين من وجه المغول ، أو من وجه الفرنجة في الأندلس . ذلك بأن المماليك ، وإن لم تكن لهم آصرة على اللغة العربيّة ، عطفوا عليها ، وقربوا أصحابها تشبّهاً بسادتهم الأيّوبيّين . ولكن ضعفهم فيها جعلهم يؤثرون الأزجال العاميّة على الشعر الفصيح ، فغلب القوّالون على الشعراء ، والعاميّة على الفصحى .

وكان بالشام فضلة من الأيّوبيّين عطفوا على اللّغة وآدابها ، كالملك المؤيّد صاحب حماة ، وهو الأديب المؤرّخ المعروف بأبي الفداء[1] . إلا أنّ سلطانهم كان ضعيفاً بالاضافة إلى سلطان المماليك المنبسط على القطرين معاً ، فلم يكن تأثيرهم بليغاً كتأثير أولئك .

وعلى الجملة فإنّ اللّغة لم تنحدر في عهد المماليك انحدارها على عهد بني عثمان لأسباب : منها أنّ دولة المماليك كان وطنها عربيّاً . أمّا دولة العثمانيّين فوطنها عجميّ . وكان المماليك أهل جهالة جهلاء

١ هو السلطان الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل الأيوبي ولد بدمشق سنة ٦٧٢ هـ . (١٢٧٣م) وكان عالماً فاضلا مؤرخاً أديباً ، ولاه حماة الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر . ثم أرسل إليه شعار السلطنة ، وأطلق يده في دولته . توفي سنة ٧٣٢ هـ . (١٣٣١ م) وتملك حماة بعده ابنه الملك الأفضل ناصر الدين محمد .

لا يعرفون غير السّيف والحرب ، فلم يستغنوا في تنظيم دولتهم عن علوم العرب وآدابهم ، فأكثروا المدارس في مصر والشام ، وقربوا العلماء ليؤلفوا لهم ، ويتولّوا أمور دواوينهم . وكذلك العثمانيّون كانوا كالمماليك في جهلهم وخشونتهم ، إلا أنّهم تحضّروا بعد أن فتحوا القسطنطينيّة واتخذوها قاعدة لملكهم ، وتحضرت لغتهم شيئاً فشيئاً بما أفادت من العربيّة والفارسيّة واللّغات الأوربيّة . وأصبحت صالحة للعلوم والآداب ، فأعرضوا عن لغة العرب ، وكانوا قد اعتمدوا عليها برهة من الزّمن ، وجعلوا التركيّة لغة رسميّة في جميع الولايات العثمانيّة . ولم يستثنوا الولايات التي تعمرها العناصر العربيّة ، فإنّهم استعملوا عليها حكاماً من الترك ، يرفعون شأن لغتهم ، ويدفعون العرب إلى تعلّمها لتتريكهم ، وإضعاف عصبيّتهم . فهبطت اللّغة في عهدهم هبوطاً مشؤوماً ، وفسدت ملكة البلاغة ، وتصلّبت أذهان الأدباء ، وران عليهم خدر الخمول لا يستفيقون منه إلا على مدافع نابوليون في مصر ، ونواقيس الأديار في شعاف لبنان .

ميزة العصر

الهول والفساد ـ الاستبداد . الضغط على حرية الفرد والجماعة .

عصر يصبغه الهول والذّعر والفساد من جميع نواحيه ، عصر تقتيل العلماء ، وإتلاف الكتب ، وتخريب المدارس . عصر لم يُبق فيه هولاكو من رمق إلا ليجهز عليه تيمورلنك . ولم يمعن المماليك في إرهاق العرب إلا ليوطئوا العقاب للعثمانيّين أبناء جلدتهم ، فيعمد هؤلاء إلى بذر الشقاق في الطوائف خشاة أن يتواطؤوا على شقّ عصا الطاعة . فاقترفت من أجل ذلك المظالم ، وارتكبت المحرّمات ، وأُحلّ القتل والترويع ودبّت عقارب السّعايات والدّسائس ، واستعبدت الأفكار ، وحطّمت الأقلام ، وخنقت حرّيّة الفرد والجماعة . فذلّ العرب ، وتفرّقت كلمتهم . وكان هذا العصر أسوأ العصور عليهم .

الشعراء المحدثون

عصر الانحطاط

ميزة الشعر

ضعفه . خمود القرائح عن الابتكار . انحداره في عصر العثمانيين . التكلف . التقليد . صناعة لفظية جافة . التاريخ الشعري . أغراضه كأغراض الشعر المولد . إقبال الشعراء على التصوف والمجون .

بان الضعف على الشعر في العصر العبّاسي الرّابع ، وتلقّاه عصر الانحطاط بكوارثه ومجازره ، وبوابل منهمر من العناصر الأعجميّة لا تأتلي في إفساد اللّغـة ، وتشويه فصاحتهـا . فانحدر الشعر إلى أدنى الدركات ، وكان له بعض الرّونق في أوائل العصر ، فجفّ ماؤه ، وخبث طعمه في أواخره .

وطبيعي أن يسقط الشعر ويهوي من سمائه ، وقد تواضعت على أذاته عوامل متعدّدة . فمن فصاحة آضت إلى العجمة والرّطانة ، ومن قرائح أرمضها الشحّ والجفاف ، ومن أذهان أخلقها الخمول والجمود ، ومن نفوس أضرعهـا الرّعب والخنوع ، ومن ملوك أزرت بالشعر والشعراء .

وكان المماليك أرحب صدراً من العثمانيّين لاستقبال الشعراء . ذلك بأن مملكتهم عربيّة الموطن ، فقرّبوهم إليهم ، ولكنّهم صرفوهم

إلى التأليف في الآداب والعلوم ، وآثروا على شعرهم أناشيد الزّجالين ، لأن عجزهم عن فهم العربيّة الفصحى حبّب إليهم الزّجل . فأثابوا أصحابه ، فكثُر القول فيه ، ونظمت الموشحات والقصائد العاميّة على أنواعها .

ومع قلّة المناصرين للشعر ، فإنّ المشتغلين به لم يقلّوا ، بل كان منهم طائفة كبيرة معظمها شويعرون ومتشاعرون . ذلك أنّ النّاس استهانوا جانب الشعر بعد ذهاب أربابه ، واجترؤوا على نظمه دون أن يُؤتَوا مواهبه ، فتلهى به الخاصّة ، ولاكته أفواه العامّة . فكان من أصحابه الفقهاء والكتّاب وأهل الحرف وسواهم .

وكان التكلّف والتقليد أظهر خصائص هذا الشعر ، لأنّ الجمود الذي استولى على القرائح قطع ما بينها وبين الابتكار ، ووقف بالشعراء عند أساليب المتقدّمين ومعانيهم ، يطبعون على غرارها ، ويغرفون من بحارها . فقلّما وقعت على معنى شريف أو صورة خلابة إلا وجدت له أصلاً في شعر السّالفين . فكانوا كالحيوان الطفيلي يعيشون على جسم غيرهم . وترك لهم الأدباء العبّاسيّون إرثاً عظيماً من المحسنات المعنويّة واللّفظيّة . فأقبلوا عليها يحترفونها ، لأنّها لا تقسرهم على الاستنباط والاختراع ، وإنّما تحتاج إلى عناية باختيار الألفاظ المتجانسة ، والتصرّف في استخدام معانيها ليستخرج منها تورية أو جناس ، أو ما شاكل ذلك من أنواع البديع . والصّنعة في الشعر جميلة إذا روعيت فيها البلاغة ، ولم يفرط في استعمالها ، ولكن شعراء الانحطاط ألحّوا في طلبها حتى أسرفوا ، وجعلوا المعاني خادمة للألفاظ ، فصغر أمرها ، وقبح منظرها ، وغثّ مخبرها . ولم يكن لهم ما كان لأسلافهم من البلاغة وحسن البيان ،

فاضطربت عباراتهم ، وتراخى رشاؤها ، وجفّ ماؤها ، وتثاقل أداؤها . وازدادت لغتهم ضعفاً وركاكة بازدياد انحطاطهم ، حتى صار الشعر في غاية الإسفاف ، وبات الشعراء يتلمسون المحسنات البديعيّة ليستتروا بها ، فتنشز عنهم ، وما تؤاتيهم إلا بعد لأي ، ولا هم يبلغونها إلا بشقّ النفس ؛ فإذا هي بين أيديهم غثة باردة ، كلّها معاظلة وحشو وتطويل . وإذا الشعر جثّة ميت لا حياة فيه .

وأكثروا من التخميس والتشطير والتضمين والاقتباس ، لما فيه من معان مستفادة يتوسّع فيها ناظمها ، ويغذّي بها بنات أفكاره الجائعة . ثمّ جاءهم التاريخ الشعري مع العثمانيّين في القرن العاشر للهجرة ، فكان لهم من أرقامه رياضة لأذهانهم الكليلة ، فتهافتوا عليه تهافت العطاش على الماء ، وراحوا يتنافسون في استعماله كلّما سنحت لهم تهنئة أو تعزية ، فزيدت صناعة الشعر برودة وثقلاً ، وأصبحت بغيضة لا تطاق بعد أن أفرطوا فيه حتى جعلوا القصيدة جدولاً حسابيّاً ، في كلّ مصراع تاريخ أو أكثر . ويا قبح الله الشعر إذا خالطه الحساب !

وأمّا أغراض الشعر فلم تخرج في جملتها عن أغراض المولّدين ، إلا أنّ هناك نوعين متناقضين تضاعف إقبال الشعراء عليهما ، وهما التصوّف والمجون . ومن غريب ظواهر الاجتماع أن يكثر التعبّد والفحش عند اشتداد الحروب والمحن . فبينا تنصرف طائفة إلى التنسّك والصلاة ليجلو الله غمائم الكروب ، تمعن أخرى في طلب الملذّات كمن يبادر الدّنيا قبل فواتها . وكثيراً ما يقود اليأس صاحبه إلى المعرّات ، على أمل أن يتفرّج من همومه . ولضيق الحروب ، وما يتبعه من فاقة وفقر ، وبذل ، وسبي وإغراء ، يد فعّالة في قتل الحياء وبعث الدّعارة .

وقد كان عصر الانحطاط متتابع الويلات والحروب . ففزع النّاس إلى ربّهم يعتصمون بحبله ، ففزع إليه الشعراء يمدحونه ، ويستشفعون رسوله . فنظم البُوصيري بردته الشهيرة ، وترسمه الحِلّي في بديعيته ، جارياً على بحره وقافيته . ففتح طريقاً جديداً لمن جاء بعده من الشعراء . فاحتذوا مثاله ، والتزموا أنواع البديع في مدائح محمّد وآله وصحبه . وتشبّه بهم أدباء النصارى ونظموا القصائد والبديعيّات في مدح المسيح ورسله ، أشهرهم المطران جرمانوس فرحات ، والخوري نيقولاوس الصّائغ صاحب أوّل بديعيّة نصرانيّة .

وكان عصر الانحطاط عصر يأس وضيق ، وسبي وإغراء . فأوغل النّاس في ارتكاب الفحشاء ، ومزّقوا عن جسومهم غلائل العفاف . فأوغل الشعراء في الخلاعة والمجون ، وأسرفوا في سرد الأخبار الفاحشة ، واستعمال الألفاظ الصريحة في البذاءة . وراج عندهم غزل المذكر ، ولم يتحوّب منه العلماء والمتصوّفون . وكان مجونهم في معظمه سمجاً غليظاً لكراهيته ونبوّه عن الطبع ، وخلوّه من الظرافة التي اتّسم بها شعر النواسي وأضرابه من مجّان العصر العبّاسي الأوّل . وربّما تكلّفوا نظمه لئلا ينقصهم فنّ من فنون القريض ، وسمّوا هذا الضرب من الشعر إحماضاً[1] . وكان صفي الدّين في مقدّمة من تكلّف نظمه وتدوينه . ومع كثرة شعراء الانحطاط لتطفّل النّاظمين ، فإنّه لا يستحقّ الذّكر إلا أقلّهم . وأبرعهم من جاء في صدر العصر كالبُوصيري . وابن نُباتة ، وصفيّ الدّين الحِلي ، والتّلّعفَريّ ، والشّاب الظريف .

١ الإحماض : من أحمضت الإبل : أكلت الحمض . وهو ما ملح وأمَرّ من النبات ، وهو كفاكهة للإبل تأكله عند سآمتها من الخُلّة وهي ما حلا من النبات . واستعمل الاحماض مجازاً للتفكه بالعبث والمجون .

الكتاب المحدثون

عصر الانحطاط

ميزة النثر

كثرة المتطفلين عليه . سقوطه .

لم يكن النثر أوفر حظّاً من الشعر فيعدوه الإسفاف ، وكلاهما رزِئ ببلاغته ، ومضى عهد فرسانه المجلّين . وربّما كانت مصيبة النثر أفدح ، وخطبه أعمّ ، لأنّ عدد المتطفّلين عليه أكثر من عدد المتطفّلين على الشعر . وكانت النكبة في إنشاء المترسلين أشدّ منها في إنشاء المصنّفين .

إنشاء المترسلين

تعلقهم بالألفاظ . عجزهم عن توليد المعاني . طغت العامية على الفصحى في الدواوين . فساد اللغة . التكلف . السخف .

اصطبغ إنشاء المترسلين في العصر العبّاسي الثّالث بألوان الشعر ، فغلب عليه الخيال والمجاز ، وقامت سجعاته مقام القوافي فلم يكن ينقصه غير الأوزان . ومتى أفرغ النثر في قالب الشعر ضاقت أغراضه ، وتحدّدت موضوعاته ، فما يصلح إلا للأشياء التي يطفو عليها الخيال

الشعري كالوصف والرّسائل ومقدّمات الكتب والمقامات وما أشبه ذلك . وأمّا المباحث العلميّة والأدبيّة والتاريخيّة ، فتنبو عنه ، ولا تخضع له إلا على كره منها ونفار .

والأسلوب الشعري المنمق صعب القياد ، لا يستكين إلا لكاتب بليغ ، مستطيل على الألفاظ ، بارع في المجاز . وكان الكتّاب العبّاسيّون فيهم ملكة البلاغة ، ولهم حسن البيان ، فصاروا بهذا الأسلوب إلى أعلى منازله ، ونافسوا به النثر الفني المرسل . على أن هذه البلاغة ما لبثت أن تداعت في أواخر العصر الماضي ، فأسفّ نثر المترسلين وجفّت صناعتهم ، وثقلت ألفاظهم ، وقبحت محسناتها . ثمّ وافى هذا العصر ، فاحتضرت البلاغة بين يديه . وحاول كتّابه أن يجاروا من تقدّمهم في الصّناعة ، واحتذوا طريقة القاضي الفاضل من التزام التورية والسجع والجناس ، لأن في صناعة الألفاظ ستراً لعجزهم عن توليد المعـــاني واختراعها ، فلم يستقم لهم الأمر ، وجاءت عباراتهم تتمطّى متثاقلة وتتثاءب . وما انقضى صدر الدّولة العثمانيّة ، وسادت التركيّة في الدواوين ، وطغت العاميّة على الفصحى ، حتّى لفظت البلاغة نفسها . وصار الكتّاب لا يطيقون الإفصاح عمّا في ضمائرهم ، واعتاصت عليهم الصّناعة ، وفسدت اللّغة في عباراتهم ، وأكثروا من الحشو والكلام الفارغ . وتكلّفوا السجع على ضعفهم ، فجاء سخيفاً نابياً ، متقلقلاً في أماكنه .

وأشهر مترسلي هذا العصر من عاشوا في دولة المماليك ، وكتبوا لسلاطينها ، كالقاضي محيي الدّين بن عبد الظاهر ، وشهاب الدّين محمود الحلبي ، وشهاب الدّين بن فضل الله العُمري .

إنشاء المصنفين

أجمل من إنشاء المترسلين . أقرب إلى الطبع . فساده في عهد العثمانيين .

وأمّا إنشاء المصنّفين فلم تعمه الصناعة اللّفظيّة كما عمّت فنّ الترسل ، فقد لبث طائفة منهم يقصدون إلى الأسلوب المرسل فأحسنوا في ذلك . ولكن لم تتفر لهم بلاغة أسلافهم ، فجاء إنشاؤهم في الجملة على شيء من اللّين ، ولم يخلص من التعقيد والتطويل . ثمّ دبّ الفساد في لغتهم كما دبّ في لغة المترسلين فكاد يكون النثر عاميّاً ، كما يبدو في قصص بني هلال ، وتاريخ ابن إياس[1] وما شاكل ذلك .

العلوم والآداب

الحركة العلمية الأدبية في عهد المماليك محمودة . ضعفها في بني عثمان .

كانت الحركة العلميّة في دولة المماليك محمودة لكثرة المدارس عندهم ، وإقبال العلماء على مصر والشام ، وانصرافهم إلى التأليف بأكناف السلاطين . ولكن مصنّفاتهم قلّ فيها الاستنباط لتصلّب الأذهان ، فجاءت في معظمها جمعاً وتحشية وشرحاً . فمن الذين اشتغلوا

١ هو ابن اياس الجركسي الحنبلي من رجال القرن التاسع والعاشر للهجرة ، وله بدائع الزهور في وقائع الدهور » دون فيه تاريخ مصر حتى سنة ٩٢٨ هـ . (١٥٢١ م) ولغته ضعيفة أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى .

بالنحو ابن مالك الطائي ، وله ألفيته الشهيرة ، وتسهيل الفوائد ، والكافية الشافية ، ولاميّة الأفعال . ومنهم ابن هشام وله قطر النّدى وبل الصدى ، ومغني اللّبيب عن كتب الأعاريب ، والإعراب عن قواعد الأعراب . ومنهم صاحب الآجُرّوميّة، ونسبوه إليها فقالوا ابن آجُرّوم .

ومن الذين اشتغلوا بتصنيف المعاجم اللّغويّة ابن منظور صاحب لسان العرب جمع فيه تهذيب الأزهري ، ومحكم ابن سيده ، وصحاح الجوهري، وجمهرة ابن دريد ، ونهاية ابن الأثير ، وجعله في عشرين مجلّداً . ومنهم الفَيْرُوزابادي، وله القاموس المحيط في أربعة مجلّدات . ومنهم السيوطي ، وله المزهر في جزئين يشتمل أوّلهما على البحث في ألفاظ اللّغة وفصيحها وضعيفها ورديئها ، والمعرب والمولد والحقيقة والمجاز والقلب والإبدال وما أشبه ذلك . ويشتمل الثاني على أوزان الكلام ، وأبنية الأفعال ومعرفة التصحيف والتحريف ، ومن يحتجّ بهم من شعراء العرب وغير ذلك .

وكان حظّ التاريخ حسناً ، والنشاط له عظيماً ، فظهرت فيه كتب جليلة يصحّ الرّكون إليها . وكان للمغرب يد على فلسفة التاريخ في مقدّمة ابن خلدون . فمن الذين اشتهروا في مصنّفاتهم التاريخيّة ابن خلّكان ، وله وفيات الأعيان في مجلّدين ؛ وهو كتاب نفيس ، وله ذيول أشهرها فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي . ومنهم صلاح الدّين الصفدي وله الوافي في الوفيات ، وهو معجم للتراجم في خمسين جزءاً . ومنهم أبو الفداء، وله المختصر في أخبار البشر، تاريخ عام في أربعة أجزاء . ومنهم شمس الدّين الذّهبي ، وله تاريخ الإسلام في اثني عشر مجلّداً . ومنهم ابن خلدون ، وله كتاب العِبَر في ستّة مجلّدات .

وكذلك الجغرافية ، فإن أصحابها ما انفكّوا يعانون الرّحلات في سبيلها ، وأشهرهم القزويني ، وله عجائب المخلوقات في الفلك والجغرافية الطبيعيّة عند العرب . وابن بطّوطة الرّحّالة المشهور وله كتاب تحفة النظّار ، ويُعرف برحلة ابن بطوطة . والمقريزي وله خططه التي بيّن فيها أقاليم مصر وأحوال سكّانها ، وأودعها من الأخبار والحوادث التاريخيّة طائفة حسنة ، وهي في مجلّدين كبيرين .

ونهض علم الاجتماع في مقدّمة ابن خلدون . وكان للعلم الطبيعي حظّ حسن في كتاب حياة الحيوان الكبرى للدّميري .

واشتغل جماعة من العلماء بوضع الكتب الجامعة لشتّى العلوم والآداب ، كالنُّوَيري وله كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب ، يزيد على ثلاثين مجلّداً ، ويبحث في الفلك ، وتقويم البلدان ، والتاريخ الطبيعي ، واللّغة والأدب . وكشهاب الدين بن فضل الله العمري ، وله مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، يتضمّن أبحاثاً في التاريخ والجغرافية ، والتاريخ الطبيعي . وكالقَلْقشَنْدي ، وله صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، وتقويم البلدان . وكالابشيهي ، وله المستطرف في كلّ فنّ مستظرف ، يشتمل على أدب وسياسة واجتماع وتاريخ وجغرافية ، وتاريخ طبيعي ونحو ذلك .

ولمّا أدال الله العثمانيّين ، واصبحت مصر والشام في حكمهم ، ضعفت فيهما الحركة العلميّة، وأُقفل معظم المدارس ، وانتهبت أوقافها . ثمّ أخذت التركيّة تغزو العربيّة وتزحمها في عقر دارها ، فغلبت طمطمانيّة الأعجام على المِصريّين ، وقلّ المشتغلون بالعلم لقلّة أنصاره ، وانقطاع وسائله . ولم يكن للتصنيف والمصنّفين شأن يذكر لولا تلك

الشهب التي كانت تلوح الفينة بعد الأخرى ، فتنير سواد هذا الليل الدامس ، ثم يتوارى شعاعها في الحجب الكثيفة ، فيستبد الظلام . فمن هذه الشهب عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، شرح فيه شرح شواهد الكافية في النحو ، وضمنه مباحث في التاريخ والأدب . وجعله أربعة أجزاء . ومنها الصبان ، وله حاشيته على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك . ومنها المطران جرمانوس فرحات ، وله بحث المطالب في الصرف والنحو ، وهو كتاب مفيد حسن التبويب . ومنها عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي ، وله معاهد التنصيص شرح فيه شواهد تلخيص المفتاح في علم المعاني والبيان ، وترجم لأصحابها وذكر طرفاً من مختار شعرهم ، وشعر غيرهم . ومنها شهاب الدين الخفاجي ، وله شفاء الغليل بما في لغة العرب من الدخيل . ومنها السيد مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس ، معجم كبير في أربعة عشر مجلداً يشرح قاموس الفيروزابادي .

وعرف من المؤرخين المحبي ، وله خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر . والمقري التلمساني ، وله نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، في أربعة مجلدات ضخمة . وحاجي خليفة ، وله كشف الظنون ، معجم لأسماء المصنفات العربية ، رتبه على الأبجدية ، وذكر فيه المصنف وغرض كتابه ، وما له من شروح ، وأصحاب هذه الشروح .

واشتهر من مؤلفي الكتب الجامعة بهاء الدين العاملي صاحب الكشكول ، فيه أدب ورياضيات ، وفلسفة وعلوم إسلامية .

عصر الانبعاث

(القرن التاسع عشر والثلث الاول من القرن العشرين)

« يبتدىء بدخول نابوليون مصر »
« ويزدهر في أواخر القرن التاسع عشر »
« ولا يزال مطّرد الازدهار »

فصول البحث وأغراضه

لمحة تاريخية

مواطن الأدب . النصارى والعربية . لبنان والانبعاث . مصر والانبعاث . الغرب والانبعاث . ميزة العصر .

الشعراء المحدثون (عصر الانبعاث)

ميزة الشعر . أغراضه ومعانيه . منزلة الشاعر المحدث . شوقي : حياته وشعره .

الكتّاب المحدثون (عصر الانبعاث)

ميزة النثر . الترسل . الشيخ ابراهيم اليازجي . التصنيف والمصنفون . الصحافيون . ولي الدين يكن . المنفلوطي . علوم اللغة . العلوم الدخيلة . الأدب والأدباء . سليمان البستاني .

لمحة تاريخية

مواطن الأدب

تنقل الشعر في القبائل والأمصار .

أراد الله أن يكون للّغة العربيّة مَواطن عدّة ، تتفيّأ ظلالها ، وتعتزّ بأكنافها ، حتى إذا رزئت بواحد تعهّدها الآخر بحمايته ، فما تذهب بذهاب هذا الموطن ، ولا تطوى في كفنه . فقد كانت في البادية لا تتنفس أبعد من الفرات أو بردى ، وكاد شعرها يقتصر على البدو دون الحضر . ولكنّه لم يضق بعطنه ، ولا تبرّم بسكنه ، بل كان يجدّد نشاطه بتنقّله في القبائل ، فما غيض ماؤه في قبيلة أو جفّ المرعى ، إلا تلقّفته أخرى ، بصدور حافلة ، ومخيّلات ثرّة ، فكان له عهد في ربيعة ، وعهد في قيس ، وعهد في تميم . وكادت نجد تستأثر به في الجاهليّة ، وتستبدّ بفحوله ، حتى جاء الإسلام فتحوّل في قرى الحجاز ، بين شعراء قريش وشعراء الأنصار . ثمّ اعتزّت دولته في الشآم ببني أميّة . فلمّا أدال الله بني العبّاس ، انفردت به العراق ، فتألّق فيها كوكبه الدرّيّ زمناً ولا كالأزمان . ثمّ عاد إلى الشآم بعد أن تقطع جسم الدّولة العبّاسيّة ، فزها حيناً ، وصار من بعد إلى مصر طوال خلافة الفاطميّين وملك الأيّوبيّين ، غير أن الأندلس كانت تجاذبها الشقّ الأكبر منه .

فلمّا تأذّن الله بعصر الانحطاط ، وجعل الملك في يد الأتراك ،

وأخرج العرب من الأندلس ، لبثت مصر والشآم موئل العربيّة المشترك حتّى دكّه العثمانيّون فأبيح عرض اللّغة ، فمكثت ردحاً لا يعصمها معقل ، ولا ينصرها ناصر . ولكنّ الله تعالى أبى إلا أن يهيّىء لها موطناً جديداً تنبعث منه حيّة فتيّة ؛ فسخّر لها لبنان . فكيف تمّ لهذا الموطن الجديد أن يحمل عبء النهضة ، ويرفع مشعل الأدب العربي في الخافقين بعد انطفائه ، وهو بلد سرياني اللّغة ، ليس له سابق عهد بلسان العرب ؟ هذا ما نحاول إيضاحه في المباحث التالية إن شاء الله .

النصارى والعربية

أثرهم في العلم والأدب . انصرافهم عن الأدب ورجوعهم إليه .

لم ينقطع النصارى يوماً عن خدمة العربيّة وتعهّد آدابها وعلومها . فقد كان لهم في الجاهليّة شعراء وخطباء مبرّزون ، أوقدوا جذوة النهضة ، واترعوا البادية بمنهلّ قرائحهم . وكان ملوكهم في الحيرة والشآم يعزّزون الشعر ، ويرفعون قدر أصحابه ، ويجزونهم أحسن جزاء .

ولما ظهر الإسلام ، واستولى بنو أميّة على الخلافة ، كانت العصبيّة العربيّة لم تزل في عهد قوّتها ، والنّاس منقسمون قبائل وأحزاباً ، والشعراء يناصرون قبائلهم وأحزابهم على اختلاف الأديان والملل . وكان للنصارى شعراء متقدّمون كالأخطل والقُطامي ، يتحاماهم فحول الشعر ، ويقرّ لهم الأدباء المسلمون بالزّعامة ، ولا يرون حرجاً في تفضيلهم على نوابغ شعرائهم . فقد كان يونس بن حبيب ، وعمرو

ابن العلاء ، وحمّاد ، وأبو عبيدة يقدّمون الأخطل تقدمة شديدة » ويجعلونه أشعر النّاس ، لا يبالون أن يكون الفاضلَ نصرانيّاً والمفضول من المسلمين . لأنّهم إنّما كانوا ينظرون إلى الشعر واللّغة » والأخطل عندهم شاعر خنذيذ، صحيح النسب العربي ، صحيح اللّغة.وفهم الأخطل روح عصره فقال : « إن العالم بالشعر لا يبالي ، وحقّ الصليب ، إذا مرّ به البيت السائر الجيّد ، أمسلمٌ قاله أم نصراني . »

على أن هذه الحال تبدّلت غيرها في العصر العبّاسي ، إذ ضعفت الأحزاب ، وضعفت العصبيّة العربيّة ، ونفذت الأعجام ، وغلبت الصبغة الدّينيّة على الخلافة . فكان الخليفة يجلس للمظالم ويقضي بالشرع معتزّاً بالإمامة والبيت النّبويّ معاً . واصطبغت اللّغة وآدابها صبغة دينيّة مقدّسة وتسمّت بلغة القرآن . فهذه الظواهر الجديدة في العنصر العربي ، ولغته ، وأدبه ومجتمعه ، جعلت قصور الخلفاء والأمراء لا تحفل بغير الشعراء المسلمين ، وجعلت الشعراء النصارى يخملون فما يذكر منهم إلا من أسلم كأبي تمّام وابن الرّوميّ .

ومعلوم أن الشعر عند العرب عدّة التكسّب ، وطريق الحظوة والشهرة ، فلمّا أصبح النصارى لا يجدون فيه ما يجده المسلمون جفوه ، وانصرفوا عنه إلى شيء آخر أجدى لهم وأنفع . ولم يُسمع لمن اتّبعه منهم ، ذكر يذكر بين الفحول من المسلمين .

وصدوف النصارى عن الشعر والأدب أورث لغتهم ضعفاً ، وبيانهم إسفافاً . ذلك بأن اللّغة العاميّة كانت قد تفشّت في الجيل العبّاسي ، لتغلب العناصر الأعجميّة ، وأصبح لسان العربي لا يستقيم إلا بالتعلّم . والعلم يومئذ يكاد ينحصر في المساجد فلا يحظى به غير المسلمين . ولو

أتيح للنصارى لما انتفعوا به ، والمسلمون كتّابهم وشعراؤهم قد احتكروا الأدب احتكاراً ، وطبعوه بطابع الإسلام .

ولئن فات النصارى في العبّاسيّين أن يرفعوا شأن اللّغة بشعرهم ونثرهم ، لم يفتهم أن يرفعوا شأنها بعلومهم . فقد كانت مدارس السريان والرّوم تخرج منهم الفلاسفة والأطباء والرّياضيّين يوم لم يكن للعرب شيء من هذه العلوم ، فلم يجد خلفاء بني العبّاس بدّاً من الاعتماد عليهم في بناء حضارتهم ، فقرّبوهم ، ورفعوا قدرهم ، وفتحوا لهم دور التّرجمة ، فنقلوا إلى العربيّة علوم اليونان والسريان ، فحفلت الخزائن بمصنّفاتهم ، واطلع عليها المسلمون فاستفادوا منها . وبيّن أنّه لولا العلوم المنقولة لما ازدهرت حضارة بني العبّاس .

وضعف اللّغة في النصارى جعل المسلمين على كرور الأيّام ، وهم مستأثرون بالآداب ، يعتقدون أن النصرانيّة والبيان العربي لا يجتمعان ، وقال قائلهم : العربيّة لا تتنصّر . حتّى إذا ضرب الدّهر من ضربه ، وعاد النصارى في القرن التاسع عشر إلى اللّغة والأدب ، وأنسوا بالشعر بعد هجرانه ، صعب على أدباء المسلمين تغيير عقيدتهم فيهم ؛ لما لها من الرّسوخ في نفوسهم ، وأبوا أن ينسبوهم إلى الفصاحة .

ومن أجل هذه العقيدة رفض الشيخ صالح التميميّ الشاعر المسلم أن يعارض خاليّة المعلّم بطرس كرامة[1] ، فاعتذر إلى داود باشا صاحب

[1] الخالية : قصيدة جميع قوافيها على لفظ الخال ، وكل لفظ له معنى يختلف عن الآخر . وأولها :
أمن خدها الورديّ أفتنك الخال فسحّ من الأجفان مدمعك الخال*

* أفتنك : أعجبك ، وولهك . وأنكرها الأصمعي بالألف . الخال الأول : الشامة . الخال الثاني : سحاب لا يخلف مطره .

العراق عن الرّدّ عليها بقوله :

عَهِدناكَ تَعفو عن مُسيءٍ تَعذّرَا ألا فاعِفُنا من رَدّ شِعرٍ تَنَصّرَا[1]

على أن هذه العقيدة ما لبثت أن زالت من نفوس المسلمين أو من نفوس أكثرهم فصاروا يعترفون للنصارى بالفضل ، وينطرون بلاءهم في النّهضة ، ولا بدع فالفضل يعرفه ذووه[2] .

١ تعذر : اعتذر عن فعله . اعفنا : اتركنا . وقوله : رد شعر أي الرد على شعر ، ولو قال نقض شعر ، لأصاب .

٢ قال محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق في كتابه خطط الشام (ج ٤ ص٧٩) « . . . وبينا كانت مدارس العلم في حلب وحماة ودمشق وطرابلس والقدس وغيرها آخذة بالأفول والاندراس ، والمسلمون أو الذين خرجوا من الأمية بعض الشيء من أهل هذه الديار يولون وجوههم قبل المناصب الدينية والإدارية والعسكرية ، كان إخوانهم المسيحيون يتعلمون في مدارس نظامية في الجملة ، جعلت تدريس العربية وآدابها ، واللغات الحية ، أول بند من منهاج الدراسة فيها . فجاء من أبنائهم ومن أخذ العلم عنهم من سائر الطوائف ، جماعات يذكرون في التاريخ بحسن بلائهم في خدمة الآداب ، وإنهاض المجتمع . ومنهم أفراد نزحوا إلى مصر وأميركا وتولوا الأعمال الكبرى ، وأظهروا آثار قرائحهم ونبوغهم ، ولا سيما في القرن التالي (القرن الرابع عشر للهجرة) . وبطلت القاعدة التي كان وضعها بعض ضعاف النظر من تقبيح نحو النصارى ، وغناء اليهود ، فأصبح بالتعلم من النصارى نحاة ثقات ، ومن اليهود مغنون ومغنيات ، بمعنى أن الزمن أبطل ذلك الزعم . » اﻫ .

لبنان والانبعاث

دخول العربية لبنان . انهزام السريانية . العصبية العربية .
بدء الحركة العلمية . المدارس . قصر الأمير بشير .

بدأت النصرانيّة تنبسط بلبنان في القرن الرّابع للمسيح ، مجاهدة أهل الشرك ، حتى قيّض لها النّجاح على أيدي الرّهبان والمتعبّدين ، وتمّت لها السيادة المطلقة ، فانهزمت أمامها الوثنيّة الجافية .

وكانت السريانيّة لغة اللبنانيّين يستعملونها في طقوسهم ، ومخاطباتهم وكتاباتهم . ولم يصر لهم عهد بالعربيّة إلا يوم اقتحم معاوية لبنان يريده فلم ينل غير سواحله فأتبعها دمشق ، وامتنعت عنه الجبال لوعورة مسالكها فارتدّ عنها . واضطرّ بعده عبد الملك بن مروان إلى أن يصالح المرَدة أو الجراجمة[1] على ألف دينار يؤدّيها إليهم في كلّ جمعة ، ليدفع معرّاتهم عن المسلمين في السواحل . وممّا لا شكّ فيه أن ارتباط الساحل الفينيقي بدمشق الأمويّة مهّد طريق الفتح للغة العربيّة . ولم يصعب عليها أن تتوقل الجبل لما بينه وبين السّاحل من الاتّصال[2] ، ثمّ لما بينها وبين السريانيّة من التّشابه والقربى. ولكنّها لبثت فيه بطيئة الانتشار ، ولا سيّما مواطن الموارنة فقد ظلّت بها السيادة للسريانيّة حتى القرن السادس عشر . ولم ترفع لغة الضّاد رأسها إلا بعد أن تقاطرت الأسر العربيّة إلى لبنان

١ اختلف في أصل المردة أو الجراجمة ، والراجح أنهم قوم من الجرجومة في جبل اللكّام ، بعثهم قسطنطين اللحياني ملك الروم إلى الشام للدفاع عنه. فاعتصموا بلبنان وقاتلوا العرب وأثخنوا فيهم. ولما تصالح ملك الروم وعبد الملك بن مروان أرجعهم إلى بلادهم وكان عددهم اثني عشر ألفاً.

٢ ذكر ابن جبير أن المسلمين المتعبدين إذا أرادوا التنسك قصدوا شعاف لبنان وانقطعوا بها إلى الله ، فيقبل عليهم النصارى ، ويأتونهم بالقوت ، ويحسنون معاملتهم .

واستوطنت فيه ، وعادت إليها أحكام اقطاعاته . وأخصّها بنو معن[1] وبنو شهاب[2] . فإن الأمير المعني فخر الدّين الثاني[3] بسط سلطانه على جميع لبنان ، وعرف بالتّساهل والحدب على النّصارى لنشأته فيهم[4] . فانتشرت الأسر المارونيّة على عهده في جميع لبنان ، وأهل بها الشوف خصوصاً ، بعد أن كادت تنحصر في الشمال . فكان امتزاج الأسر العربيّة وغير العربيّة ، واختلاطها بالسكنى والزّواج سبباً قويّاً لانهزام السريانيّة ، وانتصار لسان العرب ، وهو لغة الحكّام وأكثر أصحاب الإقطاعات . وازدادت العربيّة قوّة ومناعة في ولاية الشهابيّين بعد تنصّرهم ، وتنصّر الأمراء اللّمعيّين[5] معهم . فكان منهم في الموارنة أسر خطيرة الشأن ، عربية النجار ، لا عهد لها بالسريانيّة قطّ . ولم تكن الأسر العربيّة كلّها مسلمة ، وإنّما كان منها نصارى لجأوا إلى لبنان فراراً من الاضطهاد والعسف فأثّروا في تعريب مسيحييه .

١ بنو معن : قبيلة عربية من أيوب بن ربيعة بن نزار جاءت لبنان في القرن الثاني عشر للمسيح . ونزلت الشوف متحصنة فيه ، تريد مجاهدة الصليبيين . ولبثت تنمو ويعظم شأنها حتى القرن السابع عشر .

٢ بنو شهاب : قبيلة عربية من مخزوم ثم من قريش ، جاؤوا حوران في صدر الدولة الأموية ثم انتقلوا إلى وادي التيم وكانت بينهم وبين المعنيين مودة ومصاهرة. وانتقل إليهم الحكم في لبنان بعد بني معن سنة ١٦٩٧ م (١١٠٩ هـ) وانتهى سنة ١٨٤١ م (١٢٥٧ هـ) .

٣ كانت ولاية فخر الدين الثاني من سنة ١٥٩٨ م (١٠٠٧ هـ) إلى سنة ١٦٣٣ م (١٠٤٣هـ) وقتل في الاستانة سنة ١٦٣٥ م (١٠٤٥ هـ) وانبسط سلطانه على لبنان وبيروت وطرابلس وصيدا وصفد وبانياس وغيرها . وكان سريره في دير القمر .

٤ نشأ الأمير فخر الدين في بني الخازن بقرية بلونة بالقرب من عجلتون . وبنو الخازن أسرة مارونية معروفة .

٥ بنو اللمع : قبيلة عربية من بني الفوارس ثم من تنوخ ، كانوا دروزاً فتنصروا مقتدين بالشهابيين .

وممّا أذكى الرّوح العربي في نفوس اللّبنانيّين ، على اختلاف الملل والنحل ، تفشي سياسة الأحزاب فيهم . فإن المعنيّين والشهابيّين كانوا على رأس القيسيّة العدنانيّة . وكان بنو سَيْفا وبنو علم الدّين[1] على رأس اليمانيّة القحطانيّة . فانقسم أهل لبنان قسمين كبيرين ، وكانت بينهم فتن وحروب أعادوا بها عهد العصبيّة العربيّة القديمة .

وهكذا استعرب لبنان في مجموعه ، وتضاءلت السريانيّة متوارية عن أفواه موارنته ، مجتزئة بكتب الدّين . ولما آذن الله بنهضة الآداب العربيّة بعد انحطاطها كان للموارنة السّهم الأكبر في بعثها وإحيائها .

والحركة العلميّة قديمة في لبنان ، بدأت منذ عهد الصّليبيّين بفتح المدارس ، كما يحدّثنا الدّويهي في أخبار سنة ١١١٢ م (٥٠٦ ﻫ).وفي تواريخ الصّليبيّين ذكر لمدارس منظّمة بنوها في ممالكهم ، وجعلوا فيها أساتذة وطنيّين ، فكان بدء اختلاط اللّبنانيّين بالفرنجة حافزاً لهم على طلب العلم . ولكن أثر هذا الاختلاط كان أوضح وأبين ، بعد أن حملت فرنسة نفسها على حماية نصارى الشرق ، ولا سيّما الموارنة في لبنان . فإن لويس الرّابع عشر جعلهم في عهده ، وشملهم برعايته .

وكان من مساعي سفراء فرنسة في الاستانة أن عقدت معاهدات تجارية بين ملوك الفرنسيّين وسلاطين بني عثمان . وأجيز للرّهبان الغربيّين

١ بنو سيفا : أكراد مستعربون ، زعيمهم يوسف باشا سيفا ، استولى على اقطاعة العسافيين الترك الممتدة من طرابلس إلى البترون إلى كسروان في سنة ١٥٩٣ م (١٠٠٢ ﻫ .) بعد أن اغتال أميرهم محمد منصور عساف . وكان بنو سيفا يتعصبون اليمانية . فجرت بينهم وبين المعنيين حروب كثيرة ، حتى أخضع الأمير فخر الدين الثاني يوسف باشا وأزال سلطانه . بنو علم الدين: قبيلة يمانية درزية من أصحاب الإقطاعات .

أن يسكنوا لبنان والولايات . ثمّ عقدت معاهدات بين الدّولة العثمانيّة ودول غربيّة أخرى ، فراج التبادل التجاري ، واشتدّ اختلاط الشرقيّين بالغربيّين ، ووفدت البعثات الدّينيّة من الغرب تبني أديارها ومدارسها في الشرق ، وكان حظّ لبنان منها الأطيب .

وعني البابا غريغوريوس الثالث عشر بكهنة الموارنة عناية تذكر ، فإنّه أنشأ لهم المدرسة المارونيّة برومة في أواخر القرن السادس عشر . فأخرجت طائفة مختارة من العلماء كالبطريرك الدويهي ، والسماعنة ، والحصروني ، والحاقلاني وسواهم . وانتشر جماعة من تلاميذها في قواعد أوربة [1] يعلّمون ، ويصنّفون ، وينقلون علوم المشارقة إلى الغربيّين ، فحبّبوا إلى الأوربيّين دراسة آداب الشرق وعلومه . وحمل جماعة منهم إلى مسيحيي الشرق [2] ولا سيّما أبناء ملّتهم بلبنان ، علوم الغربيّين وآدابهم ، وأنشأوا لهم المدارس ، فأيقظوا فيهم حياة فكريّة جديدة كان لها أثر محمود فيما بعد .

١ من الذين لبثوا في أوربة السماعنة المشهورون ، وكسرجيوس الرزي ، ومرهج بن نيرون الباني ، أقاموا في رومة يخدمون الكرسي الرسولي . وأقام في باريس ابراهيم الحاقلاني ، وجبرائيل الصهيوني ، ويوحنا الحصروني . واتصل بأمراء فلورنسة بطرس مبارك الماروني اليسوعي . واشتهر في مدريد ميخائيل الغزيري . وعلم في فينا أنطون عريضة الطرابلسي .

٢ من الذين رجعوا إلى وطنهم البطاركة جرجس عميرة ، واسطفان الدويهي ، ويعقوب وسمعان عواد ، ويوسف اسطفان ، ويوسف تيان . والمطارنة يوحنا الحوشبي ، واسحق الشدراوي ، وميخائيل الحصروني ، وارميا نجيم . والكهنة اسطفان ورد ، واندراوس اسكندر ، وميخائيل فاضل البيروتي ، وبطرس التولوي وله تلمذ المطران جرمانوس فرحات في حلب .

وفي القرن الثامن عشر نُظّمت الرّهبانيّات المارونيّة ، فكان لها يد في النهضة لأنّها جعلت تعليم الأحداث وتهذيبهم في قوانينها ؛ ونشطت إلى فتح المدارس مجّاناً وإنشاء المطابع وتسهيل أسباب العلم .

هذا ، وللأمير الشهابي بشير الكبير[1] تأثير حسن في الحركة الأدبيّة ، فإنّه قرّب الشعراء والكتّاب ، وأجازهم . وكانت المناظرات بينهم تجري في حضرته ، فتستحثّ قرائحهم للنظم والنثر . ومن شعرائه بطرس كرامة ، ونقولا الترك ، والشيخ ناصيف اليازجي . وكان بينه وبين محمّد علي صاحب مصر من الصّداقة ما مكّنه من إيفاد بعثة لبنانيّة إلى قصر العيني لدراسة الطبّ .

على أن النهضة الحقيقيّة لم تلمس إلاّ بعد منتصف القرن التاسع عشر حين ظهرت المدارس الرّاقية ، وانتشرت الطباعة والصّحافة .

مصر والانبعاث

حالة مصر قبل الانبعاث . نابوليون في مصر . إنشاءاته . محمد علي . مآثره . البعثات العلمية . المدارس . الطباعة . عهد اسماعيل . النهضة المحسوسة .

كانت مصر قبل القرن التاسع عشر في شبه عزلة عن الأوربيّين ، لا تكاد تعرف شيئاً عن حضارتهم وعلومهم ، مع أنّها لم تخلُ يوماً من قناصل وتجّار أجانب . إلا أن المصريّين كانوا ينفرون منهم ولا

١ حكم من سنة ١٧٩٠ – ١٨٤٠ م (١٢٠٥ – ١٢٥٦ هـ) وجعل سريره في بيت الدين من أعمال دير القمر .

يرون خيراً في الاتّصال بهم . ولطالما اعتدوا عليهم وساموهم الخسف ، فتحتجّ دولهم عند الباب العالي فما يستطيع عملاً ، لأن القطر المصري كان على أسوإ حالة من الخمول والفوضى والاضطراب . فالجهل مخيّم على جميع الطبقات ، ضارب بأستاره المظلمة على الأذهان ، لا تستوضح في ذلك الظلام الدّامس غير نور ضئيل منبعث من الأزهر ، ينسج من خيوطه الدّقيقة للدّين علماء ، وللغة نحاة وتصريفيّين . والمماليك بيدهم أزمّة الأمور يتولّون مشيخة البلد ، ويردون إليها الإدارة والأحكام . والوالي التركي الذي تبعثه الدّولة العثمانيّة آلة بيدهم ، لا يبدي ولا يعيد إلا عن أمرهم . وهم يثقلون الشعب بالضّرائب ويختلسون أكثرها ، ويقتتلون على السيادة ، فيبطش بعضهم ببعض . فما يقوم شيخ البلد منهم إلا وله خصوم تناوئه ، وتعمل على إسقاطه ، وما يطول الأمر حتى يفتكوا به وينصبوا غيره .

ولم يكفِ مصر ما دهاها من عسف المماليك ، ومذابحهم وفتنهم ؛ حتى سُلّط عليها الطاعون ، فجاحها غير مرّة ، فكانت الجنازات تحمل بالجملة ، وربّما أوفت على الأربعين ، وتدفن بلا صلاة . ونقص سكّان القطر نقصاناً محزناً ، فكانوا لا يجاوزون ثلاثة ملايين عندما غزاهم نابوليون الأوّل .

دخل نابوليون مصر سنة ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ .) وهي على هذه الحال من الجهل والفوضى ، فأزال عنها سلطة المماليك ، فاعتصموا منه بالصّعيد . وكان القائد الفرنسي يرمي من افتتاح مصر إلى قطع طريق الهند عن انكلترة ، وإقامة قيصريّة شرقيّة ممتدّة الجوانب . فاتّخذ الإصلاح الاجتماعي والتثقيف الفكري ، طريقاً لاكتساب ثقة المصريّين ،

والوصول إلى غايته . وكان قد استصحب معه جماعة من العلماء والصنّاع المتخصّصين باللّغات والآثار والجغرافية والهندسة والبناء والكيمياء والطبيعي والرّسم والتصوير وغير ذلك . فأقاموا المعامل والمصانع والمراصد والمستشفيات والحدائق والملاهي ، واستعملوا العربات . وأنشأوا مدرستين لتعليم الفرنسيّين المولودين في مصر ، ومجمعاً علميّاً مصريّاً ، ومكتبة جامعة أباحوا النظر فيها ؛ ومطبعة حروفها عربيّة ، ولاتينيّة ، ويونانيّة ؛ سمّيت المطبعة الأهليّة ، أدارها المستشرق يوحنا يوسف مرسال . وأصدروا جريدتين فرنسيّتين إحداهما العُشاري[1] المصري (La Décade Égyptienne) والأخرى بريد مصر (Le Courrier d'Égypte) ، وجريدة عربيّة اسمها التنبيه ، تولّى إنشاءها أديب عصره إسماعيل الخشّاب . وكانت تنشر ما يجري من الأحكام في ديوان القضايا الوطنيّة . فشُده المصريّون ممّا رأوا من حضارة الفرنسيّين ، ولعبت بأذهانهم أشياء لا عهد لهم بمثلها ، فتنبّهوا أو كادوا يتنبّهون لما هم عليه من جهل وخمول .

ولم يطل لبث الفرنسيّين في مصر فقد اضطرّوا إلى الانزعاج عنها سنة ١٨٠١ م (١٢١٦ هـ .) فتركوها يتقاتل فيها الجنود العثمانيّة والمماليك .

وكان محمّد عليّ في الحملة البحريّة التي بعثها العثمانيّون لمحاربة الفرنسيّين ، وإجلائهم عن مصر . فما زال يتقدّم بجدّه ، ونشاطه ، وحسن سياسته حتّى بايعه المصريّون بالولاية سنة ١٨٠٥ م (١٢٢٠ هـ .)

[1] يقال : ثوب عشاري طوله عشرة أذرع ، والمراد هنا عشرة أيام . وكانت هذه الجريدة تصدر أسبوعياً . وكان الأسبوع في اصطلاح التقويم الجمهوري الفرنسي عشرة أيام .

ورضي الباب العالي باستعماله

وعلم محمّد علي أن لا راحة لدولته إلا بزوال دولة المماليك ، فما انفكّ يتربّص بهم حتى اغتالهم في القلعة سنة ١٨١١ م (١٢٢٦ هـ.) . وكانت نفسه الكبيرة تسمو إلى مطمع عظيم ألا وهو الاستقلال بالبلاد . ولطالما كان هذا المطمع حليف نفوس الولاة في مصر . وهي بما فيها من خصب وثروة ورجال كانت جديرة بأن تستقلّ . والاستقلال يحتاج إلى جيش منظّم ، وإدارة صالحة . ولم يفت محمّد علي فساد نظام الجيش في مصر ، وفساد إدارتها ، فصرف همّته إلى تطهيرهما وإصلاحهما. وكان قد رأى حسن تنظيم الجيوش الأوربيّة في تحارب الانكليز والفرنسيّين من أجل مصر . وشاهد ما أحدثت حملة نابوليون من إصلاح وعمران . فعقد نيّته على استعانة الفرنج في أعماله الإصلاحيّة ، فأوفد البعثات العلميّة إلى أوربة[1] وجاء منها بأساتذة متخصّصين يديرون مدارس الجيش والطبّ والصّناعات والفنون[2] ، فأصبحت مصر على اتّصال وثيق بالغرب

١ أوفد بعثة من أحداث المماليك إلى إيطالية سنة ١٨١٦ م (١٢٣٢ هـ .) لدرس الفنون العسكرية والهندسة والطباعة . وبعثة أخرى إلى إنكلترة سنة ١٨١٨ م (١٢٣٤ هـ .) لدرس الحيل (الميكانيك) ونواميس السوائل . وبعثة ثالثة إلى فرنسة سنة ١٨٢٦ م (١٢٤٢ هـ.) بإدارة المستشرق الفرنسي جومار وهي أهم البعثات ، فيها واحد وأربعون فتى تعلموا العلوم المختلفة وعادوا إلى مصر يعلمون ويديرون الدواوين، ويؤلفون ويترجمون وفيهم القواد والأطباء . وتابع البعثات في أوقات مختلفة فأتت بالفوائد الجليلة .

٢ أول عمل باشره في إصلاح الجيش أن بعث جماعة من مماليكه إلى الصعيد ليتعلموا فنون الحرب على أساتذة من الفرنج. ثم أنشأ مدرسة التجهيز في قصر العيني سنة ١٨٢٥ م (١٢٤١ هـ.) وضم إليها نحو خمسمائة غلام من غير المصريين فيهم الأتراك والأرمن واليونان والأكراد وسواهم.وجعل أكثر أساتذتهم من الإيطاليين.على أنه ما لبث أن عدل عن النظام الإيطالي إلى النظام الفرنسي فأقام في السنة نفسها مدرسة أركان الحرب في أبي زعبل من ضواحي ←

بعد أن كانت على شبه انقطاع عنه . وأحدث مدرسة مصريّة في باريس تعدّ الطلاب للتعليم العالي[1] . وما زال يستكثر من المدارس حتّى أنشأ في القطر نحو خمسين مدرسة بين ابتدائيّة وتجهيزيّة ، يعنى معظمها بالفنون الحربيّة والطبيّة والصّناعيّة ، أكثر ممّا يعنى بالعلوم والآداب . ولم يحفل محمّد علي باللّغة العربيّة لميله إلى التركية ، حتّى إنّه حاول مدّة أن يجعلها لغة التعليم والدّواوين ، فلم يوفّق في محاولته لرسوخ العربيّة في مصر . وهو وإن لم يكن له فضل يذكر على لغة العرب ، فإن فضله في النهضة الفكريّة عظيم ، ولولاه لما توثّقت صلة مصر بالغرب ، فاستفادت من علومه وفنونه وحضارته . ولم يغفل عن الطباعة والصحافة ، فقد أنشأ المطبعة الأهليّة سنة ١٨٢١ م (١٢٣٧ هـ) وهي مطبعة بولاق . وعهد في إدارتها إلى نقولا مسابكي الماروني ؛ وكان قد أتقن فنّ الطباعة في رومة . وأنشأ في سنة ١٨٢٨ م (١٢٤٤ هـ) جريدة الوقائع المصريّة باللّغة التركيّة ، ثمّ بالتركيّة والعربيّة[2] . وكانت تنشر أوامر الحكومة

القاهرة ، وعهد بإدارتها إلى أساتذة فرنسيين . وأنشأ أيضاً في أبي زعبل مدرسة طبية ومستشفى سنة ١٨٢٦ م (١٢٤٢ هـ) وعهد في إدارتهما إلى الطبيب الفرنسي الدكتور كلوت بك . وكان أساتيذها فرنسيين والتلاميذ يجهلون الفرنسية ، فاضطروا إلى توسيط التراجم بين المعلمين والمتعلمين ، فجاؤوا بهم من لبنان والمغرب ومن الأرمن .

١ كان مديرها اسطفان بك أرمني الأصل ، من طلاب البعثة الباريسية الكبرى . وكان إنشاؤها لأمرين أحدهما حاجة مصر إلى أساتذة متوفرين على تدريس العلوم العالية ، والثاني فقر اللغة العربية إلى الكتب العلمية الحديثة . فكان الطلاب المصريون يتعلمون الفرنسية فيها ثم ينتقلون إلى العلوم العالية . وبقيت هذه المدرسة حتّى سنة ١٨٤٨ م (١٢٦٥ هـ) ثم أقفلت على أثر الثورة الفرنسية .

٢ صارت الوقائع المصرية تصدر أخيراً بالعربية وحدها ، وقصرتها الحكومة على الشؤون الرسمية من قوانين ومراسيم .

والحوادث التي ينبغي أن يطلع عليها الجمهور . وتداولها جماعة من الكتّاب المعروفين كالشيخ حسن العطّار ، ورفاعة بك الطهطاوي ، وأحمد فارس الشدياق ، والشيخ محمّد عبده وغيرهم .

وخرف محمّد علي في آخر أيّامه (سنة ١٨٤٨ م. ١٢٦٥ هـ.)[١] فولي الحكم مكانه ابنه إبراهيم ، ولكنّه لم يعش بل مات في السنة نفسها . فخلفه عبّاس الأوّل ابن طوسون بن محمّد علي ، وتوفي سنة ١٨٥٣ م (١٢٧٠ هـ.) . فتولّى بعده سعيد بن محمّد علي ومات في سنة ١٨٦٢ م (١٢٧٩ هـ.) . وفي عهد هذين الأميرين تقهقرت الآداب والعلوم في مصر لأنّهما لم يترسّما خطّة السلف الصالح في تعزيزها . فغلّقت المدارس وتعطّلت المصانع ، وتقاعست عوامل النهضة . وكادت مصر تفيء إلى سابق خمولها لو لم يتداركها إسماعيل بن إبراهيم بن محمّد علي سنة ١٨٦٣ م (١٢٨٠ هـ.) فيدفعها إلى الأمام دفعة قويّة : فتجري في المضمار كالفرس الكريم لا ينثني أو يحرز الغاية . وعهد إسماعيل هو عهد النهضة المحسوسة والإصلاح الملموس . فإنّه نشر العلم بعد أن لحد ، وفتح المدارس المختلفة ونظّمها تنظيماً حسناً ، واستقدم لها مهرة الأساتذة من الغرب ، وأقام عليها نظارة المعارف[٢] تتعهّدها وتراقبها . وجعل اللّغة العربيّة أساساً للتعليم ، فرفع مستواها ، وأعاد إليها رونقها الفائت . وجدّد إرسال البعثات العلميّة إلى أوربة . وكان يشهد امتحانات التلاميذ ، ويقف للنّاجحين ويقدّم لهم الجوائز . وبسط كفّه للأدباء والمصنّفين ،

١ توفي محمد علي سنة ١٨٤٩ م (١٢٦٦ هـ) .

٢ النظارة في مصر بمعنى الوزارة .

فحثّهم على العمل والنتاج ، فألّفوا وترجموا ونشروا الكتب القديمة . ويمّم مصر في أيّامه جمهرة من الأدباء اللّبنانيّين ، فرأوا المجال رحباً لأقلامهم وذكائهم ، فشغلوا الدّواوين ، وأداروا الأحكام ، وأثاروا تيّاراً أدبيّاً بما أنشأوا من الجرائد والمجلات ، وما نقلوا وصنّفوا من المؤلّفات . وكذلك الأجانب الغربيّون هبطوا مصر وفتحوا المدارس الخاصّة ، ومعظمها مدارس البعثات الدّينيّة لمختلف مذاهب النصارى .

ويطول بنا القول إذا أردنا تعداد مآثر إسماعيل ، وما أحدث من الإصلاح والعمران . وما بنى من القصور والشّوارع ، والقناطر . وما شقّ من الترع ، وما أنشأ من المعامل والمصانع . وما أصلح من الزراعة ، وما نظم من المجالس في القضاء والنيابة . فالنهضة مدينة بكثير من الأعمال الإصلاحيّة لإسماعيل . ولكن إفراطه في السّخاء والإنفاق ، اضطرّه إلى الإكثار من الضرائب ليفي ما عليه من الدّيون للأجانب ؛ ومهّد الطّريق لتدخّل دول أوربة في شؤون الحكومة المصريّة ومراقبة دخلها وخرجها حفاظاً على أموال رعاياها ؛ وأفضى إلى خلعه عن عرش الإمارة سنة ١٨٧٩ م (١٢٩٧ هـ.[1]) وتولية ابنه توفيق . وفي ولاية توفيق حدثت الثورة العرابيّة[2] ، واحتلّ الإنكليز مصر سنة ١٨٨٢ م (١٣٠٠ هـ.) .

١ مات اسماعيل سنة ١٨٩٥ م (١٣١٣ هـ .) وهو أول من تلقب بالخديوي ، وصارت ولاية مصر بعده إرثاً في نسله من بكر إلى بكر . وكانت قبلا تنتقل في الأسرة العلوية إلى من يختاره السلطان العثماني .

٢ الثورة العرابية منسوبة إلى أحمد عرابي ، كان جندياً صغيراً ثم اعتلى إلى قيادة الجيش ثم إلى نظارة الحربية . ورأى من الخديوي توفيق إيثاراً للأتراك ، فألّب عليه الجيش. وعاونهم النواب، ورئيس النظار محمود سامي البارودي، فاضطهدوا الأتراك والشراكسة ، ←

الغرب والانبعاث

أطوار الاستشراق . أعمال المستشرقين .

لم يقتصر عمل الغربيّين في النّهضة على نقل حضارتهم وعلومهم إلى بلاد العرب ، بل كانت لهم أيدٍ مشكورة أسداها المستشرقون منهم الى العربيّة وآدابها .

والاستشراق قديم العهد ، مرّ بأطوار مختلفة حتّى صار إلى ما هو عليه الآن ، فقد عني الغربيّون بدراسة العربيّة منذ القرن العاشر للمسيح يوم كانوا في أشدّ الفقر إلى العلم والأدب ، ويوم كانت بلاد العرب تشعّ بأنوار العلوم والآداب ، وقواعد الأندلس مناور الغرب بمدارسها وجامعاتها . فكان الفرنجة يقدمون إليها من جهات مختلفة يدرسون العربيّة وعلومها ، فنشأ الطور الأوّل من الاستشراق وهو طور استفادة الأوربيّين من العرب . وأشهرهم في هذا العهد البابا سلفستروس الثاني[1] .

وازدادت مهاجرة الأوربيين إلى الأندلس في القرن الثاني عشر وتضاعف إقبالهم على دراسة العربيّة ، والنقل منها إلى لغاتهم . واشتهر

واحتقروا الفرنجة ، وغلوا أيدي المراقبين الماليين منهم ، واطرحوا سلطة الخديوي . ثم قرروا عزله واخراج أسرته من مصر وتولية محمود سامي مكانه . فأعلنت إنكلترة وفرنسة حماية الخديوي والدفاع عنه ، فثار عرابي بالجيش ، فتقدم الأسطول الإنكليزي إلى الإسكندرية ، وقذفها بالمدافع فهدم أكثر حصونها ، ثم احتلها واحتل سائر مصر . ونفى عرابي والبارودي وغيرهما من الوطنيين إلى جزيرة سرنديب وصودروا على أملاكهم . ولم يعف عنهم إلا سنة ١٩٠١ م (١٣١٩ ﻫ .)

١ مدة بابويته من سنة ٩٩٩ — ١٠٠٣ م (٣٩٠ — ٣٩٤ ﻫ .)

فيهم يومئذ جيرار الكريموني[1] فإنّه نقل إلى اللاتينيّة نحو ستّين كتاباً جليلاً للفارابي والرّازي وابن سينا وغيرهم .

وأقدم الملوك المستشرقين فريدريك الثاني قيصر ألمانيا[2] ، وألفنس العاشر[3] ملك لاون وقشتالة فقد كان لهما فضل عظيم في نشر علوم العربيّة وآدابها في أوربة .

واصطبغ الاستشراق بعد الحروب الصليبيّة صبغة دينيّة ظاهرة ، لاهتمام رومة بإخراج الدّعاة إلى الشرق . فكان الأحبار الأعظمون يحضّون الكلّيّات والمدارس على دراسة العربيّة ، فالبابا أونوريوس الرّابع[4] تقدّم بفتح مدرسة للّغة العربيّة في باريس . والبابا يوحنّا الثاني والعشرون[5] أمر قاصده بباريس أن يراقب الدّروس العربيّة في كلّيّتها . والبابا يوليوس الثاني[6] أوّل من طبع كتاباً عربيّاً . وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر أجاز الحبر الأعظم للرّهبانيّة اليسوعيّة إنشاء مدرسة ومطبعة في رومة للعربيّة والعبرانيّة . ثمّ أنشئت المدرسة المارونيّة

١ جيرار الكريموني منسوب إلى كريمونة بلدة من إيطالية ، تعلم في طليطلة ، وأتقن العربية وآدابها . ولد سنة ١١١٤ وتوفي سنة ١١٨٧ م (٥٠٨ – ٥٨٣ ﻫ) .

٢ فريدريك الثاني نودي به قيصراً على ألمانيا سنة ١٢١٢ م (٦٠٩ ﻫ .) وقاد الحملة الصليبية السادسة سنة ١٢٢٩ م (٦٢٧ ﻫ .) وتوفي سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ ﻫ .)

٣ الفنس العاشر الملقب بالحكيم امتاز بالشعر والعلوم ولا سيما علم الفلك ، قيل إنه أتى بأشهر علماء عصره من مسلمين ونصارى ويهود ، وأنزلهم في قصر جميل بطليطلة فأقاموا أربع سنوات يبحثون في المسائل الفلكية . ولد سنة ١٢٢٦ م (٦٢٣ ﻫ .) وملك سنة ١٢٥٢ م (٦٥٠ ﻫ .) وتوفي سنة ١٢٨٤ م (٦٨٣ ﻫ .)

٤ مدة بابويته من سنة ١٢٨٥ – ١٢٨٧ م (٦٨٤ – ٦٨٦ ﻫ .) .

٥ مدة بابويته من سنة ١٣١٦ – ١٣٣٤ م (٧١٦ – ٧٣٥ ﻫ) .

٦ مدة بابويته من سنة ١٥٠٣ – ١٥١٣ م (٩٠٩ – ٩١٩ ﻫ) .

فأغنى تلاميذها السماعنة مكتبة الفاتيكان بالمصنفات العربيّة .

وترسم ملوك فرنسة أحبار رومة في العناية بتدريس العربيّة ، فإن فرنسيس الأوّل استقدم اغوسطينوس جوستنياني أسقف نابيو من أعمال كورسكة ، وعهد إليه في تعليم العربيّة والعبرانيّة في رِمْس سنة ١٥١٩ ، وأحدث فيها المطابع العربيّة . ثمّ عمّ الاستشراق سائر أوربة ، وأكبّ الغربيّون على العربيّة يجنون من ثمارها اليانعة ، فكان لهم منها نعم الزّاد في إبّان نهضتهم .

وما اكتهل القرن السابع عشر حتّى خرج الاستشراق من طور الاستفادة إلى طور العلم بالشيء ، ولكنه لم يخلص من العاطفة الدّينيّة وأضاف إليها المآرب السياسيّة . وأقدم مستشرقي هذا العهد : دورد بوكوك[1] (Pocock) الإنكليزي ، ثمّ دربلو[2] (d'Herbelot) االفرنسي ، ثمّ جان جاك ريسكي[3] (Reîske) الألماني .

ونهض الاستشراق في القرن التاسع عشر نهضة عظيمة ، وتكاثر المستشرقون ، وأنشئت في قواعد آوربة المدارس ، والجمعيّات ، والمجلات الآسية تعنى جميعها بعلوم الشرق ، وتدعم سياسة الاستعمار والتوسّع التّجاري . وكان الفرنسيّون أسبق النّاس إليها، فإنّهم أنشأوا

١ رحل إلى الشرق وسكن حلب ثم علم في أكسفورد . من آثاره نشر مختصر الدول لابن العبري . ولد سنة ١٦٠٤ م (١٠١٣ هـ .) وتوفي سنة ١٦٩١ م (١١٠٣ هـ .) .

٢ عاش في أواخر القرن السابع عشر ، وله في اللغة العربية معجم في تاريخ الشرق وآدابه أشبه شيء بدائرة المعارف .

٣ نشر طائفة جليلة من كتب العرب ، ونقلها إلى اللاتينية ، وحشاها ، كمقامات الحريري ، وتاريخ أبي الفداء ، ومعلقة طرفة . ولد سنة ١٧١٦ م (١١٢٩ هـ .) وتوفي سنة ١٧٧٤م (١١٨٨ هـ .) .

في باريس مدرسة اللّغات الشرقيّة سنة ١٧٩٥ م (١٢١٠ هـ.) . وإليها يرجع الفضل في إخراج طائفة جليلة من علماء المشرقيات على اختلاف أجناسهم . وعلى مثالها أنشأت الدّول الأوربيّة المدارس الشرقيّة في حواضرها . وأنشأ الفرنسيّون الجمعيّة الآسيّة سنة ١٨٢٢ م (١٢٣٨ هـ.) وأخرجوا سنة ١٨٢٢ م (١٢٣٨ هـ.) مجلّة لها تنشر أعمالها . واقتفى الانكليز أثرهم ،فنظموا الجمعيّة الآسيّة الملكيّة سنة ١٨٢٣ م (١٢٣٩هـ.)ثمّ أنشأوا مجلّة باسمها.وكذلك صنع الألمانيّون سنة ١٨٤٤ م (١٢٦٠ هـ.).

وفضل المستشرقين في النهضة قائم على ما يطبعون وينشرون من المخطوطات القديمة ، وما يصحّحون منها بمقابلة نسخ الأصول بعضها ببعض ، وما يضعون لها من الفهارس الشاملة، والحواشي والمقدّمات المفيدة . وهم في التحقيقات التاريخيّة سادة الحلبة لا يضطلع بهذا العبء أحد مثلهم . ولطالما كابدوا الأسفار الشاقّة والنفقات الباهظة ليظفروا بنسخ مخطوطة نادرة، او ليكشفوا عن الآثار الدفينة ،ولا حافز لهم إلا الشغف الخالص بالتحقيق العلمي.

ومن محامدهم عقد المؤتمرات الشرقيّة في مدائن أوربة ، يأتون إليها على شحط الدّيار ، واختلاف الأمصار ، وربّما دعوا إليها علماء العرب . وأقدم هذه المؤتمرات عقد في باريس سنة ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ.) ثمّ تعاقبت المؤتمرات بعده في مختلف الحواضر والعواصم .

وللمستشرقين أبحاث أدبيّة في الشعر والشعراء ، والكتابة والكتّاب ، ولكنّها غير دقيقة في الجملة ، لعجمتهم ، وضعف الرّوح العربي فيهم ، وقلّة خبرتهم بمذاهب الكلام عند العرب.وليس لهم براعة في الإنشاء ولا انقاد لهم سحر البيان فيكون لما كتبوه في العربيّة منزلة أدبيّة مذكورة . غير أنّهم اعتمدوا في الأغلب على لغاتهم، فأفادوا من حيث تأتت لهم الإفادة.

ميزة العصر

الأحوال السياسية . الفتن في لبنان . عهد المتصرفين . مهاجرة اللبنانيين . عهد الانتداب الفرنسي . حالة مصر والبلاد العربية . امتزاج الحضارة الشرقية بالحضارة الغربية . المدارس . الطباعة . الصحافة . الجمعيات العلمية . الأحزاب السياسية . النقابات . المكاتب . النهضة النسائية . النهضة القومية .

يصطبغ هذا العصر بألوان شتّى من الحوادث والسياسات والأخلاق والعادات ، كما يصطبغ بألوان شتّى من العلوم والفنون والحضارة والعمران . فقد مرّت أحوال كانت فيها البلاد تضطرب بين الفتن والمذابح والثورات والحروب . ومرّت أحوال كانت فيها البلاد راتعة في رغد من العيش ، وراحة وطمأنينة وأمن . فعهد الامير بشير كان غاصّاً بالقلاقل والفتن والحروب . ثمّ جاء بعد الشهابيّين عهد غاص فيه لبنان بالدّم المراق في المجازر الطائفيّة ، يؤرّث نارها عمّال الأتراك لإضعاف الشعب العربي وتفريقه ، وتستغلّها الدّول الأوربيّة فتنفرد كلّ دولة منها بطائفة تبني عليها نفوذها وسياستها .

ثمّ كان عهد المتصرّفين فخفّت به القلاقل ، وسادت الطمأنينة لبنان إذ تكافلت على حمايته وتعهد طوائفه دول سبع . ولكن ضيق العيش في بقعته الجلموديّة حمل أبناءه على الارتحال عنه ، فانحدر منهم فريق إلى بيروت ، وهاجر فريق إلى مصر ، وآخر إلى أوربة . ثمّ ولّت جماعتهم وجهها أميركة ، فأحدثوا في كلّ بلد حلّوه حركة علميّة أدبيّة ، بدت آثارها في صحفهم ومدارسهم وجمعيّاتهم ومصنّفاتهم .

ثمّ كان الانتداب الفرنسي ، وأصبحت بيروت عاصمة لبنان ،

فهبطها اللبنانيّون قضّهم وقضيضهم ، واستأثرت على الأخصّ بجماعة المثقّفين منهم ، فجعلوها عكاظ القرن العشرين ، ولم يخل لبنان في عهد الانتداب من فتن وقلاقل ، وضيق اقتصادي .

ولم يكن حظّ سورية في زمن العثمانيّين أحسن من حظّ لبنان ، فقد لقيت شيئاً عسيراً من استبداد الولاة ، واضطهادهم للأحرار ، ولم يرفّه عنها عهد الانتداب ، وما استقامت لها سياسة فيه ، ولا سلمت من الثورات والفتن .

وكذلك مصر لم يهدأ لها هادىء ، فمن حرب المماليك والفرنسيّين إلى حروب محمّد عليّ وابنه إبراهيم ، إلى الثورة العرابيّة ، إلى الاحتلال الانكليزي ، وما حدث في ظلّه من فتن حتّى نالت مصر دستورها سنة ١٩٢٢ م (١٣٤١ هـ.) .

والبلاد العربيّة على الإجمال تداولتها الأحداث والغير ، فكانت تضطرب بين الشدّة واللّين ، والضّيق والرّخاء ، حتّى استقلّت أخيراً وزالت عنها الحمايات والانتدابات . ومع هذا ، فالنهضة كانت تسير سيراً حثيثاً في طريق الكمال ، ولا سيّما بعد منتصف القرن التاسع عشر حيث توافرت لها الأسباب والعوامل ، فمن امتزاج قويّ بين الحضارة الشرقيّة والحضارة الغربيّة ، إلى مدارس راقية وطنيّة[1]

١ المدارس الوطنية قديمة في لبنان أنشأها الرهبان اللبنانيون وكثرت منذ القرن الثامن عشر ، ولكنها لم تكن منظمة ، أشهرها يومئذ عين ورقة ، وكانت ديراً فأحيلت مدرسة سنة ١٧٨٩ م (١٢٠٤ هـ .) ولم تنتظم شؤونها وينهض تعليمها إلا في الربع الثاني من القرن التاسع عشر . وفتحت في القرن التاسع عشر مدارس جديدة كمار عبدا هرهريا أنشأها الرهبان الموارنة بين كسروان والفتوح سنة ١٨٣٠ م (١٢٤٦ هـ .) والبلمند أنشأها الأرشمندريت أثناسيوس قصير قرب طرابلس لأحداث الطائفة الأرثوذكسية. وأول مدرسة بينة الرقي ←

وأجنبيّة[1]. إلى طباعة[2] انتشرت وعمّت وتقدّم فنّها، ولا تزال تطرد السير

المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني ، أنشأها في بيروت سنة ١٨٦٣ م (١٢٨٠ هـ .) ثم المدرسة البطريركية للروم الملكيين ، ومدرسة الثلاثة الأقمار للروم الأرثوذكس سنة ١٨٦٥ م (١٢٨٢ هـ .) ثم المدرسة الوطنية الإسرائيلية سنة ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ .) فمدرسة الحكمة المارونية سنة ١٨٧٦ م (١٢٩٣ هـ .) وتعددت المدارس الوطنية في القرن العشرين ومنها مدارس الإناث . ونظمت الحكومة اللبنانية معارفها بعد الحرب العامة الأولى، وفتحت المدارس في المدن والقرى ومنها دار المعلمين ودار المعلمات ومدرسة الصنائع والجامعة اللبنانية وسواها في بيروت . ولم تقتصر المدارس على لبنان وحده بل كان لسورية منها حظ حسن ، وتاج مدارسها الجامعة السورية في دمشق ، وفيها المجمع العلمي العربي ، وكليات الطب والحقوق والآداب . وكذلك مدارس العراق أخذت تنهض منذ عهد الملك فيصل . أما مصر فقد أتينا على ذكر مدارسها الوطنية في زمن محمد علي وحفيده اسماعيل، وأرقى المدارس التي أنشأها اسماعيل دار العلوم، وفيها كان للعربية شأن كبير . وفي سنة ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ .) أنشئت الجامعة المصرية . وكانت مدرسة الطب في مصر تعتمد على اللغة العربية، فجعل التعليم فيها بالإنكليزية منذ سنة ١٨٩٨ م (١٣١٦ هـ.) وللأزهر يد على النهضة فإن طلابه هم الذين كانوا يرسلون في البعثات العلمية إلى أوربة .

١ المدارس الأجنبية ظهر رقيها بلبنان في مدرسة عينطورة سنة ١٨٣٤ م (١٢٥٠ هـ .) عندما انتقلت من يد الآباء اليسوعيين إلى يد الآباء العازاريين ، وصارت تعلم الآداب العربية . ثم بدأت تظهر في بيروت والجبل مدارس المرسلين الأميركيين ، وتزاحمها في الوقت نفسه مدارس الرهبان اليسوعيين، وتم عملهم العظيم بإنشاء كليتين راقيتين هما مفخرة بيروت في العالم المتمدن ، وتسميان اليوم جامعتين . فالكلية الأميركية أنشئت سنة ١٨٦٦ م (١٢٨٣ هـ .) وبدأت تمنح تلاميذها الإجازات العلمية سنة ١٨٧٠ م (١٢٨٧ هـ .) ثم صارت في طريق الكمال ، وانقسمت إلى فروع منها العلمي والطبي والأدبي والتجاري والاستعدادي ، وفيها المرصد الفلكي . وأنشئت الكلية اليسوعية سنة ١٨٧٤ م (١٢٩١هـ.) وفروعها الهندسة والطب والحقوق والفلسفة وعلم الكلام ، والآداب الشرقية . وفي أواخر القرن التاسع عشر انتشرت المدارس الأجنبية في بيروت ولبنان للصبيان والبنات ولا سيما مدارس إخوة المدارس المسيحية ، وإخوة مريم ، والراهبات، ثم أنشأ الفرنسيون مدرسة الآداب العليا وكذلك كان انتشارها في سورية، وأقدمها مدرسة الرهبانية الفرنسيسية ←

بنجاح ، وخصوصاً في القاهرة وبيروت . إلى صحافة نمت نمواً سريعاً بفضل المتوفرين على إنشائها. إلى جمعيات علمية وخيرية[1] ، وأحزاب

التي جاءت حلب في أواخر القرن السادس عشر ، ولم تلبث أن فتحت مدرسة بلغت من الرقي أن صارت تعلم عدة لغات بينها العربية ، وطرفاً صالحاً من العلوم والفنون . وانتشرت في مصر المدارس الأجنبية من عهد اسماعيل ، وأكثرها للفرنسيين ثم للإنكليز .

٢ أقدم مطبعة ظهرت في لبنان مطبعة قزحيا أنشأها الرهبان الموارنة سنة ١٦١٠ م (١٠١٩ هـ.) وكانت تطبع الكتب العربية بالحرف السرياني . وأول مطبعة عربية في لبنان مطبعة مار يوحنا الصابغ في الشوير للروم الملكيين أنشئت سنة ١٧٣٢ م (١١٤٥ هـ .) ثم مطبعة القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس أنشئت في بيروت سنة ١٧٥٣ م (١١٦٧ هـ .) وهذه المطابع كانت مطبوعاتها قليلة وأكثرها دينية . حتى كانت سنة ١٨٣٤ م (١٢٥٠ هـ) فنهضت المطابع العربية في بيروت بظهور المطبعة الأميركية ثم المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٤٨ م (١٢٦٥ هـ .) والمطبعة اللبنانية أنشأها داود باشا متصرف لبنان سنة ١٨٦٣ م (١٢٨٠ هـ .) وكانت بدير القمر . ومطبعة المعارف سنة ١٨٦٧ م (١٢٨٤ هـ .) للمعلم بطرس البستاني وخليل سركيس . والمطبعة الأدبية سنة ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ .) لخليل سركيس . وأقدم مطبعة عربية في الشرق أنشئت بحلب سنة ١٦٩٨ م (١١١٠ هـ .) أنشأها البطريرك أثناسيوس الرابع، وهو بطريرك من أسرة الدباس تقلب مراراً بين الأرثوذكسية والكاثوليكية الملكية (راجع المشرق ٣ [١٩٠٠] ص ٣٥٧ ، حاشية ٣) . وقد أتينا على تاريخ الطباعة في مصر ، وكان انتشارها منذ عهد اسماعيل بانتشار الصحف. وأول مطبعة أهلية المطبعة القبطية أنشأها الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط سنة ١٨٦٠ م (١٢٧٧ هـ .) ثم مطبعة وادي النيل سنة ١٨٦٦ م (١٢٨٣ هـ .) وزاد انتشار المطابع في القرن العشرين ولا سيما بعد الحرب الكبرى، فكان منه فيض في بيروت والقاهرة ثم انتشر في سورية والعراق وفلسطين .

١ أول جمعية علمية في بيروت سعى لإنشائها المرسلون الأميركيون ، فظهرت سنة ١٨٤٧ م (١٢٦٤ هـ .) وغايتها نشر العلوم وتنشيط الفنون ، أعضاؤها منهم وطنيون كالمعلم بطرس البستاني ، والشيخ ناصيف اليازجي ، ومنهم أميركيون كالدكتور عالي سميث والدكتور فانديك . وأول مجمع علمي في مصر أنشأه نابوليون بونابرت سنة ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ.) وسبقت حكومة دمشق إلى إنشاء المجمع العلمي العربي سنة ١٩٢٣ م←

سياسيّة ، ونقابات . إلى مكاتب في حواضر الشرق والغرب حافلة بطوائف الكتب والمخطوطات العربيّة . إلى نهضة نسائيّة محمودة أخرجت فتيات حسنت ثقافتهن ، فكان منهن صحافيات ومؤلّفات ومعلّمات ومحاميات وقوابل وطبيبات . وكان مسيحيو لبنان وسورية ، ولا سيّما الموارنة ، أسبق الناس إلى إضاءة مشعل النّهضة ، لرقيّ مدارسهم وتقدّم عهدها ، ثمّ لسهولة امتزاجهم بالغربيّين . فساروا بها شوطاً بعيداً منفردين حتّى تنبّه المسلمون في أواخر القرن التاسع عشر . وكان المصريّون أسرعهم إلى اطّراح الغفلة لفرة دواعي النهضة عندهم ، وخصوصاً في زمن إسماعيل . ونشط بعدهم مسلمو بيروت ودمشق وحلب فأنشأوا المدارس [1]، وأقبلوا بأولادهم إلى معاهد النصارى ، يثقفونهم ثقافة حديثة راقية . وصدفوا عن المدارس الأميريّة [2] وقد رأوا أنّها لا تنشىء إلا رجالاً

(١٣٤٢ هـ .) وتلتها حكومة لبنان فأنشأت المجمع العلمي اللبناني سنة ١٩٢٨ م (١٣٤٧هـ) وكان عمره قصيراً . وأما حكومة مصر فلم تنشىء مجمعها اللغوي إلا سنة ١٩٣٤ م (١٣٥٣ هـ .) .

١ نشأت جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت سنة ١٨٨٠ م (١٢٩٨ هـ .) وفتحت المدارس للصبيان والبنات ، ونهضت بها نهضة حسنة في الثلث الأول من القرن العشرين . وأنشأ الشيخ أحمد عباس الأزهري المدرسة العثمانية سنة ١٨٩٥ م (١٣١٣ هـ .) وعرفت بعد الحرب الأولى بالكلية الإسلامية . وأنشئت في دمشق جمعية المقاصد الخيرية سنة١٨٧٨م (١٢٩٥ — ١٢٩٦ هـ .) وسعت في تأسيس المدارس . وكذلك فتحت المدارس في حلب وسواها من المدن السورية .

٢ فتحت الحكومة العثمانية المكتب الإعدادي للمسلمين في بيروت سنة ١٨٩١ م (١٣٠٩هـ.) ثم أنشأت المدرسة الرشيدية العسكرية . وأول مدرسة أميرية في حلب ، المنصورية أنشئت سنة ١٨٦١ م (١٢٧٨ هـ .) وفتح مدحت باشا في دمشق سنة ١٨٧٨ م (١٢٩٥ هـ .) ثماني مدارس ابتدائية للذكور والإناث ، ودار صنائع .

مستتركين في بيانهم ، رجال سيف وإدارة ، لا رجال علم وثقافة .

ومن آثار النهضة في الأمم العربيّة نزوعهم القوي إلى الاستقلال ، وطلب المجد المفقود ، ونقمتهم على الظلم والاستعباد . فكانت لهم من أجل ذلك ثورات بالسيوف دامية ، وثورات بالأقلام حامية . فلقوا من الضغط والتنكيل شيئاً كثيراً ، فنفروا ينشدون الحريّة في أوربة وأميركة . ونشروا صحفهم للدّفاع عن حقوقهم ، ودفع الظلم والظالمين ، فألفوا بالاغتراب انطلاقاً من القيود الثقيلة التي كُبّلت بها حريّة التفكير . وكانت مصر بعد الاحتلال الانكليزي أرحب سماء للانعتاق الفكري ، فقصد إليها جماعات الكتّاب والأدباء من لبنانيّين وسوريّين وعراقيّين ، فوجدوا فيها مجالاً واسعاً لآرائهم وانتقاداتهم . فحملوا على أسواء الحكم الحميدي[1] ونادوا بإصلاحه ، وشدوا باسم الدّستور ، حتى أعطوه سنة ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ) فنعشت حريّة القول والعمل مدّة ، ثمّ خاصمها الاتّحاديّون ، وأجهز عليها جمال السفاح في الحرب العامّة ، فلم ينبض لها عرق إلا بعد أن تقلّص ظلّ الترك عن البلاد العربيّة .

١ الحكم الحميدي : نسبة إلى السلطان عبد الحميد الثاني استخلف سنة ١٨٧٦ م (١٢٩٣ هـ) وخلع سنة ١٩٠٩ م (١٣٢٧ هـ) وتوفي سنة ١٩١٨ م (١٣٣٧ هـ) .

الشعراء المحدثون

عصر الانبعاث

ميزة الشعر

ضعفه وإسفافه أول النهضة . ارتفاع لغته مع التقليد . الشعر المطبوع والشعر المصنوع . الشيخ ناصيف اليازجي . محمود سامي البارودي . التجديد . مواطنه . الشعراء المخضرمون . جديدهم وقديمهم . خليل مطران . شوقي . المجددون بعد الحرب الكبرى . الخلاف بينهم وبين المحافظين . محاسنهم ومساوئهم .

بدأ الشعر يتطوّر بتطوّر حضارة العصر، ويتقدّم بتقدّم العلوم والفنون. وكان في صدر القرن التاسع عشر ضعيف اللّغة، بيّن الإسفاف ، لا يختلف بميزته عن شعر عهد الانحطاط لاتصاله به، ثمّ لأن بواعث النهضة لم تكن اتفرت بعد، ولا ظهرت لها نتائج . وأشعر النّاس في هذه الحقبة نقولا التّرك[1]

[1] ولد نقولا التّرك في دير القمر سنة ١٧٦٣ م (١١٧٧ هـ .) من أسرة تعرف بالتّرك . واتصل بالأمير بشير الشهابي الكبير ، وتوفي سنة ١٨٢٨ م (١٢٤٤ هـ .) وله ديوان مطبوع . ومن شعره قوله من موشح يصف به طرابلس وأهلها :

بأبي عهد التّهاني والصفا، زمن مر بطرّابُلُسِ
يا هنا عيش رغيد سلفا، لي بذاك المعلم المؤتنس (كذا)

* * *

حبذا الفيحاء أهنا كل ناد، والحمى المعمور، والركن الحصين! ←

وبطرس كرامة[1] في لبنان ، والسيّد عليّ الدّرَوْيش في مصر[2] .

وما انتصف القرن الفائت حتّى أخذت بروق النهضة تلتمع ، فارتفعت لغة الشعر ، وانجلت ديباجته ، واستحكم نظمه ، وتوثّق

كتب السعد عليها يا عباد : أدخلوها بسلام آمنين
بلدة طيبة ، خير البلاد ، والمقام المشتهى للناظرين
أهلها قوم لطاف ظرفا ، نعم أمجاد كرام الأنفس (-كذا)
ما بهم عيب سوى حسن الوفا ، والخلوص المنتقّى عن دنس

١ ولد بطرس كرامة في حمص سنة ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ .) وجاء لبنان واتصل بالأمير بشير . وكانت وفاته سنة ١٨٥١ م (١٢٦٨ هـ .) وله شعر كثير طبع بعضه في ديوان كبير . ومنه قوله يصف ينبوع الصفا وتجرية مائه إلى بيت الدين على عهد الأمير بشير :

صاح قد وافى الصفا يروي الظما ، بشراب كوثري ألعس (كذا)
وأفاض الشهد في روض الحمى ، بجلا الغم ، وبرء الأنفس

* * *

حبذا الفوّار منه حين راقْ ، فأرانا ماؤهُ ذوب اللجين
نزه القلب عن الهم ، وراق ، بسنا صافي صفاه ، كل عين
نثر الدر بفيض واندفاق ، وسقى الوارد أهنا الأطيبين
قد جرى عذباً ، فأغنى الندما ، بزلال ، عن رحيق الأكؤس
وعلى الأغصان أبقى النعما ، فزهت مثل ندامى العرس

٢ نشأ السيد علي الدرويش في القاهرة ، واتصل بالأمير عباس الأول صاحب مصر . وتوفي سنة ١٨٥٣ م (١٢٧٠ هـ .) وله ديوان جمعه أحد تلاميذه ، وسماه الإشعار بحميد الأشعار ، مطبوع على الحجر . ومن شعره قوله يصف قصراً :

وقصر كالسماء به نجوم ، مطالعها السعادة ، والبدور
على أقطاره تبكي عيون ، إذا ابتسمت لوارده زهور (كذا)
فليس لوافد وافاه ، نهر ، وقد نفدت لمدحته البحور
وحسبك روضه في كل مجد ، وفضل بالبنان له يشير
تقاصر عن سناه ذو ثناه ، وحسن القصر ما فيه قصور

بنيانه . إلاّ أنّه لم يكن ذا حظّ من الابتكار والتجدّد ، لأنّ أصحابه تلمذوا للشعراء المتقدّمين ، وتثقّفوا بلغتهم وأساليبهم وأغراضهم ، فرأوا الخير في محاكاتهم والتشبّه بهم ، فاحتذوا مثالهم في الاستهلال بالغزل ثمّ التخلّص إلى المدح ؛ ووصفوا مثلهم الطلول والإبل ، وذكروا أماكن الأعراب في البادية ؛ وشاركوهم في استعاراتهم وتشابيههم ، وعارضوهم في منظوماتهم متوكئين على معانيهم وألفاظهم ، فجاء شعرهم مصطبغاً بألوان العصور الخالية ، ليس له من صبغة عصره إلا لون ناصل .

وفي الأدب القديم صورتان متباينتان : صورة الشعر المطبوع ، وصورة الشعر المصنوع . فاضطرب الشعراء بين هاتين الصّورتين ، وتعلّقوا بأهدابهما[1] من النّاحيتين . فتارة يُرسلون الشعر على سَجيّته ، وتارة يوشّون لفظه ويزيّنون . غير أنّهم كانوا أميَل إلى الصنعة منهم إلى الطبع لسهولة الأخذ بها على من فاته توليد المعاني وابتكارها ، ثمّ لقرب عهدهم بأصحابها في عصر الانحطاط . وقد كان لهم الحريري يومئذ منارة وهدى ، وأستاذاً أكبر . وزعيم هذه الطبقة من شعراء النهضة الشيخ ناصيف اليازجي[2] وشعره خير مثال لانبعاث اللّغة ،

١ من جملة صناعتهم التأريخ الشعري ، فقد كان له حظ كبير عندهم .

٢ الشيخ ناصيف اليازجي ولد في كفرشيما من قرى لبنان سنة ١٨٠٠ م (١٢١٥ هـ .) واتصل بالأمير بشير الشهابي وكتب له ، ولزمه حتى نفي الأمير سنة ١٨٤٠ م (١٢٥٦هـ) فانحدر ناصيف إلى بيروت ، وفيها ظهرت مصنفاته المتعددة ، في الشعر واللغة ، فكانت هداية للطلاب في مدارس النصارى . وكانت وفاته سنة ١٨٧١ م (١٢٨٨ هـ .) ومن شعره قوله في مدح أسعد باشا القائد العثماني :

بناء العلى بين القنا والبوارق،   على صهوات الخيل تحت البيارق

ولله سر في العباد ، وإنما   قليل محل السر بين الخلائق ←

وللتّقليد الحائر بين المطبوع والمصنوع .

على أنّ هذا الشعر الحائر لم يلبث أن هداه الطريق السويّ شاعر فارس نبغ في الرّبع الأخير من القرن الماضي ، ألا وهو محمود سامي البارودي[1] . فإنّه رغب عن الصناعة اللفظية ، فجرى شعره مع الطبع ؛ غير أنّ حظّه من الابتكار لم يكن أحسن من حظّ أصحابه ؛ فقد ترسم في أغراضه ومعانيه ، وفحولة لفظه ، أبا فراس ، والمتنبي ، والشريف الرّضي ، والطُّغْرائي ، فجاء صورة عنهم ، بيد أنّها صورة بيّنة

يقلب هذا الدهر أحوالنا ، كما تقلب فينا لاحقاً إثر سابق

ومنها :

أقام السرايا ينفر الموج خيلها بكل لواء ، فوق لبنان ، خافق

بحار على وجه البحار زواخر ، جبال على متن الجبال الشواهق

1 هو محمود سامي باشا البارودي ولد في القاهرة سنة ١٨٣٩ م (١٢٥٥ هـ) . وكان قائداً في الحملة المصرية التي حاربت مع الدولة العثمانية في ثورة البلقان واقريطش فأبلى أحسن البلاء . وما زال يتقلب في المناصب الرفيعة حتى ولي نظارة الجهاد ، ثم رئاسة مجلس النظار . وقبض عليه بعد الثورة العرابية في جملة زعماء الثوار ونفي معهم إلى جزيرة سرنديب « سيلان » وفيها نظم روائع شعره . ولبث في المنفى سبع عشرة سنة حتى عفي عنه ، وكان قد كف بصره فعاد إلى مصر وأقام بها ومات سنة ١٩٠٤ م (١٣٢٢ هـ) وله ديوان شعر في جزئين طبع بمصر . ومن شعره في منفاه قوله :

ولما وقفنا للوداع وأسبلت مدامعنا فوق الترائب كالمزن

أهبت بصبري أن يعود فبزني وناديت حلمي أن يثوب فلم يغن

وما هي إلا خطرة ثم أقلعت بنا عن شطوط الحي أجنحة السفن

فكم مهجة من زفرة الوجد في لظى وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن

وما كنت جربت النوى قبل هذه فلما دهتني كدت أقضي من الحزن

ولكنني راجعت حلمي وردني إلى الحزم رأي لا يحوم على أفن

ولولا بنيات وشيب عواطل لما قرعت نفسي على فائت سني

الشخصيّة ، وإن تكن مستعارة واضحة التقليد .

فشعراء القرن الماضي كانوا على الإجمال محافظين كلّ الحفاظ على القديم ، لا يعنيهم اختراع أو تجديد ، وإنّما همّهم في تحدّي أسلافهم ، والاستمداد من آثارهم . إلا الذين عرفوا الثقافة الأجنبيّة ، وتأدّبوا بأدب الغرب فقد كان لهم بعض الحظّ من الجديد ، وهم قلّة لا يكاد يذكر منهم إلا نجيب الحدّاد[1] .

وكان الجديد أوضح في شعر الذين تخضرموا وأدركوا حضارة القرن العشرين ، واتّصلوا بآداب الغربيّين ،ولا سيّما اللّبنانيّون فإنّهم على الغالب أقرب من غيرهم إلى التجديد والتغرّب . ويتلوهم المصريّون ، ثمّ البغداديّون ، فالسوريّون ، فأهل النجف . وتختلف درجات التجديد

١ نجيب الحداد هو سبط الشيخ ناصيف اليازجي ، ولد في بيروت سنة ١٨٦٧ م (١٢٨٤هـ.) وقدم مصر وهو في حدود العشرين ، واشتغل بالصحافة والقصص التمثيلية . وكان شاعراً مجيداً وله في الشعر أغراض جديدة كوصف القمار ووصف حريق سوق الشفقة في باريس وغير ذلك . توفي مصدوراً في مصر سنة ١٨٩٩ م (١٣١٧ هـ .) قال في القمار :

قد اختصروا التجارة من قريب ... فعدم في الدقيقة أو يسار
كأن وجوههم ندماً وحزناً ... كساها لون صفرته النضار
فبينا تبصر الوجنات ورداً ... إذا هي في خسارتهم بهار
عصائب لا يود المرء فيها ... أخاه ، ولا يراعي الجار جار
يلاحظ بعضهم بعضاً بعين ... يكاد يضيء أسودها الشرار
فكم غضبوا على الأيام ظلماً ... وكم حنقوا على الدنيا وثاروا
وكم تركوا النساء تبيت تشكو ... وتسعدها الأصيبية الصغار
تبيت على الطوى ترجو وتخشى ... يؤرقها السهاد والانتظار
فبئست عيشة الزوجات: حزن، ... وتسهيد ، وهجر ، وافتقار
وبئست خلة الفتيان : هم ، ... وأتعاب ، وخسران ، وعار !

في قطر واحد ، أو في قطر وآخر ، باختلاف الثقافة والبيئة . فالمجدّدون من النصارى أعرق من المجدّدين المسلمين ، وشعراء العواصم التي تعدّدت فيها المدارس الأجنبيّة ، وشملتها الحضارة الغربيّة ، أبعد عن القديم من شعراء المدن المستمسكة بتقاليدها وعلومها المأثورة . ومن هنا كان الجديد أوضح في لبنان ثمّ في مصر .

هذا وإن الشعراء المخضرمين على الإطلاق ما تأتى لهم أن يتخلّصوا من قديمهم وإن اشتدّت رغبة بعضهم في محاكاة الغربيّين . فخليل مطران[1] شيخ المجدّدين في عصرنا ، ران القديم على ناحية جليلة من شعره ، ولم ينظمه كلفاً به ، وإنّما مراعاة للمحافظين ، أو تودّداً إلى النّاس في أفراحهم وأحزانهم . وكذلك أحمد شوقي ، على سموّ قدره في دولة الشعر ، كان الجديد عنده أقلّ حظّاً من القديم . غير أنّه نشأ في لبنان بعد الحرب الكبرى المتقدّمة جيل من الشعراء تثقّفوا ثقافة أجنبيّة صالحة ، وتمكّنوا من نظم الشعر في العربيّة ، فحاولوا نبذ القديم واطّراحه ، وجعل الأدب العربي صورة عن الأدب الغربي

١ شاعر لبناني ، هبط مصر في أواخر القرن الماضي وأقام بها ، ويعد في مقدمة شعراء الطبقة الأولى » وزعيم المجددين » إلا أنه أفسد شعره بما أدخل عليه من أغراض مبتذلة كان يتكلف نظمها » إرضاء للناس . طبع الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٦ م (١٣٢٤ هـ .) ومن روائعه النيرونية ، والأسد الباكي ، والتمثال ، والمساء . قال يصف غروب الشمس في قصيدة المساء :

والشمس في شفق يسيل نضاره ... فوق العقيق على ذرى سوداء
مرت خلال غمامتين تحدراً ... وتقطرت كالدمعة الحمراء
فكأن آخر دمعة للكون قد ... مزجت بآخر أدمعي لرثائي
وكأنني آنست يومي زائلا ... فرأيت في المرآة كيف مسائي

في أغراضه وألوانه . فما استاغته جمهرة النّاس ، وتنكّر له المحافظون ، فشنعوا عليه وازدروه . فقامت المجدّدة الغالية تطعن في المحافظين ، وتتنقّص أدبهم ، وتسخر من جمودهم وتقليدهم . فكانت حرب سِجَال بين دعاة الحديث وأصحاب القديم ، لا يزال حرّها يصلى إلى اليوم . وكلا الخصمين مُحِقّ في بعض ما يدّعيه ، جائر في بعضه الآخر . فالمحافظون لم يظلِموا هؤلاء المجدّدين لما رموهم بضعف الصياغة ، والسعي في طلب الألفاظ ، وغموض المعنى ، وتحدّي الشعراء الغربيّين . فصياغة الجيل الذين نشأوا بعد الحرب العالمية الأولى أضعف على الإجمال من صياغة المخضرمين . وفيهم ولع جنونيّ بتصيّد الألفاظ الموسيقيّة البرّاقة ليلوّنوا بها صورهم الغربيّة ، لا يستثنون من ذلك عنوان القصيدة . وغموض المعنى في شعرهم ناتج عن إغرابهم في اختيـــار الألفاظ ، وإفراطهم في الاعتماد على صور من التشابيه والاستعارات الشاذّة ، يُزْجيها خيال طليق جامح لا يقترن بالذّهن . وأساليبهم الشعريّة ، وصورهم الخياليّة ، وأغراضهم ومعانيهم ، مصطبغة بألوان الأدب الفرنجي كلّ الاصطباغ . وربّما غزوا التوراة ، تشبّهاً بشعراء الفرنجة ، واغتنموا منها مادّة لمنظومهم ،أو أغاروا على الخرافات اليونانيّة ، وتوقّلوا الأولمب والبرّناس واستنزلوا الآلهة والرّبّات . وبلغ من افتتانهم بالغربيّين ، واعتلاقهم إيّاهم ، أن ترسّموهم في مذاهب الشعر عندهم ، فاتّبعوا الفئة المتحرّرة (Les Romantiques)،والفئة الواقعيّة (Les Réalistes) ، والفئة الرّمزيّة (Les Symbolistes) .

وجاءت ثقافتهم الغربيّة أمتن من ثقافتهم العربيّة ، فإذا هم تحدّثوا عن أديب عجمي أفاضوا بوصفه وتحليل أدبه ، وتصوير عصره في

دقّة وبراعة ؛ وإذا هم تحدّثوا عن أديب عربي ، اضطربوا في معرفته وتبيان عصره ، وبدا عليهم العجز والتقصير .

على أنّ المحافظين قد جاروا على الشعراء الجُدُد إذ عرّوهم من كلّ فضيلة ، ونسبوهم إلى الغثاثة في حين أنّهم يحسنون أشياء لا يحسنها هؤلاء ، فهم أشدّ اتّصالاً بعصرهم ، وأصدق تصويراً لحياتهم وللطبيعة ، وأعلق خاطراً بوحدة الموضوع ، وأقلّ احتفالاً بشعر المنابر .

وكذلك الشعراء الأحداث لم يظلموا المحافظين حين اتّهموهم بالتقليد ، وقالوا انّهم أشبه شيء بالصدى يرجّعون أقوال المتقدّمين ، ويعدّدون الموضوعات ، ويغالون مثلهم ، وينظمون على أبوابهم المعروفة ، وليس لهم براعة إلا في شعر أوحته حادثة تدعو إلى مدح أو رثاء أو ما شاكل ذلك ، وانّهم كسالى جامدون لا قبل لهم بالمطالعة ليتزيّدوا في العلوم والفنون ، فتكتمل ثقافتهم . ولكنّهم لم ينصفوهم في نكران محاسنهم ، فلغتهم أشدّ إحكاماً ، وأسلوبهم أصفى عروبة ، وأوضح معنى ، وأقلّ إبهاماً ، وأحفظ لتراثنا الأدبي . ومهما غلا أصحاب الحديث في مذهبهم ، لا ينبغي لهم إنكار قديمهم ، فليس من أدبٍ طريفٍ تحت الشمس إلا وله صِلة بالتليد .

أغراضه ومعانيه

الأبواب القديمة والجديدة . القصص والتمثيل .

ما آذن الشعر بالتطوّر على أنوار الحضارة الغربيّة حتى أخذت الأغراض والمعاني الجديدة تتسرّب فيه ولاءً ، وتمتزج بالقديمة امتزاجاً يقوى ويشتدّ مع تقدّم العلوم والفنون . حتى إذا اكتمل شباب القرن العشرين ، طغت الأغراض الحديثة على الأغراض المأثورة ، وغُلّقت أبواب مطروقة ، كان الخير في تغليقها كالمدح والهجاء . وأُهملت أبواب لم تبقَ من طلبات الشعراء كالفخر والحماسة والطرد . ولبثت أبواب مفتوحة المصاريع ، مطردة الاتّساع كالغزل ، ووصف الخمر ومجالس اللّهو . والطبيعة والعمران ، والجيوش والمعـــارك ، والرّثاء ، والشكوى والتاريخ ، والسياسة والاجتماع . والدّينيّات ، والكفريّات ، والشعر التعليمي . واستحدثت أغراض لم تكن معروفة من قبل كوصف المخترعات ، والمستنبطات ، والقصص والتمثيل .

المدح

رواج سوقه في القرن التاسع عشر . ضعفه بعد الحرب الكبرى .

كان للمدح سوق رائجة في القرن التاسع عشر ، ثمّ أقبل القرن العشرون ولم تكسد لها بضاعة عند الشعراء المخضرمين . وميزة المدح في شعر الانبعاث لا تختلف عنها في الشعر التالد ، فلها الغلو المقيت والزلفى والاستجداء . ولها الأوصاف والمعاني المعهودة . ولها التصدير بالغزل المتكلّف ، وحسن التخلّص .

على أن الشعراء الذين ظهروا بعد الحرب الكبرى المتقدّمة أعرضوا عن هذا الفنّ ، واستنكروه وكرهوه ، وأبوا أن يحسبوه من أغراض الشعر ، فضعف وانحطّ شأنه . ولولا بقيّة صالحة من المحافظين وشبه المحافظين ، لفني هذا النوع ولم يبقَ منه إلا ما يجري بين الأدباء والأصحاب من الاخوانيّات كالتهنئات والتقريظات . ومن شعراء المدح في القرن الماضي نقولا التّرك ، وبطرس كرامة ، والشيخ ناصيف اليازجي . واشتهر من المخضرمين أحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم[1] ، وخليل مطران ، والشيخ عبد الله البستاني[2] . وشبلي الملاط[3] ، ومعروف الرّصافي[4] ، وغيرهم .

الهجاء

طوي هذا الفنّ أو كاد بسبب تبدّل الأخلاق والعادات وقيام القوانين المدنيّة في وجه المعتدين على أعراض النّاس . ولم يبق منه إلا مداعبات لطيفة فيها تهكّم وتصوير سخري ، ممّا لا يتناول المحارم . وأكثره يجري بين الأدباء .

١ حافظ إبراهيم شاعر مصري ولد سنة ١٨٧١ م (١٢٨٨ هـ .) وتوفي سنة ١٩٣٢ م (١٣٥١ هـ .) وأحسن شعره في الاجتماعيات والوطنيات .

٢ الشيخ عبد الله البستاني ولد في الدبية من قرى لبنان سنة ١٨٥٤ م (١٢٧١ هـ .) وتوفي في بيروت ، وقبر في دير القمر سنة ١٩٣٠ م (١٣٤٩ هـ .) وهو لغوي من الطبقة الأولى ، وله شعر أكثره في المدح والرثاء . وكانت له عناية بالتاريخ الشعري والقصص .

٣ شبلي الملاط شاعر لبناني لا يزال حياً إلى عصرنا ، أجاد المدح وله في الشعر القصصي قصائد حسان .

٤ معروف الرصافي شاعر عراقي ولد في بغداد سنة ١٨٧٥ م (١٢٩٢ هـ .) . وله شعر جيد في الوصف والقصص .

الحماسة والفخر

هذا فنّ أشرق في القرن الماضي عند محمود سامي البارودي الشاعر الفارس ، ثمّ خبا نوره ، وخمدت معه همم الشعراء ، فما ينظم فيه إلا أبيات متفرّقة يذكر فيها الشاعر آباءه وأخلاقه ، وشاعريّته .

الطرد

شاع هذا الفنّ في القرون الخالية يوم كان الشعراء يتلهون بالصيد ، أو يرافقون الملوك في قنصهم ، فيصفون الطرد وأدواته ، والطرائد وأجناسها . أمّا شعراء عصرنا فلم يحفلوا به ، ولا عطفوا عليه ، ولم يكن لهم من الملوك محرّض على سلوكه فأهملوه واطّرحوه ، ولم يلبث أن دخل في عالم النسيان .

الغزل

الأوصاف المادية . وصف العواطف . الخلو من الفحش . الغزل المتكلف . الغزل العاطفي . اسماعيل صبري . بشارة الخوري .

ما برح المقام الرّفيع لهذا النّوع من الشعر ، وما انفكّ بعض الشعراء المعاصرين يقتصون أثر المتقدمين في أوصافهم المادّيّة وتشابيههم واستعاراتهم . غير أنّهم جعلوا مكاناً لتحليل العواطف وتصوير نزوات النفس في سرورها وألمها ، واستئناسها ووحشتها ، وسكونها واضطرابها . ممّا لا تجد مثله في كثير من الغزل القديم . وغزلهم في الغالب خالٍ من الألفاظ الفاحشة ، وإن تكن معانيه لا تخلو من الاستسلام إلى الشهوة ، والإلحاح في طلب اللّذّة .

والغزلون في الشعراء كثر ، فمنهم المتكلّفون الذين يصطنعون الغزل واسطة لا غاية ، أو إرضاء للفنّ ، لا تلبية للعاطفة . فأما الأوّلون فالتقليد والجفاف طافيان على نسيبهم لأنّهم يترسّمون فيه أسلوب المتقدّمين . وأمّا الآخرون فلهم صور جميلة ملوّنة ، فيها اتّساق حسن ، وفيها خيال لطيف ، ولكنّها جامدة لا تتحرّك ، كالأوثان المنحوتة ، أُفرغت في قالب الجمال ، وأعوزتها الحركة والحياة .

ومنهم العاطفيّون وهم قلّة بالاضافة إلى المتكلّفين ، وأحسنهم من تأتّى له أن يجمع العاطفة والفنّ ، فكانت له صور بديعة الأشكال والألوان ، عميقة الأثر ، قويّة الإحساس والشعور . وأشهر شعراء هذه الطبقة إسماعيل صبري[1] ، وبشارة الخوري[2] .

١ هو اسماعيل صبري باشا شاعر مصري رقيق الشعور ، ولكنه كان مقلا ، ولد سنة ١٨٥٤م (١٢٧١ هـ .) وتوفي سنة ١٩٢٣ م (١٣٤٢ هـ .) ومن غزله قوله :

أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة ، ولا بشافعة في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمناً ، حمل الصبابة، فاخفق وحدك الآنا

٢ بشارة الخوري ، ويعرف بالأخطل الصغير ، شاعر لبناني نشأ في بيروت ولا يزال حياً ؛ وهو أشهر الشعراء الغزلين . ومن غزله :

كفاني يا قلب ما أحمل ، أفي كل يوم هوى أول !
أيخلق منك جديد الهوى فؤاداً من السكر لا يعقل
له عثرة الطفل حول السرير ، ودمعته البكر إذ يعــول
أفي كل وجه لنا مرتع ، وفي كل ثغر لنــا منهــل
كفى نهماً لن يفر الجمال ، وترحل أنت ولا يرحــل
عذرتك يا قلب من الهوى ؟ أنتركه بعــدنا يذبــل ؟

الخمر ومجالس اللهو

لم يقم بعد أبي نواس شاعر يصف الخمرة إلا كان مقلّداً له مقصّراً عنه ، وقد وصفها في عصر الانبعاث جماعة من الشعراء ووصفوا معها مجالس اللّهو ، ولكنّهم لم يغنوا غناء شاعرها العبّاسي ، بل لم يلحقوا غباره . ومن وصافيها أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وبشارة الخوري . إلا أنّ شوقي أجاد وصف المراقص العصريّة في خمرياته .

الطبيعة والعمران

وجوه النظر إلى الطبيعة . تشخيصها . الامتزاج بها .

للشعراء وجوه مختلفة في النظر إلى الطبيعة ووصفها ، فمنهم من يرنو إليها من ناحيتها الباسمة ، فما يرى غير الرّياض الأريضة ، والأزهار الفوّاحة ، والأثمار اليانعة ، والأطيار المغرّدة ، والمياه المصطفقة ، والكواكب المؤتلقة . ومنهم من يلحظها من ناحيتها العابسة ، فما يستهويه غير لياليها المظلمة ، ورياحها الخافقة ، ورواعدها القاصفة ، وأمطارها الجارفة ، وأشجارها العارية ، ومفاوزها المتقاذفة ، ووحوشها الجائعة . ومنهم من يرود ناحيتيها ، فيبتهج لبهجتها ، ويكتئب لكآبتها . وهم في وصفها متباينو الفكرة والأسلوب ، فقد يصفها أحدهم وصفاً مادّيّاً يحلّيه بشتى التّشابيه والاستعارات ، دون أن يتّحد بها ويستجلي أسرارها . ويصفها غيره فيبعث فيها روحاً حيّة ، وشعوراً متدفّقاً ، ويغوص على دخائل نفسها ، يستشفّها ويصوّرها حسبما تملي عليه عاطفته ، ويوحي إليه خياله . أو يمزج بها روحه وشعوره ، ويخرج منها صوراً ملوّنة تبرز ما في نفسه من بهجة أو كآبة ، من حزن أو سرور . ويصفها آخر

فيستخرج منها صوراً شاملة للجماعة الإنسانيّة ، وما يجري في مقاييس الحياة ، من خير وشرّ ، وعدل وظلم ، واتفاقات وتناقضات . ويصطبغ هذا الشعر على الغالب بالكآبة والتشاؤم والثورة على النظم والشرائع .

وقد تناول شعراء العصر أوصاف الطبيعة على اختلاف وجهاتها . فوصفوها وصفاً مادّيّاً[1] وشخصوها وأنطقوها[2] ، ومزجوا بها أرواحهم[3] ، واحتذوا مثال الغربيّين في النظر الشامل إلى الكون ، فعل جبران خليل جبران[4] وإيليّا أبي ماضي[5] .

١ مثال ذلك وصف شوقي للبنان ودمشق .

٢ كوصف شوقي لزحلة .

٣ كقصيدة المساء لخليل مطران وقد روينا شيئاً منها .

٤ كاتب شاعر مفكر ، ولد في ابشراي من أعمال لبنان سنة ١٨٨٣ م (١٣٠١ هـ .) . وهاجر إلى الولايات المتحدة ومكث فيها حتى توفي. وكانت وفاته في نيويورك سنة ١٩٣١ م (١٣٥٠ هـ .) ونقل جثمانه إلى مسقط رأسه في لبنان . وامتاز بخياله الخصب وصوره الجميلة العميقة ، ونثره الشعري الذي طبعه بطابعه ، وسمي باسمه ، ومصنفاته المبتكرة . ولكنه كتب أكثرها وأحسنها باللغة الإنكليزية . وله في الشعر كتاب المواكب وهو قصيدة طويلة من المسمط ينشد فيها الحرية في كهوف الغاب ، ثائراً على ضعف الإنسان وتقاليده وشرائعه . قال فيها :

ليس في الغابات راع ، لا ولا فيها القطيع
فالشتا يمشي ولكن لا يجاريه الربيع
خلق الناس عبيداً للذي يأبى الخضوع
فإذا ما هب يوماً سائراً ، سار الجميع

* * *

أعطني الناي وغن ، فالغنا يرعى العقول
وأنين الناي أبقى ، من مجيد وذليل

٥ ايليا أبو ماضي شاعر لبناني هاجر إلى أميركة وتوفي فيها من عهد قريب، وله ديوان تذكار الماضي ، وديوان الجداول، وديوان الخمائل، وهو في مقدمة الشعراء المجددين، وشعره←

وكذلك وصفوا مشاهد العمران ، فنعتوا المدن والقصور ، والكنائس والمساجد، والآثار والتماثيل. وفي شعر شوقي طائفة حسنة من هذا النوع.

الجيوش والمعارك

ناصيف اليازجي . البارودي . شوقي .

حفل عصر الانبعاث بالحروب والثورات والفتن ، فتأثر بها الشعر ، وناله من وصف الجيوش والمعارك نصيب وفر . وأشهر أصحاب هذا الفن الشيخ ناصيف اليازجي ، ومحمود سامي البارودي ، وأحمد شوقي . وكانوا في أكثر أوصافهم مقلدين ، يغلب عليهم خيال المتقدمين ومعانيهم ، لا يذكرون إلا السيوف والرماح والدروع والمغافر ، والخيل والغبار . وقلما ذكروا المدافع والقذائف والخناقات ، والخنادق وسواها من أدوات الحرب الحديثة وأساليبها .

الرثاء

الإقبال عليه . تصوير شخصية الميت . رثاء المدن والممالك . شوقي .

لا يزال للرثاء شأن عظيم عند الشعراء ، ولكنه خرج بعد الحرب عن قصد التكسب والزلفى ، وكاد يقتصر على كل أديب لامع ، أو عالم

يصور الطبيعة والحياة الإنسانية أبرع تصوير . قال :

قد يصير الشوك إكليـ ـلاً لملك أو نبي
ويصير الورد في عر وة لص أو بغي
أيغار الشوك في الحقـ ـل من الزهر الجني ،
أم ترى يحسبه أحقر منه ؟

عامل ، أو زعيم وطني . وممّا يحمد في شعر المجدّدين أن أكثر رثائهم يصوّر شخصيّة الميت تصويراً دقيقاً فما يصلح إلا له ؛ وليس كالرّثاء التقليدي يصحّ نقله إلى كلّ ميت عند تساوي الدّرجات والطبقات وللمحدثين براعة تذكر في رثاء المدن والممالك،وشعر شوقي حافل بذلك.

الشكوى

البارودي . تامر الملاط . سليمان البستاني . خليل مطران

وهذا الباب من النوع الوجداني ، يعبّر به الشاعر عمّا في نفسه من ألم وحزن وغمّ وشقاء . وهو كثير في شعر المحدثين ، فما تكاد ترى شاعراً إلا شاكياً باكياً حتى أصبح النواح صفة قويّة تتميّز بها منظوماتهم . وأحسن ما ورد لهم في هذا الباب ما خرج عن نفس صادقة الشعور بالألم ، لا تتكلّفه حبّاً للفنّ ، أو جرياً مع التيّار الباكي . فمنه الشعر الذي نظمه البارودي في منفاه[1] ، ووصف تامر الملاط نفسه[2] ، وسليمان

١ أوردنا للبارودي شيئاً من شعر منفاه في مكان آخر مر بنا .

٢ تامر الملاط أخو شبلي الملاط الشاعر ، ولد في بعبدا من قصب لبنان ، سنة ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ .) وتولى عدة مناصب في القضاء ، حتى رأس محكمة كسروان . فحدث أن سرق سجل منها ، وأثبت فيه صك مزور ، فاتهم تامر بالجرم وحبس ولم تظهر براءته إلا بعد أن خولط في عقله . وكانت وفاته سنة ١٩١٤ م (١٣٣٣ هـ .) . وله شعر قوي الإحكام،كثير الغريب،يجنح إلى أسلوب البادية حيناً،وإلى أسلوب أبي تمام آخر. ومنه ما قاله في جنونه وأروعه قصيدة يصف بها نفسه،قال فيها وكلها من هذا الوصف البديع :

مقود غير مختار ، كأني آلـة صما
إذا ما حشرة أزت ، عرتني هزة رغمـا
وإن صر الذباب الغث صرّت أضلعي مما
ويأتيني البكا عفواً ويعصيني البكا لمـا
ولا أسطيع جذب النفـ ـس عن ضحك بي ائتما

البستاني داءه[1] ، وخليل مطران همومه وآلامه[2] .

التاريخ

الشعر القصصي . التعليمي . شوقي .

في الشعر المحدث طائفة حسنة من القصائد التاريخيّة ، يجري بعضها مجرى الشعر القصصي الرّائع كهمزيّة شوقي التي قالها في المؤتمر الشرقي الدّولي ، وبائيته في وصف الوقائع العثمانيّة اليونانيّة . وبعضها ينحطّ إلى مستوى الشعر التعليمي لضعف الميزة الأدبيّة فيه كشعر شوقي في دول العرب وعظماء الإسلام .

السياسة والاجتماع

الوطنيات والقوميات . النظر إلى الحياة الاجتماعية ومشاكل الحياة . الشعر الانساني . التماس الإصلاح بالهدم .

وهذا النوع له حظّ وافر في شعر المتقدّمين ، فقد كان للأحزاب السياسيّة شعراء ينافحون عن حقوقها وآرائها . وكان للمجتمع شعراء

١ قال سليمان البستاني من قصيدة يصف بها داءه :

تلوح لك الوجوه البيض سودا ، ووجه الأفق يبدو مكفهرا
يقول لك الأسى صبراً ، وأنى على هذا العذاب تطيق صبرا
إذا عالجت عضواً هجت عضواً ، وإن داويت رأساً هضت صدرا
كأن بكل عرق منك داء ، تسكّن علة ، فتثور أخرى

٢ قال خليل مطران من قصيدة الأسد الباكي :

ذروني أحسو الخمر غير منفر ، عن الورد منها ، نفرة الطائر الحاسي
فربت كأس عن شفاهي رددتها ، وقد قتل الدمع السلافة في الكاس
أنا الألم الساجي لبعد مزافري ، أنا الأمل الداجي ، ولم يخب نبراسي ،
أنا الأسد الباكي ، أنا جبل الأسى ، أنا الرمس يمشي دامياً فوق أرماس !

يأتون بالحكم والأمثال للإرشاد ، وتهذيب الأخلاق ؛ ويتألمون لآلام النّاس فيرثون الممالك البائدة ، ويبكون على المدن المنكوبة . إلا أن المتأخّرين وسّعوا نطاق هذا الباب ، ونوّعوا أغراضه ، وافتنّوا فيها ، وخرجوا إلى أشياء لم يعرفها الأوائل ؛ فنظموا في الوطنيّات ، والقوميّات . وتغنّوا بالحرّيّة والاستقلال ، وثاروا على الظلم والظالمين . وناصبوا الاستعباد والمستعبدين ، وعطفوا على الهيأة الاجتماعيّة ، وعرضوا لمشاكل الحياة فيها ، فنظموا الشعر الإنساني السامي . فإذا هم يئنون لجراح الشعوب على اختلاف أجناسها ، ويبكون لمصارع الأخلاق ، ويحثّون على الفضائل ، ويصوّرون عقبة الرّذائل ، ويحضّون على تحرير المرأة ، وتعليمها ، وتربيـــة الأطفال وتثقيفهم . ويدعون إلى الحياة الرّياضيّة ، ويخصّونها بالأناشيد ، ويطرون المعاهد العامّة كالمستشفيات والملاجيء والمدارس ، وما شاكل ممّا يتناول إصلاح المجتمع وسياسة الأمم . غير أن التشاؤم والسرَف سيطرا على جانب من هذا الشعر ، فذرفت فيه دموع غزيرة ، وتصاعدت منه زفرات حارّة ، وامتهنت التقاليد والعادات ، وأبيحت العقائد والشرائع ، والتمس الإصلاح بالهدم والتعطيل .

الدينيات والكفريات

المتعبدون . مدح الأنبياء . الشك والإنكار .

والدّينيّات احتلّت مكاناً من الشعر في منظومات المتعبّدين والمتزهدين من رجال الدّين وغير رجال الدين . ومنها ما يدخل في باب الزّهد والتوبة ، ومنها ما يقتصر على قص أخبار الرسل والأنبياء والقدّيسين ،

ومدحهم واستشفاعهم . ولشوقي في الدّينيّات شعر كثير أشهره نهج البردة والهمزيّة النبويّة .

وتقوم الكفريّات قبالة الدّينيّات ؛ وأصحابها جماعة رقّ دينهم فاستهزؤوا وسخروا ، أو جماعة عرفوا من الفلسفة الشكّ والانكار ، فشكوا وأنكروا ليقول النّاس انّهم فلاسفة . أو جماعة نقموا على رجال الدّين،وساء ظنّهم بهم حتّى إذا أرادوا إصلاح مجتمعهم وإنقاذه من التشعّب الطائفي، لم يجدوا الدّواء إلا في تعطيل الاديان،وهدم الجوامع والكنائس .

الشعر التعليمي

متون العلوم . التاريخ . الأناشيد والحكايات .

وكذلك الشعر التعليمي أقبل عليه المحدثون ، وفي مقدّمتهم الشيخ ناصيف اليازجي ، فإنّه نظم الأراجيز في النحو والبيان والعروض . ثمّ أصبح هذا الفنّ مقصوراً على سرد الأخبار التاريخيّة ، كما فعل شوقي في كتابه دول العرب وعظماء الإسلام . وعلى تربية الأطفال ، وإصلاح الأخلاق و لحض على العلم ؛ إما بطريق الحكايات على ألسنة الحيوان وضرب الأمثال ، شأن شوقي في أراجيزه القصصيّة . وإمّا بطريق الوعظ والإرشاد كأناشيد شوقي لاحداث الأمّة .

القصص

إيثار الأقصوصة . التاريخ . الحوادث الجارية . ضعف تحليل العواطف .

عرف القُدامى شيئاً من الفنّ القصصي في ما كان يتخلّل قصائدهم من ذكر الحوادث القصيرة . وعرفوه أخباراً وحكايات في الشعر التعليمي ،

بيد أنّه ضعيف الخيال ، ساقط الميزة الأدبيّة . أما المحدثون فقد اطّلعوا على الشعر القصصي في آداب الأعاجم ، فنبّههم إلى ما في أدبهم من نقصان ؛ فحاولوا سدّ هذه الثلمة ، وتوفروا على نظمه ، فجعلوه فنّاً قائماً برأسه .

وأشهر أصحاب الأقاصيص الشعريّة أحمد شوقي ، وخليل مطران ، وحافظ إبراهيم ، وشبلي الملاّط ، وبشارة الخوري ، ومعروف الرّصافي . وموضوعاتهم مستمدّ بعضها من بطون التواريخ ، وبعضها من الحوادث الجارية في أيّامهم . غير أنّهم يفتنّون في إخراجها ، ويسبغون عليها خيالاً جميلاً ، وفنّاً شعريّاً ، فتغلب الصبغة الأدبيّة على صبغة التاريخ والخبر . ولو برعوا في تصوير الأشخاص وتحليل العواطف النفسيّة براعتهم في عرض الحوادث ووصفها وسردها ، لبلغوا غاية بعيدة في هذا الفنّ .

التمثيل

أول قصة تمثيلية منظومة . الاعتماد على التاريخ .

واطّلع المحدثون على الشعر التمثيلي عند الغربيّين ، كما اطّلعوا على الشعر القصصي ، فنشطوا إلى محاكاتهم ، فنظم الشيخ خليل اليازجي[1]

[1] هو ابن الشيخ ناصيف اليازجي ، ولد ببيروت سنة ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ .) وتعلم في الكلية الأميركية . ثم هاجر إلى مصر واشتغل مدة بالصحافة ، ثم عاد إلى بيروت واحترف التعليم . حتى أصيب بداء الصدر فانقطع عن العمل حتى مات سنة ١٨٨٩ م (١٣٠٧ هـ .) وكان شاعراً محسناً . وقد حاول الشعر التمثيلي ، فألف قصة المروءة والوفاء منظومة في نحو ألف بيت .

قصة تمثيليّة ، وحذا حذوه الشيخ عبد الله البستاني[1] . ثمّ كان أحمد شوقي فرفع الشعر التمثيلي في قصصه ، وفاق من تقدّمه ، وإن لم يبلغ به الفنّ درجة سامية . ويعود توفيقه إلى شاعريته وبراعته ، ثمّ إلى تصرّفه في الأوزان والقوافي . فقد كان الذين تقدّموه دونه شاعريّة وبراعة ، ودونه تحرّراً من ربقة الأحكام العروضيّة ، فجاءت قصصهم ضعيفة الفنّ مملّة ، تصدع الآذان بقصائدها الطويلة الجارية على بحر واحد ، وقافية واحدة .

وموضوعات الشعر التمثيلي مقصورة على حوادث التاريخ دون غيرها . وما من قصة تصور المجتمع العربي في حضارته العصرية ، وعاداته ، واخلاقه ، وأزيائه .

ومهما يكن من شيء فإن ظهور الشعر القصصي والتمثيلي في الأدب العربي أتمّ الفنون الشعرية بعد نقصانها ، وخرج بالشعراء عن الحدود الشخصيّة إلى الميدان الإنساني المتّسع .

أوزانه وقوافيه

المقطعات . اختلاف القوافي . الشعر المنثور .

لبث الشعراء في القرن الماضي يحافظون على الأوزان والقوافي كما جاءتهم عن العرب المتقدّمين ، إلا ما كان من ميلهم إلى الموشّحات في قصائدهم الطويلة ، وخروجهم بها عن أصولها ، وتفنّنهم في تجزئتها وتفصيلها ، حتى صاروا بها إلى مسدسات ، ومسبعات ، ومثمنات ،

١ وضع خمس قصص تمثيلية شعرية . وهي حرب الوردتين ، ويوسف بن يعقوب ، وبروتوس أيام تركوين الظالم ، وبروتوس أيام يوليوس قيصر ، ومقتل هيرودس لولديه

دون التفات إلى عدد الاقفال والأبيات ، أو إلى اصطناع الخرجة في القفل الأخير . ولكنّهم راعوا نمطها في الوزن والتقفية .

فلمّا سادت الثقافة الغربيّة في القرن العشرين ، حاول شعراؤه أن يُحدثوا حدثاً في القوافي والأوزان فجعلوا ينظمون القصيدة مقطّعات ، تختلف في عدد أبياتها حيناً ، وتتّفق آخر ، ولكلّ مقطعة قافية تستقلّ بها عن اخواتها . ومنهم من جرى على أسلوب الشعر الفرنجي ، في تثنية قوافيه ، وتقطيعه وتفصيله ، وآثر البحور الخفيفة الرّشيقة . ومنهم من أهمل القوافي ، وحافظ على الأوزان . ومنهم من حافظ على القوافي ، وأهمل الأوزان ، أو أهملهما معاً . وسمّوا هذا النمط الأخير بالشعر المنثور ،وهو أسخف ما وصل إليه القريض ، وكان ظهوره عند المهاجرين من لبنان . ولقي من جبران خليل جبران نصيراً قويّاً يزينه بخياله الجميل وموسيقى ألفاظه ، ويحبّبه إلى جمهرة مريديه ومنافسيه ؛ فانبرى إلى تقليده أصيبية الأدب مستسهلين الخطب ، وانبرى كلّ كاتب أراد التشبّه به ، ولم يرزقه الله ملكة الشعر ، فأسفّوا إلى الحضيض ، حتى أصبح شعرهم المنثور ، وليس فيه غير جمل مقطعة ، مرصوفة ، وغير تشابيه واستعارات سقيمة الخيال مكرورة لا طائل تحتها .

ونحمد الله أن أنصار هذا النوع قليل ، وأكثرهم لا خطر له في الأدب . وكذلك الذين أهملوا القوافي كان نجاحهم دون نجاح أصحاب الشعر المنثور .

منزلة الشاعر المحدث

الذائد الوطني . المصلح الاجتماعي . شاعر الشعب .

لبث الشاعر المحدث طوال القرن التاسع عشر وبعض العشرين لا همّ له إلا أن يقف في حضرة الملوك والأمراء ، وأصحاب المناصب ، والأشراف يمدحهم ويرثي أمواتهم ، فكان لهم صنّاجة تطربهم أنغامها في الأفراح والأحزان .

ثمّ اتّخذ خاصّة الذائد الوطني ، والمصلح الاجتماعي ، والمهذّب الخلقي . فارتفعت منزلته في عيون النّاس ، ولمسوا بنفثاته ما يعبّر عن شعورهم وإحساسهم ، وآلامهم وآمالهم . وكان كلّما ابتعد عن التملّق والاستجداء تزداد منزلته علوّاً ، وأقواله سيرورة . فخطا خطوة محمودة في تحويل الشعر عن الأفراد إلى المجموع ، وأصبح شاعر الشعب بعد أن كان شاعر الملوك .

ومن المجددين طبقة شخصيّة الإلهام تقتصر منزلتها على الفنّ دون سواه .

شوقي

(١٨٦٨ – ١٩٣٢ م و ١٢٨٥ – ١٣٥١ هـ.)

حياته

هو أحمد شوقي بك ، ابن عليّ بك ، ابن أحمد شوقي بك . ينتهي نسبه إلى الأكراد من جهة أبيه ، وإلى الأتراك من جهة أمّه . وفيه عرق من الكرّجية بجدته لأبيه ، وعرق من اليونانيّة بجدّته لأمّه . ولد في القاهرة على عهد إسماعيل ، وكان أبوه مبذراً أتلف ما عنده ، فكفّلته نِمْزار[1] جدّته لوالدته ، وهو في المهد ، وكانت من وصائف دار الإمارة .

علومه

دخل شوقي المدرسة منذ سنته الرّابعة . ولما بلغ الخامسة عشرة طلب الحقوق مدّة سنتين . ثمّ أنشىء في مكتب الحقوق قسم للترجمة ، فانسلك فيه سنتين أخريين ونال الإجازة . ثمّ بعثه الخديوي توفيق إلى فرنسة ليدرس الحقوق والآداب الفرنسيّة ، فسافر سنة ١٨٨٧ ، ودرس

١ نمزار هذه من أهل المورة سباها ابراهيم باشا في حرب العثمانيين واليونان ، ثم أعتقها وأزوجها محمد بك حليم أحد رجاله الأتراك .

سنتين في مُنْبِليه ، وسنة في باريس ، وأحرز إجازة الحقوق . ومكث بعدها ستّة أشهر يتعرّف بها باريس وحضارتها . ورحل في خلال سني دراساته إلى فرنسة الجنوبيّة ، وإلى انكلترة والجزائر . وعاد إلى مصر سنة ١٨٩١ . وكان يتقن ثلاث لغات : العربيّة والفرنسيّة والتركيّة .

شاعر الأمير

وتعهّده عبّاس برعايته كما تعهّده توفيق من قبل ، فلمّا عقد مؤتمر المستشرقين في جنيف سنة ١٨٩٤ ، أوفده مندوباً عن مصر ، فلبث شهراً في سويسرة ، حتّى إذا انفضّ المؤتمر ، برحها إلى بلجيكة ، وشهد معرض انفرس . ثمّ عاد إلى مصر ، فجعله عبّاس شاعره الخاص ، ورئيساً للقسم الفرنجي في حاشيته :

شَاعِرُ العَزِيزِ وَمَا بِالقَلِيلِ ذَا اللّقَبُ

فكان له من النفوذ والدالّة ما لفت إليه ذوي الحاجات ، ولا سيّما طلاب الرّتب والأوسمة . فكان لا يردّ طالباً ، ولا يخيب في سؤال ، فأفاد بذلك ثروة حسنة .

وتزوّج وهو فتى في منتصف العقد الثالث ، فحملت إليه زوجه ثروة ضخمة عن أبيها فأصبح من كبار الموسرين. ورزق ثلاثة أولاد صبية وصبيين .

ولما نشبت الحرب العامّة ، خلعت انكلترة عبّاساً لاتّصاله بالأتراك ، وأبعدت شاعره عن مصر ، فأمّ الأندلس ، واتّخذ برشلونة له سكناً .

بعد الحرب

عاد شوقي إلى مصر في أواخر سنة ١٩١٩ ، وقد تغيّر سكّان قصر عابدين ، فابتعد عنه وفي النفس ما فيها من ذكريات العهد الماضي .

فصرفها إلى العمل المجدي ، فنظم وألّف ، ولم تفتر له همّة على كبر السنّ ، وإيذان الشمس بالغروب .

وكان في كلّ صيف يقصد الاستانة ، أو بعض مصايف أوربّة حتّى سنة ١٩٢٥ فقصر اصطيافه على لبنان .

وفي سنة ١٩٢٧ عقد مهرجان لتكريمه في دار الأوبرة الملكيّة . فجاءت وفود الأدب من جميع الأقطار العربيّة ، وبايعته بإمارة الشعر ، بعد أن بايعه بها كتّاب الصحف المصريّة يوم كان « شاعر الأمير » ، فعكسوا فقالوا : « وأمير الشعراء » .

وعاش سنواته الأخيرة عيشة هادئة خصبة ، يتمتّع بجاه عريض ، ومال وفر ، وأسرة نامية ، وشهرة طائرة . حتّى توفّاه الله في اليوم الثالث عشر من تشرين الأوّل سنة ١٩٣٢ . فانطوت إمارة الشعر من بعده .

وتولّت وزارة المعارف المصريّة تنظيم حفلة الأربعين لتأبينه ، فدعت إليها البلاد العربيّة ، فلبتها برسلها من أهل الشعر والخطابة ، وكان يوم مشهود .

صفاته واخلاقه

كان ممتلىء الجسم فوق الرَّبْعة ، مستدير الرّأس ، مختلج العينين لاختلال أعصابهما . قليل الكلام في المجالس ، كأن به غفلة عمّا حوله .

وكان شديد الاعتداد بشاعريّته ، مفاخراً بها ، يحبّ الثناء ، ويضيق بالنقد . وكان يداري أصحاب الصحف ، ويكثر من زيارتهم ليجملوا القول فيه .

وابتسمت له الحياة ، فضحك لها ، وأحبّها ، واستمتع بما فيها

من لهو وجمال وشباب . وكان حسن الإيمان على غير تعصّب ، فاتّسع صدره لجميع الأديان ، ولكن دون أن تضعف عقيدته الإسلاميّة .

وكان وطنيّاً مخلصاً لمصر ، وشرقيّاً مفاخراً بالشرق .

نظمه الشعر

بدأ الذوق الشعري يتولّد في شوقي وهو حدث . ذكر أحمد زكي باشا أنّ الشيخ محمّداً البَسْيوني كان يعرض قصائده على تلميذه ، قبل أن يرسلها إلى دار الامارة . وكان شوقي بسذاجة التلميذ الناشىء يشير عليه بمحو تلك الكلمة وتصحيح تلك القافية ، وحذف هذا البيت ، وتغيير ذاك الشطر ، والأستاذ يغتبط بقوله ، وينزل على رأيه . وتحدّث البسيوني إلى صاحب العرش بذكاء شوقي الصغير ، وبراعته ، فكانت هذه الشهادة من الأسباب التي حفزت توفيقاً إلى تعهد شاعرنا بالدّراسات العالية .

وسألت مجلّة الهلال شوقي : كيف بدأ النظم ؟ فقال : نظمت الشعر وأنا طفل ، وكنت يومئذ أخطىء وأهذي ، وأتعثّر ككلّ صاحب خيال طفل . ولكني لم ألبث أن تعلّمت العربيّة على أستاذ نابغة هو المرحوم المَرْصَفي صاحب الوسيلة ، حتى استقام لي ميزان الشعر بين العشرين والخامسة والعشرين ، وعرفني النّاس به في هذه السنّ ، فحفظوا لي وغنّوا :

مُضْنَي،وَلَيْسَ بهِ حَرَاكْ ، لَكِنْ يَخِفّ إذَا رَآكْ
يَا حُسْنَهُ بَيْنَ الحِسَانْ ، في شَكْلِهِ إنْ قِيلَ بَانْ

والأبيات السائرة :

خَدَعُوهَا بِقَوْلِهِمْ: حَسْنَاءُ، وَالغَوَانِي يَغُرُّهُنَّ الثَّنَاءُ

والأبيات التي أقول منها :

صُونِي جَمَالَكِ عَنَّا إِنَّنَا بَشَرٌ مِنَ التُّرَابِ، وَهَذَا الحُسْنُ رُوحَانِي

وكان ينظم الشعر في كلّ مكان وزمان ، جالساً أو ماشياً ، وحده أو مع النّاس ، وأشدّ ما يكون ارتياحاً إلى النظم بعد منتصف اللّيل . ذكر كاتبه أحمد عبد الوهّاب انّه إذا حاول الشعر أخذ يمر راحته اليسرى على رأسه ، وينظر إلى خاتمه .

وتحدّث خليل مطران عنه قال : « لا يعرف جليسه أنّه ينظم إلا إذا سمع منه بادىء ذي بدء غمغمة . ثمّ رأى ناظريه ، وقد برقا ، وتواترت فيهما حركة المحجرين . ثمّ بصر به وقد رفع يده إلى جبينه ، وأمرّها عليه إمراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة . »

وروى كاتبه انّه إذا ضاق عليه الوقت . واضطرّ إلى صنع قصيدة ، تناول مُحّ ثلاث من البيض النيء ، وشرع في النظم .

وكان سريع الخاطر ، ربّما أتمّ القصيدة في ساعة . قال محمّد كرد علي : « من جميل بديهته المطواعة ، ما شهدته منه ليلة تكريمه في المجمع العلمي العربي ، فقد نظم قصيدة ثمّ أبطلها لأنّه ما ارتضاها ، ونظم في الحال غيرها بمجلس من أصحابه . » اه وتحدّث كاتبه أنّه نظم قصيدة النّيل في ليلة واحدة ، وهي تربي على خمسين بيتاً ومائة .

وكان قويّ الذاكرة ، يحفظ شعره ، ولا يمليه على كاتبه إلا جملة أبيات غير ناسٍ شيئاً منها .

آثاره

لم يقم عند العرب شاعر أكثر نتاجاً من شوقي ، فقد انتظم له ديوان مطبوع ، في الثلاثين من عمره ، ومات وهو على أشدّ ما يكون نشاطاً إلى العمل ، فكانت أواخر سنيه ، أخصب أيّام حياته . ولم تقتصر آثاره على الشعر ، وإنّما تجاوزته إلى النثر ، وقد طبع معظمها ، وبقي أقلّها لم يطبع .

فأمّا الذي طبع من الشعر ، فالجزء الأوّل من الشوقيات . وهو ما اشتمل على منظومه في القرن التاسع عشر « ١٨٨٨ — ١٨٩٨ م » . صدره بمقدّمة في الشعر والشعراء ، وترجمة حاله . وافتتحه بمدحتين لعبد الحميد الثاني ، وعبّاس بن توفيق . وجعله على سبعة أبواب : فالأوّل الأدب والتاريخ ، والثاني الوصف ، والثالث المديح ، والرّابع المراثي ، والخامس الحكايات ، والسادس الخصوصيّات . وهذا الباب خليط من خصوصيّات الشاعر ، وأشياء غير خصوصيّة ، كملحمته في حرب بني عثمان واليونان ، ووصف البسفور ، والقمر وسوى ذلك . ويظهر أن شوقي بعد أن طبع الأبواب الأولى ، وانتهى إلى الباب الأخير جهزت لديه قصائد جديدة فأدخلها فيه ، وإن لم تكن منه . فأخلّ في ترتيب الدّيوان ، وخالف ما حمل عليه نفسه في المقدّمة[1] .

ووعد في المقدّمة بأن ينشر في آخر كلّ عام هجري ما يحصل عنده من منظوم ومنثور ، ولكنّه لم يفعل . بل أهمل طبع شعره إلى

[1] ذكر في مقدمة شوقياته أنه أرجأ الشعر الذي عثر عليه أو نظمه ، بعد تنسيق الأبواب ، وطبعها ، إلى الجزء الثاني ، لئلا يخل في ترتيبها .

ما بعد الحرب العامّة ، فنشر سنة ١٩٢٥ الجزء الأوّل من الشوقيّات ، على ورق صقيل ، مشكول الحروف ، مشروح الغريب ، مفسّر المعاني ، مصدر بمقدمة للدكتور محمّد حسين هيكل ، حلّل بها شاعرية صاحب الدّيوان . وهذا الجزء يختلف عن الذي طبع في شبابه بأنّه خلو من المدائح والمراثي ، والأناشيد والحكايات . مخصوص بالسياسة والتاريخ والاجتماع : لم يدخل فيه من الدّيوان القديم إلا ما لاءم هذه الأغراض ، كهمزيته في مؤتمر المستشرقين ، وملحمته في الحرب العثمانيّة اليونانيّة .

ونشر الجزء الثاني سنة ١٩٣٠ ، وهو كسابقه في الطبع والاتقان إلا أنّه دونه في الشرح والتفسير . مقسوم إلى أبواب أوّلها الوصف ، والثاني النسيب ، والثالث متفرّقات في الوصف والتاريخ والسياسة والاجتماع . وفيه قصائد كثيرة نشرت في الدّيوان القديم .

وطبع من القصص التمثيليّة مصرع كليوباترة سنة ١٩٢٩ ، ومجنون ليلى وقمبيز سنة ١٩٣١ ، وعلي بك الكبير وعنترة سنة ١٩٣٢ .

ونشر له بعد موته كتاب دول العرب وعظماء الاسلام سنة ١٩٣٣ ، ومعظمه أراجيز مزدوجات التزم فيها من القوافي ما لا يلزم . تبحث في تاريخ الإسلام وعظمائه ، منذ عهد النبوّة إلى زمن الفاطميّين . ونشر الجزء الثالث من الشوقيّات سنة ١٩٣٦ ، وهو مخصوص بالمراثي . والجزء الرّابع سنة ١٩٤٣ ، متقن الطبع ولكنّه يكاد يخلو من الشرح والتفسير مقسوم إلى أبواب أوّلها متفرّقات في السياسة والتاريخ والاجتماع . والثاني الخصوصيّات . والثالث في الحكايات على لسان الحيوان نحو ستّين حكاية أكثرها منشور في الطبعة القديمة من الشوقيات. والرّابع ديوان الأطفال ، أناشيد للناشئة . والخامس من شعر الصّبا ، وفيه بعض مدائحه في

الأمير عبّاس. والسادس محجوبيات، وهي ما نظمه في صديقه الدكتور محجوب ثابت .

وأمّا الذي طبع من النثر ، فأميرة الأندلس سنة ١٩٣٢ ، قصة تمثيلية . وأسواق الذّهب[١] سنة ١٩٣٢ ، مقالات اجتماعيّة ، أكثرها سجع بادي التكلف .

ميزته

وقف شوقي من الشعر وقفة المستطيل على فنونه ، المتصرّف في أغراضه وشؤونه ، الضّارب في سهوله وحزونه . وأوتي شاعريّة خصبة ، يمدّها أصول أربعة ينتمي إليها ، وترفدها مخيلة قويّة ، دعمت بالعلم ، وغذّيت بالأسفار . ويحفزهـا طموح شديد إلى بلوغ أعلى ذروة في القريض . يجدّد بها عهد المتنبي عند سيف الدّولة ، والبحتري عند المتوكّل ، وأبي تمّام عند المعتصم . ويجاري من شعراء الفرنجة فيكتور هيغو في السياسة الوطنيّة ، والتاريخ وأساطير القرون . ولافُنْتين في الحكايات الخرافيّة . وكُرْناي في المآسي التمثيليّة . فإلى هؤلاء الشعراء خصوصاً . وإلى أمثالهم عموماً كان ينظر طامعاً في محاكاتهم ، والارتفاع إلى منازلهم . فتلمذ لهم ، واستقى من بحورهم . ثمّ انبرى لهم يجاريهم ، ويعارضهم ، وينافسهم . فكان له منهم عناصر قويّة مختلفة اختلطت اختلاطاً عجيباً ، فأخرجت شخصيّة مركبة تذكرك دائماً بغيرها ، وإن يكن لها طابع لا يخفى في شتّى طرقه ، وألفاظه وتعابيره . وهذا ما نعنى بإظهاره في دراستنا لأغراض الشاعر .

١ استوحى شوقي هذا الاسم من أطواق الذهب للزمخشري ، وأطباق الذهب للأصفهاني .

التاريخ

أولع شوقي بالتاريخ منذ عهده الأوّل بالنظم فتوفّر عليه ، وبرع فيه . وعني على الأخصّ بتاريخ الإسلام ، وتاريخ مصر . فكان له منهما أداة صالحة لأغراضه الشعريّة . وتتبّع الحوادث الجارية في عصره ، فدوّنها في منظوماته السياسيّة والاجتماعيّة ؛ فانتظم له منها قصائد مشهورة في الوطنيّات والخلقيّات .

وكان التاريخ القديم والمعاصر ذلك الينبوع الثرّ الذي استسقاه شاعرنا على ظمإ، فتدفق له بالمخصب الخيّر من شعره . فاتّخذه عبرة وذكرى للمصريّين والمسلمين ، يذكرهم بأمجاد أسلافهم ، ويحضّ الهمم القاعدة على النهوض ، بوصف ما كان لدولهم من فتوح ، وعظمة ، وازدهار . ويروّض به أطفالهم على البأس ، وطلب المجد المفقود :

وَيَرْوِي الوَقَائِــعَ في شِعْرِهِ ، يَرُوضُ عَلَى البَـأسِ أطْفَالَهَا

وقد تطول قصائده التاريخيّة ، فأحياناً يوفّق فيها ، فيخرج منها شعراً قصصيّاً رائعاً كهمزيته التي قدّمها إلى مؤتمر المستشرقين في جنيف ، وبائيته في وصف الوقائع العثمانيّة اليونانيّة ، وقصيدة النيل ، وقصيدة أبي الهول . وأحياناً تخونه الرّوعة الأدبيّة ، فيقتصر على سرد الحوادث كأنّه مؤرّخ لا شاعر . وهذا ما يصطبغ به أكثر شعره في كتاب دول العرب وعظماء الإسلام .

وأجمل حلية يتلألأ بها هذا الشعر،عاطفة الدّين ، وعاطفة الوطن ؛ فإن شوقي يكاد يتلظّى حمية ، واندفاعاً في ذكر عزّ مصر ، وحضارتها القديمة . وذكر انتصارات المسلمين ، واتساع ممالكهم . ويكاد يتفطّر

حزناً ولوعة في وصف ما نزل بمصر والبلاد الإسلاميّة ، من النكبات والأرزاء . وسيان عنده مصر الفرعونيّة ، أو مصر الإسلاميّة ، وبقاع يعمرها العرب ، أو بقاع يعمرها الأتراك .

وإذا خلا شعره من الحوادث ، فما يخلو من الإشارات التاريخيّة ، فإنّها مبثوثة في مختلف منظوماته. وفيها الجميل المستملح ، وفيها المتكلّف المبتذل ، للإفراط في تكراره .

السياسة

تقلّب شوقي في أحضان السياسة المتقلّبة مع المكان والزّمان ، فجاء شعره وفيه صور متناقضة ، لوجوه السياسة المتناقضة . فقد كان شاعر القصر في زمن عبّاس ، فنطق بسياسة القصر ، وأيّد صاحب العرش . وكان اللورد كرومر عميد انكلترة قد بسط نفوذه على مصر حتّى أصبح لا يصدر أمر إلا عن أمره . فطبيعي أن يتذمّر الخديوي على هذا النفوذ ، وأن يتذمّر شاعره معه ، فيحمل على العميد طاعناً فيه ، مندّداً بأعماله ، مقبحاً سياسة من يتودّد إليه ، فعله برياض باشا[1] بعد خطبته الّتي فاه بها في المدرسة الصناعيّة سنة ١٩٠٤ ، متملّقاً للورد ، كافراً نعمة مصر وأصحاب عرشها . فقد أنّبه شوقي تأنيباً أليماً ، واتّهمه بالخيانة ، مشبهاً إيّاه بعرابي . وعرابي في نظر شوقي خائن ، لأنّه ثار على ولي نعمته توفيق ، وأعقب بثورته احتلال الانكليز . قال منها :

خَطَبتَ فكُنتَ خَطباً، لا خَطيباً، أُضيفَ إلى مَصَائبِنـا العِظَامِ

١ رياض باشا تقلب في الوزارات المصرية من عهد اسماعيل إلى عهد عباس . وكان رئيس الوزارة في بدء الثورة العرابية ، ثم في زمن عباس سنة ١٨٩٣ .

لَهِجَتْ بِالاحتِلالِ وَمَا أتاهُ، وجُرْحُكَ منه، لوْ أحسَستَ، دامِ
وَمَا أغْنَاهُ عَمَّنْ قَالَ فِيهِ، وَمَا أغْنَاكَ عَنْ هَذَا التَّرَامي
أحَبَّتْكَ البِلادُ طَوِيلَ دَهْرٍ، وَذَا ثَمَنُ الوَلاءِ وَالاحْتِرَامِ ؟

ويختمها :

أفي السَّبْعِينَ، وَالدُّنْيَا تَوَلَّتْ، وَلا يُرْجَى سِوَى حُسْنِ الخِتامِ،
تكونُ، وَأنتَ أنتَ رِياضُ مصرٍ، عَرَابي اليَوْمِ في نَظَرِ الأنَامِ

وتقضي السياسة الانكليزيّة بخلع اللّورد كرومر عن منصبه سنة ١٩٠٧ ، فيقيم له رئيس الوزارة مصطفى باشا فهمي حفلة وداع في ملعب الأوبرة . ويودعه بخطبة لطيفة مثنياً عليه . ويخطب اللّورد بعده فيندّد بالخديوي إسماعيل ، ويخاشن الأمّة المصريّة . وكان الأمير حسين كامل حاضراً (السلطان حسين فيما بعد) فسمع شتم والده بأذنيه ، ولم ينبس ببنت شفة . فغضب شوقي غضبة شريفة ، ونظم قصيدة جميلة ، هاجم بها اللّورد وحكومته ، ولم يعفّ عن الأمير حسين . وإنّما هو ينطق بلسان صاحب العرش . قال في أوّلها والخطاب للّورد :

أيّامُكُمْ أمْ عَهْدُ إسْمَاعيلا ، أمْ أنتَ فِرْعَوْنٌ يَسوسُ النّيلا ؟
أمْ حاكِمٌ في أرْضِ مصر بأمرِهِ ، لا سَائِلاً أبَداً ، وَلا مَسْؤولا ؟
يا مالِكاً رِقَّ الرِّقَابِ بِبَأسِهِ ، هَلاّ اتّخذتَ إلى القُلُوبِ سبيلا !
لمّا رَحَلتَ عنِ البلادِ تَشَهّدَتْ ، فكَأنّكَ الدّاءُ العَيَاءُ رَحِيلا
أوْسَعْتَنَا يَوْمَ الوَدَاعِ إهانَةً ، أدَبٌ، لعَمرُك، لا يُصِيبُ مثيلا !

هَلاَّ بَدَا لكَ أنْ تُجامِلَ بَعدَمَا   صَاغَ الرَّئِيسُ لكَ الثَّنَا إكْلِيلا
أُنْظُرْ إلى أدَبِ الرَّئِيسِ وَلُطفِهِ ،   تَجِدِ الرَّئِيسَ مُهَذَّباً، ونَبِيلا

. . .

في مَلعَبٍ للمُضْحِكاتِ مُشَيَّدٍ ،   مَثَّلتَ فِيهِ المُبْكِيَاتِ فُصُولا[1]
شَهِدَ الحُسينُ عليه لَعنَ أُصُولِهِ ،   وَتَصَدَّرَ الأعْمَى بهِ تَطْفِيلا[2]
جُبْنٌ أقَلَّ ، وَحَطَّ من قَدرَيهِما ،   وَالمَرْءُ إن يَجبُنْ ،يَعِشْ مَرْذولا
لمَّا ذَكَرْتَ بهِ البلادَ وَأهْلَهَا ،   مَثَّلْتَ دَوْرَ مَمَاتِهَا تَمْثِيلا[3]

ومنها :

أليَوْمَ أخلَفَتِ العُهودَ حكومَةٌ ،   كُنَّا نَظُنُّ عُهُودَهَا الإنْجِيلا
دَخلَتْ على حكمِ الوِدادِ وَشرْعِه ،   مصراً، فكانتْ كالسُّلالِ دُخولا
هدَمتْ مَعالمَها، وَهدّتْ ركنَها ،   وَأضَاعَتِ اسْتِقْلالَهَا المَأمُولا[4]

وأزيل التاج عن مفرق عبّاس في الحرب العامّة ، وزيّن به جبين حسين كامل . فهنّأه شوقي ، وبايعه على الوفاء ، لأنّه لا يخون إسماعيل في أبنائه :

أأخُونُ إسْمَاعِيلَ في أبْنَائِهِ ؟   وَلَقَدْ وُلِدتُ ببَابِ إسمَاعِيلا !

١ ملعب للمضحكات : أي دار الأوبرة .
٢ الأعمى : الشيخ عبد الكريم سلمان ، من المتوددين للانكليز المترددين على الصحف التي تؤيد سياستهم . وكان قد ضعف بصره ، وكاد يكف .
٣ به : أي بالملعب .
٤ المعالم جمع معلم : موضع الشيء الذي يظن فيه وجوده ويريد بها معالم حضارتها .

ومدح الانكليز الذين حافظوا على عرش مصر في برهة تتناثر بها العروش . وكان يخشى ثلّه ، بعد أن لاذ عبّاس بالأتراك ، وبسطت انكلترة حمايتها على البلاد :

وتَدارَكَ الباري لِواءَ مُحَمَّدٍ ، فرَعى لهُ غُرَراً، وَصَانَ حُجولا[1]
في بُرْهَةٍ يَذَرُ الأسِرَّةَ نَحْسُها ، مثلَ النّجومِ ، طَوالِعاً، وَأُفُولا[2]
اللهُ أدْرَكَهُ بِكُمْ ، وَبأُمّةٍ ، كَالمُسْلِمِينَ الأوّلِينَ عُقُولا[3]
حُلَفاؤنا الأحرَارُ إلاّ أنّهُمْ أرْقَى الشّعُوبِ عَوَاطِفاً وَمُيُولا
لمّا خَلا وَجْهُ البِلادِ لِسَيْفِهِمْ ، سَارُوا سِمَاحاً في البِلادِ ، عُدولا
وَأَتَوْا بِكابِرِها ، وَشَيْخِ مُلوكِها ، مَلِكاً عَلَيها ، صَالحاً ، مَأمُولا

ومن غرائب الاتّفاق أن تكون هذه القصيدة في بحرها ورويّها ، كالقصيدة التي حمل بها على اللّورد كرومر ، وندّد بسياسة حكومته ، وهجا حسين كامل ذاك الذي شهد لعن أصوله ، وسكت صابراً على الأذى . وهنا نفسيّة شوقي معقدة لا تنجلي صريحة . فإنّه يحبّ الأتراك ، ولا يسرّه أن تذهب سيادتهم عن مصر ، ولكنّه ساخط عليهم ، لصلائهم حرباً خسروا بها باقي تلك السيادة :

ألقَوْمُ حِينَ دَهى القَضَاءُ عُقولَهُمْ ، كَسَرُوا بأيدِيهِمْ لِمِصرَ غُلُولا[4]

١ يريد بالغرر والحجول ، الأيام المشهورة ، والغزوات المظفرة .
٢ الأسرة : العروش . الأفول : جمع آفل .
٣ بكم : الخطاب للسلطان حسين كامل . وبأمة : أي إنكلترة .
٤ القوم : أي العثمانيون .

هدَموا بوَادي النّيلِ ركنَ سيادةٍ   لَهُمُ كرُكنِ العنكبُوتِ ضَئيلا

ويحبّ عبّاساً ، ويؤثره على حسين ، ولكنّه لا يرى بدّاً من إظهار الرّضا بعد أن انقطع ما بين عبّاس والعرش . وأصبح من خير مصر ، أن يحفظ تاجها أمير من أبناء إسماعيل ، ولو كان الحسين الذي هجاه ؛ لتعود به السلطة الشرعيّة التي اغتصبها عميد الانكليز واستأثر بها برهة من الدّهر :

هل كانَ ذاكَ العهدُ إلا موْقِفاً ،   للسّلطتَينِ ، وللبِلادِ وَبيلا[1]

يَعتَزّ كُلُّ ذَليلِ أقوامٍ بِهِ ،   وَعزيزُكُمْ يُلقي القِيادَ ذَليلا[2]

وكان عبّاس ميّالاً إلى العثمانيّين ، متودّداً صاحب الخلافة ، ساعياً في إجلاء إنكلترة عن مصر . فكان شوقي يفعل فعل سيّده ، مجارياً سياسة العرش من جهة ، وعاطفته التركيّة من أخرى . وهو بين السياسة والعاطفة ، يفاخر بالأتراك ، ويؤثرهم في قرارة نفسه على العرب ، وإن كان بيانه عربيّاً . ويرى انّ الخلافة لا تصلح إلا لهم . وانّ عصر عبد الحميد الثاني أسعد العصور على الشعب ، عصر الرّحمة والعدل والخير ، فيطعن على الذين يعيبونه ، والذين يثورون على صاحب السلطان .

وتدور الأيّام على عبد الحميد فيسقط عن سريره ، ويستخلف أخوه محمّد رشاد . فيودّعه شوقي بقصيدة حسناء ، ويلومه في شيء

١ ذاك العهد : أي عهد الحكم في مصر قبل تولية السلطان حسين . السلطتان : أي السلطة الشرعية لصاحب العرش ، والسلطة العملية التي اغتصبها عميل انكلترة .

٢ عزيزكم : الخطاب لأهل مصر .

من الألم لأنّه ضنّ بالدّستور :

أُوذِيتَ مِنْ دُسْتُورِهِمْ، وَحَنَنْتَ للحُكمِ العَسيرِ

ثمّ يبايع الخليفة الجديد ويمدحه ، ويمدح أبطال الدّستور الذين خلعوا عبد الحميد ، ولا يجد في ذلك حرجاً ما دام السلطان للأتراك والخلافة فيهم .

إلا أن حال شوقي تبدّلت بعد الحرب ، فلا هو اتّصل بالقصر ، ولا هو شاعر الأمير ؛ فأصبح في سياسته ألصق بالشعب ، وأقرب إلى القلوب ؛ وإن لم يغفل عن مدح صاحب العرش وتأييده ، وهو الوفي لأبناء إسماعيل . ولكن هذا المدح كان يأتي عرضاً لا غاية ؛ يستطرد إليه الشاعر في بسطه لحادث سياسي أو اجتماعي يشغل مصر ، فيثني على الملك بعمل حميد أتاه ، أو يحضّه على عمل صالح يريد أن يأتيه . وإنّما يجعل همّه في الدّفاع عن مصر ، واستقلالها ، وحرّيتها . ولا تأخذه هوادة في الحملة على الانكليز ، والتنديد بأعمالهم ، وتقبيح تصرّفهم في البلاد .

وإذا رأى في الأمّة شقاقاً وخلافاً ، ثار ثائره ، وهبّ يدعو الأحزاب إلى الوئام ، وترك الشحناء ، خشاة أن يستغل الغريب خصامهم . ولم يكن ينتسب إلى حزب سياسي ، بل كان يضع حرّيّة مصر واستقلالها فوق الأحزاب . فإليك كيف يؤنّب المصريّين على تخاذلهم ، وانقسامهم :

إلامَ الخُلْفُ بَيْنَكُمُ إلامَا ؟ وَهَذي الضّجّةُ الكُبرَى عَلامَا ؟
وَفيمَ يَكيدُ بَعضُكُمُ لِبَعضٍ ، وَتُبْدُونَ العَداوَةَ ، وَالخِصَامَا ؟
وَأينَ الفَوْزُ ؟ لا مصرُ اسْتَقَرّتْ على حَالٍ ، وَلا السّودانُ دَامَا !

ومنها يصف حالة مصر ، والدّولة المحتلّة :

تَبَاغَيْتُمْ كَأَنَّكُمُ خَلايَا مِنَ السَّرَطَانِ ، لا تَجِدُ الضِّمَامَا
أَرَى طَيَّارَهُمْ أَوْفَى عَلَيْنَا ، وَحَلَّقَ فَوْقَ أَرْؤُسِنَا ، وَحَامَا
وَأَنْظُرُ جَيْشَهُمْ مِنْ نِصْفِ قَرْنٍ ، عَلَى أَبْصَارِنَا ضُرِبَ الخِيَامَا
فَلَا أُمَنَاؤُنَا نَقَصُوهُ رُمْحاً ، وَلَا خُوَّانُنَا زَادُوا حُسَامَا
وَنُلْفِي الجَوَّ صَاعِقَةً ، وَرَعْداً ، إِذَا قَصْرُ الدُّبَارَةِ ، فِيهِ غَامَا[1]
إِذَا انْفَجَرَتْ عَلَيْنَا الخَيْلُ مِنْهُ ، رَكِبْنَا الصَّمْتَ ، أَوْ قُدْنَا الكَلَامَا
فَأُبْنَا بِالتَّخَاذُلِ ، وَالتَّلَاحِي ، وَآبَ بِمَا ابْتَغَى مِنَّا وَرَامَا[2]

ولم يطلّق شوقي السياسة التركيّة ، وإن انقطعت علاقة الأتراك بمصر . بل ظلّ يراقب سير الحوادث عندهم ، ويعنى بها ، مدفوعاً بعاطفة الحبّ والوشيجة ، والدّين . فتراه يحمل على الخليفة وحيد الدّين ، لاعتماده على الانكليز ، ويمدح مصطفى كمال ، ويهنّئه بانتصاره على اليونان . ثمّ تلغى الخلافة فيتألّم لإلغائها ، ويعاتب الغازي في رفق وحزن ، لمحوه إيّاها ، وهي « ملاءة فخر الأتراك . » ويخشى أن تعود إلى العرب ، ويتولاها الحسين بن عليّ ، فيطعن في الحسين العاجز ، الذي مدّ يده في الحرب إلى موالاة الأعــداء . ويدعو المسلمين إلى الإعراض عن مبايعته .

ثمّ لا يلبث مصطفى كمال أن يرفع دعائم الجمهوريّة ، على أنقاض

١ قصر الدبارة : مقر العميد الإنكليزي في مصر .

٢ التلاحي : التلاعن والتلاوم . وآب : الضمير يعود إلى قصر الدبارة .

الخلافة . فيبتهج شوقي ابتهاجه بكلّ شيء يعلي شأن الأتراك والمسلمين . فيمدح الجمهوريّة ، ويذمّ حكم الفرد ، إلا أنّه لم ينسَ الخلافة بل ظلّ يرجو عودتها إلى الترك ، وأن تكون شورى بينهم شأنها في فجر الإسلام :

عُودي إلى ما كنتِ في فجرِ الهُدى ، عُمَرٌ يَنسوسُكِ ، والعتيقُ يَليكِ [1]

ومهما تعقّدت سياسة شوقي ، وتناقضت ، وتباينت ، فإنّه ثابت على أمور لا يتخلّى عنها . أوّلها استقلال مصر ، وأن يكون الملك دستوريّاً في أبناء إسماعيل . وثانيها عودة الخلافة إلى الأتراك لأن فيها عزّهم وعزّ الإسلام . ولا بأس عنده أن تجعل شورى كما كانت في عهد الخلفاء الرّاشدين .

الاجتماع

شعر الاجتماع ممتزج عند شوقي بشعره السياسي والتاريخي . فرب قصيدة اجتماعيّة اشتملت على الآراء السياسيّة ، والحوادث التاريخيّة معاً . لذلك افرد لهذه الأنواع الثلاثة باباً واحداً في ديوانه .

وكانت اجتماعيّاته في أوّل أمره تتّصل بالشعر التعليمي الخاص ، كأناشيد الأحداث ، والحكايات الخرافيّة على ألسن الحيوان . ثمّ ارتفع بها إلى الأغراض العامّة ، وأدمج فيها السياسة والتاريخ لاعتماد هذه الأنواع بعضها على بعض . وكان وهو شاعر الأمير لا يتعدّى بها سياسة القصر ، وتقاليده . فإذا عرض لقضيّة السفور والحجاب ، جارى

١ العتيق : لقب أبي بكر .

المحافظين في رأيهم بحجاب المرأة . لأن شاعر الأمير لا يجمل به أن ينادي بالسفور ، وإن يكن هواه فيه ، وهو الذي شهد حضارة باريس ، وتثقّف ثقافة غربيّة راقية .

وممّا لا ريب فيه أن عقيدة الحجاب غير متمكّنة من نفس الشاعر ، وإن حافظ على تقاليدها في أسرته . فقد نظم قصيدة « صدّاح » ورمز إلى المرأة ببلبل جميل يكرم في قفصه ، ولا يطلق سراحه لئلاّ يطير فيهون على الصيّادين . ورأى الغيد في الآستانة ، سوافر على ضفاف كوك صو يغتسلن ، فأنكر الحجاب ، ونسي أنّه شاعر الأمير :

فَقُلْ للجانِحِينَ إلى حِجَابٍ ، أتُحجَبُ عن صَنيعِ اللهِ نَفسُ ؟
إذا لَمْ يَستُرِ الأدبُ الغَواني ، فَلا يُغْني الحَريرُ ، وَلا الدِّمَقسُ

بيد أنّه لم يجرؤ على المجاهرة برفع الحجاب ، إلا بعد أن ابتعد عن القصر ، وتحرّر من سياسته وتقاليده . فنقض قصيدة صداح ، وأخذ برأي قاسم أمين[1] ونادى بحرّيّة الإناث . ودونك بعض ما يقول في صدّاح ثمّ في نقيضتها :

بِالرَّغْمِ مِنّي مَا تُعَالِجُ في النُّحاسِ المُقْفَلِ
حِرْصِي عَلَيكَ هَوًى ، وَمَنْ يُحْرِزْ ثَميناً ، يَبْخَلِ

ومنها يحكم بالحجاب وطبيعته :

أنتَ ابنُ رَأيٍ للطَّبيعَةِ فيكَ غَيرِ مُبَدَّلِ

[1] هو زعيم المنادين بتحرير المرأة المسلمة ، في كتابيه تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، توفي في مصر سنة ١٩٠٨ .

أَبَداً مَــــرُوعٌ بالإِســـارِ ، مُهَــدَّدٌ بالمَقْتَــلِ
إنْ طِرْتَ عَنْ كَنَفي وَقَعْـ ـتَ على النُّسُورِ الجُهَّــلِ

وقال في نقيضتها :

قُلْ للرِّجَالِ طَغَى الأسيرْ ، طَيرُ الحِجَالِ مَتى يَطيرْ ؟[1]
أَوْهَى جَنَــاحَيْهِ الحَدِيدُ ، وَحَزَّ سَاقَيْهِ الحَــرِيرْ
ذَهَبَ الحِجَابُ بِصَبْرِهِ ، وَأَطَالَ حَــيرَتَهُ السُّفُورْ

ومنها :

إنَّ السَّمَـــاءَ جَدِيرَةٌ بِالطَّيْرِ ، وَهْوَ بِهَا جَدِيرْ

وشوقي على الحالين ، يرى تعليم المرأة ورقيّها ، ويأبى لها الجهل والخمول :

وَإذا النِّسَاءُ نَشَأْنَ في أُمِّيَّـةٍ ، رَضَعَ الرِّجَالُ جَهَالَةً وَخُمُولا

وينكر بيعها بالدّينار لرجل لا يستحقّها . وأكره شيء إليه تزويج الفتيات بالشيوخ :

ألمَالُ حَلَّلَ كُلَّ غَيرِ مُحَلَّلٍ ، حتّى زَوَاجَ الشِّيبِ بِالأَبْكَارِ
مَا زُوِّجَتْ تِلْكَ الفَتَاةُ وَإنَّمَا بِيعَ الصِّبَا وَالحُسْنُ بِالدِّينَارِ

ولم يقتصر تطوّر شعره على المرأة وحدها بعد تركه القصر ، بل تجاوز إلى الأغراض الاجتماعيّة الطليقة من سياسة الخلافة ، والعرش

١ الحجال : جمع حجلة : خدر المرأة .

المصري . إلى الشعر الذي لا تقف دونه الحدود والأمصار ، الشعر الذي جعل من صاحبه شاعر الشعب لا شاعر الأمير ، وشاعر الشرق الإسلامي لا شاعر مصر وحدها :

كانَ شِعرِي الغِناءَ في فرَحِ الشَّرْ قِ ، وكانَ العزَاءَ في أحزَانِهْ

ويجمع مصائب الشّرق فيجعلها واحدة :

وَنحنُ في الشرْقِ والفُصْحى بنو رَحِمٍ وَنحنُ في الجُرْحِ والآلامِ إخوَانُ

وهذا البيت من قصيدة رائعة عارض بها نونية أبي البقاء الرّندي ، ونفثها في دمشق زفرة حارّة على المسجد الأموي ، وعزّ بني أميّة البائد . قال منها :

بَنُو أُميّةَ للأنبَاءِ مَا فتَحُوا ، وَللأحَادِيثِ مَا سَادُوا، وَما دانوا
كانوا مُلوكاً سَرِيرُ الشرْقِ تحتَهُمُ ، فهلْ سألتَ سريرَ الغرْبِ: ما كانوا ؟
عَالينَ كالشمس في أطرَافِ دولتها ، في كُلّ نَاحِيَةٍ مُلْكٌ وَسُلطانُ
بالأمسِ قُمتُ على الزّهرَاءِ أندبهم، وَاليوْمَ دمعي، على الفَيحاء، هتّان[1]
مَعادنُ العزّ قد مالَ الرَّغَامُ بهِمْ، لَوْ هَانَ في تُرْبِهِ الإبريزُ ما هانوا
مَرَرْتُ بالمَسجدِ المَحزُونِ أسألُهُ: «هل في المصَلّى أوِ المِحرابِ مرْوانُ؟»
تَغيّرَ المسجدُ المَحزُونُ، وَاختلفتْ عَلى المَنَابِرِ أحرَارٌ وَعِبـْدَانُ
فَلا الأذَانُ أذَانٌ في مَنَارَتِهِ ، إذَا تعَالى ، وَلا الآذانُ آذَانُ

١ الزهراء : قصر للمعتمد بن عباد على نهر إشبيلية . ومدينة قرب قرطبة : بناها عبد الرحمن الثالث الخليفة الأموي .

وله قافيّة بديعة نظمها لما نكبت دمشق في الثورة الدّرزيّة السوريّة على عهد الجنرال ساراي القائد الفرنسي وفيها عتاب لطيف لفرنسة الّتي أحبّها ، وطالما أشاد بذكرها لتثقّفه فيها . قال منها والخطاب لدمشق :

رَمَاكِ بِطَيْشِهِ ، وَرَمَى فرنسَا ، أخو حَرْبٍ ، بِهِ صَلَفٌ وَحُمْقُ
إذَا مَا جَاءَهُ طُلاَّبُ حَقٍّ ، يَقُولُ : عِصَابَةٌ خَرَجُوا وَشَقّوا
دَمُ الثُّوَّارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا ، وَتَعْلَمُ أنَّهُ نُورٌ وَحَقٌّ
جَرَى في أرْضِهَا ، فِيهِ حَيَاةٌ ، كَمُنْهَلِّ السَّمَاءِ ، وَفِيهِ رِزْقُ
بِلادٌ مَاتَ فِتْيَتُهَا لِتَحْيَا ، وَزَالُوا دُونَ قَوْمِهِمُ لِيَبْقُوا
وَحُرِّرَتِ الشُّعُوبُ على قَنَاهَا ، فكَيْفَ عَلَى قَنَاهَا تُستَرَقُّ ؟ !

ومنها هذا البيت العائر :

وَللحُرِّيَّةِ الحَمْرَاءِ بَابٌ ، بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

ومن قصائده الاجتماعيّة السّامية مملكة « النحل » وفيها يدعو إلى العمل والاستقلال الذاتي بأسلوب رمزي جميل يصف به دولة النحل وما هي عليه من نظام وتدبير وبُعد نظر . وكذلك قصيدته مصاير الأيّام في وصف حياة الإنسان منذ عهده بالمدرسة إلى يوم يشيب ويطويه الدّهر ، وهي من خير شعره .

على أن شغفه بالاجتماعيّات كلّفه أن يتناول كلّ دقيقة وجليلة منها ، فرويت له قصائد باردة ضعيفة الرّوح الشعري ، كقصيدة أيّها العمّال ، وقصيدة الصّحافة ، وسواهما .

الدين

لم يكن شوقي من المتعبّدين القانتين الذين يصرفون النفس عن متع الحياة وملاذها ، ولا يجدون مشقّة في التشبّث بأحكام الدّين وفروضه واتباع أوامره ، ونواهيه ؛ بل ابتلي بالمعاصي كما ابتلي غيره من الشعراء وشرب الخمر ولها وعبث . وقعدت همّته عن الحجّ إلى البيت الحرام عندما دعاه الخديوي عبّاس إلى مرافقته ، فاعتذر شاكياً تعب الرّحلة وبعد الشقّة ، في حين لم يضق بأسفاره المتعدّدة إلى الآستانة ، ومدائن أوربة .

على أنّه لم يكن مغموز العقيدة فاتر الإيمان ، وإنّما هو من أولئك النفر الذين عظمت ثقتهم بعفو الله ، فلم يحرموا النفس شهواتها ، ولا أحرجوها باتّباع الشرائع ، وإقامة أحكامها :

إنْ جَلَّ ذنبي عنِ الغفرانِ لي أمَلٌ ... في اللهِ يَجعلُني في خيرِ مُعتصَمِ

وكان للدّين أثر قوي في شعره، اصطبغت به طائفة من قصائده، بله القصائد التي خصّها بهذا الغرض كنهج البردة ، والهمزية النبويّة[1] في

[1] عارض بهما بردة البوصيري ، وهمزيته . مطلع البردة :

أمن تذكر جيران بذي سلم ، ... مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

ومطلع نهج البردة :

ريم على القاع بين البان والعلم، ... أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

ومطلع همزية البوصيري :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ؟ ... يا سماء ما طاولتها سماء ؟

ومطلع همزية شوقي :

ولد الهدى فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسم وثناء

مدح محمّد ، وذكر سيرته . فقصيدته التي قالها في مؤتمر المستشرقين هي تاريخ لديانات المصريّين القدماء ، وللأديان الثلاثة التي جاء بها موسى والمسيح ومحمّد . وإليك قوله في مولد عيسى :

وُلِدَ الرِّفقُ يَوْمَ مَوْلِدِ عيسَى ، وَالمُرُوءاتُ ، وَالهُدَى، وَالحَياءُ
وَازْدهى الكَوْنُ بالوَليدِ ،وَضاءتْ ، بِسَنَاهُ مِنَ الثَّرَى الأرْجَاءُ
وَسَرَتْ آيَةُ المَسيحِ كمَا يَسْـ ـري مِنَ الفَجرِ في الوُجُودِ الضِّيَاءُ
تَمْلأُ الأرْضَ وَالعَوَالِمَ نُوراً ، فَالثّرَى مَائِجٌ بِهَا وَضَّاءُ
لا وَعيدٌ ، لا صَوْلَةٌ ، لا انتِقامٌ ، لا حُسامٌ ، لا غَزْوَةٌ ، لا دِمَاءُ

وقوله يصف التنزيل على محمّد :

فَلِجِبْرِيلَ جَيْئَةٌ وَرَوَاحٌ ، وَهُبُوطٌ إلى الثّرَى ، وَارْتِقَاءُ
يحسَبُ الأُفْقُ ، في جَنَاحَيهِ نُورٌ ، سُلِبَتْهُ النّجُومُ وَالجَوْزَاءُ[1]
تِلكَ آيُ الفُرْقَانِ أرْسَلَهَا اللّـ ـهُ ضِيَاءً يَهْدي بِهِ مَنْ يَشَاءُ
نَسَخَتْ سُنَّةَ النَّبِيِّينَ وَالرُّسْـ ـلِ كمَا يَنْسَخُ الضِّيَاءَ الضِّيَاءُ

وشوقي مولع بذكر الأنبياء والملائكة والقدّيسين ، والجنّة وحورها وولدانها . ومولع بالتلميح إلى الحوادث الدّينيّة المشهورة ومولع خصوصاً بذكر المسيح . فإذا نعت نفسه بالصفح والرّحمة تشبّه بابن مريم فقال :

وَلا بِتُّ إلاّ كابنِ مَرْيَمَ مُشفِقاً ، على حُسّدي ، مُسْتَغْفِراً لِعِداتي

١ في هذا البيت تقديم وتأخير . والمراد : في جناحي جبريل نور يحسبه الأفق أنه مسلوب من النجوم والجوزاء .

وإذا ذكر الدّستور ، شبّهه بعيسى ، ورأى فيه شفاءً لعميان البصائر ، وإنهاضاً للمقعدين الخاملين :

فتَداوِ بهِ البَصائرَ فهْوَ عيسَى ، وَفُكَّ بِراحتَيْهِ المُقْعَدِينَا[1]

ولا يتحرّج أن يجاري عقيدة النصارى في المسيح ، فيعترف بصلبه وقيامته . قال يخاطب توت عنخ امون بعد نبش آثاره :

خرَجتَ من القبورِ خروجَ عيسَى ، علَيْكَ جَلالَةٌ في العالَمينَا

وقد يتّخذ المسيح والصّليب حجّة له في مخاطبة دول النصارى بالشؤون السياسيّة . قال في اندلسيته الجديدة :

عيسَى سَبيلُكَ رَحْمَةٌ ومَحَبّةٌ ، في العالَمينَ، وَعِصْمَةٌ وَسَلامُ

ما كنتَ سفّاكَ الدّماءِ، ولا امْرَأً هانَ الضِّعافُ عليْهِ والأيْتامُ

يا حامِلَ الآلامِ عن هذا الوَرَى ، كَثُرَتْ عليهِ، باسمِكَ، الآلامُ

وقال يخاطب اللّورد ألنْبي بعد رفع الحماية عن مصر :

يا فاتحَ القُدسِ، خلّ السيفَ ناحيةً ، ليسَ الصّليبُ حديداً كان، بل خشَبَا

إذا نَظرْتَ إلى أينَ انتهتْ يَدُهُ ، وكيفَ جاوزَ في سُلطانِهِ القُطُبَا

علمتَ أنّ وَرَاءَ الضَّعفِ مَقدُرَةً ، وأنّ للحَقّ، لا للقُوّةِ، الغلَبَا

فالدّين كما ترى بل الأديان على اختلافها ، تشغل جانباً من منظومات الشاعر .

١ الخطاب للملك فؤاد . والضمير في به للدستور .

الوصف

فتح شوقي للوصف باباً رحباً في شعره ، وتناول الموصوفات على اختلاف أنواعها، وأجاد نعتها وتصويرها.وهو بارع في الأوصاف المادية أكثر منه في الأوصاف المعنويّة ، يجيد نعت أعضاء المرأة ، وحسن صورتها . وقد يضيق بوصف لواعج الحبّ ، وأثر الغيرة في النفس ، وتصوير عواطف المرأة ، وطباعها ، وأهوائها . ويحسن نعت الطبيعة الناضرة الباسمة ، وعرض مفاتنها ، واتّساق ألوانها . ويقصر في تصوير إحساسه بها ، واتحاد روحه بروحها . ويمعن في ذكر المغنّين ومدح أصواتهم ، وقلّما عني بوصف الغناء ، وإظهار مواطن الجمال فيه فعل ابن الرّومي .

وأوصافه منها قديمة ينسحب بها على أذيال المتقدّمين كوصف الخمر والمرأة . ومنها جديدة كوصف الرّقص الحديث ، وحضارة المدن الغربيّة وآثار الفراعنة ، وصبيان المكتب ، والطيّارات ، والغوّاصات. ومنها بين القديم والحديث كوصف الطبيعة ، والحرب ، والرّسوم، والآثار ، والمدن المنكوبة .

وله صور رائعة ترسم المشهد المتعدّد الحالات ، بإيجاز قوي ، وسرعة فائقة ، كوصف غرق السفينة :

طُعنتْ، فانبَجستْ، فاستصرَختْ، فأتاهـا حَينُها ، فهْيَ خَبَرْ[1]

ووصفه درجات الحبّ :

نَظْرَةٌ، فَابْتِسَامَةٌ، فَسَلامٌ، فَكَلامٌ ، فَمَوْعِدٌ ، فَلِقَاءُ

١ هذه السفينة أغرقتها غواصة ، لذلك قال طعنت .

ووصفه انطلاق المدفع :

إذَا عَصَفَ الحَدِيدُ احمرّ أفْقٌ ، عَلَى جَنَبَاتِهِ ، وَاسْوَدّ أفْقُ

وينطلق به خيال جميل مجنّح ، يطير إلى الصّور المخدّرة ، فيهتك حجابها ويمسحها بمختلف الألوان ، ويجسمها ، ويحيي ميتها . كوصفه الرّيح وقد مرّت على بردى ، فارتدّت بليلة :

وَقد صَفا برَدى للرّيحِ ، فَابترَدَتْ لَدَى ستُورٍ ، حوَاشِيهنّ أفنانُ
ثمّ انثَنَتْ لم يزَلْ عنها البَلالُ ، وَلا جَفّتْ مِنَ المَاءِ أذْيَالٌ وَأرْدانُ

الغزل

تغزّل شوقي ، ولكنّه لم يبرع في هذا الفنّ براعته في غيره من الأغراض . لأن الغزل من الوجدانيات التي ينبغي للشاعر أن يحسّ تأثيرها في نفسه . فإن لم يكن لألم الحبّ من سلطان على قلبه ، فهيهات أن يأتي بغزل عاطفي صادق اللّوعة ، متواصل الحنين . وشوقي لم يكن من المتيّمين المتألّمين ، ولا من العشّاق الرّوحانيّين ، وإنّما هو صاحب لذّة يتتبعها في مواطنها ، فما تحرمه سعة يده الوصول إليها . فلم يشعر بذلك الألم الذي يشعر به من يغرى بشيء ويصعب عليه نيله ، فيأسف عليه ، ويأسى ، وتثور عاطفته وجداً وكمداً . فيلفظها لسانه قطعاً دامية من أفلاذ كبده .

ولم يكن شوقي مجاهراً بلذّته ، فيستر عجزه عن بثّ لواعجه بغشاء من القصص الغرامي ؛ لأن البيئة التي وجد فيها قضت عليه بالترصّن والتستّر . فشاعر الخديوي لا يصحّ له أن يكون مستهتراً ، بل لا يصحّ

له أن يغني بالنسيب . وربّما استهلّ مدحته متغزّلاً ، وأراد نشرها في جريدة الحكومة ، فتوعز بطانة الأمير إلى مدير المطبعة أن يسقط الغزل منها ، كما أصاب قصيدته : خدعوها بقولهم حسناء .

ومثل هذا التعرّض من الحكومة يخمد نشاط الشاعر إلى النسيب ، ويحمله على الاقتصاد فيه ، وقلّة التبسّط في شرح أحواله .

وشوقي في غزله مقلّد متكلّف ، يترسّم البهاء زهير في سهولة ألفاظه ، ولين تعابيره ، وخفّة أوزانه ، وابتذال معانيه :

مُضْنًى، وَلَيْسَ بِهِ حَرَاكْ ، لَـــكِنْ يَخِفّ إذَا رَآكْ

فكأنّه ينظم هذا الشعر ، لا رغبة في النسيب ، وإنّما ليتغنّى به المغنّون .

ويعارض أبا الحسن الحصري القيرواني في قصيدته الشهيرة : يا ليلُ، الصبُّ متى غدُهُ ؟ والمعارضة ضرب من التقليد :

مُضْنَاكَ جَفَاهُ مَرْقَدُهُ، وَبَكَاهُ وَرَحَّمَ عُوَّدُهُ

ويحاول أن يحتذي ابن أبي ربيعة في زياراته اللّيليّة ، فيطرق فتاة الحي ، وتزجره النساء . حتّى إذا عرفنه ، طلبن منه الأمان للعذارى . ولكنّه يقصر عن عمر أشواطاً ، سواء في الصراحة والصدق ، أو في جمال القصص والحوار .

ويصطنع غزل الشعراء الفرسان ، فيمزج ألفاظ الحبّ بألفاظ الحرب ، وهو لم يشهد وغى ، ولا حمل سيفاً ولا رمحاً :

فلَكَمْ رَجَعْتُ مِنَ الأسِنَّةِ سالماً، وَصَدَرْتُ عن هيفِ القُدُود طعينَا

ويدخل الحكمة في نسيبه كالمتنبي :

وَأعلَمُ أنَّ الغدرَ في النّاسِ شائعٌ ، وَأنّ خَليلَ الغَـانيـاتِ مُضَيَّعُ

ويخشوشن مثله ، فيقاتل العيون ، كما قاتل أستاذه الخدود :

يَا قَاتَلَ اللهُ العُيُونَ فَإنّهَـا ، في حَرّ مَا نَصْلى، الضّعيفُ البادِي

ويتغزّل بالطبيعة كأنّها امرأة فعل ابن الرّومي :

وَدخَلتُ في لَيلَينِ،فرْعِكِ وَالدُّجى، وَلَثَمتُ كالصّبْحِ المُنَوِّرِ فَاكِ

وهو مقلّد في وصف محبوبه ، يعنيه أن ينعت شعره وعينيه وثغره ورضابه وقوامه . ويخصّه بالتّشابيه المبتذلة : باللّيل ، والسيوف ، واللؤلؤ ، والكوثر ، والغصن . وقلّما يلتفت إلى وصف العواطف ، والأهواء ، وما يعتاد النفس من شوق وصبابة ، وغيرة وحرقة ، وخوف وأمن ، ويأس ورجاء . أو إلى تصوير طباع محبوبه ، وما يلتقطه من حركاته وسكناته ، وغنجه ودلاله . بيد انّه يذكر طول ليله ، ويراعي النجم ، ويتحدّث إلى الحمام ، ويشكو ويئن ويتظلّم متشبّهاً بالشعراء المتيّمين .

ولا يخلو غزله من جمال الفنّ وحسن الصنعة ، وإن خلا من صدق العاطفة ، وجدة المعنى . وقد تخضع له أبكار المعاني ، ولا تستسلم بنات العواطف كقوله :

صُوني جَمَالَكِ عَنّا إنّنا بَشَرٌ من التّرابِ، وَهذا الحسنُ رُوحاني

أوْ فابتَغي فَلَكاً، تَأوينَهُ مَلَكاً ، لمْ يَتّخِذْ شَرَكاً في العَالَمِ الفَاني

المدح

لم يكن شوقي أوّل الأمر يرى خيراً في المدح ، وإنّما كان يأسف أن يُتّخذ الشعر حرفة للتكسّب . وقد أعرب عن هذا الرّأي في مقدّمة ديوانه الأوّل ، ونعى على الشعراء الذين يضيعون شعرهم بالمديح . ولكنّه اعترف بأنّه ينهى عن خلق ويأتي مثله ، واعتذر بقوله : انّه قرع أبواب الشعر ، ولم يجد أمامه إلاّ دواوين لا مظهر للشعر فيها ، وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء . والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحاً في مقام عالٍ ، ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الأسمى . فما زال يتمنّى هذه المنزلة حتّى بلغها ، واصطنع المديح ، واتبع القدماء . لأنّه رأى أنّ الخير في الاحتراس من مفاجأة النّاس بالشعر الجديد دفعة واحدة .

وإذا عدنا إلى منظوماته في صباه نرى أنّه كان يحاول أن يتّخذ للشعر وجهة جديدة تبعد به عن القديم البالي . ولكن الأقدار خالفته من حيث حالفته ، وأصابه ما أصاب شعراء العرب من قبل : حظوة عند الأمراء ، ورزق واسع ، وشاعريّة مقيّدة ، مرهونة بالمديح ، وما يشبه المديح . فقنع من دنياه بأن يكون :

شَاعِرُ العَزِيزِ وَمَـا بِالقَلِيلِ ذَا اللَّقَبُ

فانصرف إلى المدح الذي كان يمقته ، ويجد به غضاضة على الشعر والشعراء . فأنس به بعد استيحاش ، وحالفه بعد خلاف . ولم يتحرّج من الغلو الممقوت والتزلّف والتذلّل ، ولم يجزع من التقهقر مئات من السنين إلى الوراء :

وَقِيلَ : ابنُ رَبِّ النِّيلِ ! فافْتَرّتِ القُرَى ،

وَنَاجَى الثّرَى نَعْلَيْكَ يَسْتَوْهِبُ الخِصْبَا

. . .

فاسمَعْ لِعَبْدِكَ وَابنِ عبدكَ مَنطقاً مُتَطايراً بِكَ في القَوَافي صِيتُهُ

. . .

إلَيكَ عَزِيزَ المَالِكِينَ بعَثْتُهَا تُقَبِّلُ عني ، دونَ أعتابكَ ، التُّرْبَا

وبلغ من إفراطه في تمويه الحقيقة أن جعل عصر عبد الحميد خير العصور على الرّعيّة :

عُمَرٌ أنْتَ ، بَيْدَ أنكَ ظِلٌّ للبَرَايا ، وَعِصْمَةٌ وَسَلامُ

مَا تَتَوّجْتَ بِالخِلافَةِ حتّى تُوّجَ البَائِسُونَ وَالأيْتَامُ

وَسَرَى الخِصْبُ وَالنَّماء وَوَافَى الـ بِشْرُ ، وَالظِلُّ ، وَالجنى ، وَالغمامُ

. . .

وكان معجباً بمدائح البحتري وحسن ديباجته . فلمّا أراد أن يصف موكب عبّاس في يوم عيده لم يغفل عن معارضة الوليد في رائيته التي وصف بها موكب المتوكّل يوم الفطر ، فتوكّأ عليها وتعلّق بألفاظها ومعانيها ، ولكنّه انحدر عنها انحداراً مشؤوماً . قال في مطلعها متغزّلاً :

أشكو هَوَاكِ لِمَنْ يَلُومُ فيَعذِرُ ، وَأُجادِلُ العُذّالَ فيكِ ، وَأُكثِرُ

ويثب فيها إلى المدح وثباً كصاحبه البحتري حتى يصل إلى وصف الموكب :

باكَرْتَ دارَ المُلْكِ فيهِ بمَوْكِبٍ ، قامَ السَّرَاةُ بهِ ، وَحَفَّ العَسكرُ[1]

[1] به : أي بيوم العيد .

رَاعَتْ رَوَائِعُهُ النَّهَارَ جَلالَةً ، فالشمسُ تُجفِلُ ، وَالضُّحى تستأخِرُ
كُسِيَ الخميسُ بِجَمالِكَ رَوْنقاً ، وَأُعيرَ غُرَّتَكَ اللِّوَاءُ الأحْمَرُ
فَالأرْضُ مائِجَةُ المَذاهِبِ بالقَنَا ، وَالأفقُ حالٍ بالسُّيُوفِ مُجَوْهَرُ

غير أنّه بعد رجوعه من الأندلس ، وتخلّصه من شرك القصر ، تغيّرت صبغة مدائحه ، فذهب عنها الغلو الكاذب . وترفّعت عن العبوديّة والزلفى ، وإن لم تتنزّه في الجملة عن التقليد . فأصبح الشاعر يتّخذ من المدح وسيلة إلى النصح والإرشاد ، وطلب الإصلاح والعمران كقوله يمدح الملك فؤاداً :

فَعَجِّلْ يا ابنَ إسماعيلَ عَجِّلْ ، وَهاتِ النّورَ ، وَاهْدِ الحائِرِينَا[1]
هُوَ المِصْباحُ ، فأتِ بِهِ وَأخْرِجْ ، مِنَ الكَهْفِ ، السَّوَادَ الغافِلِينَا
مَلايينٌ تَجُرُّ الجَهْلَ قَيْداً ، وَتُسْحَبُ بِالقَليلِ المُطْلَقِينَا[2]
فَداوِ بِهِ البَصَائِرَ فَهْوَ عِيسَى ، وَفُكَّ بِرَاحَتَيْهِ المُقْعَدِينَا

وممدوحو شوقي كثر ، فمن الأمراء العلويّين : إسماعيل ، وتوفيق ، وعبّاس ، والحسين ، وفؤاد . ومن الخلفاء : عبد الحميد الثاني ، ومحمّد رشاد . ومن الرّؤساء والزّعماء : مصطفى كمال ، وسعد زغلول . ومن الدّول : فرنسة ، وانكلترة . ومهما تعدّد ممدوحوه من أمراء مصر ، فهو صادق العاطفة ، يخلص لهم الولاء جميعاً ، وإن اختلفت لهجته في مخاطبتهم باختلاف زمانه ومكانه . وهو صادق في

١ النور : كناية عن الدستور .
٢ وتسحب الخ : أي يسحبها أشخاص قليلون هم الذين أطلقوا من ذاك القيد .

مدح الأتراك ، ملكيّين كانوا أو جمهوريّين . وأصفى مودّة لفرنسة منه لانكلترة .

الرثاء

توفر شوقي على الرّثاء أكثر منه على المدح لأن مدائحه كادت لا تتجاوز طبقة الملوك والأمراء والزّعماء . وأمّا مراثيه فقد عمّت طبقات مختلفة . فانتظم له منها شيء غير قليل ، ولقي بسببها لوم النقاد وعنتهم ؛ وإلى هذا يشير في بعض مرثياته :

يقولونَ يَرْثي الرّاحِلينَ، فويحهُمْ! أأمّلتُ عند الرّاحلينَ الجوَازِيا ؟

ولا نكير أن الشاعر صادق ، لم يتّخذ الرّثاء أداة للتكسّب والزلفى ، بل كان يندفع إليه إمّا بعامل التأثّر ، وإمّا بعامل الواجب ، وإمّا إرضاء للحاسّة الفنيّة في نفسه . وكان صادق الولاء في كثير من مراثيه ، بادي الحزن والأسف . غير أنّه لم يكن بكّاءً عاطفيّاً ، ولا مصوّراً للوعته وحزنه ، ووقع المصاب عليه ؛ حتّى في رثائه لأحبّ النّاس إليه كأبيه وأمّه وجدّته والأمير توفيق ولي نعمته . فكأن قواه العاقلة تأبى عليه أن يستسلم إلى الضّعف والجزع عند حلول النّوائب ، وتزين له الصبر والترصّن والحكمة . فكان رثاؤه لأبيه تفلسفاً أكثر منه تفجّعاً :

أنَا مَنْ مَاتَ وَمَنْ مَاتَ أنَا ، لَقِيَ المَوْتَ كِلانَا مرّتَين
نَحنُ كنّا مُهجةً في بَدَنٍ ، ثمّ صِرْنَا مُهْجةً في بَدَنَين
ثمّ عُدْنَا مُهْجَةً في بَدَنٍ ، ثمّ نُلْقَى جُثّةً في كَفَنَين

ثمّ نحيّا في عليّ بعدَنا ، وبه نُبعثُ أولى البعثتين[1]

ونعيت إليه والدته وهو بالأندلس ، وهي بمصر ، فتذكّر المتنبي عندما نعيت إليه جدّته وهو بعيد عنها . وأراد الرّثاء فغلب عليه حبّ المعارضة ، فخضع لإرادته ، مع ما هو عليه من الحزن والألم ، فجاءت مرثيته متكلّفة ظاهرة التقليد ، تعرج عرجاً وراء قصيدة أبي الطيّب وقد صدرها بالشكوى والحكم المبتذلة حتّى وصل إلى قوله ، وفيه التقليد البيّن :

لكِ اللهُ من مطعونةٍ بقنا النوى، شهيدةِ حربٍ، لم تُقارفْ لها إثما
سقاها بشيري،وهْيَ تبكي صبابةً، فلمْ يقوَ مغناها على صوْبهِ رَسما[2]
أستْ جُرْحَها الأنباءُ غيرَ رفيقةٍ، وكمْ نازعٍ سهماً، فكان هوَ السهما
تغارُ على الحُمّى الفضائلُ والعُلا، لما قبلتْ منها، وما ضمّتِ الحمّى

ولم يغفل عن التبجّح بنفسه حتّى الإفراط أسوة بأبي الطيّب :

أتيتُ بهِ لمْ ينتظمِ الشعْرَ مثلُه، وجئتُ لأخلاقِ الكرامِ به نظما
ولوْ نهضتْ عنهُ السّماءُ، ومخّضتْ به الأرضُ كان المُزْنَ والتّبرَ والكرْما[3]

ولم يكن رثاؤه لجدّته خيراً من رثائه لأمّه ، ولا أقلّ تقليداً للمتنبي .

١ علي : ابنه البكر .

٢ يقول : سقاها المبشر برجوعي من الأندلس ، صوباً هطالا من السرور وهي تبكي شوقاً ، فلم يستطع رسم مغناها أي جسمها الضعيف أن يحتمل هذا المطر القوي .

٣ السماء : السحاب . يقول : لو ارتفع عنه السحاب متبخراً ، أو لو تمخضت به الأرض لتلد شيئاً ، لكان للسحاب مطراً بكرمه ، وللأرض ذهباً بنفاسته ، وكرماً بشعره أي خمراً تسكر .

وأمّا رثاؤه لتوفيق ، فأوّله حكم عامّة ومغالاة بالرّزء ، ثمّ وصف للميت ، ثمّ مدح وتهنئة بالامارة لابنه عبّاس .

ومراثي شوقي في الجملة تفجّع على الميت بتعظيم الخسارة فيه ، وإظهار مناقبه وأعماله ، واستطراد إلى الحكم والمواعظ ، أو إلى أغراض في السياسة والعمران . وربّما اتّخذ من حرفة الميت أداة للرّثاء . كقوله في عثمان باشا غالب وكان عالماً بالنبات :

ضَجّتْ لِمَصْرَعِ غَالِبٍ في الأرْضِ مَملكَةُ النبَاتِ
أمْسَتْ بِتيجَانٍ عَليْهِ مِنَ الحِدَادِ مُنَكَّسَاتِ

ومن خصائصه أن يتحدّث إلى الأموات ، فإمّا يسألهم عن الآخرة ، أو عن الأولى أو عن الأشياء التي كانوا يتعاطونها في الحياة . وإمّا يكلّفهم القيام من قبورهم لينظروا إلى ما استجدّ بعدهم من الأمور السياسيّة والعمرانيّة . قال في رياض باشا :

وَرَهِينَ الرَّمْسِ حَدِّثْني مَلِيّاً حَدِيثَ المَوْتِ تَبدُ لِيَ العِظَاتُ
سألتُكَ : ما المَنِيّةُ ؟ أيُّ كَأْسٍ ؟ وَكَيفَ مَذاقُها ، وَمَنِ السُّقاةُ ؟

وقال في الحسين بن عليّ ملك الحجاز :

قُمْ تَحَدّثْ أبَا عَلِيٍّ إلَيْنَا : كيفَ غامَرْتَ في جِوَارِ الأرَاقِمِ [1]

وقد يشبه المرثي بالشمس القافلة متمنّياً أن يكون يوشع ليردّها عن مغيبها . قال في سعد زغلول باشا :

شَيَّعُوا الشّمسَ وَمالوا بِضُحَاهَا ، وَانحَنَى الشرْقُ عَلَيها ، فَبَكَاهَا

[1] الأراقم : الحيات ، والمراد الحلفاء الذين انضم إليهم الحسين في الحرب العامة .

لَيتني في الرَّكْبِ، لمّا أفلَتْ، يُوشَعٌ، هَمّتْ، فَنادى، فثناها

وكان له بالمغنّين صلات وثيقة لعنايتهم بتلحين شعره والتغني فيه . فلم يمت مغنّ محسن في مصر إلا خصّه بمرثية . فقد رثى عبده الحمولي ، وعبد الحي ، والشيخ سلامة حجازي ، والشيخ سيّد درويش . قال في عبده الحمولي :

سَاجعُ الشرْقِ طارَ عن أوْكَارِهْ ، وَتَولّى فَنٌّ عَلى آثارِهْ

ومنها البيت المشهور :

يَسمَعُ اللّيلُ منهُ في الفَجرِ يَا لَيْـ لُ فيُصْغي مُستَمهِلاً في فِرَارِهْ

وقال في عبد الحي :

رُحمَاكَ عَبدَ الحَيِّ أمُّكَ شَيخَةٌ قعَدَتْ، وَهِيضَ لها الغداةَ جَناحُ

كُسرتْ عصَاها اليومَ ،فهيَ بلا عصاً، وَقَضَى فَتَاهَا الأجْوَدُ المِسْمَاحُ

ويختمها :

قُمْ غنِّ وِلدانَ الجِنانِ وحورَهَا، وَابعَثْ صَدَاكَ، فَكُلُّنَا أرْوَاحُ

وله مراثٍ في جماعة من الشعراء والكتّاب المشهورين كإسماعيل صبري باشا ، وحافظ إبراهيم ، وجرجي زيدان ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، ويعقوب صرّوف ، ومحمّد المُوَيلحي . وفي طبقة من زعماء السياسة والاجتماع في مصر : كمصطفى كامل ، وسعد باشا زغلول ، وبطرس باشا غالي ، وثروة باشا ، ومصطفى باشا فهمي ، ورياض باشا ، وقاسم أمين نصير المرأة .

وربّما تناول بمراثيه عظماء الشرق والغرب ، كرثائه لنجل إمام اليمن ، وفوزي الغزي الزّعيم السوري ، والملك حسين بن عليّ ، والشاعر الموسيقي الإيطالي فردي ، وفيكتور هيغو ، وتولستوي . وأجمل رثائه ما بكى فيه على ممالك المسلمين البائدة ، ومدنهم المنكوبة ، فإن عاطفة الدّين تُشيع به روعة وجلالاً . فمن ذلك بكاؤه على ادرنة ، وعلى دمشق ، وعلى الخلافة بعد أن محاها الغازي مصطفى كمال .

الحكمة والأخلاق

لم يكن شوقي فيلسوفاً صاحب مذهب خاص يشيد به ويدعو إليه . وإنّما كان شاعراً مثقّفاً ، مطلعاً على طرف صالح من الفلسفة الإسلاميّة . فكانت له آراء في الحياة والاجتماع توكّأ في أكثرها على الأقدمين . فقال مثلهم بوحدة النفس الكليّة ، وتنقّل أجزائها في الذراري إلى أن تفنى الأعيان ، فتعود إلى مقرّها الأزلي . وقد أشار إلى هذا التنقّل في رثائه لأبيه : « أنا من مات ومن مات أنا » . وتكلّم على النفس في قصيدة أخرى ، عارض بها عينية الرّئيس ابن سينا ، فقاده حبّ المعارضة إلى أن يجاريه في رأيه الأفلاطوني . فقال بأن النفس الجزئية أهبطت إلى الجسم من عالم الأرواح ، وشبّه النفس الكلية بالشمس ، والنفوس الجزئية بالأشعة ، تطلع على العامر والغامر ؛ فإذا انطوت الحياة ، ترجع النفوس الجزئية إلى مصدرها الكلي كما ترجع الأشعة إلى الشمس عندما ينطوي النهار :

يا نفسُ مثلُ الشمسِ أنتِ أشِعّةٌ في عامرٍ، وأشِعّةٌ في بَلْقَعِ
فإذا طوَى اللهُ النّهارَ تَراجَعَتْ شتّى الأشِعّةِ ،فالتَقَتْ في المرْجِعِ

على أن هذا المذهب لم يكفِ الشاعر مؤونة التطلّع إلى ما بعد الطبيعة ، لاستشفاف تلك الأسرار المغلقة على أبناء هذه الحياة :

يا صَاحبَ العُصُرِ الخَالي ألا خَبَرٌ عن عالمِ المَوْتِ يَرْويهِ الألِبّاءُ !
أمّا الحَيَاةُ فأمرٌ قَد وَصَفْتَ لَنَا ، فَهَلْ لِما بَعدُ تَمثِيلٌ وَإدْنَاءُ ؟

فإذا عزّه الأمر وقف حائراً عاجزاً ، كما وقف المتنبي والمعرّي قبلـه :

في المَوْتِ ما أعيَا ، وَفي أسْبَابِهِ ، كُلُّ امرِئٍ رَهْنٌ بطَيّ كِتابِهِ

وقد ينتحل رأي أبي العلاء في أن الرّوح هي الجانية على الجسم والمسببة لفنائه :

فَإنّ الحَيَاةَ تَفُلّ الحَـديدَ ، إذَا لَبِستْهُ ، وَتُبْلي الحَجَـرْ[1]

وأطلق بعضهم على شوقي لقب شاعر الأخلاق ، ولا ندري أكان هذا اللّقب من أجل ما له من الشعر في التّربية والتهذيب الاجتماعي ، أم كان من أجل تمسكه بلفظة الأخلاق ، وتردادها في منظوماته عشرات المرار ، حتّى صار بها إلى الابتذال ، وبدا تطفّلها في معظم شعره . وحسبك منها قوله :

وَإنّما الأممُ الأخلاقُ ما بَقِيَتْ ، فَإنْ هُمُ ذهَبتْ أخلاقُهم ، ذهبوا

فهذا البيت من الأمثال السائرة ، فتح لشوقي معناه ، ووفق فيه ،

١ قال أبو العلاء :

ولو سكنت جبال الأرض روح لما خلدت نضاد ولا إراب

نضاد ، كقطام : جبل بالعالية . إراب : من مياه البادية .

ولكنّه أفسده ، ووضع قدره بكثرة تكراره له :

وَإنّما الأمَمُ الأخلاقُ ما بَقيَتْ ، فإنْ تولّتْ، مَضَوْا في إثرِها قُدُمَا

. . .

كذا الناسُ بالأخلاقِ يبقى صَلاحُهم وَيَذهبُ عنهم أمرُهم، حينَ تذهبُ

. . .

وَإذَا مَا أصَابَ بُنْيَانَ قَوْمٍ وَهْيُ خُلْقٍ ، فَإنّهُ وَهْيُ أُسٍّ

. . .

وَإذا أُصيبَ القَوْمُ في أخلاقِهِمْ ، فَأقِمْ عَلَيْهِمْ مَأتَماً وَعَوِيلا

. . .

وَلَيْسَ بِعَامِرٍ بُنْيَانُ قَوْمٍ ، إذَا أخْلاقُهُمْ كانَتْ خَرَابَا

وليست هذه الأبيات جميع ما ورد له في هذا المعنى ، وإنّما هي بعضٌ من كلّ ، والذي أغفلناه أكثر من الذي أثبتناه . وأمّا ما ورد من لفظ الأخلاق في معانٍ أخرى فشيء لا يعدّ ولا يحصى .

وأقوال شوقي في التربية والإصلاح ، والحضّ على العلم والعمل ، وترك الصّفات الرّديئة كثيرة . ومنها ما يجري مجرى الأمثال :

تَرْكُ النّفوسِ بلا عِلْمٍ وَلا أدَبٍ تَرْكُ المَريضِ بلا طِبٍّ وَلا آسِ

. . .

مَا في الحَيَاةِ ، لأنْ تُعَا تِبَ ، أوْ تُحَاسِبَ ، مُتّسَعْ

. . .

وَلَوْ زَادَ الحَيَاةَ النّاسُ سَعْياً ، وَإخلاصاً ، لَزَادَتْهُمْ جَمَالا

. . .

إنّ الغُرُورَ إذَا تَملّكَ أُمّـةً ، كالزّهرِ يُخفي المَوْتَ،وَهوَ زُؤامُ

...

إنْ مَلكتَ النّفوسَ، فابغِ رِضَاها فَلَهَا ثَوْرَةٌ ، وَفيهَا مَضَـاءٌ

الشعر التعليمي

كان شوقي في أوّل عهده بالشعر ، يتحرّى الأغراض العامّة الطليقة ، ويأنس بها أكثر من سواها . وقد راقه منها الشعر التعليمي للاطفال ، من أناشيد وطنيّة ومدرسيّة ، ومن أساطير على لسان الحيوان أشبه بأساطير لافنتين . وكان يجتمع بأحداث المصريّين ويتلو عليهم من هذه الأساطير ليرى وقعها في نفوسهم. فانتظم له عدة أناشيد منها ما لا يتجاوز البيتين ، ونحو ستّين خرافة . والظاهر أنّه كان ينوي أن يتوفّر على هذه الأشياء ويكثر منها مستعيناً بصديقه خليل مطران[1]، فلمّا التمع نجمه في دار الأمير ، أعرض عنها وانصرف إلى غيرها .

وهو في أناشيده يدعو الأحداث إلى محبّة الوطن ، ويذكّرهم بتاريخه وآثاره،أو يجعل لهم منها أدعية أشبه بصلوات تتلى في أوقات معلومة، كدعاء الصباح ، ودعاء النوم ، ودعاء الخطب ، ودعاء اشتداد المرض وما شاكل .

وأمّا أساطيره ففيها نقد وتصوير للأخلاق ، على سخر لطيف في بعضها ، أوردها على لسان الحيوان ، وربّما اشترك فيها الإنسان . وأكثرها يجري في سفينة نوح ، أو بين سليمان بن داود والحيوانات . وموضوعاتها منها ما هو من اختراعه ، ومنها ما استقاه من خرافات.

١ ذكر ذلك في مقدمة ديوانه الأول .

المتقدّمين ، كأسطورة اليمامة والصيّاد ، وأسطورة القرد في السفينة . فالأولى تذكّر بحكاية السلحفاة والبطّتين في كليلة ودمنة . والثانية أشبه شيء بحكاية الرّاعي الكذوب والذّئب لأحد مخرّفي الفرنسيس . وبعض هذه الأساطير مستقلّ في مغزاه ، وبعضها الآخر مكرور متشابه المرامي .

ومغازيها الخلقيّة تتناول تأديب الملوك خاصّة ، والشعب عامّة . وأكثرها لا يختص بزمان ومكان ، وأقلّها ما تصوّرت به حالة من أحوال مصر أو من أحوال العصر . فحكاية ملك الغربان وندور الخادم أمثولة حسنة للملك الذي يغفل عن صيانة ملكه من الطوارىء . وحكاية الأسد ووزيره الحمار أمثولة أخرى للسلطان الذي لا يحسن اختيار رجاله . وحكاية ولي عهد الأسد وخطبة الحمار تصوّر الأحمق الذي يريد أن يتخلّق بخلق ليس فيه فيناله الأذى . وقصّة القرد في السفينة تطالعك بعاقبة الكذب على صاحبه . وقصّة أمة الأرانب والفيل تدعو إلى الاتحاد على العدوّ لقهره ، وفيها تمثيل بيّن لمصر والاحتلال الانكليزي . وأسطورة فأرة الغيط وفأرة البيت تمثل شبّان العصر الذين يحتقرون حرفة آبائهم طامعين في أرفع منها فينالهم الخسران والهلاك . وأسطورة النملة الزّاهدة تصوّر أولئك المتصوّفين الذين يتّكلون على غيرهم في تحصيل معاشهم .

وعلى الجملة ، فهذه الحكايات تزين الاتحاد والتعاون ، وتقبح الكسل والطيش والخيانة والخداع والعبودية . وتدعو إلى حسن التّربية ، واختيار المؤدّب والمعاون . وتظهر مغبة تعجيل الأمر قبل أوانه ، وآفة ضعف النظر في العواقب ، ومضار الإهمال والغفلة وغير ذلك ممّا يرمي إلى تهذيب النفس وإرشادها .

وشعرها كسائر الشعر التعليمي يخلو في أكثره من الرّوعة الأدبيّة ،

مكتفياً بمجرّد الاخبار والعظة . ولولا لمحات من التصوير والاحساس في بعضه ، لهبط في مجموعه عن مستوى الشعر الصحيح ، ولم يبقَ له إلا البحر والقافية . فمن صوره الجميلة :

أَلَمَّ عُصْفُورٌ بِمَجْرًى صَافِ قد غَابَ تحتَ الغابِ في الألفَافِ[1]
يَسقي الثرَى من حيثُ لا يدري الثرَى خَشْيَةَ أنْ يُسمعَ عنهُ ، أوْ يُرَى

* * *

وَجَالَسَ الهِرُّ بِجَنْبِ الكَلْبِ ، وَقَبَّلَ الخَرُوفُ نَابَ الذِّئْبِ

* * *

سَمِعْتُ بِأنَّ طَاوُوساً أتى يَوْماً سُلَيْمَانَا
يُجَرِّرُ دُونَ وَفْدِ الطَّيْرِ أذْيَالاً وَأرْدَانَا
وَيُظْهِرُ رِيشَهُ طَوْراً ، وَيُخْفِي الرِّيشَ أحْيَانَا

ودونك الإحساس الشعري في الحمار والجمل :

الحمار :

لا بُدَّ لي مِنْ عَوْدَةٍ لِلْبَلَدِ ، فَإنَّنِي تَرَكْتُ فِيهِ مِقْوَدِي

الجمل :

فقال : سِرْ وَالزَمْ أخَاكَ الوَتَدَا ، فَإنَّمَا خُلِقْتَ كَيْ تُقَيَّدَا

والحمار في السفينة :

سقطَ الحمارُ من السفينةِ في الدُّجى ، فبكى الرِّفاقُ لفقدِهِ ، وتَرَحَّموا
حتّى إذا طَلَعَ النَّهَارُ أتَتْ بِهِ نَحْوَ السَّفِينَةِ مَوْجَةٌ تَتَقَدَّمُ

١ الالفاف : الأشجار الملتفة واحدها لف .

قَالَتْ: خُذُوهُ كما أتاني سَالماً ، لَمْ أَبْتَلِعْهُ لأَنَّهُ لا يُهْضَمْ

تحليل بعض الحكايات :

١ ـ اليمامة والصيّاد : كانت يمامة بأعلى شجرة آمنة مستترة ، فمرّ بها صيّاد ولم يرها . فلمّا همّ بالانصراف ، برزت له الحمقاء وقالت : « يا أيّها الإنسانُ عمّ تبحثُ ؟ » فرماها ، فسقطت وهي تقول : « ملكتُ نَفسي لو ملكتُ مَنْطِقي » .

٢ ـ القرد في السفينة : كان في سفينة نوح قرد تعوّد الكذب ، فأراد أن يمزح يوماً ، فأخذ يصيح زاعماً أن موجة تريد ابتلاعه . فارسل نوح إليه النسور لتنقذه ، فوجدته سالماً . ثمّ صاح ثانية : « قد ثُقِبَتْ مَرْكَبُنا يا نُوحُ[١] ! » فأرسل نوح من حضر ، فلم يروا شيئاً ممّا ذكر . وبينما كان يوماً يلعب ، قذفت به السفينة إلى الماء ، فأخذ يصيح ، وينوح ويستغيث ، فلم يصدّقه أحد ، لاشتهار كذبه .

٣ ـ ملك الغربان وندور الخادم : كان للغربان مليك ، عرشه قائم في نخلة عظيمة ، فجاءه يوماً خادمه ندور ، وقال له : إن سوسة دبت في جدران القصر ، وأشار عليه أن يبعث الغربان في إهلاكها . فضحك السلطان مستخفّاً وقال :

أنَا رَبُّ الشَّوْكَةِ الضَّافي الجَنَاحْ ، أنَا ذُو المِنْقَارِ ، غَلاّبُ الرِّيَاحْ
أنَا لا أنْظُرُ في هَذي الأمُورْ ، أنَا لا أُبْصِرُ تَحْتي يَا نَدُورْ
ثُمّ لَمّا كَانَ عَامٌ بَعْدَ عَامْ ، قَامَ بَيْنَ الرّيحِ وَالنّخْلِ خِصَامْ
وَإذَا النّخْلَةُ أَقْوَى جِذْعُهَا ، فَبَدَا للرّيحِ سَهْلاً قَلْعُهَا[١]

[١] أنث شوقي المركب تضميناً لمعنى السفينة مع أنه مذكر في الأصل .

فَهَوَتْ للأَرْضِ كَالتَّلِّ الكَبِيرْ ، وَهَوَى الدِّيوَانُ ، وَانقضَّ السَّرِيرْ
فَدهى السُّلطانَ ذا الخطبُ المَهول ، وَدَعا خَادِمَهُ الغَالي يَقُولْ :
«يا نَدورَ الخيرِ أسعِفْ بالصِّياحْ ، ما تَرَى ما فَعَلَتْ فينا الرِّياحْ ؟»
قال : «يا مَوْلايَ لا تَسأَلْ نَدورْ ، أنا لا أنظُرُ في هَذي الأمُورْ»

٤ ــ ولي عهد الأسد وخطبة الحمار : ولد للأسد ولي عهده ، فجاءت سباع الأرض والسماء تهنّئه ، وعقدت مجالس الأفراح ، فتكلّم الفيل والثعلب والقرد فأحسنوا جميعاً. ثمّ رفع الحمار عقيرته ليشرف عشيرته :

فَقَالَ : باسْمِ خَالِقِ الشّعيرِ ، وَبَاعِثِ العَصَا إلى الحَميرِ
فأزْعَجَ الصَّوْتُ وَليَّ العَهْدِ ، فَمَاتَ من رِعدَتِهِ في المَهدِ
فَحَمَلَ القَومُ على الحِمارِ بِجُمْلَةِ الأنْيابِ والأظْفارِ
وَانْتَدَبَ الثَّعلَبُ للتَّأبينِ[1] فَقَالَ في التَّعريضِ بالمِسكينِ :
لا جَعَلَ اللهُ لَــهُ قَرَارَا ، عَاشَ حِمَاراً وَمَضَى حِمَارَا

٥ ــ أمّة الأرانب والفيل : كان لأمة الأرانب وطن تعمره مطمئنة إليه ، مبتهجة به . فاختاره الفيل طريقاً له يمزّق به أصحابه . وكان فيهم أرنب لبيب مجرّب ، فدعاهم إلى الاتحاد على دفع العدوّ « فالاتحادُ قُوّةُ الضِّعَافِ » . فاجتمعوا للأمر يتباحثون فيه ، فأشار بعضهم أن يحفروا هوّة على طريق الفيل ، فيقع بها ، ويستريحوا من شرّه . فاستحسنوا رأيه ، وحفروا الهوّة ، وهلك الفيل . فجاؤوا إلى من أشار بحفرها يريدون تمليكه عليهم ، فأبى وقال : إن صاحب الحقّ بالتاج والسرير ، من دعا معشر الأرانب إلى الاتحاد .

١ أي لتأبين ولي العهد .

شوقي والتمثيل

حاول شوقي الفنّ التمثيلي وهو في فرنسة يطلب الحقوق . وكانت قصّة عليّ بك الكبير باكورة مآسيه ، نظمها شعراً ثمّ أهملها ، وأهمل فنّ التمثيل معها . وولّى وجهه ، بعد رجوعه إلى مصر ، شطر المدح والرّثاء وسواهما من الأغراض التي يعنى بها أمثاله من شعراء القصور عند العرب .

فلمّا تنكّر له قصر الإمارة ، بعد الحرب الكبرى ، وذهب ما كان له من أثر في نفسه وشعره ؛ عاوده الحنين إلى التمثيل الذي افتتح به حياته الشعريّة ، فأكبّ عليه يعالجه بنشاط الشباب ، وإن ولّى زمانه . وإقباله على هذا الفنّ يشرح لنا سبب إقباله على دور السينما في أواخر حيـــاته .

وما كانت سنة ١٩٢٩ م حتى بدأ يطبع مآسيه وينشرها . فأخرج مصرع كليوباترا ؛ ثمّ نظر في عليّ بك الكبير ، فلم يرضَ عنها ، فعمد إلى إصلاحها سنة ١٩٣٠ بعد أن مضى على وضعها نحو ثلاثين سنة . واشتغل معها بتأليف مجنون ليلى ، وقمبيز ، والسيّدة هدى ، والبخيلة . وفي سنة ١٩٣١ شرع يؤلّف أميرة الأندلس وعنترة . وطبعت مآسيه كلّها إلا السيّدة هدى والبخيلة .

مصرع كليوباترا

(١٩٢٩ م)

١ تاريخها

طبع شوقي هذه المأساة سنة ١٩٢٩ م وقدّمها إلى الأمير فاروق ولي عهد الدّولة المصريّة ، بأبيات من الرّجز ، وذيّلها بنظرات تحليليّة ، يرجّح أنّها من صنعه . ومثّلت في مصر عدّة مرّات فكان لها نصيب من النجاح لا بأس به .

٢ موضوعها

مصدر هذه المأساة تاريخ البطالسة في مصر . وموضوعها أواخر أيّام كليوباترا ، واستيلاء رومة على مملكتها في نحو السنة الثلاثين قبل الميلاد .

١ — الحوادث المتقدّمة — تولّت كليوباترا الملك بعد أبيها ، فنازعها إيّاه أحد إخوتها ، فناصرها يوليوس قيصر ، ووطّد لها السلطان . فصحبته إلى رومة ، ولبثت عنده حتّى اغتيل سنة ٤٤ ق. م. فعادت إلى الإسكندريّة . ثمّ أغوت أنطونيوس أحد القوّاد الذين انتهى إليهم الحكم في رومة ، فوقع في هواها ، وأنكر رومة من أجلها ، ولزمها لا يستطيع فراقها . فغضبت المشيخة الرّومانيّة من عمله ، وبعثت إليه اكتافيوس القائد الآخر ، فجاء بأسطوله ليعاقبه ويستولي على مصر .

٢ — حوادث المأساة — اتّحد أسطول أنطونيوس وأسطول كليوباترا على محاربة اكتافيوس ، وحدثت بينهم واقعة اكثيوم البحريّة ، ففرّت كليوباترا بأسطولها في إبّان المعمعة ، وفرّ في أثرها أنطونيوس . ثمّ

التحم القائدان في معركة بريّة على أسوار الإسكندريّة ، فباء أنطونيوس بالخذلان . ورأت كليوباترا أن حبيبها لا قبل له بحمايتها ، ففزعت إلى اكتافيوس ترجو إيقاعه في أشراكها ، فطلب منها أن تتخلّى عن أنطونيوس ، فتوارت في قصرها ، وأشاعت أنّها ماتت ، فكره أنطونيوس الحياة بعدها ، وانتحر . ثمّ تبيّن لها أنّ القيصر الظافر يروم بها شرّاً ، فأبت عليها نفسها أن يقتلها عدوّها ، أو يدخل بها رومة أسيرة ذليلة ، فقرّبت من صدرها ثعباناً سامّاً فنهشها وماتت .

٣ ـ الحوادث المخترعة ـ حافظ شوقي على سير الحوادث التاريخيّة كلّ المحافظة ولكنّه صبغها بألوان جديدة جعلت كليوباترا أرفع نفساً ، وأعظم خلقاً . فهي لم تفرّ من وقعة اكثيوم جبناً أو غدراً بحبيبها ، ولكن السياسة المصريّة قضت عليها بالفرار . وهي لم تخفِ نفسها وتشع خبر موتها مواطأة لاكتافيوس بل الطبيب أولمبوس هو الذي خدع أنطونيوس ونعاها إليه كذباً . وهي لم تحاول أن تتصبى القيصر المنتصر ، بل اتّصلت به من أجل مفاوضات ظهر فيها خداعه وإباؤها . وكذلك أنطونيوس لم يفرّ في أثرها ، ولكن شوقه إليها حمله على أن يترك مطاردة عدوّه إلى الغد بعد انتصاره عليه .

وأضاف إلى الحوادث التاريخيّة غرام حابي وهيلانة ، وانتحار هذه مع مولاتها كليوباترا ، ثمّ نجاتها بترياق الكاهن أنوبيس .

٣ العمل

تجري حوادث هذه المأساة بالإسكندريّة ، مرّة في مكتبة قصر كليوباترا ، وأخرى في إحدى غرفه ، وحيناً في حجرة الولائم . آخر داخل معبد الإسكندريّة وخارجه . وأخيراً في غرفة العرش .

الفصل الأوّل – انتصار القائد وغفلة العاشق – المنظر الأوّل : بينما كان أمناء مكتبة كليوباترا يتحدّثون برجوع أسطولها من معركة اكثيوم تحت الظلام ، إذا بهم يسمعون هتاف الشعب بانتصار الأسطول . ثمّ تدخل كليوباترا ، فتسمع الهتاف فتنكر الأمر ، وتخبرهم أنّها تراجعت بأسطولها عمداً ليتفانى أسطولا القائدين الرّومانيّين :

مَوْقِفٌ يُعْجِبُ العُلا كُنْتُ فِيهِ بِنْتَ مِصْرٍ، وَكُنتُ مَلْكَةَ مِصرِ

المنظر الثاني : تلتقي كليوباترا وصيفتها هيلانة ، وأمين مكتبتها حابي مجتمعين في غرفة من قصرها . وكانت تعلم أن حابي يبغضها ، ولكنّها أرادت أن تعامله بالحسنى من أجل جاريتها الأمينة ، فعقدت زواجهما . ثمّ يدخل أنطونيوس ويبشّرها بأنّه انتصر على خصمه ، إلا أنّ شوقه إليها جعله يرجىء مطاردته إلى الغد ، فتلومه على عمله :

تَرَكْتَهُمْ لِغَدٍ؟ هذي مُجازَفَةٌ ، غَدٌ غُيُوبٌ، وَأسرارٌ، وَأقدارُ!

فيسألها أن تقل اللّوم ، وأن تأمر بوليمة له ولقوّاده . حتّى إذا انقضى اللّيل استأنفوا الحرب « مخامير مجانين » .

الفصل الثاني – سوء سياسة كليوباترا – يجتمع المدعوّون في حجرة الولائم ، ويشربون ويطربون . فتثير الملكة سخط قوّاد أنطونيوس بتعصّبها لمصر ، وازدرائها رومة ، حتّى حملت العاشق الأعمى على أن يتبرّأ من وطنه إرضاءً لها .

الفصل الثالث – انتحار أنطونيوس – يُرى الكاهن أنوبيس مناجياً نفسه داخل المعبد ؛ ثمّ يُرى أنطونيوس في خارجه يندب حظّه ، ويلوم نفسه على ضعفه في الحبّ . وأوروس غلامه الأمين يعزّيه ، وقد خانته

جنوده وقوّاده ، ووالت عليه عدوّه . ويأتي أولمبوس الطبيب فينقل إليه خبر انتحار كليوباترا . فيجزع وييأس ، ويستغفر رومة لأنّه عقها من أجل حبّه . ويستغفر كليوباترا لأنّه ظنّ فيها الخيانة والغدر . ثمّ يطلب من أوروس أن يقتله ، ليتخلّص من حياته الشقيّة . فيأبى الغلام أن يريق دم مولاه ، ويؤثر الانتحار على تكلف ما لا يستطيع ، وينتحر بعده أنطونيوس .

وتدخل كليوباترا المعبد ، فتسأل أنوبيس عن حيّة سمّها سريع الفتك ، خفيف الألم ، لا يشوّه الجمال . وتطلب منه أن يحفظها لها ، حتى إذا أمسى تاج مصر دريئة الخطر ، بعث بها إليها في سلّة من التيّن .

ويمرّ جنديّان رومانيّان خارج المعبد ، فيبصران أنطونيوس صريعاً فيحملانه إلى داخله . فتخفّ إليه كليوباترا تناديه ، فيستفيق من إغمائه ، ويعلم أنّ أولمبوس خدعه . ثمّ يلفظ روحه ، وتبكيه كليوباترا . ويدخل اكتافيوس ، فيودّعه ويقبّل رأسه بعد أن يتحقّق موته .

الفصل الرّابع — مصرع كليوباترا — : كليوباترا في قصرها تناجي نفسها ، وتذكر مراقبة اكتافيوس لها خشاة أن تهرب أو تنتحر . لأنّه يروم أن يدخل بها رومة زينة لانتصاره . ويأتي حابي حاملاً سلالاً من التين ، فتعلم أنّ الكاهن لبّى طلبها عندما رأى الخطر يحدق بعرشها . فتودع ما حولها حتى الزّنبقة في الأصيص وداعاً مؤثراً ، ويغني لها مغنيها إياس نشيد الموت . ثمّ يأتي قائد روماني برسالة من سيّده يسألها الذّهاب معه إلى رومة ، ويعدها بأن يبقيها في ملكها ، وتكون رومة الوصية عليه . فترغب إلى الرّسول أن يزورها القيصر في المساء لتفضي إليه بسرّ كتمته عن الصّحاب والأمناء . فيخرج الرّسول . وتودع هي ولدها

قيصرون ووصيفتيها ، ثمّ تتناول الأفعى ، فتضعهـــا على صدرها ، فتعضّها ، فتموت . وتفعل شرميون فعلها ، فتقضي في اثرها . وتقتدي بهما هيلانة فيدركها أنوبيس بترياقه فينقذها ، ويذهب بها حابي إلى طيبة ليعيشا معاً . وتنتهي المأساة بوداع اكتافيوس لكليوباترا ، وتهديد أنوبيس لرومة .

٤ الجو المصري

لم يغفل شوقي أن يخلق جوّاً سحريّاً تعبق به مأساته المصريّة . فما وقوف العرّاف حبراً يطالع الأكف ويكشف المستقبل إلا صورة عن كهانة المصريّين القدماء . ولا الأفاعي وتربيتها ، وسمومها وترياقاتها والإكثار من الكلام عليها والتشبيه بها ، إلا شيء يذكرك بمصر وثعابينها وحواتها ، وبما جاء في التاريخ القديم عنها .

٥ الأخلاق والصفات

كليوباترا : أجاد شوقي وأدق في تصوير كليوباترا وإظهار شخصيتها من نواحٍ شتى فأرانا إيّاها :

١ً مصريّة – تغار على مصر وتتعصّب لها ، حتى أعماها التعصّب ، فأساءت السياسة ، وأحنقت القوّاد الرّومانيّين عليها وعلى عشيقهـــا أنطونيوس ، مع شدّة حاجتهما إلى هؤلاء الأعوان . وحبّها لمصر يفوق حبّها لأنطونيوس فما ترى حرجاً في الهرب من المعركة وترك حبيبها يتحطّم أسطوله وأسطول اكتافيوس ، لتضعف رومة وتسود مصر .

٢ً ملكة – تحافظ على العرش ، وتجاهد في صيانته وتموت من أجله . وراعية تعنى بإصلاح بلادها ، وتعطف على رعيتها وتحسن إليهم .

٣ً سياسية — لم يكن أنطونيوس حبيباً لكليوباترا من أجل الحبّ وحده ، بل كان أيضاً أداة لإضعاف رومة وتقوية مصر . فقد شطرت به أسطول الرّومانيّين ، وجعلت أحد الشطرين في يدها لتحطّم الآخر . أو حاولت تحطيمهما معاً في انهزامها من معركة اكثيوم ليخلو لها الجوّ ، فتسود البحر :

قُلْتُ رُومَا تَصَدَّعَتْ فَتَرَى شَطْـ ـرَاً مِنَ القَوْمِ في عَدَاوَةِ شَطْرِ
وَتَبَيَّنْتُ أنَّ رُومَـــا إذَا زَا لَتْ عنِ البحرِ، لم يَسُدْ فيه غيري

ولكن سياستها أخفقت برجوع أنطونيوس عن مطاردة العدوّ . ثمّ بإحناقها القوّاد الرّومانيّين حتّى أرصدوا الخيانة لها ولسيّدهم ؛ ثمّ بعصيان أسطولها ورفضه أن يمضي لنجدة أنطونيوس :

أبي أعَلِمْتَ أنَّ الجَيْشَ وَلّى ، وَأنَّ بَوَارِجِي أبَتِ المُضِيّـا

والسبب الأوّل يعود على غفلة القائد العاشق . والثاني على سوء تصرّفها . والثالث على فساد تدبيرها ؛ لأن فرارها بأسطولها من معركة اكثيوم جعل نصر أنطونيوس مرهوناً إلى الغد . وجعل بوارجها تأبى المضي مرّة ثانية .

٤ً ربّة بيت — تعطف على أولادها ، وتشملهم بحنان الأمّ الرّؤوم ، حتّى لتكاد تشتهي الذلّ لاكتافيوس من أجلهم ، لو رضي المجد ولو سمح النبل . ولا يقتصر حنانها على أولادها بل يشمل ما في بيتها من خدمٍ وجوارٍ ؛ فإذا هي ترعاهم وتحسن إليهم ، وتغفر للمسيء منهم ، وتعاملهم معاملة ذوي الصّهر والقربى . فلا غرو أن يحبّوها حبّ العبادة . وتنتحر وصيفتاها بانتحارها .

٥ً حسناء – وحسنها بادٍ في حديث النّاس عنها ، وفي حديثها عن نفسها . حتى إنّها لما أرادت الانتحار حرصت على جمالها أن يزيله الموت . فقالت لأنوبيس :

ولكن أبي هل يُصان الجمال ؟

وهل يُطفأ اللّون ؟

وهل يُبطلُ الموتُ سِحرَ الجُفون ؟

٦ً عاشقة – أحبّت الأبطال فبسطت سلطانها عليهم ، وشاقتها العبقريّة في الرّجال فتعشّقتها . وحبّها لأنطونيوس يزينه الوفاء إذا لم تعرض له سياستها الوطنيّة . فقد تخلّت عن قبصرها في المعركة لأنّها تريده ضعيفاً في سلطانه لا يُخشى منه على مصر . ولكنّها بادلته الحبّ الصّادق والتاعت عليه ساعة موته ، وباسمه هتفت وهي تجود بالرّوح :

ألْبستاني حُلّةً تُعْجِبُ أنطُونيُو سَنيّة

٧ً صفات أخرى – تحبّ اللّذّة ، واللّهو والعبث ، تحبّ القراءة والشعر ، ذكيّة ، رائعة البيان ، أبيّة عزيزة النفس .

أنطونيوس : عاشق ضعيف الإرادة ، صادق المودّة ، أعماه الحبّ فأنساه واجبه ، وأنساه رومة فأنكرها مرضاة لحبيبته . فأسخط قوّاده . وأغفله عن البصر في العواقب، فترك مطاردة العدوّ إلى الغد ، فكان فيه خذلانه . وحمله على الفرار كالجبناء ، حتى إذا علم أنّها انتحرت ، قابل الموت غير خائف ؛ لأنّه طلب الحياة من أجلها ، ومن أجلها انتحر يائساً . ولم يشأ أن يعاتب كليوباترا على خذلها إيّاه في المعركة بل غفر لها فرارها .

وهذا العاشق الموله شجاع باسل ، وقائد عظيم تشهد له بذلك كليوباترا :

أليَوْمَ تعلَمُ رُومَا أنّ فَارِسَهَا جَيشٌ بمُفرَده، في الرَّوْعِ ، جرّارُ

وأوروس :

رَأيتُكَ، وَالحربُ تبلو الكُمَاةَ ، فَأشْهَدُ كُنْتَ إلَـهَ الوَغَى

وهو ابن رومة الابر ، لولا الحبّ الذي أنساه إيّاها . على أنّه عاد إليها يستغفرها ساعة موته :

رُومَا حَنَانَكِ ، وَاغفِرِي لِفَتَاكِ . . .

أشخاص آخرون : اكتافيوس قائد روماني شجاع حزيم .

أنوبيس: كاهن مصري ، عالم بالأفاعي وسمومها . يحبّ مصر ويكره رومة . ويعطف على كليوباترا ، ولكنّه يرى لها الانتحار ، لئلا يهان تاج مصر .

هيلانة وشرميون : وصيفتان أمينتان للملكة انتحرتا معها .

حابي : أحد أمناء المكتبة ، أحبّ هيلانة ، وأبغض الملكة . ثمّ أحبّها عندما عطفت عليه وازوجته بمن يحبّها .

أولمبوس : طبيب روماني في بلاط كليوباترا نقم على أنطونيوس لإنكاره رومة ، وتهالكه بين يدي ملكة مصر . فنعاها إليه كذباً ، وقد رآه في أشدّ حالة من الاضطراب النفسي ، فدفعه بذلك إلى الانتحار .

أوروس : غلام أنطونيوس وصفيّه،آثر الانتحار قبل سيده .

انشو : مضحك الملكة له مواقف سخر ونكتة لا بأس بها .

حبرا: عراف مصري . إياس: مغني الملكة. غانميز: ساقيها. بولا: شاعر.

٦ منزلتها

١ً محاسنها –، مصرع كليوباترا ، هي أجود مآسي شوقي ، وأبرعها فنّاً ، وأدقّها تصويراً ووصفاً وتحليلاً . وعقدتها القصصيّة موفّقة كلّ التوفيق ، فإن شوقي أضفى عليها من العوامل الفنّيّة ، والمفاجآت المستحكمة المترابطة ، ما صرف الذهن عن حلّها التاريخي المنتظر . فأنت تشعر بتولّد هذه العقدة في الفصل الأوّل حين ترك أنطونيوس المعركة دون أن يبلغ نهايتها . ثمّ تشعر باستحكامها في الفصل الثاني عندما تغلو كليوباترا بعصبيّتها لمصر ، فتطعن على رومة ، وتحمل عشيقها المولّه على التبرؤ منها ، لا تبالي أن تغيظ الرّومانيّين وتسخطهم ؛ فخرجوا من عندها وهم يضمرون الغدر بسيدهم لاستخذائه إليها . فنسمع أولمبوس يقول وهو منصرف من الوليمة :

أورُوسُ ! أنطونيُو ! حسابكُما غداً رُومَا الأبيّةُ لمْ تَنَمْ عَنْ ثارِهَا

وفي الفصل الثالث تظهر نتيجة المعركة بانهزام أنطونيوس لأن قوّاده وجنوده مكروا به من نقمتهم عليه ، وانضمّوا إلى اكتافيوس . ولكن العقدة لم تنحلّ هنا لأن مصير كليوباترا وتاج مصر بقي مترجرجاً . وإذا بالمؤلّف يفاجئك بزيارة الملكة للكاهن ، واتّفاقهما على أن يبعث إليها بالأفعى السامّة حين يصبح العرش في خطر . فيحدث هذا الاتّفاق تشوّقاً إلى معرفة النتيجة لأن مصير كليوباترا هو المقصود من المأساة . وفي الفصل الرّابع تنحلّ العقدة انحلالاً طبيعيّاً بعد تجاوى طويلة قد يشفع بطولها هول الموقف وخطره .

وفيها من المشاهد الرّائعة ما يخلق بالذكر كالوليمة وما حدث في

خلالها من حبّ وبغض ولهو وسخر (ف ٢) وانتحار أنطونيو (ف ٣) ونجاوى كليوباترا قبل مصرعها (ف ٤).

ووفّق شوقي في أشعارها توفيقاً حسناً، فإن فيها من القصائد والمقطعات الجميلة شيئاً غير قليل. وحسبك منها: «أنا أنطونيو، وأنطونيو أنا» (ص ٤٣) و «زنبقة في الآنية» (ص ٨٩)، و «اليوم أقصرَ باطلي، وضلالي» (ص ٩٩). وتأتّى له في نهاية كلّ فصل منها بيت بارع يترك في النفس والمسامع دويّاً. فالقائد الرّوماني يهمس في نهاية الفصل الأوّل عندما رأى سيّده أنطونيو يريد اللّهو:

ألا إنّه لَيْلٌ لَهُ مَا وَرَاءَهُ ، غَرَامُكَ حَيٌّ فيه ، وَالمَجدُ ميّتُ

وكليوباترا تودّع حبيبها في ختام الفصل الثاني، وهو خارج للقاء اكتافيوس:

يَا لَيْثُ سِرْ ، يَا نَسْرُ طِرْ ، عُدْ ظَافِراً ، أَوْ لا تَعُــدْ !

واكتافيوس يختم الفصل الثالث بوداع أنطونيوس:

أُقَبِّلُ مَا قَبَّلَ الغَــارُ مِنْكَ وَأَهْتِفُ : أَنْطُونِيُوسُ الوَداعْ !

وأبلغها ما جاء في ختام المأساة إذ يقول أنوبيس مهدّداً الرّومانيّين:

قَسَماً مَا فَتَحْتُمُ مِصْرَ لكِنْ قَدْ فَتَحْتُمْ بِهَا لِرُومَةَ قَبْرَا

٢ً مساوئها — كان شوقي في مصرع كليوباترا أقلّ مساوىء منه في غيرها. فليست له تلك السقطات الفاضحة الّتي تعوّدناها منه في مآسيه الأخرى، وإن تكن فصولها لم تخلُ من طفيليات الحوادث الّتي يستغني صاحبنا عنها. فخبر حابي وهيلانة تافه غث من بدئه إلى نهايته، يفسد

وحدة العمل ، ويخرج بالمأساة عن الموضوع إذ لا يمتّ إليها إلا بسبب ضعيف . وكذلك كان المشهد الذي جاء في عرض القصّة عن عشق الشيخ زينون أمين المكتبة ، لكليوباترا ، وعبث حابي به (ف ١ منظر ١) .

مجنون ليلى
(١٩٣١ م)

١ تاريخها

نشر شوقي هذه المأساة سنة ١٩٣١ ، وقدّمها بأبيات من الشعر للأمير فاروق ولي عهد مصر ، وذيّلها بنظرات تحليليّة ، ومثّلت لأوّل مرّة في القاهرة فكان لها بعض النجاح .

٢ موضوعها

استلهمَ الشاعر حوادث قصّته من أخبار المجنون في كتاب الأغاني . وموضوعها حبّ قيس لليلى وجنونه وموته . والمجنون شاعر بدوي من بني عامر ، قيل إنّه عاش في زمن بني أميّة ، وشكّ بعضهم في وجوده .

١ — الحوادث التاريخيّة — أحبّ قيس بن الملوّح ابنة عمّه ليلى العامريّة ، وتغزّل بها . ثمّ خطبها إلى أبيها فردّه خائباً لاشتهار حبّه لها وقوله فيها . ومنعه عن زيارتها ، فلم يمتنع ، ولا انقطع عن التشبيب بها ، فاستعدى عليه السلطان ، فأهدر دمه ثمّ أزوجها رجلاً من ثقيف أو من عُقَيل يقال له ورد ، فجنّ قيس وهام على وجهه في البراري يعاشر الوحوش ، وينشد الأشعار ، ويذرف العبرات ، ويمزّق ثيابه ، ويغمى عليه ، حتى مات .

٢ ــ الحوادث المخترعة ــ خالف شوقي التاريخ في بعض الحوادث وتصرّف فيها على هواه . فمنها ما لا معنى له كجعله عبد الرّحمن بن عوف والي الصدقات يشفع لقيس عند ليلى وأبيها . مع أنّ التاريخ يذكر أن عبد الرّحمن أبى أن يتولّى هذه الوساطة ؛ وقد تولاها بعده في السنة التالية خلفه نَوفَل بن مُساحق .

ومنها ما زيّن المأساة وعظّم شأنها كرفعه ليلى إلى مستوى البطولة ، إذ جعلها ترفض قيساً عندما خيّرها أبوها فيه . فأبت إلا أن تحافظ على الشرف الموروث ، والعادات البدويّة . ورضيت أن تتزوّج الفتى الثقفي وهي لا تحبّه . مع أنّها في التاريخ أُكرهت إكراهاً على هذا الزّواج ، وهُدّدت من أجله بالتمثيل . ولم يكن زوجها عند شوقي أقلّ بطولة وبذلاً منها . فإنّه لمّا تبيّن حبّها لقيس وشدّة كلفها به ، آلى على نفسه أن يصاحبها مصاحبة الشقيق لشقيقته ، فلبثت في كنفه عذراء كما كانت في بيت أبيها . ولكنّها وفت له ، وحافظت على شرفه ، فردّت قيساً كاسف البال ، لما أرادها على الفرار معه .

ومنها ما اتّخذه وسيلة لختام مأساته كجعله ليلى تموت قبل قيس ، مع أن قيساً هو الذي مات قبلها .

وأضاف إلى هذه الحوادث خبر الجنّ ، وهو من مخترعاته .

٣ العمل

مكان المأساة بادية نجد ، تتنقّل من حي بني عامر إلى طريق للقوافل بين نجد ويثرب ، إلى قطعة من الصحراء ، إلى قرية من قرى الجنّ ، إلى حي بني ثقيف بالطائف . وتنتهي في مقابر بني عامر .

الفصل الأوّل ــ المهدي يطرد قيساً ــ بينما كان فتيات بني عامر

وفتيانهم يتسامرون في أوائل اللّيل ، إذا بقيس بن ذريح الشاعر ، يقبل عليهم ، ويكلّم ليلى في أمر المجنون ، فتأبى أن تدوس عادات العرب ، وتتذمّر على مجنونها لأنّه ذكر ليلة الغَيْسَل في شعره ، وما هي إلا لقاء وتحيّة وابتسامة .

ثمّ ينقضي السمر ، ويظهر المجنون يطلب ناراً من بيت ليلى ، وما وكده إلا رؤيتها . فتخرج إليه بالنّار ، فيحادثها ويلهو عن نفسه . فتسعى النّار إلى كمّه وهو لا يأبه لها ، وتحرقه فيقع مغمى عليه . فتنادي ليلى والدها ، فيأتي إليه ويسعفه ، فيصحو . ويؤنّبه ، ويحرّم عليه دخول داره .

الفصل الثاني — المجنون الهائم — يهيم المجنون على وجهه في طريق للقوافل قريب من الحي ، وقد أهدر السلطان دمه . وراويه زياد يصحبه ، وأمّه تتبعه الجارية بطعام وصفه العراف ليتداوى به من جنته . ويعبث به أولاد صغار فيهمّ بحصبهم ، ثمّ يغشى عليه . وإذا بابن عوف جامع الصدقات يقف به ويناديه ، فما يستفيق . ويمرّ ركب الحسين بن عليّ ، فتضجّ من تحته البادية ، وقيس في إغمائه . ثمّ تمرّ قافلة تحدو باسم ليلى فيستفيق قيس على ذكر اسمها . ويعده ابن عوف أن يتحمل به على عمّه ، فيفرح ويبتهج .

الفصل الثالث — خيبة ابن عوف — يأتي ابن عوف وقيس إلى حي ليلى ، فيتسلّح الأهلون للفتك بالعاشق حفاظاً على شرفهم . فيلاطفهم ابن عوف ، ويسكن ثائرتهم ، ويستلينهم على قيس . وما كاد يظفر بحاجته حتى وقف فيهم منازل يبين معرات الشاعر ، وافتضاح فتاة الحي بشعره . فيعاودهم السخط على المجنون ويهمّون بقتله . فينبري بشر للدفاع عنه ،

فيظهر للحي أن منازلاً يحسد قيساً ، وأنّه حضّ على قتله ليحظى بليلى من بعده . فتحدث ضجّة في القوم ، ويرسلون إلى منازل نظرات احتقار ، ويجرّه زياد إلى الخارج ليؤدّبه . فيتبعه النّاس إلا ابن عوف والمهدي والد ليلى ، فإنّهما يدخلان الخباء . وتأتي ليلى من حجابها ، فيقصّ عليها أبوها خبر ابن عوف ووساطته لقيس ، ويضع الأمر بيدها . فتعلن الرّفض القاطع صوناً للشرف ورعاية للتقليد . وتبدي رغبتها في الزّواج بورد الثقفي الذي جاء يخطبها منذ حين . فيرجع ابن عوف خائباً حزيناً .

الفصل الرّابع – زوجة عذراء أمينة – المنظر الأوّل : عاد قيس إلى هيامه بعد إخفاق ابن عوف وزواج ليلى بورد . فضلّ الطريق ، وقاده التسيار إلى قرية من قرى الجنّ . فأبصرته طائفة منهم وفيهم شيطانه الأموي ، فأقبلوا يحتفون به ، ودلّوه على الطريق .

المنظر الثاني : يأتي قيس حي بني ثقيف ويرى ورداً زوج ليلى ، فيسأله عنها . فإذا هي لم تزل عذراء ، لأن ورداً تهيب حبّها الصادق لقيس ، ودفعته شهامته إلى أن يساكنها مساكنة الأخ لأخته . ثمّ تدخل ليلى فيتركهما ورد منفردين ، فيتشاكيان مرارة الفراق ، ويرغب إليها قيس أن تذهب وإيّاه ليعيشا معاً ، فتأبى أن تجيب سؤله ، محافظة على شرف زوجها ، ويخرج قيس ساخطاً .

الفصل الخامس – مصرع الحبّ – ماتت ليلى وجداً ودفنت في قبور بني عامر . ووقف النّاس يعزّون أباها ، ويمرّون بزوجها ورد صامتين ناقمين لأنّه سلبها من تحبّه . إلا أن والدها المهدي ينوه بفضل ورد وحسن معاملته لابنته . وينفضّ الجمع ، فيدخل الغريض المغني ، وابن سعيد الشاعر ، ورجلان آخران ، فيبصرون القبر الجديد الذي

ضمّ جثمان ليلى ، فيأخذ الشاعر يتحدّث إلى الميت المدفون فيه ، ويذكّره أيّام الحياة الفانية ، ويغنّي الغريض أنشودة الموت ، ثمّ يتوارون ذاهبين إلى بني عامر . ويدخل قيس وزياد ، فيتلقاهما بشر ، ويخبر قيساً بموت ليلى ، فيغمى عليه حيناً ثمّ يصحو ، فيقترب من قبرها ، فيكبّ باكياً منشداً . ويأتي شيطانه الأموي ، فيطرده قيس لأن الشعر الذي أوحاه إليه هو الذي جنى عليه وعلى ليلى . ويجيء ابن ذريح خاشعاً ، باكياً على قبر ليلى ، معزّياً قيساً . ويُسمع من جانب القبر هاتف باسم قيس وليلى ، فيلبّيه المجنون ، ويحتضر ويموت .

٤ اللون العربي

تصطبغ هذه المأساة بلون عربي ناصع صادق التصوير ، تتمثّل فيه حياة البادية وحبّ البدو وعاداتهم وعقائدهم وسياستهم . فأمّا حياة البادية ، فإنّها وحشة جافية ، لا ترى فيها غير موقد النّار وحالب الشاة ، ولا تسمع غير راغية تجيبها ثاغية (ف ١ ص ٤ — ٥) وهموم الحياة فيها محدودة ، وأهلها يخفّون إلى صيد الظباء والأسد :

وَفِي كُلِّ نَاحِيَــةٍ شَــاعِرٌ يُغَنِّي بِلَيْلَاهُ أَوْ رَاوِيَــهْ

(ف ١ ص ٦) وطعامهم الرُّطَب والشواء واللّبن (ف ٣ ص ٦٧) .

وأمّا حبّهم فعذري يقتل صاحبه (ف ١ ص ٦) . وقد يكتفي المحبّان إذا اجتمعا بالنظرة والتحيّة (ف ١ ص ١٤) ، وإذا جاوزاهما فإلى حديث عفّ وشكوى (ف ١ ص ٢٢) .

وأمّا عاداتهم ، فهي مبثوثة في نواحٍ شتّى ، تطالعك بصور متعدّدة عن هؤلاء الأعراب الجفاة ، فهم أباة مفرطون في إبائهم ، لا يزوجون

من يشبب ببناتهم ، ويشتهر حبّه لهنّ :

وَمِنْ سُنَّةِ البِيدِ نَفْضُ الأكُفَّ مِنَ العَاشِقِينَ إذَا شببوا

ويستعدون عليه السلطان إذا ألحّ في الزّيارة والتشبيب ، فيهدر السلطان دمه . وفي ذلك يقول قيس :

قُلْ للخَلِيفَةِ يا ابنَ عَوْفٍ في غدٍ : مَنْذا أبَاحَ لَهُ دَمَ العُشّاقِ ؟

وينقم عليه الحي بأجمعه ، فإذا رأوه مقبلاً ثاروا لقتله لأن عار الفرد يعمّ القبيلة ، والقبيلة بأجمعها يلزمها الدّفاع عن الفتاة الّتي شهّرت .

ومن عادتهم الشفاعة للعشّاق المنبوذين ، فالحسين بن عليّ تشفّع لقيس بن ذريح عند أبي لبنى ، وابن عوف تحمّل بالمجنون على والد ليلى . وإذا حلّ بهم الثقيل أوقدوا له نار الطرد :

نزَلتُ فلم أُكرَمْ فهل أنتَ مُتْبِعي وَقَوْمُكَ نَارَ الطَّرْدِ حِينَ أمِيلُ ؟

وإذا ضلّ أحدهم الطريق صفّق بيديه ، ولبس ثوبه مقلوباً لينبّه إليه من يراه فيهديه :

لَقَدْ ضَلّ الطّرِيقَ أمَا تَرَاهُ يُصَفِّقُ بِاليَمِينِ وَبالشِّمَالِ
وَقَدْ قَلَبَ الثِّيَابَ عَلَيْهِ نَهجاً عَلَى عَادَاتِهِمْ عِنْدَ الضَّلالِ

ويخيّرون الفتاة في أمر زواجها إذا كانت فطنة رشيدة ، فالخنساء خيّرها أبوها في دريد بن الصمّة ، وليلى خيّرها أبوها في قيس .

وأمّا عقائدهم فما تقلّ في المأساة عن عاداتهم ، فهم يؤمنون بالعرّافين ويلجأون إليهم في الشدائد . وإذا خدرت رجل أحدهم دعا

باسم من يحبّ ليزول الخدر كما دعت ليلى باسم قيس (ف ١ ص ٦) ويتشاءمون إذا خُلجت العين اليسرى . قال قيس :

خُلِجَتْ قَبلَ نَلتَقي عَينِيَ اليُسْـ رَى، وَرِيعَ الفُؤادُ رَوْعَةَ طائِرْ

ويكبّرون في أذن المغمى عليه ليستفيق :

قَيْسُ لا بأسَ عَلَيْكَ كَبِّرُوا في أُذُنَيْـــهْ

ويعتقدون أن لكلّ شاعر تابعاً من الجنّ ، يوحي إليه . وان الجنّ بنوا تدمر ، وان سليمان الحكيم غضب عليهم ، وحبسهم في القماقم وألقاهم في البحار (ف ٤ منظر ١) .

وأمّا الحالة السياسيّة فإن شوقي يطلعنا في لمحات صغيرة على العداء المستحكم بين العلويّين والأمويّين ، وضرب بني أميّـة عـلى أيدي المتشيّعين وتيقّظهم الشديد في مراقبتهم ، حتّى بات هؤلاء يعتصمون بالتقية (ف ١ ص ٢ — ٣) .

ه الاخلاق والصفات

قيس — لم يبتدع شوقي شخصيّة قيس ابتداعه شخصيّة كليوباترا ، وإنّما كان متوكّئاً في إظهارها على صاحب الأغاني . فما ذكر أبو الفرج نعتاً أو حالة لقيس ، إلا نظمه شوقي شعراً وأثبته في مأساته فقيس مجنون إذا ذكرت له ليلى ثاب من خبله وتحدّث كأنّه أعقل النّاس :

إذا سمِعتُ اسمَ ليلى ثُبتُ من خَبَلي، وثابَ مَا صَرَعَتْ مِنّي العَناقيدُ

ويغمى عليه — وما أكثر إغماءه — فلا يستفيق إلا على النداء باسمها .

وربّما خيّل إليه ذلك تخييلاً :

لَيلى ! لَعلّيَ مجْنونٌ يُخَيَّلُ لي ؟ لا الحيُّ نادَوْا على ليلى، وَلا نُودُوا

ويهيم على وجهه مصاحباً الظباء والوحش حتى أنست به وعطفت عليه . ويطأ التراب حافياً ، ممزّق الثياب ، أصفر اللّون ، هزيلاً . وكان جميل الصّورة ، وابن سيّد الحيّ :

وَقيس ، يا ليلى، وَإنْ لمْ تَجهَلي، زَينُ الشّبَابِ، وَابنُ سَيّد الحِمى

ليلى — ترك شوقي لنفسه الحريّة في تصوير هذه الفتاة فأبداها لنا محبّة لقيس مفاخرة به كما يروي التاريخ عنها . ولكنّه جعلها مع ذلك محافظة على التقاليد البدويّة ، تضحّي بحبّها من أجل شرفها :

تَصُونُ القَديمَ وَتَرْعى الرَّميمَ ، وَتُعْطِي التّقاليدَ مَا تُوجِبُ

وتخلص الوفاء لزوجها على حبّها لقيس ، فما ترضى أن تخونه وتهجر داره . وجعلها البدويّة المفاخرة بالبادية ، التياهة على الحضر ، الأمويّة التي ليست بمعزل عن سياسة الأحزاب ، مع سكناها البادية ، واشتغال قلبها بالحبّ ، الفطنة الرّشيدة يعجب بها والدها ويثق بها ، ويترك لها الحريّة في اختيار زوجها . ويعجب بها بعلها ويثق بها ، ولا يخشى عليها الانفراد مع من تهواه ، فيخلي لهما المكان .

المهدي — أبو ليلى ، سيد من عامر ، طيب القلب ، لا يحمل حقداً على قيس ، ولا يريد به شرّاً ، يحنو عليه حنوّ النسيب على نسيبه . بيد انّه عربي شريف تحكّمت فيه التقاليد البدويّة ، فلم يجد منها مناصاً .

ورد — زوج ليلى ، أحبّها بشعر قيس ، فشقي بهذا الحبّ ، ولم

يلقَ بالزّواج سعادة ، لأنّه رجل شريف رأى أن قلب ليلى مشغول بسواه ، فتورع أن يجرح هذا القلب .

بشر – يخرج شوقي لهذا الشخص صورة فيها سخر لطيف ، فيرينا فيه الجبن والخوف والادّعاء والحبّ لقيس . ينتحل شعر المجنون وصيده ، وليس له يد فيهما . ويهاجم منازلاً يريد تأديبه مناصرة للمجنون ، ولكنّه لا يصنع شيئاً غير التهديد من بعيد .

منازل – غريم قيس في حبّ ليلى يحسده عليها ، ويسعى في الدسّ له ليفتك الحي به . وفيه خبث وجبن وفصاحة ولسن .

زياد – راوية قيس وصديقه يدافع عنه .

٦ منزلتها

١ً محاسنها – وفّق شوقي في بعض المشاهد والمفاجآت توفيقاً لا بأس به ، مثال ذلك موقف منازل خطيباً في بني عامر يحضّهم على قيس ، وقد خاف أن تقبل فيه شفاعة ابن عوف . فكان أشبه بأنطونيوس عندما أراد أن يحرّض الشعب الرّوماني على بروتوس قاتل يوليوس قيصر . وكان العامريّون قد لانوا لقيس بعض اللّين ، فخشي منازل سوء المغبة إن بادر بالطعن عليه . فجهر بمدحه وأثنى على شعره الذي تتلقّفه الرّواة ، حتى انتهى إلى مبتغاه ، وهو أن هذا الشعر السيّار كان سبب افتضاح ليلى ، ولو كان شعر غيره لما تحدّث به النّاس (ف ٣ ص ٥٢) .

ومشهد آخر لا يعدوه الجمال . وفيه يصوّر شوقي تضارب العوامل النفسانيّة في صدر ليلى عندما خيّرها أبوها في قيس ، فتنازعها عاملا الحبّ والشرف . ثمّ أسرع العقل في التغلّب على العاطفة فرفضت قيساً .

وما ان خلت بنفسها حتى عاودها الضّعف ، فتحسّرت ولامت نفسها أشدّ اللّوم (ف ٣ ص ٧٢) .

وشعر هذه المأساة يرتفع في مواطن عدّة كتصوير البادية ومقابلتها بالحضر (ف ١ ص ٤ – ٦) . ودالية المجنون عندما استفاق من إغمائه على صوت الهاتف باسم صاحبته . فإن فيها كثيراً من روح قيس وأسلوبه ، وتكراره اسم ليلى (ف ٢ ص ٤٣) . ونونيّته الحسناء : تَعَالَيْ نَعِشْ يَا لَيْلَ في ظِلِّ قَفْرَةٍ (ف ٤ ص ٩٨) .

وكان الختام بيتاً جميلاً له وقع قوي في النفس ، فإن المجنون سمع وهو يموت صوتاً من القبر ينادي :

الصوت : قَيْسُ ، لَيْلَى !

فقال :

قيس: . . . . رَنَّةٌ في أُذُنِي ، رَدَّدَتْ : قَيْسُ ولَيلى الفَلَوَاتْ

نَحْنُ في الدُّنْيَا ، وَإنْ لمْ تَرَنَا ، لمْ تَمُتْ لَيلى، وَلَا المَجنونُ ماتْ

٢ً مساوئها – عني شوقي بإظهار اللّون البدوي عناية تذكر فنجح في مواضع كثيرة ، ولكنّه لم ينجُ من التعثّر في بعضها . كتعريف ليلى بقيس بن ذريح لسلمى وهند ومصافحتهما إيّاه . فهذا التعريف فرنجي الطريقة ، لم يعهده العرب ولا المسلمون من بعد (ف ١ ص ١) . وكذلك نعت قيس بالأديب ، مع أن هذه اللفظة لم تكن معروفة بهذا المعنى في صدر الإسلام ، وإنّما هي من وضع العبّاسيّين .

وهناك عدّة أشخاص لا قيمة لأدوارهم في المأساة كدور قيس بن ذريح ، ودور الغريض وأصحابه ، ودور الأموي وقرية الجنّ . فكلّهم

متطفّلون يفسدون على القصّة تساوقها وارتباطها ، حشرهم شوقي حشراً ليملأ فراغ الفصول بالحوادث .

والعقدة غير بارعة الاحكام والحلّ لاطراد سيرها التاريخي ، وسيطرة الحوادث التافهة عليها ، وقلّة خطر الدّسائس ، وضعف المفاجآت . فإن دسيسة منازل ما ولدت حتّى ماتت . وشعرنا بانتهاء المأساة عندما أبت ليلى أن تذهب مع قيس ، وإذا بالمؤلّف يجدّدهـا ليميت العـاشقين (ف ٤ منظر ٢) . ولم يكن في نقل بشر خبر موت ليلى إلى المجنون ما يثير النفس لضعف الأداء والمناقلة . فهذه المأساة رديئة الفنّ المسرحي في الجملة ، وأسوأ ما فيها تطفّل الحوادث واحتشادها .

قمبيز

(١٩٣١ م)

« مقدّمة إلى الأمير فاروق ، مذيّلة بنظرات تحليليّة ، مثّلت على مسرح رمسيس في السنة نفسها » .

١ موضوعها

استقى شوقي موضوعه من تاريخ مصر القديم ، في القرن السادس قبل المسيح . ومداره أن قمبيز ملك الفرس أرسل يخطب نفريت بنت أمازيس فرعون مصر . فأبت الأميرة أن تترك موطنها إلى بلاد غريبة . وكان من المحتّم أن يثير رفض نفريت غضب قمبيز فيغزو مصر. فحفز حبّ الوطن أميرة مصريّة أخرى إلى تقديم نفسها لقمبيز باسم نفريت ، وهي الأميرة نتتاس بنت أبرياس فرعون مصر السابق (ف ١) .

وكان في الجيش المصري قائد يوناني اسمه فانيس ، قد خان مصر

والتحق بالجيش الفارسي . فأخبر قمبيز بحقيقة زوجه ، وانّها نتتاس لا نفريت ، فغضب الملك وعول على غزو مصر وإخضاعها (ف ٢) .

وكان أمازيس قد مات ، وتملّك بعده ابنه بساماتيك . فيغزو قمبيز مصر ويفتتحها ، ويخضع بساماتيك ويأخذ عليه العهود . وتنتحر نفريت تكفيراً عن ذنبها إلى مصر . ويعلم قمبيز أن بساماتيك نقض العهد ، وأخذ يؤلّب القرى والمدائن ويدعوهم إلى الثورة ، فيأتي به ويهدّده ، ويأمر بسجنه . وتدخل عليه زوجه نتتاس تستعطفه على مصر ، فيطردها . فتلتفت إلى فانيس وتقول له متهكّمة :

مَوْلاكَ كَمْ تَخْدَعُهُ ، مَوْلاكَ كَمْ تَسْخَرُ بِهِ !

فيثور قمبيز ، ويقتل القائد اليوناني . ثمّ يقتل أحد قوّاده لأنّه أشار عليه بالرّفق ؛ ويقتل بعده العجل أبّيس معبود المصريّين . ثمّ يستيقظ ضميره وتبدو له أشباح قتلاه وفيهم أخوه وأخته ، فيطبق عليه الجنون ، فينتحر . ويسدل الستار على أربع جثث صريعة .

٢ منزلتها

١ً محاسنها — أعطانا شوقي صورة صادقة تنطق بعصبيّة نتتاس لمصر ، فإن وطنيّتها ملموسة في جميع أجزاء المأساة . وكذلك أحسن وصف حالة مصر قبل الفتح الفارسي ، وتقلّب العنصر الغريب على الجيش المصري ، ولا سيّما العنصر اليوناني ، وضعف الرّوح الحربي في نفوس المصريّين ، وانغماسهم في الترف واللّهو . ووفّق في تمثيل جنون قمبيز وشجاعته ووحشيّته .

٢ً عيوبها — في هذه المأساة عيوب كثيرة ، فإن العرض في الفصل

الأوّل ، استوعب خمسين صفحة ، ومجموع صفحات القصّة مائة وخمس وعشرون . وهو مقسوم إلى ثلاثة مناظر شغلها المؤلّف بأشياء يستغني عنها كشكوى نفريت لأبيها في المنظر الأوّل . ووليمة الوفد الفارسي وما تخلّلها من سحر وأحلام في المنظر الثالث . فإن الشكوى باردة ، حقيرة الأثر . والوليمة متطفّلة لا عمل لها إلا أن تقطع سير العمل القصصي ، وإن بدا فيها اللّون المحليّ قويّاً .

والفصل الثالث جُعل منظرين ، أوّلهما لا يزيد على صفحة واحدة ، حيث تبدو نفريت على ضفاف النّيل تذكر بأبيات سخيفة أنانيتها ، وما جرّت على مصر من الويل والحرب ، وتلقي بنفسها إلى النيل . وكان الأولى بالمؤلّف أن يحذف هذا المنظر البارد ، لأنّه أشار إليه في المنظر الثـاني .

وفي القصّة شخصان شأنهما خطير ، وليس لهما عمل يذكر . أحدهما نفريت هذه ، والثاني تاسو حبيبها وحبيب نتتاس . وإذا كان المؤلّف اضطرّ إلى إظهار نفريت لتأثير رفضها في محور المأساة ، فما شأن تاسو وما تأثيره ؟ فقد جعل الأميرتين تتهالكان على حبّه ، ولم يخلق له عملاً جديراً بهذا الحبّ . والأقبح أن وجوده شوّه جمال التضحية ، وهبط بسموّها . فإن نتتاس تعترف وهي في بلاد الفرس أنّها هجرت وطنها من أجل تاسو الذي هجرها ؛ مع أن المأساة قائمة على رمز التضحية الوطنيّة :

وَمَنْ هَجَرْتُ وَطَني لأجْلِهِ حينَ هَجَرْ

والعقدة غير متينة الإحكام ، فإنّها تشتدّ وتنحلّ ، دون أن تبعث في النفوس خوفاً أو تشوّقاً . فقد مهّد لها المؤلّف في الفصل الأوّل بزواج

نتتاس بدلاً من نفريت . وجاء فانيس بلاد فارس في الفصل الثاني فاشياً سرّ هذا الزّواج ، فعرف قمبيز الحقيقة ، وعرفت نتتاس افتضاح أمرها ، ومضى كلّ هذا بسرعة الخاطر ووثباته ؛ فضعف شأن الدّسيسة ، وضاع أثر المفاجأة . وفي الفصل الثالث تظهر مصر مفتوحة ، وقمبيز مالك عليها فلا يبقى من تلك العقدة الرّخوة إلا أن يهيج قمبيز ، ويفرش المسرح بالضحايا ثمّ ينتحر .

علي بك الكبير
أو دولة المماليك
(١٩٣٢ م)

« قدّمها المؤلّف إلى مؤتمر الموسيقى الشرقية في القاهرة في ١٤ « آذار ١٩٣٢ . ومثّلتها فرقة فاطمة رشدي على مسرح الكرسال في « الشهر نفسه والسنة نفسها . وذيّلتها جريدة البلاغ المصريّة بنظرات « تحليليّة » .

١ موضوعها

جرت حوادث هذه المأساة حوالي سنة ١٧٧٠ م . مكانها الفسطاط والصالحيّة وعكّا . وموضوعها مستمدّ من تاريخ مصر يوم كانت ولاية عثمانيّة ، والسلطان فيها للمماليك يتولّون مشيخة البلد ، وإليهم يرجع الأمر والنهي . وكان شيخ البلد يومئذٍ علي بك الكبير ، فطمع في الاستقلال بمصر ، فثار على الدّولة العثمانيّة وهي مشتغلة بمحاربة روسيّة . وكاد يظفر بأمنيته ، لو لم يخنه أقرب النّاس إليه : صهره محمّد أبو الذّهب ، ومملوكه مراد بك . فالتجأ إلى ضاهر العُمَر صاحب عكّا ، فأعانه

هذا على استرجاع ملكه ، وأمده بالعسكر ، ولكن نجمه كان قد أفل فأخفق في مسعاه ، وأسر وقتل . وحافظ شوقي على الأحداث التاريخيّة كلّ المحافظة إلا أنّه زاد عليها خبر الجارية أمال وزواج علي بك بها ، وتعشّق مراد بك لها ، دون أن يعلم أنّها شقيقته ، وخيانته مولاه من أجلها . والحقيقة أن مراد بك كان يهوى نفيسة امرأة علي بك ، وخانه من أجلها ، ولكنّها لم تكن شقيقته كما جعلها شوقي في قصّته .

٢ منزلتها

١ً ما لها — في المأساة تصوير بليغ لدولـة المماليك واستبدادهم وغدرهم ، ثمّ لتمرّد الجارية أمال على الرق عندما عرضها أبوها للبيع وأراد علي بك أن يشتريها ؛ حتى إذا رأى منها هذا التمرّد أعجب بها وتزوّجها حرّة . وفيها صور مختلفة لشجاعة علي بك وحزمه وإقدامه ، وكرم أخلاقه وعطفه على الفقير .

٢ً ما عليها — تقوم العقدة القصصيّة على موضوعين أحدهما الموضوع التاريخي وهو ثورة علي بك وإخفاقه ، والآخر الموضوع الأدبي ، وهو حبّ مراد لأمال ، وحبّها له ، وجهلهما أنّهما شقيقان . ولا يخفى ما في هذا الازدواج من ضعف الفنّ لأن موضوع المأساة في الأصل علي بك الكبير ، فعليه وحده كان ينبغي أن تبنى العقدة ، وتتسلسل منها الحوادث والمفاجآت إلى أن تنحلّ . وأما حبّ أمال ومراد فهو موضوع آخر يصلح لمأساة مستقلّة فامتزاجه بثورة علي بك لا مسوغ له البتّة .

وأظهر المؤلّف أمال بمظهر الزوجة العفيفة التي تحافظ على شرف بعلها فلم تخنه مع حبّها لمراد . غير أنّه لم يوقعها في أخطار جسيمة

وأشراك ودسائس لتثير الرّوع والإعجاب في النفوس . وكان التعارف بينها وبين أخيها بارداً لا يبعث الحرارة في الصدر ، فإن والدهما مصطفى النخّاس عندما أنذره الموت ، رأى من الخير أن يتعارفا ليكفّ الأخ عن التصدّي لأخته . ولكن شوقي لم يفلح في إرسال هذا الانقلاب على جلال شأنه ، فجاء غثّاً متثاقلاً . وسبب ذلك أن مراداً سبق والده إلى التعريف ، فنفى عن الموقف جماله الطبيعي (ف ٣ ص ١١٢) .

ويفرغ المسرح في الفصل الثالث حين يخرج مراد وآمال بجثة والدهما ، ويدخل بعدهما علي بك مجروحاً . وفراغ المسرح دون إشارة من الخارجين تدلّ على مجيء أشخاص آخرين من العيوب التمثيليّة عند أصحاب الفنّ .

وعلى الجملة فعيوب هذه المأساة أكثر من فضائلها .

أميرة الأندلس

(١٩٣٢ م)

« تم طبعها في اول تشرين الثاني سنة ١٩٣٢ م »

١ موضوعها

هذه قطعة من تاريخ الأندلس في زمن ملوك الطوائف ولدت حوادثها ونمت في إشبيلية عاصمة العبّاديين بالأندلس . وانتهت في أغمات بلد على مقربة من مراكش بالمغرب الأقصى . وموضوعها أن الأميرة بثينة بنت المعتمد بن عبّاد صاحب إشبيلية زارت قرطبة بثياب غلام ، فرأت فتى في السّوق يشتري كتباً ، فحادثته وحادثها ، على أنّها فتى مثله ، وافترقا وقلبها مشغول بهواه . وخطبها سير بن أبي بكر وزير

يوسف بن تاشفين أمير المرابطين . فردّت يده ، وبحث عن فتاها حتى عرفته فإذا هو حسّون بن أبي الحسن التاجر الإشبيلي ، فزارته في داره متنكّرة بالزيّ الغلامي الذي عرفها فيه . فرحّب بها . وبينا هو يروي خبر مقتل أخيها الظافر في قرطبة ، غُمي عليها وانسدل شعرها ، فتبين حقيقة أمرها ، وتعشّقها كما تعشّقته .

ثمّ غزا يوسف بن تاشفين الأندلس ، وأزال عنها ملوك الطوائف واعتقل المعتمد بن عبّاد وأسرته ، وأرسلهم إلى أغمات . إلا بثينة ، فقد سباها مغربي ، فعرف أبو الحسن التاجر مقرّها ، فاشتراها ، وجاء بها إلى ابنه حسّون . فأبت أن تتزوّجه إلا برضى أبيها وأمّها ، فسار بها إلى أغمات حيث تمّ الزّواج .

٢ منزلتها

قد يصحّ على هذه المسرحيّة أن نسميها مناظر تمثيليّة ، لما فيها من المشاهد والفصول المستقلّة المتقاطعة . وأما أن نسميها مأساة بالمعنى الفني المعروف فهذا تجوّز عظيم لا مسوّغ له . وأي مأساة تدعى ؟ وليس فيها عقدة معروفة ، ولا قصّة متسلسلة الحوادث موحّدة العمل . وإنّما هي أخبار مبثوثة لا يكاد يجمع بينها جامع : أخبار ابن عباد على اختلاف حوادثها ونواحيها ، جمعها شوقي من التاريخ على علاّتها ، ووسمها بسمة المآسي بالرّغم من أنف الفنّ . فكان الاختلاط والاضطراب وضعف التأليف أعظم ميزاتها .

ولا نحاول أن نتوسّع في تحليلها ونقدها ، لأنّها لا تستحقّ هذه العناية ، وإنّما نعرض ما فيها من تراكم الحوادث وتقاطعها ليكون المطّلع على بيّنة منها . فالفصل الأوّل يشتمل على ثلاثة مناظر لا يحتاج

موضوع القصة إلى سوى الأوّل منها . أما الثاني ففيه وليمة الوفد الاسباني ، ومقتل ابن شاليب وزير ألفنس ، فلا معنى لاقحامه في المأساة . والمنظر الثالث منقطع عن الأوّل والثاني بنزهة نهريّة خارجة عن الموضوع .

أما الفصل الثاني فخارج عن الموضوع برمته ، فما سرقة كنوز طليطلة ونكبة أبي الحسن التاجر من قوام المأساة ، بل كلاهما يستغنى عنه .

والفصل الخامس يحتوي ثلاثة مناظر ، أحدها بالأندلس وفيه سبي بثينة ونجاتها ، والآخران في أغمات . فلو اكتفى شوقي بالأخيرين لكان أولى . لأن بثينة روت لأبيها خبر سبيها ، فلا حاجة إلى ذكره قبلاً لولا شغف المؤلّف بالاكثار من الحوادث المختلفة ليملأ بها الفصول .

وهذه المسرحية نثريّة ، واضحة الإنشاء ، سهلة العبارة ، خالية من التكلّف الذي تعمده شوقي في أكثر نثره .

عنترة

(١٩٣٢ م)

« تم طبعها في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٣٢ »

١ موضوعها

وقعت حوادث هذه المأساة في أواخر العصر الجاهلي ، في احياء بني عبس وعامر ببادية نجد . وموضوعها مستقى من سيرة عنترة بن شدّاد العبسي وما كان من حبّه لعبلة بنت عمّه مالك ، وكلفها به لشجاعته وفصاحته وشهامة نفسه ، مع أنّه عبد أسود أنكره أبوه ، وأبى عمّه تزويجها به .

فاتّفق مرّة أن غزي الحيّ وسبيت النساء ونهبت الأموال . فاستغاث

شدّاد بابنه ، وألحقه بنسبه ، فكرّ واستنقذ السبايا والنعم وهزم الأعداء . ولكن والد عبلة لبث مكابراً لا يرضى به صهراً ، ولا يردّ يد ابنته عن طالب ، رجاة أن يتخلّص منه ، جاعلاً رأسه صداقها . وعنترة يفسد عليه خططه ، ويُنزل بالخُطّاب الويل والحرب ، حتى تزوّجها بالرّغم منه .

وهذه الحوادث اقتطفها المؤلّف من مواضع شتى في السيرة ، وغيّر في الأسماء وبدّل ، وزاد من عنده حبّ ناجية لصخر العامري خطيب عبلة ، وزواجهما بحيلة مفتعلة . وذلك أن عشرين فارساً من بني عبس كلّفوا حراسة عبلة في طريقها إلى بني عامر ليتزوّجها صخر ، فتصدّى لهم عنترة وأنقذها ، بعد أن مكّن سيفه منهم فقتل بعضهم وفرّ الباقون . وكانت ناجية ، وهي فتاة من عبس ، تحبّ صخراً ، فخلعت عليها عبلة خمارها ووشيها ، وأركبتها هودجها ، وأرسلها عنترة إلى بني عامر مع بعض أصحابه ، فدخلت خباء صخر وهو يظنّها عبلة .

وبينا بنو عامر يولمون ولائم العرس هبط عليهم عنترة ، فذعروا وتطايروا من أمامه . وكانت عبلة معه ، فقضى العبسيّون عن أبيها بأن تتزوّج عنترة . وقضى عنترة على صخر بأن يتزوّج ناجية فأذعن مستخذياً وقامت الأفراح .

٢ منزلتها

ليست هذه المأساة بخير مآسي شوقي ولا بشرّهن ، فهي بارعة في تحليل الأشخاص والعادات ، إلا ما كان من دعوة عبلة إلى الوحدة العربيّة ومكافحة الاستبداد الأجنبي . مشحونة كغيرها بالحوادث الطفيلية ، ضعيفة الارتباط ، مبتذلة المبارزات . بيد انّها لا تخلو من

المشاهد الرّائقة كتحرير عنترة ، ودفاع عبلة عن حبّها متمرّدة على أبيها وأخويها ، ودعوتها العرب إلى الاتحاد . ثمّ المفاجأة التي كان بها حسن الختـــام .

نظرة عامة
في مآسي شوقي

شوقي والتاريخ

بنى شوقي مآسيه على حوادث التاريخ ، وأدخل في بعضها الأساطير والخرافات « مجنون ليلى . قمبيز . عنترة » . غير أنّه كان يراعي الجانب القصصي أحياناً ، فيغيّر في الأحداث التاريخيّة ويبدّل ويقدّم ويؤخر . إلا أن الاختراع ضعيف في الجملة ، فالتاريخ هو المسيطر على العقـــد والمفاجآت المسرحيّة . ويلام شوقي انّه لم يتأثّم من تشويه الحقيقة التاريخيّة في بعض المواضع . فقد جعل عبلة « عنترة » تدعو إلى الوحدة العربيّة وخلع نير الأعاجم . مع أن الجاهلي لم تخطر في باله هذه الأشياء ولم يتجاوز القبيلة بعصبيّته . وجعل ابن عوف يشفع لقيس ، مع أن الذي شفع له نوفل بن مساحق « مجنون ليلى » وليس من داع قصصي يسوّغ هذا التغييرا .

ومآسيه على لونين من التاريخ أحدهما مصري « كليوباترا ، قمبيز ، علي بك الكبير » والآخر عربي « مجنون ليلى ، أميرة الأندلس ، عنترة » .

شوقي وقوانين ارسطو

لم يتقيّد شوقي بوحدتي المكان والزّمان بل كان ينتقل حرّاً من موضع

إلى آخر ، وربّما استغرق هذا الانتقال شهراً أو أقلّ من شهر ، أو أكثر . ولئن أبيح للكاتب المسرحي أن يتمرّد على أرسطو في هاتين الوحدتين ، لم يبح له أن يشذ عن وحدة العمل كما فعل شوقي في مآسيه .

العمل

عني شوقي بالإكثار من الحوادث في فصول مآسيه ، فإذا هي عنده أظهر من تصوير الحياة وتضارب العواطف والأهواء . وفاتها الارتباط والتساوق ، فأضعفت العقدة ، وأفسدت العمل ، وهبطت بالفنّ التمثيلي هبوطاً مشؤوماً لا حدّ له . فأنى تبينتها تجد معها المعرّة والضرر ، ولولاها لكانت سقطات شوقي هينة يسيرة ، ولما نعيت عليه مآسيه ، وإليك البيان :

١ً يتطفّل على الموضوع خبر دخيل يرافقه ولا يمتزج به « مصرع كليوباترا » .

٢ً تتوزّع العقدة بين خبرين لا يتحدان اتحاداً قويّاً ، فيبدو عليها الضعف والاسترخاء « علي بك الكبير » .

٣ً يُحشر في العرض حوادث غريبة عن العمل لا علاقة لها بما يأتي بعدها « مصرع كليوباترا ، أميرة الأندلس » .

٤ً يعترض الفصول أشخاص طفيليّون لا قيمة لأدوارهم ، وحوادث خارجة عن الموضوع ، لا عمل لها إلا أن تقطع العمل : « مجنون ليلى ، قمبيز ، عنترة ، أميرة الأندلس » .

٥ً يضاف إلى المأساة خبر جديد بعد انحلال العقدة « مجنون ليلى » .

فاتّفاق الحوادث المختلفة على العمل أودى بوحدته ، وحال دون العقدة فقطع أوصالها ، وصدّ الجاذبيّة عنها ، فلم يتسلسل تيارها في الفصول .

وإذا أضفنا ضعف المفاجآت المختلقة ، وخنوع أكثرها للتاريخ ، وسيرها في ركابه ، تبيّنت جليّاً ضآلة تأثير العقدة في النفوس .

ونهاية مآسي شوقي فواجع ونكبات ، وقتلى وصرعى ، ما عدا عنترة وأميرة الأندلس .

الاخلاق

وفّق شوقي في تصوير أخلاق أشخاصه وعاداتهم توفيقاً يحمد عليه ، ولا سيّما في مصرع كليوباترا ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعلي بك الكبير . فأرانا الحبّ والبغض ، والشجاعة والجبن ، والوفاء والخيانة ، والظلم والحلم ، والشرف والوطنيّة ، وجمال العواطف وقبحها . إلا أن أشخاصه ليسوا بأشخاص الإنسانيّة يرافقون الأجيال والأحقاب ، وإنّما هم يحيون ويموتون في عصورهم .

الحب

يحذو شوقي حذو كورنه في إظهار الحبّ وتصويره ، فهو مقيّد بالعقل أبداً ، خاضع للواجب . فكليوباترا لم تتحرّج من خذل حبيبها مراعاة للسياسة المصريّة . وليلى رفضت قيساً محافظة على التقاليد البدويّة . وورد خنق عاطفته ملبّياً داعي الشهامة والمروءة « مجنون ليلى ». وأمال حبست نفسها عن مراد وفاء لزوجها « علي بك الكبير » . وعبلة أبت أن تزف إلى عنترة دون رضى أبيها . وبثينة لم تتزوّج حسوناً إلا بعد أن استسلمت إلى إرادة والدها « أميرة الأندلس » . على أن هذا الحبّ لا يبدو عظيماً بخضوعه للواجب إلا في مجنون ليلى ، ويعود ذلك على ضعف أثر التضحية ، إمّا لحقارة العقبات التي تحيط بها ، « علي بك

الكبير » . وإما لقلّة خطرها ، « كليوباترا » . أو لحسن نتيجتها ، « عنترة ، أميرة الأندلس » .

والحبّ في مآسي شوقي لا تتصوّر فيه الغيرة ، مع ما لها من القوّة في توجيهه وإلهابه . وهو خال من الظرف والنعومة والدلال . وخالٍ من تصوير اللّوعة والحزن ، وتفاعل العواطف في حالتي البعد والحرمان .

الخلقيات

تشتمل مآسي شوقي على مغازٍ خلقيّة نبيلة ، كالتضحية في سبيل الوطن « كليوباترا ، قمبيز » . وفي سبيل الشرف « مجنون ليلى ، علي بك الكبير » . وكالسعي إلى الوحدة القومية والاستقلال وخلع نير الغريب « عنترة ، علي بك الكبير » . فكأنّه يمثل في ذلك حالة مصر خصوصاً ، والشرق الإسلامي عموماً .

وفيها الثورة على الرق ، وتقبيح الظلم والغدر « علي بك الكبير » . وفيها وخز الضمير وألم النفس النادمة « قمبيز » . وفيها مغبة الإثم وعقاب الجريمة « كليوباترا ، قمبيز » .

وفيها تصوير بليغ للشجاعة والمروءة والوفاء والحلم ، وعزّة النفس وعلوّ الهمّة وسواها من السجايا الحسنة . وفيها كثير من المواعظ وآداب النفس الّتي طالما شغف بها شوقي وبثّها في قصائده .

الشعر

غلب النوع الغنائي على شوقي حتّى في مآسيه ، فاصطبغ به أشخاصه فإذا هم غنائيّون مثله ، يحتفلون بالقصائد الوجدانيّة الموسيقيّة ، أكثر من احتفالهم بفنّ التمثيل . وقد ارتفع شوقي في كثير من هذه القصائد ،

فكانت له المقطعات الجميلة ، والأبيات المقلّدة ، والوثبات الرّائعة ، والإيجاز المحكم في تأدية المعنى .

وشعره يرافق المواقف العاطفيّة ، فيلين في موضع اللّين ، ويشتدّ في موضع الشدّة ، فاجتمعت له الرقّة والجزالة ، والنعومة والصلابة . وتطفو عليه المعاني ، والصور والتشابيه البدويّة ، في قصص البادية « عنترة ، مجنون ليلى » . وهو على تقلّب أحواله رائق الديباجة ، واضح الغرض ، بعيد من الغريب المستوحش .

ولشوقي الفضل الذي لا يجحد في إخضاع الشعر للتمثيل ، بعد عصيانه على متقدّميه . فقد حرّره من رق الخليل فخالف في الأنواع ، فكانت له القصائد والمقطعات ، والتوشيحات ، والمسمّطات ، والمزدوجات . وخالف في الأوزان فكان ينتقل من بحر إلى آخر في المشهد الواحد . وخالف في القوافي فكان يثب من رويّ إلى رويّ متى شاء . فاتّسع له مجال القول ، وانطلق عنده عنان الفكر والخيال .

ما أدرك عليه

كان شوقي كثير المعارضة للمتقدّمين ، راوية لأشعارهم ، فقاده ذلك إلى التوكؤ على معانيهم سواء في معارضاته أو في سائر أقواله . فكثرت عنده المعاني المطروقة والصور المقلّدة ، تحتشد حولها وجوه وأجيال من طوائف الشعراء . وقد يحاول إخفاء سرقته في إخراج المعنى عن أصله فما يستقيم له الأمر كقوله يرثي الملك حسيناً الهاشمي :

لَكَ في الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ مآتِمْ ، قَامَ فِيهَا أبُو المَلائِكِ هَاشِمْ

فهذا المعنى مأخوذ من قول ابن النبيه :

مَـأتَـمَـةٌ في الأرْضِ لـكـنـهـا   عُرْسٌ على السَّبْعِ الطِّبَاقِ الشِّدادْ

وقول ابن النبيه أجود وأصحّ . فقد جعل الأرض في مأتم لأن الميت فارقها . وجعل السماء في عرس لأن الميت حلّها . أما شوقي فأراد أن يولّد من المعنى شيئاً جديداً لم يقله سابقه ، فجعل الأرض والسماء في مأتم على السواء . وهذا لا يصحّ إلا إذا كان طريق الميت إلى النّار ، رحم الله الحسين !

ويدرك عليه في هذا البيت قوله : قام فيها ، والصواب قام بها . يقال قام بالأمر لا قام فيه . وقوله : أبو الملائك والصواب أبو الملوك أو أبو الأملاك . ولُقّب هاشم أبا الأملاك لأن منه خرج ملوك العبّاسيّين والطالبيّين . وأما الملائك فجمع ملَك أي الرّوح السماوي . وغلط شاعرنا في جعله هاشماً يقوم بمأتم الحسين في السماء لأن هاشماً مات جاهليّاً ، ولم يدرك الإسلام ، فليس له ولاية عند الله ، فترتفع منزلته في الجنّة ، فيتولّى مثل هذه الحفلات .

والعثرات اللّغويّة كثيرة في شعر شوقي نجتزىء منها بقدر قليل، قال:

وَاحْمَرَّ مِنْ خَفَرَيْهِمَا خَدّاكِ

والصواب : من خفرهما إذ ليس لكلّ من خدّيها خفر يختلف عن خفر الآخر . وقال :

أنَا مَنْ بَدّلَ بالكُتْبِ الصِّحَابَا،   لَمْ أجِدْ لي وَافياً إلاّ الكِتَابَا

ووجه الكلام : أنا من بدّل الكتب بالصّحاب . وقال في قمبيز :

أسَفاً على الفِتيانِ أينَ حَماسُهُمْ،   قَتَلَ النّعِيمُ حَمِيّةَ الفِتْيَانِ

وإنّما يقال الحماسة لا الحماس ، والحماس شجر . وقال في علي

بك الكبير :

بَعْضُ التِّجَارِ الجَوَالِبِ

والجوالب لا يستعمل إلا مع النساء ، أو غير العاقل . وقال في كليوباترا :

أَثَرَ البُهْتَانُ فيهِ ، وَانْطَلَى الزُّورُ عَلَيْهِ

فانطلى الزّور عليه من كلام العامّة . وقال فيها :

فَلَمَّا أَصْبَحَ الصُّبْحُ انْتَبَهْنَا نَرَى الأُسْطُولَ أَزْيَنَ ما تَرَاءى

يقال : أصبح فلان : دخل في الصباح . ولا يقال أصبح الصبح . وقال :

بَطَلَ الشَّرْقِ قد بَكَتْكَ المَعالي، وَرَثَاكَ الوَفِيُّ وَالأَخْصَامُ

والخصم لا يجمع على أخصام .

ويؤخذ عليه إكثاره من استعمال ذا للإشارة شأن المتنبي وهي ضعيفة في الشعر . ولم يسلم من الغلو المستكره كقوله يصف قذائف الأتراك :

قَذائِفُ تخشَى مُهجةُ الشمسِ ، كلّما عَلَتْ مُصْعِداتٍ، أنّها لا تُصَوِّبُ

وله معانٍ بادية السخف والزّراية كقوله في رثاء محمّد علي زعيم الهنود المسلمين :

وَقَباؤهُ نَهجُ الهُنودِ فَهَلْ تُرَى دَفَنُوا الزَّعِيمَ مُكَفَّناً بِقَبَائِهِ

وربّما خرج على أصول العروض وقوانينه ، فألحق العيوب المستكرهة بقوافيه كتائيته في لبنان ، فإنّها مشوبة بسناد الرّدف . أو استباح الأوزان

فكسرها كقوله :

مَنْ نَسِيَ السَّلَفَ وَخِدمتَهُ ، لَمْ يَذْكُرْ في غَدٍ الخَلَقَا

فقد أورد القبض أي حذف الحرف الخامس ، فجاء تفعيل الجزئين الأوّلين فاعلُ ، فاعلُ . والقبض لم يسمع في هذا البحر .

اسلوبه

لا تخطىء أسلوب شوقي إذا تتبعته في تعابيره وألفاظه وصوره وانتقالاته ، على ما في شعره من رسوم ووجوه لشعراء مختلفين . فأسلوبه بادي الشخصية وإن تكاثرت عناصره الغريبة ، وشخصيّته بيّنة الطابع ، وإن تكن في جملتها مستعارة . فلشوقي الدّيباجة المشرقة والرّنّة الموسيقيّة والاستهلالات البارعة والألفاظ البرّاقة الصخابة البليغة الوقع في النفوس ، والتشابيه المترفة النّاعمة يستمدّها من الطبيعة الباسمة والقصور الضاحكة ، ومن وسوسة الحلى والجواهر ، ومن الحياة الزاهية المبتهجة التي يشعر بها كلّ الشعور : « كأنّ اسمها البشرى أو العيدُ » .

ويفرط في ذكر عيسى ومريم والملائكة والأنبياء والصحابة وعظماء التاريخ والإسلام والمسلمين ، والتوراة والإنجيل والقرآن ، والصليب والهلال ، والجنّة والخلد ، والحور والولدان ، والشمس ويوشع ، والأخلاق والعبقريّة ، والرّفيف والرّفرف ، والضجيج والبناء والحائط والشراع والجناح .

ويكثر في كلامه من الاستفهام :

رِبَاعُ الخُلْدِ وَيْحَكَ مَا دَهَاها؟ أَحَقٌّ أَنَّهَا دَرَسَتْ أَحَقٌّ ؟

وربّما انقطع عن الخبر ليثب إلى الاستفهام تعمّداً :

رَفَعُوا لَوْلَبَهَا فَانْدَفَعَتْ ، هَلْ رَأَيتَ الطيرَ قد زَفَّ وَحَامَا[1]

ويحفل شعره بالإشارات إلى الحوادث التاريخيّة المشهورة ، وخصوصاً ما يتعلّق منها بالأديان ، وبتاريخ الإسلام . ولا يخلو من غموض ، إمّا لالتباس ضمائره ، أو لقصر ألفاظه عن أداء معانيه، أو لبعد استعاراته وكناياته . أو لتعسّفه في إبراز فكرته . فهو من هذا القبيل يشبه المتنبي وأبا تمّام .

وقصائده متعدّدة الأغراض ، وإن دلّ عنوانها على غرض واحد . فقد يمدح ، أو يرثي ، أو يصف طيّارة ، فيدخل في مدحه ورثائه ووصفه السياسة والتاريخ والاجتماع والنصائح والوطنيّات والدينيّات ، وغير ذلك ممّا يحدث عنه كيمياء عجيبة التركيب ، تخرجها شاعريّة غريبة الوثبات ، مكهربة التوليد ، ملوّنة النتاج .

منزلته

مسحت ربة الشعر أحمد شوقي بزيت العبقرية ، ونضحته بماء الخلود ، ثمّ ألقته إلى الشرق شاعراً ضنّت بأمثاله قروناً طوالاً . وحرصت على تنشئته ، فأتاحت له ثقافة حسنة رفعت مستوى تفكيره ، وذلّلت له أسفاراً كثيرة ، تعهدت بالغذاء موفور خياله . إلا أن إلهة القدر خانتها فيه ، وعكست آمالها من حيث حققت آماله . فما ان انتفض جناحاه ، وزفّ للطيران في أفق الوحي الطليق ، حتى لوّحت له بقفص من ذهب .

[1] لولبها : الضمير يعود على الطيارة . زف الطائر : رمى بنفسه أو بسط جناحيه ليطير .

فأغرته به ، وخطفت أبصاره بلمعانه فعشا إلى ضيائه لا يُبصر ما عداه ، وارتضى السجن المُوصد على الفضاء الفسيح ، والتنزّي في القضبان على التحليق في الأفلاك . فطوى جناحيه وهما على أشدّ ما يكون حاجةً إلى الانطلاق . وإذا به في قصر الأمير لا يرى من الشعر غير المدح والرّثاء وما يشبه المدح والرّثاء . فجنى عليه القصر ما جنى ، من قبلُ ، على المتنبي والبحتري وأبي تمّام . وصرفه كما صرفهم إلى شعر الحفلات والمراثي ، فكان شاعر الأمير وأمير الشعراء ، والشاعر المُترَف المتنعم ؛ وكان أيضاً شاعر العبقريّة المسجونة ، وشاعر التقليد والمحاكاة .

وشاء القدر أن ينفى عن مصر . ثمّ عاد إليها لا ليتّصل بالقصر وقد انقطعت ما بينهما الأسباب ، ولكن ليَنشُد تلك الحرّيّة التي أضاعها في شبابه ، وليتّصل بالشعب ويلمس جراحاته بعد أن كان لا يتبيّنها إلا عن بعد . فاجتمع له في الوطنيّات والدفاع عن مصر والإسلام والشرق شيء يحمد عليه .

وكأنّه أراد أن يستعيض ممّا خسره وهو في القصر ، فنشط إلى الأغراض التي باشرها في صباه ، فنظم أساطير القرون ، ونظم القصص التمثيليّة ؛ فكانت أواخر سنيه أخصب أيّامه وأشرفها نتاجاً . وإنّه وإن لم يبلغ بالتمثيل غاية الفنّ والاتقان ، لقد فتح طريقه للشعراء ، وذلّل لهم البحور والقوافي . وكان كالفرس الكريم يجيد الإحضار مهما يطل عليه المجال . وقلّما وفت الشاعريّة لصاحبها كما وفت له في شيخوخته . ولو قُيّضت لها الحرّيّة في الشباب كما قُيّضت لها في المشيب لجاءت بالعجب العُجاب ؛ ولأدّى صاحبها رسالة عبقريّته بحذافيرها .

وطارت لشوقي شهرة في حياته ، لم يطِر مثلها إلا لأفذاذ الشعراء المتقدّمين ؛ فإن منزلته عند الأمير جعلته قِبلة الأنظار ، وحديث المحافل ؛ فكان اسمه يتردّد على الأفواه ويجول في الخواطر ؛ وقصائده لا تُنشر في الصحف إلا متوّجة بمقدّمات الثناء والإطراء . ولم يكن النقد الأدبي قد نهض يومئذ ، فكانت كلّ قصيدة له عصماء ، وكلّ نَفثة من نفثاته سِحرَ البيان . فكثُر رواة شعره . والمعجبون به ، وقلّ من نظر إلى نتاجه ، فرآه دون ما يرجى من شاعر مثله .

فلمّا تناءى عن عابدين ، وعاد من الشعب ، كان النقد قد تقدّم تقدّماً محسوساً ، فانبرى له الأدباء في مصر ولبنان وسورية وأميركة يروزون أقواله ، ويتلمّسون مواطن الضعف فيه ، وينعون عليه تقليده ؛ فتصدّى لهم جماعة من نُصَرائه يَنقُضون أقوالهم ، ويذودون عنه ، ويبالغون في تفضيله ؛ حتى عقد بعضهم الجوائز لمن يعارضه ويبزّه . فاحتدم الجدال في ما له وما عليه ، واتّسع مجال القول على خصومه ومُريديه ، فكان خلافهم فيه سبباً قويّاً لتوطيد شهرته ، كما وطّد الخلاف ، من قبل ، شهرة المتنبي والبحتري وأبي تمّام . أضف إلى ذلك مبايعته على إمارة الشعر في حفلة حافلة بالشعراء والأدباء ، وطبع آثاره طبعاً عامّاً مُتقناً ، وطبعاً مدرسيّاً خاصّاً ، فسهّل لها سبل الانتشار ؛ ثمّ حفلة تأبينه بعد موته ، وما كتب عنه من المقالات والدراسات. ولا ينبغي أن نجحد فضل المغنّين ، ولا سيّما عبد الوهّاب المصري ، فإنّه أطار أشعاره التي غنى فيها ، فسارت في الحواضر والبوادي ، وردّدتها قوالب الحاكي ، وتغنى بها المغنّون ، وحفظها النساء والأولاد والرّجال .

ولكن الشهرة وحدها لا تُخلّد صاحبها طويلاً إلاّ تُدعَم بعناصر الخلود . وشوقي شاعر اتّفرت لديه عناصر العبقريّة ، فله الخيال الخصب المديد ، وقوّة الوصف والتصوير ، ودقّة الشعور بشباب الحياة وبهجتها ؛ والوثبات العجيبة المحلّقة ، واللّمحات السريعة الخاطفة ؛ وأدب النفس الإنسانيّة واتّساع عاطفتها وإحساسها ؛ وبراعة المعنى الطريف وعمق مدلوله ؛ وجمال اللّفظ الأنيق وهلهلته ، كأنّما رُكّب من نغـــم الآلات . وله الشعر الرّائع في الوطن والإسلام ، والتاريخ والاجتماع ، والحكم والأمثال الجارية على ألسنة النّاس . وهو شاعر عصره يمثّله بسياساته وفتنه وأحزابه وفوضى مجتمعه وأخلاقه .

ولئن غلب القديم على شعره بتأثير حياته ، لا يُنكر جديده في مختلف أوصافه واجتماعياته وقصصه التمثيلية وأساطير الماضين وسواها . فهو بحقّ واسطة عقد الأوائل والأواخر . وحسبه منزلة انّه رفع قدر مصر في الشعر ، ولم تكن قبله تعد شاعراً منها في طبقة الفحول ، فكان نابغتها الأوحد وأمير الشعراء وشاعر الشرق والإسلام .

الكتاب المحدثون

عصر الانبعاث

ميزة النثر

كانت لغة النثر في صدر الانبعاث كلغة الشعر ، ضعيفة التركيب ، متثاقلة الأداء ، مصروفة إلى الصناعة اللفظية . وكان الغموض يرافقها على الغالب . ولا سيّما في الترجمات ، لاستمساكهم بالألفاظ ، دون المعاني . ثمّ بدأت ترتفع وتنجلي ديباجتها بعد منتصف القرن الماضي ، وظهرت نهضتها في مقامات الشيخ ناصيف اليازجي ، ثمّ في ترسل أديب إسحق[1] .

إلا أنّ جمهرة الكتّاب لبثوا يترسّمون طريقة القاضي الفاضل والحريري في السجع والتزيين . بيد أنّهم حاولوا اطّراحها في بعض أغراضهم ، ومنهم من تجنّبها أصلاً أو قصرها على الترسل وأنواعه .

ولما نشأ كتّاب القرن العشرين أقلعوا عنها جملةً إلى المرسل المطبوع . واقتصر المتكلّف المسجوع على طائفة من الشيوخ حملوا معهم أسلوب القرن الماضي . ثمّ على طائفة أخرى من الجامدين الذين لا خطر لهم في النهضة .

١ منشيء بليغ ولد في دمشق سنة ١٨٥٦ م (١٢٧٣ ﻫ) وترعرع في بيروت . وطارت له شهرة في مصر . جمعت نخبة أقواله وأشعاره في كتاب اسمه الدرر . توفي ببيروت سنة ١٨٨٥ م (١٣٠٣ ﻫ) .

وكيف دار الأمر فالنثر كان أسرع تطوّراً من الشعر ، وأعجل تفلّتاً من اغلال التكلّف والتقليد . لأن الكتّاب أدركوا روح العصر وحاجة أبنائه ، فجاروا حياتهم في سيرها ، وانطلاقها إلى الأمام . في حين كان الشعراء لا يقلعون عن التلفّت إلى الوراء .

ويعود الفضل في تقدّم النثر ، وتحرّره إلى أسباب عدّة : منها انتشار الثقافة الغربيّة ، وظهور النقد الأدبي الحديث . ومنها مزاولة الصحافة ، والترجمة ، واطّلاع الكتّاب على صحف الأعاجم ، ومصنّفاتهم ، وأساليبهم . ومنها نشر المخطوطات العربيّة القديمة لبلغاء الكتّاب المطبوعين كابن المقفّع ، وابن خلدون ، والإمام علي ، وابن عبد ربّه ، وأبي الفرج الأصفهاني ، والجاحظ . فقد أقبل عليها الأدباء وتدارسوها ، فراقتهم أساليبها . ورأوا فيها ما يسد بلغتهم ، ويعينهم على أداء أفكارهم ، في مختلف الأبحاث . فتلمذوا لها ، وجفوا الطرق المتكلّفة التي يضيع العمر في تنسيق ألفاظها وتزيينها . وليس بوسعها أن تقضي حاجة العصر بما فيه من آداب وعلوم وفنون .

واختلطت هذه الأساليب بعضها ببعض من كثرة الانسحاب عليها ، ومازجتها الأساليب الدّخيلة امتزاجاً يختلف بين القوّة والضعف ؛ فنشأ عنها طرق حديثة متعدّدة أشهرها ثلاث : طريقة الشيخ إبراهيم اليازجي ، وطريقة مصطفى لطفي المنفلوطي ، وطريقة جبران خليل جبران[1] .

واشتدّ تأثير الثقافة الغربيّة بعد الحرب العامّة ، فجنحت طرق

١ طريقة جبران قوامها تصوير خيالي جامح ، وألفاظ ملونة مبلورة ، وجمل شعرية مقطعة ، فيها شبه بأسلوب التوراة . وكان لترجمة التوراة أثر ظاهر في نثر بعض الكتاب المسيحيين ، ومنهم جبران .

الكتّاب في كثرتها إلى أساليب الفرنجة ، فاصطبغت بألوانها اصطباغاً بيّناً سواء في فنون التعبير ، أو بعض وجوه التّركيب . وظهر الضعف على طائفة منها لأن أصحابها قلّ حظّهم من البلاغة العربيّة ، فطغت عليهم العجمة ، وانحدرت ببيانهم أشأم انحدار .

وأفادت اللّغة ألفاظاً جديدة ، قضت بها الحضارة والمختّرعات والعلوم . فمنها ما نقل بلفظه الأعجمي وعُرّب . ومنها ما وُضعت له مصطلحات من صلب اللّغة . ومنها ما بقي حائراً بين لفظه الدخيل ووضع عربي جعل له ، ولم يأخذ به جمهرة المنشئين . وشاعت ألفاظ إقليميّة ، حملتها الجرائد والكتب ، فالتبست من طول الاستعمال بالفصيح المأنوس .

ومال الكتّاب إلى شيء من الاسهاب في تعابيرهم . وآثر بعضهم المساواة بين اللّفظ والمعنى ، إلا المصريّين فإنّهم على الإجمال تورّطوا في التطويل والتكرار . وسرت عدواهم إلى نفر من حملة الأقلام في سورية ولبنان .

ويمتاز النثر الحديث بوضوحه ، وسلاسة قياده لاقتبال المباحث المختلفة ، مهما كانت عميقة متشعّبة الأغراض . ولم يتّفق للغة مثل هذا الوضوح ولا تلك المرونة في عصر من العصور .

أغراضه

اتّسعت أغراض النثر إلى أنواع العلوم والفنون على اختلافها ، فشملت التّرسل والخطابة ، والصحافة والقصص والتمثيل ، والمباحث العلميّة والاجتماعيّة والأدبيّة بما فيها من نقد وتحليل . فبلغ بها النثر غاية بعيدة ، وسدّ ثلمة كبيرة في الأدب العربي القديم .

الترسل

لقي الترسل حظوة كبيرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بعد أن ارتفعت لغة الكتّاب . فاعتمدوا عليه في الاخوانيات والوصف والمقامات ، ومقدّمات الكتب . ولم يضنوا به على الصحف السياسيّة والمباحث العلميّة . والتزموا فيه على الغالب ، السجع ومزاوجة الألفاظ ومجانستها ، وتحليتها بالصور البيانيّة ، والأنواع البديعيّة ، وتجميلها بالاستشهادات ، والتلميحات ، والإشارات .

وجاروا المتقدّمين في أكثر ابتداءات رسائلهم واختتاماتها ، وأدخلوا الأدعية ،والقاب التعظيم وعبارات التفخيم.ولم يربأوا بأنفسهم عن التزلّف وخفض الجانب ، ولا سيّما في كتبهم إلى أصحاب المراتب والمناصب؛ وعلى الأخصّ إذا كان هنالك حاجة يستنجزونها،أو عتبي يلتمسونها : « كتابي إلى السيد السند، » « كتابنا أيّد الله الأمير ، » « إلى أعتاب ولي النعمة »..

على أن الترسل لم يلبث أن نبذ هذا التكلّف المقيت بعد أن سادت الثقافة الغربيّة ، وتحرّرت أساليب النثر . فاقتصرت الرّسائل على ذكر الحاجات ، واقتصدت في التحيّات والأدعية . وانصرفت مقدّمات الكتب إلى نوع من الدرس والتحليل بدلاً من السجع ورصف العبارات الفارغة . واكتسب الوصف دقّة وشمولاً واستغنى عن مترادفات الألفاظ والتعابير التي لا شأن لها إلا أن تظهر ناحية واحدة من الموصوف . وأهمل فنّ المقامات ولم يبقَ له ذكر يذكر . فأصبح الترسل على الإجمال يضع اللّفظ والمعنى في ميزان واحد ، ويجعل كلّ جملة تختصّ بمعناها، بعد أن كانت القيمة فيه لصناعة الألفاظ ، ولتقليب الجمل على المعنى الواحد .

ومن مشاهير المترسلين الشيخ ناصيف اليازجي وولده إبراهيم ، وأحمد فارس الشدياق ، وأديب إسحق ، والشيخ محمّد عبده ، وإبراهيم المُويلحي ، والشيخ علي يوسف ، والسيد مصطفى لطفي المنفلوطي . ونجتزىء هنا بالكلام على اثنين منهم هما اليازجي الابن ، والمنفلوطي .

الشيخ ابراهيم اليازجي

١٨٤٧ – ١٩٠٦ م و ١٢٦٤ – ١٣٢٤ هـ

حياته

هو الشيخ إبراهيم ابن الشيخ ناصيف اليازجي ، نصراني من طائفة الرّوم الملكيّين . ولد في بيروت ، وترعرع في بيت ركَن العلم إليه ، فألفه صغيراً . وتوسّم فيه والده مخايل النجابة ، فتعهّده بعنايته ، ولقنه أوليّات اللّغة وفنونها ، وحبّب إليه آدابها . فأقبل عليها يتزيّد فيها بالدّرس والمطالعة ، حتّى تفقّه أسرارها واستجلى حقيقتها ومجازها . واستكانت إليه شوارد ألفاظها . فأصبح فيها علَماً من الأعلام ، وحجّة غير مدافَع .

ونظم الشعر صبيّاً ، ولكن لم ينصرف إليه ، وإنّما كان يروض نفسه عليه في السوانح . بيد انّه تفرّغ للنثر ، وزاوله باعتناء ، حتّى برع فيه ، وعُدّ من كبار المنشئين .

ومال إلى الصحافة ، فكان أوّل عهده بها في جريدة النجاح[1] إذ تولّى إنشاءها سنة ١٨٧٢ . ولكن لم يطل بها أمره لأن دخلها لم يكفِ خرجها . فتركها في السنة نفسها ، وذهب إلى مدرسة اليسوعيّين في غزير . وكانوا يريدون ترجمة التوراة ، فدعوه إليهم ، وعهدوا إليه

[1] النجاح : جريدة سياسية علمية تجارية . كانت تصدر على عهد الشيخ مرة في الأسبوع ، بعشرين صفحة. وكان يديرها يومئذ في بيروت صاحباها يوسف الشلفون ورزق الله خضرا .

في تهذيب عبارتها . فاشتغل بها نحو تسع سنوات ، منها في غزير ومنها في بيروت . فأخرجها بلغة أنيقة ، بليغة التعبير ، ولا سيّما العهد العتيق لأنّهم أطلقوا يده في تنقيحه أكثر من العهد الجديد .

وكان وهو في بيروت يعلّم البيان وآداب اللّغة في المدرسة البطريركية . ثمّ راجعه الحنين إلى الصحافة ، فاختار العلميّة على السياسيّة ، وأنشأ مجلّة الطبيب سنة ١٨٨٤ يشاركه فيها الدكتور بشارة زلزل ، والدكتور خليل سعادة . وكان يكتب فيها أماليه اللّغوية فطار له ذكر باللّغة ، بعد أن عرف ببلاغة الإنشاء. وأقفلت « الطبيب » بعد سنة من ظهورها ، لقلّة الإقبال على المباحث العلميّة .

وكانت الصحافة قد تحوّلت إلى مصر لانطلاق حرّيّة القلم فيها ، فيمم الشيخ شطرها سنة ١٨٩٣ في جملة اللّبنانيّين المهاجرين . وفي سنة ١٨٩٧ أنشأ بها مجلّة البيان مع زميله الدكتور زلزل . ثمّ حجباها بعد سنة ، وانفصلا . وأخرج الشيخ بعدها مجلّة الضياء سنة ١٨٩٨ ، وظلّ يتعهّدها بقلمه البليغ مدّة ثماني سنوات حتّى مات . وكانت وفاته بالسرطان اصابه في الكبد ، ومات عزباً .

وفي سنة ١٩١٣ نقل رفاته إلى بيروت فدفن فيها . وصنع له اللّبنانيّون في البرازيل تمثالاً من الشبه ، وأرسلوه إلى بيروت . فبنيت قاعدته في محلّة باب يعقوبْ . ورفع الستار عنه سنة ١٩٢٤ في حفلة حافلة شهدها ممثّلو الحكومة الوطنيّة ، والسلطة الفرنسيّة المنتدبة . ثمّ نقل إلى قصر الأونسكو في الجامعة اللّبنانيّة .

صفاته واخلاقه

وصفه جرجي زيدان في مجلّة الهلال قال ما ملخصه : كان ربعة القامة ، نحيف البنية ، عصبيّ المزاج ، حادّ البصر ، ذكي الفؤاد ، سريع الخاطر ، حلو المفاكهة ، شديد الحرص على كرامته ، عفيف النفس ، ظاهر الأنفة حتى الترفع . ضاق عيشه ، ولم يرضَ اصطناع التملّق ليرتزق .

وكان صادقاً في أقواله وأعماله ، لا يحلف ولا يخلف ، أميناً في ما ينقله من الأقوال ، ينسب الفضل إلى صاحبه . وبالضد ، إذا صحح مقالة لأحد ، سكت عنها ، ولكن أسلوبه ينم عليه .

وكان برّاً بأبيه ، أحسن إليه بعد موته ، وزاده شهرة بإتمام كتبه وشرحها .

علومه ومواهبه

كان الشيخ يعرف من اللّغات الأجنبيّة الفرنسيّة ، ويلمّ بالعبريّة والسريانيّة . وكان بارعاً في الرياضيّات وعلم الفلك ، وله مشاركة في العلوم الطبيعيّة والفقه الحنفي . وكثيراً ما جرت المباحثات بينه وبين علماء الفلك الفرنسيّين . واشتغل بحلّ المشكلة الرّياضيّة المشهورة ، وهي قسمة الدّائرة إلى سبعة أقسام ، وتوصل إلى نتيجة تقرب من الصواب ، وبعث بها إلى المجمع العلمي الفرنسي . وهو من أعضاء الجمعيّة الفلكيّة في باريس ، وانفرس ، والسلفادور .

وكان ماهراً في صناعتي الحفر والتصوير اليدوي ، جميل الخطّ ، قاعدته فارسيّة .

آثاره

ليس لليازجي من الآثار ما يعادل شهرته العلميّة ، ويعود ذلك على بطئه في العمل ، ثمّ على تنوقه في عبارته ، وعنايته بتنخلها وتحكيكها . فإنّه لم يكن ينشر مقالة إلا بعد أن يراجعها مرّات ، ويتحرّى صحّة مفردها ومركبها ، ويغير فيها ويبدل . ولعلّ خوفه من النقد كان يدفعه إلى زيادة التدقيق ، لعلمه أن له خصوماً يتربّصون به ليتتبعوا سقطاته . ولا جَرَم ان مناظرته للشدياق في الذود عن والده علّمته أن يحتاط هذا الاحتياط[1] . ومع ذلك فآثاره التي تركها ما بين تأليف وشرح وتصحيح تدلّ على مبلغ علمه وفضله .

فأمّا مؤلّفاته ، فمنها في النثر مجموعة رسائل بخطّه طبعت على الحجر وضمت إلى ديوانه . ثمّ ما كتبه في الطبيب والبيان والضياء من المباحث اللّغويّة والعلميّة والأدبيّة . ثمّ تعاليق على محيط المحيط للبستاني جمعها ونشرها في مصر الدكتور سليم شمعون وجبران النحاس . ثمّ نُجعة الرّائد في المترادف والمتوارد ، جرى فيه مجرى الألفاظ الكتابيّة ، على اعتبار المعنى في التنسيق . ولكنّه جعل مدار الكلام على الإنسان ، وما يتعلّق به من الصفات والأفعال ، وما يكتنفه من الأشياء ، ويعرض له من الشؤون ، ووصف ما يجده في مزاولة الأمور ، وما ينتظم به

١ تصدى أحمد فارس الشدياق لنقد الشيخ ناصيف اليازجي بعد وفاته سنة ١٨٧١ . فانبرى له الشيخ ابراهيم يدافع عن أبيه في مجلة الجنان ، وينتقد ألفاظاً وردت في مقدمة سر الليالي لأحمد فارس . وكان الشيخ يومئذ في الرابعة والعشرين ، والشدياق في السبعين ، وله شهرة طائرة ، وكعب عال في اللغة . فلم يستطع الشيخ أن يبزه ، ولكنه وقف في الدفاع عن أبيه موقفاً شريفاً .

مجتمعه من أحكام السياسة والقضاء . وقسمه إلى اثني عشر باباً ، كلّ باب يتفرّع منه فصول . مثال ذلك الباب الأوّل : في الخلق وذكر أحوال الفطرة وما يتصل بها . وفصوله تبحث الخلق ، وقوّة البنية وضعفها ، وحسن المنظر وقبحه ، والسمن والهزال ، والطول والقصر ، والأطوار والأسنان ، والحواس وأفعالها وما يتعلّق بها . إلا أنّه مات قبل أن يتمه ، والذي ظهر منه ثمانية أبواب طبعت في جزئين .

ومنها في الشعر ديوان مكتوب بخطّ يده ، طبعه على الحجر حبيب اليازجي ابن أخيه خليل ، وضمّ إليه مجموعة الرّسائل . وشعره متين محكم . ولكن أكثر أغراضه يجري على الطريقة التقليديّة من مدح يتقدمه غزل بدوي ، ورثاء أشبه بالمدح ، وتواريخ شعريّة في التهنئات وفي ما يكتب على الضرائح . وله قصائد اجتماعية وطنية ، في دعوة العرب إلى ترك التخاذل الطائفي وحضّهم على الثورة ، وخلع نير الأتراك . وقصيدة يصف بها الزُّهَرة وصفاً علمياً .

وأمّا شروحه ، فأشهرها شرح ديوان المتنبي . وكان والده قد بدأ به في حواشٍ علّقها عليه ، فأتمّه الابن وذيّله بنقد لغوي لشعر أبي الطيّب .

وأمّا تصحيحاته ، فأعظمها تنقيح عبارة التوراة . ثمّ تهذيب تاريخ بابل واشور لجميل المدوّر . وتصحيح كتب والده في الصرف والنحو ، واختصارها .

وقيل انّه حاول أن يؤلّف معجماً في المأنوس من كلام العرب الأوائل ، فحالت الحوائل دون تأليفه .

ومن آثاره مصطلحات وضعها للمعاني الفنيّة الحديثة ، وفي الضياء

شيء كثير منها . وقاعدة للحروف المطبعيّة ، حفرها بيده ، شاعت في مصر وبيروت وأميركة .

ميزته

لم يرتفع الشيخ بنظمه كما ارتفع بنثره . فما نعدّه في طبقة الشعراء المقدمين ، وإنّما يسير في طلائع بلغاء الكتاب ، ويستوي على عرش ايمة اللّغة الحاذقين .

وله في الكتابة أسلوب معروف ، ولا سيّما حين يعالج النقد اللّغوي ، فإن طابعه الخاص لا يقتصر على الطريقة الإنشائيّة وحدها ، بل يتعدّاها إلى شخصيته المتهكّمة اللاذعة ، الباسطة سلطانها على من تنتقده ، المتحكّمة به تحكم القوي بالضعيف . وسنحاول أن نظهر هذا الطابع في أسلوب الشيخ ممّا تناولناه من آثاره المتفرّقة في مجلاته وخصوصاً الضياء ، التي ظهر فيها نضجه وسموّ إنشائه .

مباحثه واغراضه

تناول الشيخ في ترسله مباحث مختلفة . منها الرّسائل ، واغراضها شكر وتهنئة ، وعتاب واعتذار ، وتعزية . ومنها المباحث اللّغوية ، كأماليه في اللّغة ، واللّغة والعصر في فلسفة نشوء الألفاظ ؛ والمجاز وأنواعه ، ونقد لغة الجرائد ومغالط المولدين ، والعرب الأوّلين ، والمعاجم اللّغويّة وشعر المعاصرين ؛ وكتب الأب لويس شيخو ولا سيّما مجاني الأدب ؛ ونقد على شعر المتنبي بيّن فيه أسباب غموضه وخفاء معانيه ، وأظهر ما به من الحسنات والسيئات وعاب على شارحيه خلطهم واضطرابهم في تفسيره ، وصحح أوهامهم وأقال عثراتهم .

ومنها المباحث الأدبيّة ، كما في كلامه على الشعر وتعريفه ، ونقد معانيه وألفاظه . ومنها المباحث الاجتماعيّة ، كنقده للجرائد وإبانة مواطن الضعف في مقالاتها السياسيّة والاجتماعيّة ، وما تحمل من الضرر في نشرها بذور التعصّب بين الطوائف . ومنها المباحث الفلكيّة والطبيعيّة ، كمقالاته في الزُّهَرة ، والقمر ، والتنجيم ، والجبـــال ، والرّياح ، والبصريّات ، وما إليها .

اسلوبه الانشائي

للشيخ إنشاء متين بليغ ، رائق الديباجة ، واضح المعاني ، بعيد عن الصِّيَغ الشاذة والتراكيب الجافية ، بريء من الغموض والالتباس حتى في أدقّ مباحثهِ اللّغويّة والعلميّة . وربّما حلاه بالاستشهادات من شعر وآيات وأمثال .

وجملته خطابيّة إنشائيّة في الغالب ، متّزنة العبارة ، رصينة محكمة . يميل بها إلى الإسهاب من غير تطويل ، ويعاقبها على المعنى الواحد دون إسراف .

ولفظه محكك مختار ، خال من الغريب المستوحش ، مصوغ من معدن واحد ، غير متقلقل ولا متنافر . وله تعابير مخصوصة لا يفتأ يردّدها إمّا في ربط الجمل وشدّها ، وإمّا في الخروج والانتقال . فهي أشبه بدعائم يعتمد عليها ، ومفاتيح يتصرّف فيها . فمنها : لا جَرَم ، وبيّن ، وبل ، وفضلاً عن ، وزد على ذلك ، وبديهي ، وليت شعري ، وأيم الله ، وبالتالي . فهذه الألفاظ وأشباهها لها حظوة كبيرة في إنشائه .

وأسلوبه يبعثه أحياناً مسجعاً ، وأحياناً مرسلاً . فأمّا المسجع فيأتي

به في رسائله ، ومقدّمات كتبه . وربّما جاد به على مقالاته الصحفيّة ، يتوّجها كما توّج مقالة الزُّهَرة . فقد استهلّها استهلالاً شعريّاً ، فسجع وتخيّل ، حتّى إذا بلغ أمنيته ، عاد إلى البحث العلمي في إنشاء مرسل لا سجع به ولا خيال .

وفي هذا النوع من ترسله تكثر الفنون البيانيّة والبديعيّة ولا سيّما التشبيه والاستعارة ومراعاة النظير كقوله : « وخفّت إليه طلائع الإجابة من كلّ وادٍ حتّى أصبح مِضماراً لسوابق الأفكار ، وسوابح الأحلام . »

والكلام هنا على القطر المصري انّه دعا الأدباء إليه فلبّته جموعهم . فلمّا قال : « طلائع الإجابة » ، جعل الإجابة جيشاً على سبيل الاستعارة ورشحها ليزيدها قوّة فكان القطر المصري لها ميداناً . وراعى النظير فجعل بها السوابق والسوابح من الخيول . وجرّدها فكانت خيول الأفكار والعقول . وأدخل عليها التشبيه الإضافي : سوابق الأفكار وسوابح الأحلام .

والتشبيه الإضافي كثير في ترسل الشيخ إذا نمق ، وكذلك التشبيه التمثيلي الذي يأتي بصورة المحاكاة . كقوله : « الحمد لله الذي جعل العلمَ ضياءً للبصائر ، كما جعل النور ضياء للنواظر . . . يُقلِّبُ أحوالَ الأرض ، كما يُقَلَّبُ الدرهم بين الأنامل . »

والبازجي شديد الحرص على إظهار الحقائق اللّفظية . وحرصه هذا حمله على الاحتفال بالترشيح ليلبس الألفاظ المستعارة ، والمشبّه بها ، الأثواب الّتي حيكت لها ، فيعطيها قوّة على قوّتها ، ولا سبيل إلى ذلك بغير الترشيح . فلمّا استعار الجيش للإجابة ، جعل القطر له ميداناً ؛ لأن الجيش لا بدّ له من ميدان تصول فيه خيوله وتجول . ومثل هذا

قوله في العلم : « وزَخر في كلّ وادٍ تيّاره . » فقد جعل العلم كالنهر الفيّاض بصورة الاستعارة . ثمّ رشحها فجعل لها تيّاراً يزخر في كلّ واد .

وجاءت استعاراته وتشابيهه بل تعابيره في الجملة ، قوالب جميلة نحتتها أيدي الأقدمين ، فأخذها عنهم وأحسن انتقاءها وتأليفها ، وأفرغ فيها صوره ومعانيه . وسبب ذلك سعة اطّلاعه على مذاهب الكلام عند العرب ، وتصنيفه نجعة الرّائد في المترادف والمتوارد .

وأما إنشاؤه المرسل فتقلّ فيه الصور البيانيّة والبديعيّة ، والقوالب الموروثة ، ولكن لا يعدوه اللّفظ الأنيق وحسن اختياره . وهو أفيض طبعاً وأمرن جانباً ، وأسلس قياداً من المسجوع . ويزداد قوّة ومضاءً بظهور شخصيّة صاحبه في مواطن الانتقاد ، فيصطبغ بألوان من السلطة المتحكمة ، والاعتداد المكين بالنفس ، والتهكّم الحاد ، والقرص والتأنيب . فمن ذلك قوله في لغة الجرائد :

« يقولون : زُفّ فلان على فلانة — هكذا مُعدّى بعلى — فيعكسون الاستعمال ، لأنّه يقال زفّ العروس إلى بعلها ، أي أهداها إليه . ولا يقال زفّ الرّجل إلى المرأة . إلا أن يكون هذا من مقتضيات هذا العصر الذي استَنْوَقت جِماله ، وأصبح ونساؤه رجالُه . حتى رأينا الرّجلَ يأخذُ المَهْرَ ، ورأينا المرأة تتطالّ إلى النّهْي والأمر . »

وحبّه للنقد ، وتتبع سقطات الأدباء ، والإدلاء بالرأي والمباهاة بالمعرفة ، حمله على الاستطراد في كلامه ، فبينا هو يتكلّم على لغة الجرائد إذا به ينتقل بصلة الغلط المشترك إلى نقد الكتّاب والشعراء المتقدّمين كقوله :

« ترى أكثر كُتّابنا اليوم يقولون : لا يَخفى بأن الأمرَ كذا ،

ويسرّني بأن يكونَ زيدٌ كذا ، وهلمّ جرّاً . مع أنّهم لو استعملوا المصدرَ في ذلك كلّه لم يكن لهذه الباء محلّ عندهم . ومن الغريب أن ممّن استُدرج بهذا عنترة العبسي في معلّقته المشهورة حيث يقول :

وَلَقد خَشيتُ بأنْ أموتَ ولَمْ تَدُرْ   في الحَرْبِ دائرَةٌ على ابنَيْ ضَمضَمِ

وقولُ من قال ان الباء تُزاد على مفعولِ خشيَ ليس بشيء . لأنّه لو استُعملَ الاسمُ هنا لم يُقَلْ خشيتُ بالموت . وأنكر ما جاء من مواضع زيادتها قول ابن حجّة الحموي ، رواه لنفسه في خزانة الأدب :

مُنَعّمَةٌ لَفّاءُ ، مَهضُومةُ الحشا ،   تكادُ بأنْ تَنقَدَ من رِقّةِ الخَصرِ

فزادها في خبر كاد ، وهو من المواضع التي لا تدخلها أن إلا شُذوذاً ، فضلاً عن إشكال دخولها في هذا الباب من أصله . فما عتّم أن زاد هذه الطينة بلّةً بدخول الباء . » اه

وإليك مثالين آخرين من أسلوبه أحدهما من المسجوع ، والثاني من المرسل . قال يصف الزُّهرة :

« هي مَلِكُ جُنْدِ الدُّجى ، بل قائدُ مُعَسكَرِ الأنوار . بل إلهَة الجمال استوت على عرشٍ من النُّضار ، إذا بَرَزَت في ثوب بهائها فاكْفَهَرّتْ لها الشّمْسُ من الحَسَد، بل غشيتها حمرةُ الخجلِ بَعدما علتها صُفْرَةُ الكَمَد ، فأقبَلَ الهلالُ وقد انحنى بين يَدَيها وسَجَد . وأطافت بها حُورُ الكواكب . كأنّهُن أترابٌ كواعب . فوَقَفن لخدمتها متضائلات أمامَ عَظَمَةِ جلالها ، وقد أرخين شُعورَهن من حولها فشَبّبْنَ من جمالها[1] . فما كادت تتجلّى لهن حيناً حتى توارت عنهن

[1] شبين من جمالها « أي زدن منه » وذلك لضآلة أنوارهن بالإضافة إليها . والأشياء تكشف بأضدادها .

بالحجاب : وسرن في أثرها متتابعاتٍ حتى بَرْقَعَهُنَّ الصبحُ بأبيضِ الجِلْبَاب .

وإذا رأيتَها بارزةً في طليعةِ الكواكب.وقد تجلّت في فلكِها حينَ لا يبدو طالعٌ ولا غارب . فاستلّت من الهلال سيفاً استقبلت به نحر الظّلماء . ثمّ نادت في جَيْشِها فإذا به قد طبّق نواحي السّماء . فبرز الرّامي فأوتر قوسه وانتَصَبَ للنّضَال . ووضع الجبّارُ يده على[1] سَيفه ونادى يا للنّزال . وأشرَعَ السِّماك رُمْحَه فخفق فؤاد العذراء .[2] وأطلق المرّيخ[3] سهمَه فإذا هو مُضرّج بالدّماء . وتتابع سائر الجيش بسلاحِه فلا ترى إلا وميضاً وبريقاً. وأسنّة قد غاصت في كَبِدِ الدُّجُنّة فمَزّقتها تمزيقاً . فما أقبَلَ جَيشُ الصّباح إلا والأفقُ مخضُوبٌ بدمِ الدُّجى . وقد بلغَ سيلُه الزُّبى بل جاوز الزُّبى . » اه

وينتقل إلى البحث العلمي فيترك السجع والخيال الشعري :

« لا جرَم انّه إذا كان بُعْدَ الشّمسِ والقمر نجمٌ حريّ بالعبادة فأحرى النّجومِ بذلك الزُّهَرَةُ لِما أنّها أعظَمُ الكواكبِ نُوراً الخ... » اه

وقال في تعريف الشعر وهو من إنشائه المرسل :

« إنّ النّثرَ هو القالَبُ الطّبيعيّ للكلامِ الموضوعِ للإبانَةِ عن المعاني الّتي تتمثّل في النفس . يتخاطبُ به العالمُ والجاهلُ ، والذكيّ والبليدُ ، والكاتبُ والأمّيّ . فوَجَبَ أن يكونَ بحيث تتفاهمه هذه

١ الرامي: من البروج الاثني عشر. الجبار : برج في السماء ويعرف بالعذراء والسنبلة والجوزاء.

٢ السماك : ويعرف بالرامح : كوكب نير في جهة الشمال أمامه كوكب صغير يقال له راية السماك ورمحه . العذراء : الجوزاء .

٣ المريخ : من السيارات السبع معروف بالحدة والحرب .

الطبقات كلّها . ويعبَّر به عن المقاصد بأبيَنِ الصّور وأوضحها . وذلك يقتضي ، ولا جَرَم ، بأن يُستعمل لكلّ معنًى اللّفظُ الموضوع له . بحيثُ يُنتَقَل من اللّفظ إلى المعنى من غير واسطة . وبخلافه الشعرُ فإنّه من الكلام الذي يُقصد به ما وراءَ مدلولِ اللّفظ من مُناغاة النفس، ومناجاة الوجدان، فتورّى فيه المقاصد تحت الصّور الخيَاليّة . وتُبرزُ المَعاني تحت ثَوْبٍ من المجاز أو الكِناية ونحوهما . ولذلك اختُصّ بمُخاطَبات البُلَغاء وطبقات الكتّاب والمُتَأدّبينَ . ونُحيَ فيه منحى البلاغةِ في المعنى ، والتأنّقِ في الألفاظِ والأساليب . وأُكثِرَ فيه من التّفنّن بالأنواع البديعيّةِ ممّا يَجمَعُ بَعضَ أطرَافِ المَعنى إلى بعضٍ بما يربطها من تَناسُبٍ أو تضادٍّ أو غير ذلك بحيثُ تتألّف منه صُوَرٌ كامِلةٌ على حدّ ما يَفعَلُ المصوّرُ في تصويرِ الأشباحِ ، والمغنّي في تأليف النّغَم . والمقصودُ من كلّ ذلك الاستيلاءُ على قُوَى النّفس وإلباسُ المعاني المتأدّية إليها من طريق الحسّ أو العقل ثوباً من الخيالاتِ بعدَ تلوينهِ باللّونِ الذي يُريدُهُ الشاعرُ تبَعاً لغَرَضِه .

وبيّنٌ أنّ هذا الذي ذكَرْناه من تأثير الشعر غيرُ خاصّ بالكلام المنظوم . ولكِن كلّ ما تَضَمّنَ شيئاً من الأغراضِ المذكورةِ وأثّرَ في النفسِ تأثيرَها عُدّ شعراً . وقد قدّمنا أن غالبَ شعر الأقدمين[1] لم يكنْ على وَزْنٍ ولا قافيةٍ . وإنّما كان الشعرُ عندهم يمتاز عن النثر بشرف معانيه ، وجَزالة ألفاظه ، ونوع أسلوبه . » اه

[1] يريد هنا بشعر الأقدمين « الشعر الوارد في بعض أسفار التوراة والنبوءات .

منزلته

علمنا أن آثار اليازجي لا توازي شهرته العلميّة ومنزلته في اللّغة وآدابها . فكيف طارت له هذه الشهرة ، واستوت تلك المنزلة على قلّة نتاجه ووَشَل مصنفاته ؟ هذا ما نحاول البحث عنه لنستجلي تلك الشخصيّة القويّة الّتي أمّت الكتّاب واللّغويّين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . وذهب لها صيت لم يذهب مثله إلا للأقلّين من معاصريها . وبلغت من ثقة الخاصّة بمقدرتها اللّغويّة مبلغاً يمتدّ إلى حدّ بعيد ، حتى عُدّت حجّة مكينة لا تقرع . ووُضع صاحبها في طبقة أشياخ اللّغة المتقدّمين ، وربّما فضّلوه على كثير منهم .

بدأت شهرة اليازجي يهبّ ريحها ، ولما يزل رخص الأنامل ، طريّ العود . فقد كانت مقارعته لأحمد فارس الشدياق أشبه بمقارعة بديع الزمان الهمذاني لأبي بكر الخوارزمي ، فتلفتت إليه العيون ، وتحدّث به النّاس ، وعطف عليه النصراء .

ثمّ كانت مباحثه اللّغويّة والعلميّة ، فنقد المُعجمات وبيّن ما فيها من سقط ونقص وخلل . وصبّ على الكتّاب والشعراء غارة منتشرة أصابت الأخضر واليابس من المتقدّمين والمحدثين ، ولم تعفّ عنه وعن أبيه . وظهرت في نقداته قوّة الحجّة ، وبراعة الاستنتاج والتعليل . فتهيّبه الأدباء ، وأقرّوا له بالفضل والتقدّم . ولم يخلُ من خصوم وحسّاد يناصبونه ، ويزيدون في شهرته ، وامتداد ذكره .

وكذلك مباحثه العلميّة جعلته موضع الاعجاب والاحترام عند أهل زمانه . وذلك لاتّصاله بعلماء أوربة ، واعتداد هؤلاء بآرائه وأقواله .

وكان تأثيره في النهضة قويّاً ، لأنّه في نقده لغة الجرائد نبه الكتّاب على مغالطهم ، وحملهم على التماس الألفاظ الفصيحة ، والتراكيب الصحيحة في كتاباتهم . ورأوا في نجعة الرّائد معيناً حافلاً يستسقونه على ظمإ ، فيجود لهم بشتّى الألفاظ ، والتعابير المترادفة ، فيستعينون بها حين يبتذل كلامهم من كثرة الاستعمال ، وتضيق مذاهبه في وجوههم . وكان إنشاؤه البليغ نموذجاً لكثير منهم يترسّمونه ويطبعون على غراره . وأفاد اللّغة بالمصطلحات التي استحدثها للمعاني الجديدة ، وبالحروف التي وضعها للطّباعة والنشر . فشهد الناس بفضله ، وبايعوه بالإمامة ، وخلّدوا ذكره ، فكان أوّل أديب عربي نصب له تمثال في حاضرة .

المنفلوطي

١٨٧٦ – ١٩٢٤ م و ١٢٩٣ – ١٣٤٣ ﻫ

حياته

هو مصطفى بن محمّد لُطْفي المَنْفَلُوطيّ . ولد في مَنْفَلُوط من صعيد مصر ، وإليها انتسب . وكان في الحادية عشرة عندما حفظ القرآن . فبُعث إلى القاهرة ، وأُدخل الأزهر ، فمكث فيه عشر سنوات يدرس علوم الدين واللّغة . إلا أنّه كان ميّالاً إلى الأدب ، وليس في الأزهر منه ما يروي الغليل . فكان يفترص السوانح ، لينظر في الكتب الأدبيّة ، مع أن قانون الجامع لا يسمح بها . فكان شيوخه إذا ظفروا بكتاب منها في يده عنفوه وعاقبوه ، وهو لا يرده عنها تعنيف ولا عقاب .

وكان أفضل الكتب عنده العقد الفريد ، والأغاني ، وزهر الآداب ، ودواوين المتنبي والبحتري وأبي تمّام والشريف الرّضي . وأفضل الكتّاب ، عبد الحميد ، وابن المقفّع ، وابن خلدون في مقدّمته ، وابن الأثير إذا لم يسجع .

ولما ترك الأزهر انضمّ إلى حلقة الشيخ محمّد عبده ، ولزمه فأفاد من معارفه في الأدب والأخلاق والحكمة والطبيعي . وبعد وفاة الشيخ الإمام (١٩٠٥ م) عاد إلى منفلوط ، ومكث بها برهة سنتين ، يراسل المؤيّد بأسبوعيّاته . ثمّ رجع إلى القاهرة ، وثابر على التأليف والكتابة في الصحف حتى مات .

وكان محازباً لسعد زغلول باشا ، فبرّه سعد بمناصب الحكومة . ومات وهو رئيس لفرقة من كتّاب مجلس الشيوخ ، ومشاهرته لا تقل عن خمسين جنيهاً .

اخلاقه وصفاته

كان رضي الطبع ، هادىء البوادر ، رزيناً متوقراً ، على شيء من الانقباض . وكان رقيق الفؤاد يتألّم للمآسي البشريّة ، ويعطف على البائسين ، ويبرّهم بما تصل إليه يده . وربّما شكا إليه صديق خلّة ، أو تبيّنها في وجهه ، وعلم انّه يكتمها منه حياء ، فما يتأخر عن مساعدته ؛ وقد يقتسم ما في محفظته من الدراهم بينه وبينه .

وكان له زوج ، فأصابها رمد أضعف بصرها ، فلم يدخر وسعاً في تسليتها والحدب عليها ، حتّى انّه كان يكلّفها أعمالاً لا يقوم بها إلا المبصرون ليوهمها أنّه لا ينكر عليها من نظرها شيئاً .

وكان مصريّاً يكره الاحتلال الانكليزي ، ووفديّاً يحازب سعد زغلول . وشرقيّاً يمقت المدنيّة الغربيّة ، ومسلماً يتعصّب لدينه ، ويدافع بحماسة عن الإسلام والمسلمين .

آثاره

ترك المنفلوطي آثاراً غير قليلة بين موضوع ومترجم : منها النظرات ثلاثة أجزاء ، وهي أسبوعياته التي كان يكتبها في المؤيد ، وفيها ما هو منقول ليس من وضعه .

ومنها العبرات جزء واحد ، وهي مجموعة أقاصيص ، بعضها مترجم عن الفرنسيّة ، وأجمله الضحيّة ، أو ذات الكاميليا لديماس الصغير .

ومنها قصص أخرى نقلها على حدة ، وهي الشاعر أو سيرانو دي برجراك لادمون رُستان . وفي سبيل التاج لفرنسوا كوبه . ومجدولين أو تحت ظلال الزّيزفون لألفنس كار . والفضيلة أو بول وفرجيني لبرنردان دي سان بيير .

وكان يجهل الفرنسيّة ، فكانت هذه القصص تنقل إليه بلغة غير مهذّبة ، فيلخّصها ، ويتصرّف فيها على هواه، ويخالف الأصل، فيجعل التمثيليّة منها غير تمثيليّة ، كما أصاب قصتّي الشاعر وفي سبيل التاج .

وله في الشعر شيء قليل ، أغراضه مختلفة ، متفرّق في الصحف . وله مختارات المنفلوطي ، مجموعة شعريّة اختارها لطلاب المدارس ولم يُطبع منها إلا جزء واحد مع أنّها تبلغ ثلاثة أجزاء .

ميزته

لا نحاول أن نستخرج ميزة المنفلوطي من شعره فإنّه ضعيف لا يعتد به . ولا من قصصه وفصوله المنقولة ، فإنّها لا تمت إليه بغير الألفاظ والتراكيب . وإن يكن غيّر فيها وبدّل ، فليس في تغييره وتبديله زيادة على الأصل أو اختراع جديد وإنّما هو مسخ وتلخيص . ونحن نريد أن يكون الكلام فيه شاملاً خياله وتفكيره وتعبيره وهذا لا يتأتّى لنا إلا إذا درسنا مباحثه ، وأقاصيصه التي هي من وضعه ليكون حكمنا عليه أصحّ وأعدل .

اغراضه وخصائصه

تشتمل مباحث المنفلوطي على فصول ورسائل وكلمات متعدّدة الأغراض ، فمنها الاجتماعيّة ، ومنها الإسلامية ، ومنها الأدبيّة ،

ومنها الرّثائيّة .. وكلّها مجتمعة في كتابه النظرات . ومنها القصصيّة وهذه بعضها ينضمّ إلى المقالات الاجتماعيّة في النظرات ، وبعضها الآخر يستقلّ في العبرات .

الاجتماع

عني الكاتب عناية خاصّة بالمباحث الاجتماعيّة ، يريد بها إصلاح الأخلاق ، وتطهير المجتمع من المفاسد . وأُغري بتمثيل البؤس والشقاء والدّعارة ، وذكر الانتحار والمنتحرين . والتحدّث عن سقوط الفتيان والفتيات ، والخيانات الزّوجيّة ، والفضائح العيليّة . فلا تكاد تقرأ فصلاً في النظرات إلا وقعت فيه على خبر عاشق انتحر من يأسه . أو طلاب أرادوا الموت لسقوطهم في الامتحانات . أو فاسق لقي في جزاء فسقه موتاً شنيعاً . أو زوجة خانت زوجها فساء مصيرها . أو زوج أغار امرأته بسوء سيرته ، وأهمل تربية ولده باشتغاله عنه ، فلاقى مغبة إثمه بنشوز قرينته ، وفساد ولده . أو فتاة خدعها فتى عن نفسها وأغراها بمصاحبته بعدما وعدها بالزّواج ، ثمّ تركها : « وفي صدرها همّ يضطرم ، وفي أحشائها جنين يضطرب . » أو غير ذلك ممّا يفصّل نقائص المترفين ، واستهتارهم بالمعاصي ، وإدمانهم الخمر والميسر ، وجورهم على الفقير البائس ، والضعيف الجاهل ، بحيث يُتمثّل المجتمع الإنساني أقبح تمثيل .

والمنفلوطي في اجتماعياته يحنو على المرأة ، ويشفق على ضعفها ، وينعى على الرّجل قسوته ، وظلمه لها ، ويدعوه إلى معاملتها بالحسنى . ويقبّح الطلاق إذا جاء عن ملل وحبّ للتجديد . ويروي على حسن

المساكنة قصة رجل[1] رمدت زوجه ، فضعف بصرها ، فازداد عليها عطفاً وبها تمسّكاً . وكان يدخل السرور إلى قلبها بأن يعتب عليها في أمور لا يؤاخذ بها إلا المبصرون ؛ يريد أن يوهمهـا أنّه لا ينكر من أمرها شيئاً .

وإذا سقطت المرأة وساءت سيرتها لا يقسو عليها بل يحاول أن يجد لها العذر بإيقاع الذّنب على صاحبها ؛ إمّا لأنّه أكرهها على السقوط ، أو لأنّه خدعها ومنّاها بالوعود . ولكنّه يرى ضرورة حجابها لأنّه في نظره صيان لعفافها .

وهو شديد الكره للمدنيّة الغربيّة ، رما جاءت به إلى الشرق من أخلاق وعادات ، لا ينفكّ يحمل عليها ، ويشوّه محاسنها ، ولا ينظر منها إلا ناحية العيوب والرّذائل . فالشرور ، والفواحش ، وأمراض الأخلاق والأبدان ، وتجارة الأعراض ، وانتهاك الحرمات ، كلّها بضاعة أجنبيّة ، أصدرها الغرب إلى الشرق . ولولا المدنيّة الغربيّة لسلم الشرق من هذه الآفات . فخير له أن يبتعد عنها كلّ الابتعاد ، ولا يقتبس منها إلا العلوم والفنون . بل خير له أن يبقى جاهلاً من أن يغوص في لججها ، ويقذفه تيّارها .

وغير خفيّ ما في هذه الآراء من مجازفات لا يسلّم بها العقل الصحيح ، ولا يرتضيها العلم . لأن هذه الآفات حليفة المدنيات في كلّ زمان ، لا ينفرد بها مصر عن آخر . وقد كان الشرق لها ملعباً فسيحاً في حضارته القديمة قبل أن تتولّد المدنيّة الغربيّة الحديثة . ولكن المنفلوطي يستمدّ مباحثه وآراءه من أخبار الصحف اليوميّة وتعليقاتها ، ومن أحاديث النّاس

١ الرجل هو المنفلوطي نفسه والمرأة زوجته .

وتعليلاتهم . فلا غرو أن يكون صدى لما يسمع من سخطهم على المدنيّة الغربيّة ، وإسناد جميع المفاسد والمصائب إليها . وان يردّد أقوالهم في الانتحار والمنتحرين ، والتهتّك والحجاب ، والخمر والميسر ، والغني والفقير ، والضعيف والقويّ ، فيصيب مرّة ويخطيء مراراً .

وإنّه ، وإن أراد الإصلاح الاجتماعي بهذه المباحث ، لقد تورّط في بعض الأغراض تورّطاً يلام عليه ، بحيث أصبحت الغاية لا تسوّغ الواسطة . فإكثاره من ذكر الانتحار ، وسقوط الفتيات والفتيان ، والخيانات الزّوجيّة ، وتصوير المجتمع بأقبح الصور ، مضرّ بالأخلاق أكثر ممّا هو مهذّب لها . فإن الفتى الذي يقرأ نظراته لا يرى في أهل زمانه إلا شروراً وخبائث ، فيتشاءم بهم وينقم على الإنسانيّة ، أو يصبح وفي نفسه استسهال للمعاصي ، واندفاع إلى طلب الملاذ . وكثيراً ما تخلو نظراته من العبرة المتوخاة فما تجد فيها غير سرد الحوادث الشائنة ، وربّما ظهرت الموعظة ، ولكن أثر اللذّة النفسيّة غالب عليها . فمقالة « الزهرة الذابلة » تدفع الفتى الذي أصابه الصّمم الكامل إلى اليأس والانتحار . مع أنّ هذا الفتى لجأ إلى الكاتب مستغيثاً به ليسمع كلمة تعزية تشجّعه على احتمال مصابه ، فملأ سمعه وصدره يأساً وقنوطاً . وكذلك « مدرسة الغرام » فيها من الإفراط في ذكر اللذّة ، ما تتضاءل دونه كلّ موعظة . وهكذا « الملاعب الهزليّة » فإنّها أجدر بأن تكون للّهو لا للنصيحة لما فيها من الشواهد المجونيّة المضحكة . وأمثال هذه الأشياء كثير .

على انّنا نظلم الكاتب إذا لم نذكر بعض ما له من الفصول الحسان ، « كالوفاء » في المحافظة على الزّوج إذا أصيبت بعاهة أو بلاء . و « يوم

العيد » في باب الإحسان . و « عبرة الدّهر » وفيه خبر رجل خان امرأته « وأهمل تربية ابنه،فلقي مغبة عمله في سقوط امرأته،وفساد أخلاق ابنه. و « البعوض» في تشبيه أذاه بأذى الإنسان . و « البائسات » في ذكر المرأة المصريّة،وتزويجها صغيرة للتخلّص منها،وما تلاقي في زواجها من الشقاء.

واجتماعياته في الغالب لا تتعدّى البيئة المصريّة ، والرّجل المسلم والمرأة المسلمة . فغايته التي يرمي إليها ، هي إصلاح المجتمع المصري الإسلامي خاصّة . وإليك بعض ما جاء في « البائسات » :

« زرتُ منذ أيّامٍ حاكم بلدة في منزلِه ، فرأيتُ بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسة عليلة ، تشكو ألماً في عنقها ، وجرحاً في ذراعيها ، وهمّاً في نفسها . وتُدير في الحاضرين عيوناً خائرة مضطربة ، كأنّما هي مركّبة على زئبقٍ رجراج . فسألتُ : ما شأنها ؟ فعلمتُ أنّ أهلها زوّجوها وهي في هذه السنّ ، وعلى هذه السذاجة ، من رجلٍ وحشيّ الخَلْق والخُلُق ، فامتنعت عليه ، فضربها هذا الضرب الذي رأينا آثاره في جسمها ، ففرّت منه إلى منزل أهلها فنقموا منها هذا الإباء الذي سمّوه بَلادةً وغفلة . وأعادوها إلى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفارّ من سجنه إليه مرّةً أخرى . وهنالك عاد زوجها إلى عادته معها ، فعادت هي إلى فرارها ، فعاد أهلها إلى قسوتهم وجَبَرُوتهم . فلمّا أعياها الأمر خرجت إلى الطريق العامّة ، هائمةً على وجهها « لا تعرف لها مَذهباً ولا مُستَقَرّاً حتى رُفع أمرُها إلى ذلك الحاكم ، فأمر باستدعائها ، وآواها إلى منزله ليخلّصها من ذلك الموقف الذي كانت فيه بين ذراعَي وجَبهة الأسد[1] .

١ كذا ، ووجه الكلام : ذراعي الأسد وجبهته .

إن المرأة المصريّة شقيّةٌ بائسةٌ ، ولا سبب لشقائها وبؤسها إلا جَهلُها وضَعفُ مداركها .

متى بلَغتِ الفتاةُ سنّ الزّواج سواءٌ أكان على تقدير الطبيعة أو على تقدير أولئك الجهلاء ، استثقل أهلها ظلّها ، وبَرِموا بها ، وحاسبوها على المضْغة والجَرعة ، والقَومة والقَعْدة . ورأوا أنّها عالة[1] عليهم ، وأن لا حقّ لها في العيش في منزلٍ لا يستفيد من عملها شيئاً ، وودّوا لو طلع عليهم وجه الخاطب، أيّ خطيب كان يحمل في جبينه آية البُشرى بالخلاص منها .

فإن كانت ذات جمالٍ أو مالٍ فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر ، وفجائعَ التطليق ، وإلا فهي تقاسي كلّ صباح ومساء في الحصول على الحُسنِ المجلوب ، والجمال المصنوع ، آلاماً جُثمانيّة تُطفىء نور شبيبتها ، وتُذبل زهرة حياتها . وتلاقي في سبيل مُصانعةِ الزّوج ومداراته والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم ، والابتسام في موضع البكاء إن بكى ، ما يجعل أخلاقها فضاءً مملوءاً بالكذب والكيد والخُبث والرّياء . وهي فوق ذلك تنتظر من فمِ زوجها في كلّ ساعة كلمة الطلاق ، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الإعدام .

الاسلاميات

وهذه المباحث من حقّها أن تُدرج في باب الاجتماع لأنّها منه . وإنّما جعلنا لها هذا الباب لتأثّرها القويّ بالدّين ، واصطباغها بالعاطفة الإسلاميّة صبغة يخضع دونها العقل والتفكير ، وتتأجّج عليها الغيرة

١ العالة : جمع عيِّل ، وهو زوجة الرجل وأولاده الذين ينفق عليهم . وجمع عائل وهو الفقير . فاستعمالها هنا للمفرد غلط .

الملتهبة بالتعصّب للإسلام والمسلمين . وقد وقف بها الكاتب مواقف مختلفة ، فمن خطيب عسكري يدعو المسلمين في طرابلس الغرب إلى جهاد الإيطاليّين ، ويحضّهم على الصبر واستهانة الموت ، ويطعن على عدوّهم المتحصّن بأساطيله ومعاقله . ومن نادب متفجّع على الطرابلسيّين ، يذرف الدّمع على أبطالهم في نكبتهم ، ويدعو المسلمين إلى إغاثتهم . ومن محامٍ ديني يعلم أن اللّورد كرومر جنف على الإسلام ، وزعم انّه لا يصلح للمدنيّة ، فيغضب وتثور عصبيّته ، ويحمل على الدّين المسيحي حملة منكرة ، ويطعن فيه طعناً قبيحاً غير مكتفٍ بالردّ على مزاعم اللّورد ، ممّا دلّ على ضيق صدره في مواقف الجدال . ومن مصلح غيور على الدّين ، يرى ما دخل عليه من أمور ليست منه ، فأفسدته ، فيذرف « دمعة على الإسلام » الذي خالطه الشرك ، وهو دين التوحيد ؛ ويدعو زعماء الإصلاح إلى تطهيره من الشوائب ، ويذكّر المسلمين بماضي عزّهم ، ومساعي ملوكهم وعظمائهم . فمن قوله في ذلك :

« نبّئني عن الإسلام أين مُستَقَرّه ومكانه ، وأين مسلكه ومُضطرَبُه ؟ وفي أيّ موطن من المواطن حلّ ، ومعهدٍ من المعاهد نزَل ؟

أفي الحانات والمواخير التي يتغَصّ بها الفضاء ، وتئنّ منها الأرض والسّماء ، والتي ينتهكُ فيها المسلمونَ حرُمات دينهم بلا خجل ولا حياء كأنّما هم يشربون الماء الزّلال ؟

أم في حوانيتِ الباعةِ حيثُ الغشّ الفاضحُ ، والغَبْنُ الفاحشُ مزَخرَفاً بالأقوال الكاذبة ، والأيمانِ الباطلة ؟

أم في مجالس الأحكام حيث للدّينار الأحمر السلطانُ الأكبرُ على

سلطانِ العدلِ وسلطان الذمّة ، وسلطان الشرائع ؟ اللّهمّ إلا ما كان من تلك الألواح المكتوب فيها « العدلُ أساسُ الملك » أو « إذا حكمتم بين النّاس أن تحكموا بالعدل » .

أم في المساجد حيث يعتقد المصلّون أنّه لو كان بين الصلاة والصلاة مائة عامٍ ، وكانت تلك الأعوامُ مملوءةً بالآثام والجرائم ، والمفاسد والمظالم ، لكفّت تلك الحركات التي يسمّونها صلواتٍ ، ويحسبونها حسناتٍ ، لغفران السيّئات ؟

أم في مجالس المتصوّفة حيث الألعاب الجمبازيّة[1] والحركات البَهْلَوَانيّة[2] والسّرقاتُ باسم العادات ، وانتهاك الحُرمات بعنوان البركاتِ ؟

إن أراد المُصلحون لأنفسهم نجاحاً ، وللإسلام صلاحاً ، فليبدأوا عملهم بتهذيب العقائد الدّينيّة ، وتربية النشء الحديث تربيةً إسلاميّة لا تربيةً مادّية . أي أنّهم يدخُلون إلى الإصلاح من باب الدّين لا من بابِ الفلسفة . الخ . . . » .

الأدب

حاول المنفلوطي المباحث الأدبيّة في جملة أغراضه ، فكتب في أدوار الشعر العربي ، وفي تعريف الشعر ، وفي نقد حافظ وشوقي ، والبكاء على الأدب الحديث ، وفي نقد النحاة وجمودهم ، والكتّاب وغموض بيانهم ، وغير ذلك من الفصول الأدبيّة المختلفة ، فكانت

١ الجمبازية : لفظة تركية والمراد بها الحركات التي يقوم بها المتصوفة كالألعاب الرياضية.
٢ البهلوانية : نسبة إلى البهلوان وهو الذي يمشي على الحبل ، فارسية معربة .

مباحثه على الإجمال، قليلة العمق تفتقر إلى ثقافة أدبيّة صحيحة ، ودقّة نظر ، وبراعة في التحليل إلا أنّها لا تخلو من قوّة وإيلام في النقد والتجريح ، على صدق في الشعور ، وإخلاص في العقيدة . وأحسن ما كتب في الأدب بحثه في تعريف الشعر ، وحملته على النحاة ، وكلامه على البيان وغموض الكتّاب . قال في تعريف الشعر :

« ما كلّ موزون شعراً ، ولا كلّ ناظمٍ شاعراً ، فالوزن مَلَكةٌ تَعلَقُ بالنفس ، من طول ترديد المنظوم والتغنّي به ، مُقَطَّعاً تقطيعاً يوازنُ تفاعيلَهُ . فهو نغمةٌ موسيقيّة ، ولحنٌ خاصٌّ من ألحان الغناء ، يتمثّل في قول الملك الضّليل : « قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ » . كما يتمثّل في قول الخليل : « فَعولُن مفاعيلُن فَعولُن مَفاعِلُن » ويتراءى في أوتار الحلقِ النّاطق كما يتراءى في أوتار العود الصامت .

أمّا الشعر فأمرٌ وراء الأنغام والأوزان ، وما النظم بالإضافة إليه إلا كالحِلى في جيد الغانية الحسناء ، أو الوشي في ثوب الدّيباج المُعلَم . فكما ان الغانية لا يَحزنها عَطَلُ جيدها ، والدّيباج لا يُزري به أنّه غيرُ مُعلَم . كذلك الشعر لا يذهب بحسنه ورُوائه أنّه غير منظوم ولا موزون .

ذلك هو الفرقُ بين الشعر والنظم ، وها أنت ترى ألاّ صلة بينهما غيرَ تلك الصّلة الاصطلاحية التي لا منشأ لها سوى ما اعتاده النّاسُ من أنّهم يَنظمون ما يشعرون به . وتلك الصلة هي التي خلطت بينهما وعَمّت[1] على كثير من النّاس أمرهما . وهي التي أدخلت النظّامين

[1] عمت من عمى : أخفى المعنى .

في عداد الشعراء ، وألقت عليهم جميعاً رداءً واحداً لا يُستطاع معه التمييز بينهما إلا للقليل من الناقدين . »

الرثاء

وكان هذا النوع من أغراض الكاتب في مقـالاتـه ، فرثى بعض الأشخاص من ذوي المكانة الأدبيّة والسياسيّة كالشيخ عليّ يوسف وجرجي زيدان ومصطفى كامل . وليس في ذلك كلـه غناء ، إلا رثاءه لولده « الدّفين الصّغير » ورثاءه لشبابه « الأربعون » . وأجمل ما في « الدّفين الصغير » وصف ندمه على إعطائه الدواء المرّ وهو يختبط بين براثن الموت ، مبغوم لا يطيق الإفصاح :

« سأنام يا بُنيّ بعد قليل على فراش مثل فراشك ، وسيعالجُ مني المِقدارُ ما عالج منك . وأحسَبُ أنّ آخرَ ما سيبقى في ذاكرتي في تلك الساعة من شؤون الحياة وأطوارها ، وخُطوبها وأحداثها ، هو الندمُ العظيمُ الذي لا أزالُ أكابدُ ألمه على تلك الجُرَع المريرة التي كنتُ أجرّعكَ إيّاها بيدي وأنت تجود بنفسك ، فيربدّ وجهُكَ ، وتختلجُ أعضاؤك وتَـدمعُ عَـيناكَ . وما لك يدٌ فتستطيعَ أن تمـُدّها إليّ لتدفعني عنك ، ولا لسانٌ فتستطيعَ أن تشكو إليّ مرارة ما تذوق . »

القصة

تحتلّ القصة أرحب صدر في آثار المنفلوطي ، فهي ممتزجة باجتماعياته ، منتظمة أقاصيص في العبرات ، مستقلّة في كتب خاصّة . ومنها ما هو مترجم ، ومنها ما هو موضوع . وسواء ترجم أو وضع لا يأنس إلا بالقصص الكئيبة الباكية ، قصص البائسين من العشّاق ، والمحزونين

الذين نكبتهم الأرزاء ؛ قصص أوّلها عذاب وشقاء ، وآخرها يأس فموت أو انتحار .

بكى المنفلوطي في اجتماعياته ، ولم ترقأ له دمعة في قصصه . وكان البكاء قد أصبح زيّاً من أزياء الأدب الحديث ، ترسّم فيه الكتّاب والشعراء مذهب الطبيعيّين من أدباء الفرنجة ؛ وشغفوا به إذ رأوه يلائم روح الشرق ، في حرمانه الحرّيّة ، ومكابدته الأذى والضيم ، وفي انحلال أخلاقه ، وانتشار الخلاعة والفساد في أمصاره . فالمنفلوطي في بكائه لم يخرج عن سُنّة أبناء عصره ، إلا أنّه أفرط في ذرف دموعه ، وبالغ في نحيبه وتشاؤمه ، وتورّط في اختيار موضوعاته الاجتماعيّة ، وقصصه الغراميّة ، فإذا به ، كيفما جئته ، رسول الموت ، ونذير الشقاء .

بيد انّه ، على عنايته بالقصّة وضعاً وترجمة ، لم تهيّئه الطبيعة لأن يكون قصّاصاً بارع الفنّ ، فضعف تأثيره في النفوس ، إلا ما كان من قصصه المنقولة ، وهي على جمالها في الأصل ، خسرت بالترجمة غير قليل من فنّها وسحرها ، لأنّها كانت تصل إلى الكاتب على ذمّة الناقل ، فيتصرّف فيها ويلخّصها كما يشاء .

ونقص الفنّ عند صاحبنا ناتج عن ضعف الثقافة أوّلاً ثمّ عن ضعف العناصر القصصيّة : كسعة الخيال ، ودقّة النظر في مراقبة الأشياء وحسن تصويرها ، وتحليل العواطف والأهواء، وبثّ الحياة والحركة في الأشخاص، وصدق اللّون المحلّي ، وبراعة المفاجآت والانتقالات ، وقوّة الجاذبيّة التي تغمر القارىء في تسلسلها من بدء القصة إلى ختامها .

فثقافة المنفلوطي أزهريّة محدودة ، إن اتّسعت فإلى قراءة الصحف والمجلات وبعض الكتب العربيّة القديمة . وخياله ضيّق لا ينطلق في

أفق علْويّ فسيح ، فلم تجاوز قصته سرد الخبر ، كما وعته الحافظة ، على شيء من التفنّن في التعابير والتشابيه ؛ ولم تجاوز إعطاء النصائح ، وإلقاء المواعظ المملّة ، كما ناجى بها الذّهنُ وارتضاها المنطق .

ولئن وصف بعض الأشياء الماديّة وأحسن وصفها ، وتشبيهها ، ليعجز أن يتنبّه لدقائق الأمور ويصوّرها ، وأن يتّصل بالنفس الإنسانيّة ، ويغوص على كنوزها ويستجلي أسرارها ، ويمزج مشاعرها بمشاعر قرّائه ، ويعطيها حياة من حياتهم وحركة من حركتهم . ولم يظلمه محمود تيمور حين قال : ان أشخاص قصته أشباح لا أرواح .

وقصصه الموضوعة على الإطلاق ، ناصلة اللّون المحلّي لا ينميها مصر من الأمصار بعاداته ، ولا بأزيائه ، ولا بطبيعة إقليمه .

والمفاجآت باردة في الجملة ، ولا سيّما المواقف التي تحتاج إلى تمثيل العواطف والبوادر النفسيّة ، فإنّها مقضوبة مغصوبة ، كأنّما جُذبت على الرّغم منها جذباً . وأنت تشعر عندها ، بانقباض وخيبة وغيظ ، شأنَ الذي يقع على غنيمة مشتهاة ، فتُفلت من يده . مثال ذلك موقف المرأة المتّهمة أمام القاضي الذي خدعها وسلب عفافها ، فقد كانت واعظة مَنطِقيّةً أكثر منها عاطفيّة ثائرة ، ذلك بأن الكاتب شَقّ عليه تصوير نفسيّتها ، فجعلها تتكلّم بنفسيّته :

« جاء يوم الفصل في أمرها ، فسيقت إلى المحكمة ، وفي يدها فتَاتُها ، وقد بلغت السابعة من عمرها . فأخذ القاضي ينظر في القضايا ، ويحكم فيها بما يشاء حتّى أتى دور الفتاة . فما وقفت بين يديه ، ووقع بصرُها عليه ، حتّى شُدِهت عن نفسها ، وألمّ بها من الحيرة والدّهشة ما كاد يذهب برُشدها . ذلك أنّها عرفته ، وعرفت أنّه ذلك الفتى

الذي كان سبب شقائها وعلّة بلائها . فنظرت إليه نظرة شزراء » ثمّ صرخت في وجهه صرخةً دوّى بها المكان دويّاً وقالت :

رويدك يا مولانا القاضي ، ليس لك أن تكون قاضياً في قضيّتي ، فكلانا سارق ، وكلانا خائن ؛ والخائنُ لا يقضي على الخائن ، واللّصّ لا يصلح أن يكون قاضياً بين اللّصوص !

فعَجب القاضي والحاضرون لهذا المنظر الغريب ، وغضِب لهذه الجُرأة العجيبة ، وهمّ أن يدعوَ الشرْطي لإخراجها ، فحسرت قناعها عن وجهها ؛ فنظر إليها نظرةً ألمّ فيها بكلّ شيء ، فشَعر بالرِّعدة تتمشّى في أعضائه ، وسكَن في كرسيه سكون المُحتَضَر في سرير الموت . وعادت الفتاة إلى إتمام حديثها فقالت :

أنا سارقةُ المال ، وأنت سارِق العِرض ، والعرضُ أثمنُ من المال ، فأنت أكبر مني جنايةً ، وأعظمُ جُرماً .

إنّ الرّجل الذي سرقتُ ماله يستطيع أن يعزّي نفسه عنه باستّرداده أو الاعتياض منه . أما الفتاة التي سرقتَ عرضها ، فلا عزاء لها ، لأن العرض الذاهب لا يعود . « اه .

وغير خفيّ ما لهذه المواعظ الباردة من أثر سيّىء في مثل هـــذه المواقف الحارّة .

ولم يكن في انتقالاته أكثر توفيقاً منه في مفاجآته ، فإن كثيراً منها يبدو عليه التطفّل والتعمّل ، لأنّه لم يمهّد له تمهيداً طبيعيّاً ينقذه من التكلّف .

وأما الجاذبيّة التي يرفعك بها الكاتب البارع إلى أفق سحري ، فلا حظّ لها البتّة عند المنفلوطي ؛ وإنّما هو يسير بك سيراً مألوفاً ، في

منبسط من الأرض ، فيسليك مرّة ويضجرك أخرى ، ولكنّه لا يستولي على مشاعرك ولا يستهويك .

وإذا أنت تركته لا يعلق بنفسك من أشخاصه وحوادثهم شيء . فقصصه في مجموعها ، ضئيلة الأثر ، لم يكتب لها النجاح ، ساذجة التأليف ، فيها شبه بأخبار العشّاق عند العرب : حبّ ، فيأس ، فشهقة ، فانتفاضة ، فوفاة . ولولا الذي نقله عن الفرنسيّة كالضحيّة ، ومجدولين ، والفضيلة ، لما بقي له شيء يذكر .

اسلوبه الانشائي

لم يتمكّن أسلوب الأزهريّين من نثر المنفلوطي فيعتمد الصناعة اللّفظيّة وما ينبغي لها من تسجيع وتجنيس ، ونكت بديعية . ذلك بأن الكاتب لم يتثقّف ثقافة أزهريّة خالصة، وإنّما تلمذ بنفسه لبلغاء الكتّاب المطبوعين ، فأثرت فيه أساليبهم ، فانطبع إنشاؤه عليها ، ولم يجنح إلى التكلّف المستهجن حتّى في رسائله . ثمّ لا جرم أن القصص التي نقلها عن الفرنسيّة ، قد أحدثت في أسلوبه ألواناً جديدة ، وكان لها يد فعّالة في توجيه إنشائه وتليينه .

بيد انّه بقي له شيء من تراث الأزهر ، يحتفظ به في كتابته ، وهو الإفراط في استعمال المترادفات ، ومعاقبة الجمل على المعنى الواحد ، والاسهاب المديد الذي تفيض معه الألفاظ كالوابل المنهمر . وأوتي ديباجة مشرقة ، ولغة موسيقيّة ، فكان في إسهابه وترادفه ، كمن يتطرّف في مزاوجة لفظه ، ويستطرب بوقع نبراته :

« دارت الأيّام دورتها ، وباعت الفتاة جميع ما تملك يدها

وما يحمل بدنُها ، وما تشتمل عليه غرفتها ، من حلًى ، وثياب ، وأثاث . . . اهـ.

« فلم يزل يمسحُها ، ويروضها حتى هدأ روعها ، وعاد إليها رُشدها . وعلمت أنّها ليست بين يدي الرّجل الذي تخافه . فنظرت إليه نظرة هادئة ساكنة لو أنّها اتّصلت بلسان ناطق وفمٍ لحدّثت عمّا وراءها من لواعج الأحزان ، وأفانين الأشجان . » اهـ.

وله براعة في اصطناع التشابيه المحسوسة والكنايات والاستعارات والاشارات ، فيعطيك بها صوراً حسنة للأشياء المادّيّة التي يريد نعتها . وممّا يجدر ذكره انّه كان يجتنب جهده الرّواسم الموروثة المتداولة ، فما تجد منها في كتابته إلا نزراً يسيراً . وربّما اتّخذ تشابيهه وصوره من الفنون العصريّة المستحدثة كقوله :

« وكنا مُولَعين بالتقليد ، ولعَكم به ، لا نكاد نعرف لأنفسنا صورة خاصّة ترتكز عليها أعمالنا في الحياة . بل كانت تمرّ بنا جميع الصّوَر على اختلاف أنواعها وألوانها ، فنلتقطها بأسرع ممّا يلتقط « الفِلْمُ » صورَه . كأن فضاء حياتنا معمَلٌ لتجاريب الحياة واختباراتها . » اهـ.

ومن تشابيهه الجميلة :

« لم تستطع يدُ الموت أن تمحو كلّ آثار جماله . بل بقيت منه بعد الموت بقيّة كتلك البقيّة من الرّائحة العَطِرة التي يستنشقها الإنسان في الزّهرة الذّابلة . » اهـ.

ومن تشابيهه مع حسن التعليل :

« فأبغضتُ الكاذبين بغْضَ الأرض للدّم . »

ومن إشاراته التمثيليّة :

« وقد وضعت رأسها بين ركبتيها اتّقاء للبرد الذي كان يعبث بها عبث النكباء بالعود . وليس في يدها ما تتّقيه به إلا أسمالٌ تتراءى مِزَقُها فوق جسمها العاري كأنّها السياط فوق أجسام المستعبَدين في عهود الاستبداد . » اهـ.

ومن كناياته :

« فرأيت حوله مجتمَعاً حافلاً تصطكّ فيه الأقدام بالأقدام ، وتمتزج فيه الأنفاس بالأنفاس . » اهـ.

وربّما ضرب الأمثال القصيرة لإيضاح فكرته كقوله :

« فأنا أسير بينهم سَيرَ رجل بدأ يقطعُ مرحلةً لا بدّ له أن يفرغَ منها في ساعة مُعيّنة . ثمّ علِم أنّ على يمين الطريق التي يسلُكُها روضة تعتنق أغصانها وتشتجر أفنانها . وأن على يساره غاباً تزأر أسوده ، وتعوي ذئابه ، وتفِحّ أفاعيه وصِلاله . فمضى قُدُماً لا يلتفت يَمنةً مخافةَ أن يلهوَ عن غايته بشَهَوات سمعه وبصره . ولا يَسْرَةً مخافة أن يهيجَ بنظراته فضول تلك السّباع المُقعية ، والصِّلال الناشرة ، فتعترض طريقه . » اهـ.

وكثيراً ما يستشهد بالشعر ، أبياتاً كاملة ، أو أنصاف أبيات . وقد يحلّله فيجعله نثراً كقوله يناجي القمر :

« ها أنا ذا يُخَيَّلُ إليّ اني أرى صورته[1] في مِرآتِك . وكأني أراه يبكي من أجلي كما أبكي من أجله ، فأزداد شوقاً إليه ، وحزناً

١ أي صورة حبيبه .

عليه . فابقَ في مكانك طويلاً ، تَطُلْ وَقْفَتُنا ، ويدُم اجتماعنا[1] . » اهـ.

وله تعابير محبوبة عنده لا يفتأ يعود إليها في كلّ سانحة :

« الفَيْنة بعد الفَيْنة . أخدع نفسي عن نفسي . بين جنبيها نار تضطرم ، وجنينٌ يضطرب . في ليلة من ليالي الشتاء ، حالكة الجِلْباب ، غُداقيّة الإهاب . »

ومن خصائصه ردّ الجمل على نفسها للمشاركة في العمل : « وأخدعه عن نفسي ، ويخدعني عن نفسه . لا يلوي على أحد ، ولا يَلوي عليه أحد . »

وله استعمالات غير مستحبّة ، منها ضعيفة نابية : « فإن شيئاً من ذلك لم يكن[2] » . ومنها مصريّة عاميّة : « مفاليك فِلاكة » . ومنها اتّخذت لغير معناها : « مُتَمَدّين بمعنى مُتَمَدّن » . ومنها ما يقتضب بها الكلام اقتضاباً ولا سيّما في المواقف العاطفية ، والمواقف التي تحتاج إلى تفصيل ، أو تحليل نفسي . ويكون اقتضابه على الأخص بقوله : « فألمّ بكلّ شيء . ففهمتْ كلّ شيء ». وقد أكثر من هذا الاستعمال في كتابته ، مع قلّة توفيقه به ، حتّى تبغّض : مثال ذلك كلامه على المرأة التي أراد زوجها أن يبلو أمانتها ، فاتّفق مع أحد تلاميذه عليها ،

١ قال الشاعر :

إلى الطائر النسر انظري كل ليلة ... فــإني إليــه بالعشية ناظــر*
عسى يلتقي طرفي وطرفك عنده ... فنشكو إليه ما تجن الضمــائر

* الطائر النسر أو النسر الطائر : كوكب .

٢ درج كتاب مصر المعاصرون على هذا الاستعمال المستهجن . وانسحب على أذيالهم بعض صحافيي سورية ولبنان . ووجه الضعف هنا في الابتداء بالنكرة دون مسوغ ، وغرابة تأخير الفعل من غير ضرورة .

ثمّ تماوت وتمارض التلميذ ، فهامت به المرأة ، فزعم لها أن لا سبيل إلى شفائه إلا بأن يطعم دماغ ميت ليومه . فجاءت بفأس لتفلق رأس زوجها وتستخرج دماغه . فلمّا دنت من السرير فتح عينيه . فاليك كيف يقتضب الكلام عندما يصل إلى وصف تأثير هذه المفاجأة في نفس المرأة ، وما كان من أمرها في هذا الموقف الرّهيب :

« ورفعت الفأس لتضرب بها رأس زوجها الذي عاهدته ألا تتزوّج من بعده . ولم تكد تُهوي بها حتّى رأت الميت فاتحاً عينيه ينظُر إليها . فسقطت الفأس من يدها ، وسمِعت حركةً وراءها . فالتفتت فرأت الضيف[1] والخادم واقفين يتضاحكان . ففهمت كلّ شيء .

وهنا تقدّم نحوها زوجُها وقال لها : أليست المِرْوحة في يد تلك المرأة أجملَ من هذه الفأس في يدك . أليست التي تُجفّف تُراب قبر زوجها بعد دفنه أفضل من التي تكسر دماغَه قبل نَعيه ! فصارت تنظر إليه نظراً غريباً . ثمّ شهقت شهقةً كانت فيها نفسها . » اهـ.

فما كان أغناه عن « فهمت كلّ شيء » ، وبرودة استعمالها في هذا المكان .

وأسلوبه على الغالب خبري ممتزج بالخطابي لما فيه من المواعظ والنجاوى ، والتعريفات الخطابيّة البدهيّة . والتعريف الخطابي سهل المتناول يلجأ إليه الكاتب خديعة وتمويهاً ليؤثّر في النفوس ، ويستفزّها إذا فاته عمق التفكير ، وقوّة التحليل ، ودقّة النظر . فمن ذلك قوله في الغد :

« الغد ، شبح مبهم يتراءى للنّاظر من مكان بعيد ، فربّما كان

١ الضيف : هو التلميذ نفسه

ملكاً رحيماً ، وربّما كان شيطاناً رجيماً . بل ربّما كان سحابة سوداء إذا هبّت عليها ريح باردة حللت أجزاءها وبعثرت ذراتها، فأصبحت كأنّما هي عدم من الأعدام التي لم يسبقها وجود .

الغدُ بحرٌ خِضَمّ زاخر يَعُبّ عُبابه . وتصطخب أمواجه . فما يدريك ان كان يحمل في جوفه الدرّ والجوهر ، أو الموت الأحمر .

لقد غمُض الغد عن العقول ، ودقّ شخصُهُ عن الأنظار حتى لو أن إنساناً رفع قدمه ليضعها في خروجه من باب قصره لا يدري أيضعها على عتبَة القصر أم على حافة القبر .

الغد صدر مملوءٌ بالأسرار الغزار ، تحوم حوله البصائر ، وتتسقّطه العقول ، وتستدرجه الأنظار ، فلا يبوح بسرّ من أسراره إلا إذا جادت الصخرة بالماء الزّلال . » اه.

وإنشاؤه على الإجمال هادىء الخطوات ليّن الملامس ، إلا في مواقف العصبيّة الدّينيّة . مشرق الدّيباجة واضحها ، فيه رونق وماء ، وحلاوة وانسجام ، ورقّة وتظرّف .

منزلته

كتب المنفلوطي قصصاً جميلة نقلها عن الفرنسيّة ، وأنشأ في الصحف مقالات تناول بها الحياة الاجتماعيّة في بؤسها ومرض أخلاقها ، وآثر الفقير والضعيف ، على الغني والقوي . وضرب على الوتر الإسلامي الحساس في الدّعوة إلى الإصلاح ، واستعادة المجد المفقود ؛ فكان لأقواله أثر في نفوس الشبّان خاصة ، لأن حديث الحبّ والشقاء والموت والانتحار يثير عاطفتهم الملتهبة . وفي نفوس المسلمين عامة، لأن حديث الإصلاح

والمجد القديم هو النغم الحلو الذي تستخف نبراته مشاعر كلّ مسلم .

وأعجب النّاس بجمال إنشائه ، وسهولة تعبيره ، فجلسوا إليه يطالعون قصصه ومباحثه ، فكانت له شهرة في حياته لا تنكر . إلا أنّها أخذت تتضاءل بعد موته لاتّساع الثقافة الغربيّة ، ونهضة النقد الأدبي . ولولا جمال إنشائه ، وقرب عهده ، لما ثبتت له شهرة إلى اليوم ، لأن مباحثه الاجتماعيّة ، ومنها الإسلاميّة ، ضعيفة في الجملة ، غير حقيقة بالخلود ، وإن أحدثت في حينها تأثيراً . وهكذا شأن القصّة عنده موضوعة كانت أو مترجمة . فضعف فنّها وانتشار الأدب الغربي كفيلان بمحوها .

وإذا كان للمنفلوطي من فضل ، فإنّه يعود على تلطيفه أذواق الكتّاب الذين تلمذوا له في مصر خصوصاً ، وعلى خروج أسلوبه من الجزالة القديمة إلى النعومة الحديثة . ومن السجع المصنوع ، إلى المرسل المطبوع . ومن القوالب التليدة ، إلى التعابير الطريفة . وإنّه وإن لم يبلغ في تفنّنه واختراعه طبقة الكتّاب المجيدين ، لقد ارتفع بحسن إنشائه إلى المنزلة الأولى بين المترسلين .

الخطابة

بلغت الخطابة من الضعف في أزمنة الانحطاط مبلغاً زريّاً . وكادت تقتصر على رواسم محفوظة تتلى في الجمع والأعياد . فلمّا نشأت المدارس الحديثة ، جعلت لها شأناً رفيعاً في مناهجها . ودأبت تحمل الطلاب على المباريات الارتجالية ، ليتعوّدوا ذلاقة اللّسان ، وتستوسق لهم ملكة الفصاحة .

وكانت مدارس الرّهبان أعجل من غيرها إلى تعهّد هذا الفنّ وإحيائه ، لاضطرارهم إلى الوعظ والارشاد في الكنائس ، فظهر منهم خطباء مصاقع ، دانت لهم أعواد المنابر ، ونهضت بهم الخطبة الدّينيّة نهضة ميمونة .

وسبقت بيروت سائر الأمصار إلى الخطب الاجتماعيّة والعلميّة ، قامت بها الجمعيّات التي تألّفت فيها منذ سنة ١٨٤٧ . ولكن هذه الخطب كان أكثرها محاضرات تتلى مكتوبة على الورق .

وكان ازدهار الخطب الاجتماعيّة والسياسية في مصر بعد أن هبطها فيلسوف الشرق جمال الدّين الافغاني[1] . فقد تحلّق حوله الطلاب ، فأخذ يبثّ فيهم روح الحرّيّة والاستقلال ، وجمع كلمة الإسلام . وسار على أثره تلميذه الشيخ محمد عبده[2] فكانت خطبهما ممهّدة طريق

١ ولد في اسعد اباد ١٨٣٨ م (١٢٥٤ هـ) وجاء مصر سنة ١٨٧١ ومات في الاستانة ١٨٩٧م (١٣١٥ هـ) .

٢ ولد في سنة ١٨٤٩م (١٢٦٦ هـ) في محلة نصر من إقليم البحيرة بمصر . درس بالأزهر ←

الثورة العرابيّة ، ومؤذنة بارتفاع صوت خطيبها المفوّه عبد الله نديم[1] .
ثمّ نبغ زعيم الحزب الوطني وخطيبه المنطيق مصطفى كامل[2] . فكان
للخطبة السياسيّة حظّ كبير في أيّامه . وسلّمها من بعده إلى سعد زغلول[3]
فما عرفت العربيّة في الانبعاث أخطب من سعد ولا أبلغ تأثيراً .

ولم تُحرم سورية الخطباء السياسيّين في جهادها الوطني ، وثورتها
في طلب الاستقلال . وكان لتأليف الأحزاب والأندية والمحافل ، ومجالس
الشيوخ والنوّاب ، ولتنظيم المحاكم الأهلية ، وحرفة المحاماة يد بيضاء
على الخطابة من علميّة واجتماعيّة ، وسياسيّة وبرلمانيّة وقضائيّة .
على أنّها لم تسلم في الجملة من اللّحن ، وفساد مخارج الحروف .

ثم اتصل بجمال الدين الأفغاني ، وأفاد منه علماً كثيراً . وكان الداعية الأكبر للإصلاح الديني والاجتماعي في مصر . ونفي بعد الثورة العرابية ، فجاء سورية ولبث ست سنوات ثم غادرها إلى باريس ، وأنشأ جريدة العروة الوثقى مع أستاذه الأفغاني . ودرس في تلك الأثناء اللغة الفرنسية . ثم أجازوا له الرجوع إلى مصر وأسند إليه منصب الافتاء ، فظل فيه حتى مات سنة ١٩٠٥ م (١٣٢٣ هـ .) .

١ ولد في الاسكندرية ١٨٤٥ م (١٢٦١ هـ .) وتوفي في القسطنطينية ١٨٩٦م (١٣١٤هـ).

٢ ولد بالقاهرة سنة ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ .) وتوفي سنة ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ .) .

٣ هو ابن ابراهيم زغلول ولد سنة ١٨٥٦ أو ١٨٥٧ م (١٢٧٣ أو ١٢٧٤ هـ .) . في بلدة ابيانة من مديرية الغربية ودرس في الأزهر ، ثم اتصل بالأفغاني وأخذ عنه . وتقلب في عدة مناصب ، وكان أكبر زعيم وطني في مصر . توفي سنة ١٩٢٧ م (١٣٤٦ هـ .) .

الصحافة[1]

ولدت الصحافة العربيّة على أيدي الأجانب من فرنسيّين وأميركيّين لأن هذا الفنّ بضاعة دخيلة لا عهد للشرق بها قبل امتزاجه بالغرب .

وكانت مصر مهد الصحف الأولى منذ دخلها نابوليون الأوّل ، وتلتها الجزائر بصحيفة[2] المبشّر نشرتها الحكومة الفرنسيّة سنة ١٨٤٧ . ثمّ بيروت بمجلّة[3] سنويّة أنشأها المرسلون الأميركيّون سنة ١٨٥١ .

على أن هذه الصحف ما خرجت عن كونها رسميّة من قبل الحكام أو دينيّة علميّة من قبل المبشّرين .

وأمّا الصحف السياسيّة الأهليّة ، فقد كان بدؤها في الآستانة بجريدة[4] مرآة الأحوال لرزق الله حسّون[5] سنة ١٨٥٥ . ثمّ صارت

١ ذكر الفيكونت فيليب دي طرازي في كتابه تاريخ الصحافة العربية أن الشيخ نجيب الحداد ابن أخت الشيخ ابراهيم اليازجي هو أول من اصطلح على لفظ الصحافة ، وأشاع استعماله .

٢ أول من استعمل الصحيفة بمعناها الحديث الكونت رشيد الدحداح وكانت تسمى قبلا الوقائع أو غزتّه معربة عن « Gazetta » أو جرنال .

٣ المجلة لفظة اصطلح عليها الشيخ ابراهيم اليازجي للصحف الدورية التي تبحث في العلوم والفنون ، ومعناها في الأصل صحيفة الحكمة .

٤ في تاريخ الصحافة العربية للفيكونت دي طرازي أن أحمد فارس الشدياق أول من أطلق لفظ الجريدة على الصحف المنشورة . والجريدة لغة الصحيفة يكتب عليها .

٥ نصراني من طائفة الأرمن الكاثوليكية ولد بحلب نحو سنة ١٨٢٥ وتعلم بلبنان العربية والفرنسية والتركية والأرمنية ، واللاهوت والرياضيات . وسافر إلى الاستانة ، وأنشأ بها جريدته في أثناء حرب القرم ، ومات بلندرة سنة ١٨٨٠ .

الصحافة إلى أيدي اللبنانيين فاستأثروا بها برهة من الزمن لما هم عليه من الثقافة الحسنة ، ونشاط النفس وإقدامها ، فرفعوا منارها في بيروت[1] ، وأوربة[2] ومصر وأميركة[3] . فكان لهم الفضل الأكبر في بعثها وإحيائها .

ولم تنشط مصر إلى هذه الصناعة إلا بعد أن ازدهرت في لبنان ، مع أنها ولدت بها دون غيرها . فمرّ عهد محمّد علي ، وتلاه عهد عبّاس ثمّ سعيد ، وليس في القطر جريدة أو مجلّة إلا الوقائع الرّسميّة . فلمّا انتهى الحكم إلى إسماعيل ، ومضى يبسط كفّه للأدباء ، ويعنى بتعزيز

١ كانت أولى الجرائد في بيروت حديقة الأخبار لخليل الخوري (١٨٥٨) ونفير سورية (١٨٦٠) ومجلة الجنان (١٨٧٠) للمعلم بطرس البستاني . والجنة لولده سليم (١٨٧٠) والبشير للآباء اليسوعيين (١٨٧٠) والجنينة لسليم البستاني (١٨٧١) . وثمرات الفنون أول جريدة إسلامية أنشأتها جمعية الفنون سنة ١٨٧٥ ، وأعضاؤها من أدباء المسلمين وأعيانهم . ومجلة المقتطف للدكتور يعقوب صروف ، والدكتور فارس نمر (١٨٧٦)، والطبيب للدكتور بسط الأميركي (١٨٧٧) تعاقب على إدارتها وتحبيرها جمهرة من الكتاب منهم الشيخ ابراهيم اليازجي . ولسان الحال لخليل سركيس (١٨٧٧) وديوان الفكاهة لسليم شحادة وسليم طراد (١٨٨٥). وهي أول مجلة قصصية . والأحوال لخليل البدوي (١٨٩١) والمشرق للآباء اليسوعيين (١٨٩٩) .

٢ كبرجيس باريس في عاصمة فرنسة للكونت رشيد الدحداح (١٨٥٨) . والجوائب في الآستانة لأحمد فارس الشدياق (١٨٦٠) ومجلة مصر القاهرة في باريس لأديب اسحق (١٨٧٩) والمستقل في غلياري عاصمة سردينيا ليوسف باخوس (١٨٨٠) والبصير في باريس لخليل غانم (١٨٨١) .

٣ أخذ اللبنانيون في المهاجرة إلى أميركة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين بعد أن ضاق عليهم الرزق في موطنهم فأثاروا في مهاجرهم تياراً أدبياً وأنشأوا صحفاً كثيرة بينة الرقي ، منها ما يظهر يومياً بثماني صفحات . وأقدم جرائدهم كوكب أميركة لنجيب عربيلي أنشأها في نيويرك (١٨٩٢) . وأول جريدة يومية الهدى لنعوم المكرزل أنشأها سنة (١٨٩٨) مجلة شهرية في فيلادلفيا ، ثم نقلها إلى نيويرك وجعلها نصف أسبوعية ، ثم جعلها يومية بثماني صفحات كبار .

الآداب والعلوم ، بدأت تتحرّك الأقلام وتنجم الصحف . فظهرت اليعسوب في القاهرة سنة ١٨٦٥ لمحمّد علي باشا الحكيم وإبراهيم الدسوقي ، وكانت مجلّة طبيّة . ثمّ الزمان لعبد الله أبي السعود سنة ١٨٦٦ أوّل جريدة سياسيّة أهليّة . ثمّ نزهة الأفكار لإبراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال سنة ١٨٦٩ .

وتسامع الأدباء اللّبنانيّون بعطف إسماعيل على الأدب وشاقهم ما في مصر من فضاء رحب ، ورزق واسع ، فيمّموا شطرها يحملون إليها علماً صحيحاً ، ورقيّاً ناضجاً ، فانسلكوا في دواوينها ومتاجرها يديرونها ويحسنون تنظيمها ، وأقبلوا على الصحافة يضطلعون بعبئها ، ويدرّبون عليها المصريّين . فنهضوا بها ودفعوها إلى الأمام ، منفردين بإدارتها أكثر من عشر سنوات، حتى برع الوطنيّون في مصر . فهبّوا إلى إنشاء الصحف ، ولكنّهم لم يستغنوا عن اللّبنانيّين في تحبيرها ، فشاركهم هؤلاء في كلّ جريدة ظهرت في ذاك العهد. وكانت الأهرام أولى الجرائد اللّبنانيّة أنشأها في الإسكندريّة سليم وبشارة تقلا سنة ١٨٧٦ . وانتقلت إلى القاهرة سنة ١٨٩٢ . ثمّ المحروسة في الإسكندريّة لأديب إسحق وسليم نقّاش سنة ١٨٨٠ .

وكان إسماعيل على ميله إلى نشر الآداب يضيق صدره عن احتمال النقد ، فلقيت منه الصحافة عنفاً وشدّة ، فألغى نزهة الأفكار ، ونفى الشيخ أبا نَظّارة[1] ،وكاد يودي بالأهرام لو لم يشدّ ازرها ممثّل فرنسة . وبولغ في إرهاق الصحافة زمن توفيق عندما ذرّ قرن الثورة العرابيّة ،

١ هو يعقوب بن رافائيل صنوع من اليهود ولد في القاهرة سنة ١٨٣٩ وأنشأ فيها جريدة هزلية سماها « أبو نظارة » وتكنى بها . ومات في باريس سنة ١٩١٢ .

فوُضع قانون المطبوعات سنة ١٨٨٠ فنال الصحف بشرّ كبير ، فمنها ما ألغي ، ومنها ما حبس لمدّة معلومة .

ولبثت الحرّيّة الفكريّة مؤودة حتى وقع الاحتلال الانكليزي ، فبعثها اللّورد كرومر من رمسها ، فأقبل الكتّاب على إنشاء الصحف وفيهم المصريّون . وهاجر جماعة من لبنان إلى مصر يلتمسون بها هذه الحرّيّة ، بعدما حرمهم إيّاها عبد الحميد . وكان في جملتهم الدكتور يعقوب صرّوف ، والدكتور فارس نمر ، وشاهين مكاريوس ، فأنشأوا المقطم سنة ١٨٨٩ . وصدرت المؤيد في السنة نفسها يديرها الشيخ أحمد ماضي والشيخ علي يوسف . واتخذت لها سياسة تخالف سياسة المقطم وهي أوّل جريدة إسلاميّة مصريّة ذات شأن .

وكانت الصحف يومئذ قد ازدادت واختلفت مذاهبها السياسيّة ، فمنها الاحتلاليّة ، كالمقطم والزّمان والنيل . ومنها مصريّة فرنسيّة كالأهرام والمؤيد . ومنها مصريّة خالصة على شيء من إنصاف المحتلّين كمرآة الشرق والوطن . ومنها مصريّة عثمانيّة كحقيقة الأخبار والفلاح .

وفي سنة ١٨٩٢ أُهمل قانون المطبوعات ، فبلغت الصحافة غاية ما ترجوه من الحرّيّة والانطلاق ، فنهضت نهضة محسوسة ، وتضاعف عددها . ثمّ ظهر اللّواء سنة ١٩٠٠ لمنشئه مصطفى كامل مؤسّس الحزب الوطني ، فبعث في صدور المصريّين روح مقاومة المحتلّين لإجلائهم عن مصر . فتبدّلت سياسة انكلترة منذ اليوم ، واعتمدت على خطّتي الإرهاب والمداهنة بعد الودّ والصّفاء .

وقبض العميد اللّورد كتشنر على خناق الصحافة ، بعد أن تأذى من تطرّف الصحف الوطنيّة ، ومجاوزتها حدّ الاعتدال ، فأقفل اللّواء

والعلم ومصر الفتاة وسواها ، وتصاعب في السماح بإنشاء جرائد جديدة .

ومضت فترة في الحرب الكبرى الأولى والصحف مسالمة الاحتلال ، بعد أن بسطت انكلترة حمايتها على مصر . فلمّا خمدت نيران الحرب ، هبّ المصريّون وعلى رأسهم سعد زغلول باشا ينادون بالاستقلال وإلغاء الحماية ، فعادت الصحف الوطنيّة إلى رفع الصوت ، ومناهضة السياسة البريطانيّة ، فعبّرت أصدق تعبير عن أماني المصريّين ورغباتهم على اختلاف أحزابهم وسياساتهم .

وقد تقدّمت صحف مصر بعد الحرب تقدّماً عظيماً ، جارت به صحف أوربة في جرمها وترتيبها وتصويرها ، وبرقيّاتها وأخبارها . وصار بعضها ينجم يومياً باثنتي عشرة صفحة كبيرة أو بستّ عشرة صفحة شأن الأهرام . وأرقى جرائدها ومجلاتها وأكثرها انتشاراً اللبنانيّة منها كالأهرام ، والمقطم ، والمقتطف[1] ، والهلال[2] .

أمّا الصحف اللبنانيّة في بيروت فقد تقهقرت تقهقراً مشؤوماً في عهد عبد الحميد ولم ينبض لها وتر إلا بعد أن نودي بالدّستور العثماني سنة ١٩٠٨ . فعادت إلى النهوض والانتشار ، وكثرت حتّى لم تقتصر على بيروت بل جاوزتها إلى المدن والقصبات في لبنان . وكذلك الصحف السوريّة والعراقيّة[3] ، لم يكن لها شأن قبل الدستور ، وهي في الأصل

١ نقل المقتطف من بيروت إلى القاهرة سنة ١٨٨٥ .

٢ الهلال مجلة أدبية علمية تاريخية أنشأها جرجي زيدان في القاهرة سنة ١٨٩٢ .

٣ ظهر في دمشق قبل الدستور ثلاث جرائد وثلاث مجلات : سورية الرسمية انشئت سنة (١٨٦٥) . ودمشق لأحمد عزة باشا العابد (١٨٧٩) . والشام لمصطفى واصف ←

دون الصحف البيروتيّة رقيّاً . فتقدّمت على أثره تقدّماً بيّناً ، وانتشرت وعمّت شتّى المدن والأمصار بعد أن كانت لا تصدر إلا عن كبريات الحواضر . وانقسمت في تحزّبها للعثمانيّين فكان منها الاتّحاديّة ، وكان منها الائتلافيّة .

ولما نشبت الحرب العامّة أصاب الصحف في الولايات العثمانيّة فترة وخمول لما نال حرّيّة الفكر من الضغط والارهاق ، ولما أصاب البلاد العربيّة من ضيق وفاقة ، فلم يبقَ منها إلا عدد يسير جارى السياسة التركيّة على جورها وفسادها ، فانتفع ورزق الحياة .

ولم تفق من خمولها إلا على نداء داعي السلام ، فهبّت من رقدتها ، وتمطت بعد انقباضها ، وقطعت شوطاً حسناً في مضمار النهضة ، ونظمت نقاباتها ، فعظم شأنها ، وصار بعضها يصدر يوميّاً بثماني صفحات . وعنيت بتصوير الأشخاص والحوادث وتفرّعت موضوعاتها إلى سياسة

(١٨٩٦) . ومجلة مرآة الأخلاق لسليم حنا عنحوري (١٨٨٦) . والشمس لجورج متى وجورج سمان(١٩٠٠) .والمقتبس لمحمد كرد علي (١٩٠٦).وظهر في حلب أربع جرائد ومجلة : غدير الفرات الرسمية (١٨٦٧) . ثم الفرات الرسمية (١٨٦٩) . والشهباء لهاشم العطار وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٧٧) . والاعتدال لعبد الرحمن الكواكبي (١٨٧٩) أنشأها بدلا من الشهباء . ومجلة الشذور لعبد المسيح انطاكي (١٨٩٧) . وظهر في القدس جريدة واحدة : القدس الشريف الرسمية (١٩٠٣) . وكان في بغداد جريدة واحدة ومجله واحدة وهما الزوراء الرسمية (١٨٦٩) . ومجلة زهيرة بغداد للآباء الكرمليين (١٩٠٥) . وفي البصرة جريدة البصرة الرسمية (١٨٩٥) . وفي الموصل جريدة الموصل الرسمية (١٨٨٥) . ومجلة اكليل الورود للآباء الدومينكيين (١٩٠٢) .

١ من الجرائد المصورة التي انتشرت بعد الحرب « البيان » لصاحب هذا الكتاب أنشأها سنة ١٩٢٣ اسبوعية بثماني صفحات ، ثم باثنتي عشرة صفحة ، ثم بعشرين . وحجبها سنة ١٩٣٠ . وكانت مباحثها تشتمل على سياسة وأدب ونقد وقصص .

وأخبار وأدب ونقد وعلوم وفنون . ومنها ما اختصّ بفنّ واحد كالصحف الأدبيّة ، والرّياضيّة ، والتجاريّة ، والزّراعيّة ، والهزليّة . إلا أنّها ما برحت مقصرة في الجملة عن الصحف المصريّة في انتشارها ، وثروتها وإتقانها وسرعة أخبارها . بيد أن لبنان كان وما برح أخصب تربة لإنشاء الجرائد والمجلات ولانجاب كتّابها[1] .

منزلتها وتأثيرها

لا يخفى ما للصحافة صاحبة الجلالة من الأثر البليغ في نهضة الشعوب وتقدّمها . وقد كان لها يد بيضاء على البلاد العربيّة إبّان يقظتها . فهي التي قاومت الاستبداد والمستبدّين ، وآزرت الحرّيّة والأحرار . وبعثت الرّوح الوطني في صدور الشعوب الشرقيّة الخاملة المتواكلة . وهي التي ربطت الشرق بالغرب ، وأطلعت المشارقة على حضـــارة الأوربيّين وعلومهم ، وفنونهم واختراعاتهم ، وسياساتهم وأحوالهم . فاستفاد منها العالم والجاهل ، وشملت بفضلها الخاصّة والعامة . فإذا هي نعم الأستاذ والمربي والمرشد والمنير .

وكانت الرّقيب السّاهر على الحكّام والمسيطرين تنتقد أعمالهم ،

١ قال الفيكونت دي طرازي في كتابه « تاريخ الصحافة العربية » الجزء الرابع : « لكننا إذا اعتبرنا عدد الصحف في كل دولة بنسبة عدد سكانها ومساحة أرضها فيكون لبنان أسبق جميع البلدان في ميدان الصحافة العربية . فإنه يحوي من السكان ثمانمائة وخمسين ألف نسمة طبقاً لإحصاء سنة ١٩٣٢ ومن الصحف أربعمائة وستاً وعشرين صحيفة . أي أن لكل ألف نسمة صحيفة واحدة في الجمهورية اللبنانية . بينما نرى غيرها من كبريات الدول العربية تصيب فيها الجريدة الواحدة نحواً من ستمائة ألف نسمة . » ا هـ.

وتنبّههم على خطئهم ، وتدلّهم على طرق الإصلاح والفلاح .

وكانت لغتها السهلة الحاقة الوسطى بين اللّغة الفصحى واللّغة العامية ، فقرّبت بينهما بعد تباعد ، فأصبح العامي يستاغها ويراها دانية إلى فهمه . والخاصيّ لا ينكرها ولا يضيق بها صدراً . وهذّبت العاميّة فنفت عنها كثيراً من الألفاظ الدّخيلة المرذولة ، وأصلحت غير قليل من الألفاظ الّتي أفسدها التحريف . وراضت الفصحى فألانت أساليب الكتابة ، وذلّلت شوامسها لمختلف المباحث ، وأوضحت غوامضها ، وزفّت إليها ألفاظاً ومصطلحات جديدة قضت بها الحضارة العصريّة ، وما فيها من علوم وفنون . واطّرحت الألفاظ الحوشية ، والتعابير البدويّة الجافية . فوسّعت المعجم اللّغوي من حيث ينبغي أن يتسع ، وضيّقته من حيث ينبغي أن يضيق .

على أن هذه الفوائد الّتي أتت بها الصحافة قام إزاءها من الأضرار ما يعادلها . فقد كثر الإقبال على حرفة الصحف ، ووافقه ترخيص من الحكومة في إنشائها ، فطما سيلها ، وفاض حتى جاوز الحدّ ، وأفضى إلى تبرّم النّاس به ، وإلى أن يتعاطى الصحافة غير أهلها . فاحترفها المتكسبون المحتالون ، وجعلوها أداة للتعيّش بالتهويش ونهش الأعراض والتحرّش ، والهراش . واتخذوا من سياستهم تجارة ومكسباً . يناصرون حكومة على حكومة ، وحزباً على حزب . وشخصاً على آخر لا لعقيدة صحيحة ، وإنّما للكسب والارتزاق .

وفيهم من يبدّل سياسته كما يبدّل قميصه جارياً مع المنهل الأعذب . فتراه اليوم يحارب رئيس حكومة ، أو يطعن على شركة ، أو يقاوم رأياً . ثمّ تراه في الغداة وقد اختلفت لهجته ، وراح يتراجع عن موقفه

بخفّة وانتظام إلى أن يصير في جانب الرّئيس الذي يحاربه ، والشركة التي يطعن عليها ، والرّأي الذي يقاومه .

وربّما ضربوا على وتر الطائفيّة ، وهيّجوا التعصّب الدّيني ، ونادوا بحقوق مثلهم ، ولا مآرب لهم إلا الزلفى والاستكثار من القرّاء .

ومنهم من يطلب الرّبح والانتفاع بالطرق الماجنة فيحشو صحيفته بأخبار الفحش والدعارة وقصص الحبّ الشائن ، وصور الخلاعة المغرية ، فيستهوي بذلك الفتيان الأغرار وأهل البطالة والفساد .

ومثل هذه الحالة يدعو إلى الأسف، فحري بالحكومات ونقابات الصحف أن يتداركوا هذه الفوضى المنتشرة ، فإن أضرارها جسيمة ، وفي التغاضي عنها إثم عظيم .

ويلام الصحافيّون عندنا أنّهم فرديّون في أعمالهم ، يستقلّ كلّ واحد منهم بجريدة على قصر يده ، وقلّة ماله ، وقعود الأحزاب عن مناصرته . فلا يلبث أن تعضّه الحاجة ، فيضطرّ إلى النكوص خاسراً ، أو إلى إراقة ماء وجهه . فلو اجتمعوا شركات منظمة تستند إلى رؤوس المال ، لتسنى لهم أن يخرجوا جرائد قويّة راسخة البنيان ، آمنين الحاجة ، ولكان لهم شأن غير شأنهم اليوم .

ولم تكن جرائد مصر أقوى من جرائد لبنان وسورية والعراق على الإجمال ، إلا لأنّها غنيّة بأموالها ، وأحزابها ، وتعاون الجماعات على إخراجها . مع أن سواد كتّابها غرباء عن مصر ، وجلهم من لبنان .

والصحفيّون كثير عددهم ، لا يتأتّى لنا أن نحيط بأسمائهم ، فإنّه لم يظهر كاتب في الانبعاث إلا اشتغل بالصحافة أو شارك في إنشاء الصحف . فنحن نجتزىء بذكر من كان لهم الفضل المتقدم على نهضة الصحافة

ورقيها كالمعلم بطرس البستاني ، أول من انشأ مجلة جامعة زاهرة[1] ، وابنه سليم أوّل من أصدر جريدة يوميّة[2] . وأديب إسحق أوّل من نهض بالإنشاء الصحافي ورفع مستواه . والشيخ إبراهيم اليازجي أوّل من هذّب لغة الجرائد وطهّرها من الفساد . ونكتفي بدرس آثار ولي الدين يكن ، لما فيها من عبرة وذكرى لأصحاب هذه الحرفة ؛ ولما في شخصيته العجيبة من المزايا التي يجمل بالصّحفي أن يتحلّى بها ، ألا وهي الجرأة والصراحة ، والنزاهة والإخلاص .

١ ولد المعلم بطرس البستاني في الدبية من لبنان سنة ١٨١٩ وتعلم في مدرسة عين ورقة العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية ، والمنطق والتاريخ ، والجغرافية والفلسفة واللاهوت والحق القانوني . ثم هبط بيروت ، واتصل بالبعثة الأميركية وقرأ عليهم الإنكليزية واليونانية والعبرية ، وطرفاً صالحاً من العلوم العصرية . وأنشأ مجلته الجنان سنة ١٨٧٠ ، سياسية علمية أدبية تاريخية ، تظهر مرتين في الشهر . وله غيرها آثار كثيرة سيأتي ذكرها . وتوفي في بيروت سنة ١٨٨٣ .

٢ ولد سليم البستاني في عبيه سنة ١٨٤٨ وقرأ العلوم العربية على الشيخ ناصيف اليازجي . وأتقن التركية والإنكليزية والفرنسية . وعين ترجماناً لقنصلية الولايات المتحدة . وكان الساعد الأيمن لأبيه في إدارة المدرسة الوطنية ، وتأليف دائرة المعارف ، وتحرير الجنان . أنشأ الجنة سنة ١٨٧٠ صحيفة نصف أسبوعية تبحث في السياسة والتجارة ، وتتناول الأنباء البرقية على حسابها . ثم أنشأ الجنينة سنة ١٨٧١ أربع مرات في الأسبوع ، فتم له بها وبالجنة التي كانت تنجم مرتين في الأسبوع أول جريدة يومية . توفي سنة ١٨٨٤ ودفن في بيروت .

ولي الدين يكن

١٨٧٣ – ١٩٢١ م و ١٢٩٠ – ١٣٤٠ هـ

حياته

هو ولي الدين بك ابن حسن سريّ باشا ، ابن إبراهيم باشا يَـكَـن[١] . كان جدّه هذا ابن أخت محمد علي باشا صاحب مصر . وأمّه أميرة شركسيّة . فهو أصيل الجدين ، طيب العرقين . ولد في الآستانة ، فقدم به أبوه إلى القاهرة وهو طفل في الثالثة . وتوفي الأب والطفل لم يجز السادسة ، فكفله عمّه علي حيدر باشا يكن ناظر مال مصر ، وأدخله مدرسة الأنجال التي بناها الخديوي توفيق في عابدين لتعليم أولاده وأولاد بعض الأمراء والأعيان. فقرأ فيها العربيّة والتركيّة ، وشيئاً من الانكليزية والعلوم . ثمّ توفّر على الفرنسيّة في مدارس أخرى ، فأحكمها ، وألمّ باليونانيّة .

وأولـع بالشعر والصحافـة ، فنظم وكتب وهو دون العشرين . وعرفت بواكير نفثاته جريدتا « القاهرة الحرّة[٢] » و « النيل[٣] » . ودعي سنة ١٨٩٣ ليكتب للأمير في الدّيوان الأجنبي . ثمّ ترك الديوان ، وأنشأ سنة ١٨٩٥ جريدة المقياس ، مشاركاً فيها يوسف فتحي .

١ يكن : لفظة تركية معناها ابن الأخت .

٢ القاهرة الحرة : أنشأها عارف المارديني سنة ١٨٨٥ .

٣ النيل : أنشأها حسن حسني باشا الطويراني سنة ١٨٩١ .

ورحل ما بين سنة ١٨٩٥ و ١٨٩٦ إلى الآستانة ، فأقام ثمانية أشهر عند عمّه محمّد فائق بك يكن من أعضاء مجلس الشورى . وأنعم عليه عبد الحميد بالرّتبة الثانية ، وعاد إلى مصر مزوّداً برضاه وعطفه . ولم يكن يومئذ في صفوف الأحرار ، بل كان يقاومهم ، ويدافــع عن السلطان . فلمّا جاء الآستانة ، وشاهد مصارع الأرمن ، ومكايد رجال الدولة ودسائس الجواسيس ووشاياتهم ، قفل وفي نفسه ألم عضوض ، وفي صدره غلّ على عبد الحميد ورجاله ودواوينه . فأنشأ جريدة الاستقامة سنة ١٨٩٧ ، وجعل يحمل فيها على أعوان الظلم وزبانية الشرّ ، ويدعو إلى إصلاح الخلل وتطهير الفاسد . فأحفظت كتاباته الباب العالي ، فمنع جريدته من دخول ولاياته ، فضاق كسبها ، فاضطرّ إلى حجبها . ولكنّه لم يهجر الصحافة بل شرع يكتب في المُشير[1] والمقطم والقانون الأساسي[2] .

وكان عبد الحميد يجهد في استرضاء الأحرار وإسكاتهم ، فيدعوهم إليه ، ويعدهم بالإصلاح القريب ونشر الدّستور ، ويخصّهم بالخطط العالية . فدعي ولي الدّين في جملتهم ، فرحل إلى الآستانة سنة ١٨٩٨ ، فجعل عضواً في مجلس إدارة الجمرك ، ثمّ في مجلس المعارف الأعلى . إلاّ أنّه كان على خصام متّصل مع رجال الدّولة لما يرى من فساد أعمالهم ، وكذبهم واحتيالهم ، وصلف النّافذين منهم . فجافى ناظر المعارف ومدير

١ أنشأها سليم سركيس اللبناني في الاسكندرية سنة ١٨٩٤ ، وخصها بالطعن على الحكومة المستبدة ومطالبتها بالاصلاح . ثم نقلها إلى القاهرة سنة ١٨٩٥ ، ثم إلى نيويرك سنة ١٨٩٩ بعدما لقي من حكومة مصر حبساً وإرهاقاً ، وحكم عليه في بيروت بالموت غيابياً .

٢ جريدة سياسية أنشأها صالح جمال في القاهرة سنة ١٨٩٨ . وكانت تظهر بالتركية والعربية ، ويكتب فيها مع ولي الدين الكاتب التركي محمد قدري .

أوراقها ، وأهان رئيس كتّاب عبد الحميد ونعته « بالباشكاتب الكاذب » وطعن عليه في بعض الصحف الأجنبيّة . وشتم أبا لحية[1] حاجب عبد الحميد » وكتب في الصحف المصريّة منددّاً بأبي الهدى صفيّ السلطان وأنفذ النّاس لديه . فأحاطت بمنزله الجواسيس ، وكثُرت فيه الأقوال والوشايات ، واتّهمه أبو الهدى بالاشتراك في جمعيّة سرّيّة . وسعت به دارالإمارة في مصر ، ففتّش منزله ، وصودر على أوراقه ، وفيها ما لا يروق عبد الحميد . فاسودّت صحيفته عند السلطان بل ازدادت اسوداداً . فبينا هو ذاهب يستدعي طبيباً لامرأته النفساء عرض له شُرْطي في بعض الطريق ، وأراد سوقه كرهاً إلى المتصرّف ، فضربه ولي الدين وما زال يضربه حتّى انتهيا إلى دار المتصرّفية . فلامه المتصرّف على عمله ، وأسمعه خشن الكلام . فلطمه وألقاه على الأرض ، فصدرت الإرادة السنيّة بحبسه فحبس ، ثمّ بنفيه فنفي .

وكان منفاه في سيواس من أعمال الأناضول ، فحملته السفينة إلى صَمْسُون ، ومنها أقلّته عربة تقطع به الأودية والجبال في الوحول والثلوج حتّى بلغت سيواس يوم الجمعة في ١٤ شباط سنة ١٩٠٢ ، فدخلها وأهله لا يعلمون عنه شيئاً . فكتب إليهم فوافوه .

وكان من عادة الحكومة الحميدية أن تشغل كبار المنفيّين بالمناصب فعيّن ولي الدين حال وصوله معاوناً لمدير أوراق الولاية ، وجعل راتبه خمس عشرة ليرة عثمانيّة . واتّفق أن ولي أمر سيواس رشيد عاكف باشا من المصلحين الأحرار ، فلقي كاتبنا حظوة عنده . وكان يجد من عطف السيواسيّين ومصاحبة الأجانب فرنسيّين وأميركيّين وقراءة

١ محمد باشا الجركسي » ويكنى بأبي لحية .

القصص ونظم الأشعار ما يرفّه عنه وحشة المنفى حتّى أعلن الدّستور سنة ١٩٠٨ فعفي عنه فرجع إلى الآستانة ومنها إلى مصر .

وعاد يكتب في المقطم والأهرام والمؤيد والرّائد المصري[١] والزهور[٢] . ونشر كتبه : خواطر نيازي والصحائف السود ، والمعلوم والمجهول . ثمّ أنشأ جريدة الاقدام في الإسكندريّة سنة ١٩١٢ . ثمّ عيّنته حكومة مصر كاتباً في وزارة العدل ، فبقي في منصبه هذا إلى أواخر سنة ١٩١٤ . فلمّا ولي العرش السلطان حسين كامل دعاه إليه وجعله كاتباً في ديوانه ، فنعم ولي الدين في قربه ، وخصه بأحسن مدائحه .

على أن الدّهر ما بسم له إلا ليعبس في وجهه ، وما صافاه إلا ليكدّر عيشه ، فلم يلبث أن استطال عليه الرّبو ينتابه بين ساعة وساعة ويقطع أنفاسه . وتمكّن منه داء الصدر[٣] فأذابه عضواً فعضواً . فترك عمله في القاهرة سنة ١٩١٩ ، وجاء حلْوان مستشفياً ، فتوفي فيها وهو على أشدّ ما يكون من ألم وفاقة بعد أن رزىء بثاني ولده غلام في الخامسة عشرة من عمره ، وبأمه وشقيقته . وكان آخر ما نظمه بيتين وجدا بجانب السرير وهما :

يا جَسَداً قد ذابَ حتّى امّحَى ، إلاّ قَليلاً عالِقاً بالشّقاءْ
أعانَكَ اللهُ بِصَبْرٍ على ما ستُعاني مِنْ قَليلِ البَقاءْ

١ أنشأها نقولا شحاده اللبناني في القاهرة سنة ١٨٩٦ .

٢ مجلة سياسية أدبية أنشأها في القاهرة الشيخ أنطون الجميل والشيخ أمين تقي الدين اللبنانيان سنة ١٩١٠ .

٣ روى لنا ابراهيم سليم النجار أن ولي الدين يكن مات مسلولا . والنجار صحفي لبناني من دير القمر ، أنشأ في القاهرة جريدة الكلمة الحرة سنة ١٩١٠ . وكتب في عدة جرائد في مصر ولبنان وسورية .

ونقل جثمانه إلى القاهرة ، ودفن في مقبرة الأسرة اليكنيّة ، في قَرافة الإمام عمر بن الفارض . وأقيمت له حفلة الأربعين ، فلم يشهدها إلا بعض أصدقائه ، وأكثرهم لبنانيّون . وتخلّف عنها سواد الأدباء المصريّين ، فكأنّهم ينقمون عليه سياسته الاحتلاليّة ، وشذوذه عن تقاليدهم وعاداتهم ، فانتقموا منه بعد مماته ، وأهملوه حتّى ان تواريخهم الأدبيّة لم تذكره في عداد كتّاب النهضة وصحافييها .

صفاته واخلاقه

كان نحيل الجسم ، عصبي المزاج على قوّة ، جريئاً مقداماً ، جلداً على المصائب ، آنفاً على غير تكبّر ، بل كان يكره المتكبّرين ويحتقرهم ، ولا يتنكب عن إذلالهم .

وكان صريحاً من غير تحفّظ ، صادقاً لا يعرف الخداع والكذب ، ولا يطيق مصاحبة المخادعين والكاذبين . ولطالما لقي الأذى بسبب صراحته وصدقه .

وكان حسن المودّة ، محمود المخالقة ، مرهف العاطفة ، دقيق الحسّ ، متنبّه اللّحظ ، سريع التأثّر ، خفيف الرّوح ، لطيف النكتة ، حلو التهكّم .

وكان كريماً لا يبخل بما تملك يده ، راغباً عن المال والرّتب والألقاب . وقد سنحت له فرص كان بوسعه أن يغتنمها وينال مراتب آبائه وأعمامه ، إلا أنّه أعرض عنها وأفاتها في سبيل عقيدته الحرّة ورأيه في الإصلاح . فحقّ له أن يقول :

تركتُ الغِنى لا عاجزاً عن طلابه ، وأنزَلتُ نفسي من مَنازِل مَحْتدي

وَهذي، بحَمْدِ اللهِ، مني برَاءةٌ ، فيا أفقُ سجلْها، ويا أنجمُ اشهدي!

وكان يكره التعصّب الديني ، وينابذ أصحابه ، وينفر من التقاليد ، ويتعمّد اطّراحها . فقد تزوّج امرأة مسيحيّة يونانيّة ، فخرق بها تقاليد أسرته الارستقراطيّة ، وسمّى ابنه جان وابنته فكتوريا ، فخرق بهما التقاليد الإسلاميّة . وثار على أساليب الأقدمين في إنشائه ، فخرق تقاليد المحافظين . وكان إلى ذلك لا يصوم ولا يقيم الصلوة في أوقاتها .

وكان عثمانيّاً صادقاً إلا أنّه لا يجد فرقاً بين عربي وتركي وبين مسيحي ومسلم .

آثاره

ترك ولي الدين آثاراً في الشعر والنثر . فأمّا الشعر فلم يُعن بجمعه في حياته ، فجمعه بعد موته أخوه يوسف حمدي يكن ، ونشره سنة ١٩٢٤ ، مقسوماً إلى سبعة أقسام : الشعر السياسي ، الرّثاء والعزاء ، التهنئة والمديح ، الدهريّات ، الهجاء ، الغراميّات ، المتنوّعات . وقدّم له الشيخ أنطون الجُمَيّل كلمة في حياة ولي الدين ، وشاعريّته وحريّته .

وأمّا النثر فله خواطر نيازي أو صحيفة من تاريخ الانقلاب العثماني ، ترجمه عن التركية، ونشره سنة١٩٠٩ . مؤلّفه محمّد نيازي بك الرّسنه لي بطل الحريّة والانقلاب ، ذكر فيه ما قامت به جمعيّة الاتحاد والترقي على يده من الأعمال لسحق الاستبداد .

وله الصحائف السود مجموعة مقالات اجتماعيّة نشرت في المقطم ، بعضها باسم زهير مستعاراً ، وبعضها باسمه الحقيقي . طبعت سنة ١٩١٠ ، انتقد فيها بعض العادات والخرافات والأخلاق ، وبعض ما يقع في

المجتمع من الحوادث الغريبة والفظائع المستنكرة . فيها كثير من القصص ، ومنها ما استهلّه بأبيات من الشعر . وربّما بلغت القصائد الطوال .

وله المعلوم والمجهول في جزئين انتهى طبع ثانيهما سنة ١٩١١ . أحدهما يبحث حالة الحكومة العثمانيّة ، وسياسة الآستانة ومصر ؛ وقيام الأحرار على عبد الحميد وانسلاك المؤلّف في صفوفهم بعد أن كان يعاديهم ، وسفره إلى الآستانة ، وما مرّ به في مجلس إدارة الجمرك ، ومجلس المعارف الأعلى ، وما جرى له مع رجال الدّولة من خصام وملاحيات . يتخلّل ذلك تعريف برجال عبد الحميد ؛ وحزب تركية الفتاة ، والسياسة الانكليزيّة في مصر . والآخر يبحث في السبب الذي من أجله حبس ونفي . وفيه وصف سجنه ، ووصف سفره إلى منفاه ، وذكر سيواس وأهلها وتاريخها وآثارها وما لقي فيها .

وله التجاريب : مباحث اجتماعيّة انتقاديّة في كتاب صغير نشره فؤاد مغبغب[1] سنة ١٩١٣ ؛ وهو كالصحائف السود مقالات ظهرت في الجرائد قبل أن تجمع ، بعضها مصدر بشعر . وفيها قصائد مستقلّة .

وله ، ما خلا ذلك، مؤلّفات ضاعت ولم تُعرف ، وفصول وأشعار مبثوثة في الصحف والمجلات .

ميزته

ولي الدين شاعر وافر الخيال ، قوي الإحساس ، متّقد العاطفة . وله شعر وجداني جميل يستحقّ أن يدرس . إلا أنّنا أخذنا أنفسنا على أن نبحث في آثاره النثريّة التي تتجلّى بها حياته العجيبة،وميزته الصحفيّة،

١ صحافي لبناني في مصر .

وأسلوبه الشخصي . معتمدين على المعلومَ والمجهول ، والصحائف السود ، والتجاريب .

السياسة

شغف ولي الدين بالسياسة منذ صباه يوم علق يكتب في الصحف . وكان مذهبه في بدء أمره عثمانيّاً حكوميّاً ، لا يحجم عن نقد الانكليز مع حبّه لهم ، لأنّهم كانوا يحمون الأحرار اللاجئين إلى مصر ، ويعترف بذلك في المعلوم والمجهول :

« وأما النّيل فقد تغيّر في أواخر أيّامه ، وظهر تغيّره للعيان ، وما غيّره صاحبه بل غيّرتُه أنا . على أنّه لم ينتقد السياسة البريطانيّة ذاتها[1] بل استكبر حمايتها للأحرار العثمانيّين ممّن هبطوا مصر ليستمتعوا بحرّيّتها ، ويحتشدوا بها على حرب الحكومة المستبدّة المنقرضة . فكنت أنا وصاحب النيل ، رحمة الله عليه ، ننكر على الأحرار مساعيهم ، ونأبى مشاركتهم فيها . » اه.

فلمّا رحل إلى الآستانة للمرّة الأولى ، وشاهد ما تصنع الحكومة الظالمة ، عاد إلى مصر ناقماً عليها ، فانضمّ إلى الأحرار ، ودفع إلى المقطم أوّل مقالة ثائرة على الاستبداد[2] عنوانها : « نرجع إلى الجواسيس » قال في آخرها :

« هذا قلمٌ أرَنُّ القَوْسِ ، صائبُ الرَّمْيَة . فلأُجْرِيَنَّهُ حتى لا تبقى من دار الظّلم لَبِنَة على لَبِنَة ، وبياض على سواد . ولأُسيِّرَنَّ

١ التأكيد بالذات مولدة ، وإنما يؤكد بالنفس والعين .

٢ كتبها في ٢٢ كانون الأول سنة ١٨٩٧ .

قوارعَه شُزّباً في كلّ قاتم الأعماق ، شاسع الأطراف إلى أن يقولَ نصيرُ الحمية : لبّيْك » ونستريحَ وإخوانَنا ممّا نحن فيه . » اهـ.

واحتضنته الحكومة البريطانيّة كما احتضنت غيره من الأحرار » فازداد لها حبّاً ، وأصبح لا يذكرها إلا بكلّ خير » ولا يذكر عميدها اللّورد كرومر إلا أشاد بفضله ، ونعته أحسن النعوت » ودعاه مصلح مصر ، وأبا المصريّين المشفق ؛ قال في المعلوم والمجهول :

« ولا أظنّ أن رجلاً يُشفق على بنيه إشفاق اللّورد كرومر على المصريّين . فهو أبو حرّيّتهم ، ومصدر إنصافهم ، ومورد سعدهم إلا أنّه كان يخدم من لا يحبّونه . » اهـ.

ويخبرنا في مقدّمة الجزء الثاني من كتابه هذا عن تأثير ثنائه على اللّورد كرومر في نفوس المصريّين :

« نظر أناس في الجزء الأوّل من المعلوم والمجهول ، فرأوا صورة اللّورد كرومر وقد كتبتُ تحتها « مصلح مصر » . فألقوا بالكتاب جانباً ، وأطبقوا جفونهم ، وولّوا عنه هاربين . راعهم شخص ذلك الرّجل الجليل على الورق ، فأخذتهم سَوْرته ، ولم تقوَ عيونهم على النظر في وجهه ، فكيف بهم لو تمثّلوا بين يديه ورنّ صوته في آذانهم . وقد زعموا بعد ذلك اني صنيعة الرّجل ، والرّجل لا علم له بكتابي إلى يومنا هذا . وهال بعض الجرائد ما في الكتاب ، فأمسكت عن الكلام فيه . لم تشأ تقريظه ثقةً منها بأن ستشتمها الصحف التي تشتم اللّورد كرومر » ولم ترد نقده علماً منها بأن سأحجها إذا دعت إلى النزال » وتراضينا في هذه القضيّة على السكوت .

« يا حرّيّة ، ظننت بأن سيكثر المتنافسون فيك فخفت أن ينفسوا

عليّ ، وإذا هم يدّعونك ولا يعرفونك ، فلن أخاف منذ اليوم رقيباً . أنا عرفتك وهمت بك هياماً فأنا صاحبك من قبل ومن بعد . يريدون أن أكتب ما يريدون وأريد أن أكتب ما أريد . اتّسعت مسافة الخُلف بيني وبينهم . الشرق وطني وأنا في الشرق غريب ، ولا ضيرَ ان أعرض عن مقالي أهل زماني فغداً يتهافت عليه أبناؤهم . » اه.

وكان لا يتلكأ عن تنقص زعماء المصريّين الذين يبثّون في صدور الشعب روح مقاومة الاحتلال ، شأنه مع مصطفى كامل زعيم الحزب الوطني :

« ثمّ ظهر مصطفى كامل . وراح ينتصر بالمسيو دلونكل أحد أعضاء مجلس الأمّة الفرنساوي ، وناظر المستعمرات في فرنسا في أواخر سنة ١٨٩٤ تقريباً . وكان هذا الوزير ، ووزير الخارجيّة إذ ذاك المسيو هانوتو من أضداد الاستعمار الانكليزي . ولم تكن فرنسا اقتنعت بنصيبها من البلاد المغربيّة بدل البلاد المصريّة . فرحّب الوزيران بالشاب المصري ، واستخدماه في آرابهما . فكان لهما أشدّ من البنان طوعاً ، وأكبر من الظلّ انقياداً . فخُلق مصطفى كامل من العدم . » اه.

فولي الدين يرى ضرورة الاحتلال الانكليزي ، ولا يتوقّع خيراً لمصر إلا في بقائه . وبحسبك أن تقرأ الفصل الذي كتبه في الصحائف السوْد ، وعنوانه : « المحتلّون يخرجون من مصر » ، لتتبيّن كيف يخشى الشرّ عليها إذا تركها الانكليز ، فإنّها في ظنّه آيلة إلى الفوضى والتقهقر وفساد الأحكام . وممّا لا ريب فيه أن سياسته الاحتلاليّة هي التي جعلت سواد المصريّين يعرضون عنه ، ويبخسونه حقّه بعد مماته .

وجملة القول ان ولي الدين عثماني صادق الوطنيّة ، يريد لبلاده الحرّيّة والمساواة والإخاء ، ويكره العبودية والتفضيل والتفريق . لا فضل عنده لتركي على عربي ولا لمسلم على نصراني ، وإنّما هم اخوة متساوون تجمعهم العثمانيّة في جامعتها الكبرى . وأفضلهم في نظر الحقيقة أخلصهم ولاء وخدمة للوطن .

ومصر ليست للمصريّين كما يقول زعماؤها الوطنيّون وإنّما هي للعثمانيّين . قال في كلامه على عبد الله نديم : « وإنّما أحدث بيننا الخلافَ أنّه كان عدوّاً للعثمانيّين . وهو من قدماء من يقولون : « مصر للمصريّين » ونحن نقول : مصر للعثمانيّين . » اهـ.

إلا أنّه كان يؤثر لها الاحتلال الانكليزي ، كما ذكرنا ، مع بقائها ولاية عثمانيّة . فقد كان يعلم ضعف حكومة الآستانة ، وقصر يدها عن ضبط ولاياتها القاصية . فلا يجد خيراً في خروج الانكليز من مصر بعدما أصلحوا شؤونها ، ونهضوا بها ، وبسطوا الأمنَ في أرجائها . بل كان يشفق عليها من الرّجوع إلى سابق جهلها وخمولها إذا نزح عنها المحتلّون .

وضعف حكومة الآستانة ولا سيّما في عهد الحرّيّة ، كان يؤلم صاحبنا فهو يريد لها القوّة والسلطان ، فلم يحجم عن نقدها ، لأنّها لم تحسن إقامة أحكام الدستور ، ولم تستطع حفظ ولاياتها . فأخذت منها أدرنة ، وأخذت منها طرابلس الغرب . ولولا أمل باسمٌ في ظلال الحرّية يحدوه على تنظّر المستقبل السعيد ، لناله يأس من الحكومة الجديدة كما ناله يأس من حكومة عبد الحميد .

هذا هو ولي الدين في سياسته الحرّة الجريئة ، على تشعّب منازعها ،

في صدق عقيدته وإخلاصه لما يرتئيه خطأ كان أو صواباً ، سواء من الناحية العثمانيّة أو من النّاحية المصريّة . تلك السياسة التي لقي من أجلها الاضطهاد والحبس والنفي ، والكره والاعراض ، في حياته ، وفي مماته .

الاجتماع

كان ولي الدين مغرى بإصلاح البلاد العثمانيّة سياسيّاً واجتماعيّاً ؛ فكما جاهد سياسة الظلم والارهاق ، ونافح عن الحرّية والدستور ؛ فكذلك كان شأنه في مناضلة التعصّب الديني ، والخرافات والعادات العالقة بالدين . يحمل على جماعة المتعصّبين الذين يستخدمون الدين لمنافعهم ، ويسخّرون النّاس لمآربهم . فيتهكّم بهم ، ويقسو عليهم ، ويبيّن الأضرار التي ينتجها تعصّبهم وتسلّطهم على النفوس الساذجة الجاهلة . ويصوّر خداعهم للنّاس ، وتظاهرهم بما هم ليس فيه . ولك أمثلة على ذلك في « ليلة القدر » و « أكذوبة رمضان » من كتابه الصحائف السود . قال في أكذوبة رمضان :

« في البلاد العثمانيّة كلّ المسلمين صائمون . كانت الحكومة المستبدة تسجُن المُفطر إلى أن يأتي اليوم الثالث من عيد الفِطْر . وكان أكثر المفطرين يدّعون الصّوم ، ويحسنون تقليد الصائمين حتى لقد بلغ أمرُ الكذب أن يضرب المفطر في بيته من يدخن بجانبه سيكارته . وقد خرجت بها ذات يوم في رمضان وراء أمر عرض أريد قضاءه . فلمّا ركبت التّرامواي رأيت جماعة من الأجانب على رؤوسهم القُبّعات وبأفواههم سيكاراتهم . والنّاس ينظرون إليهم شَزْراً ، ولا يقدر أحد منهم أن يخاطب أولئك الأجانب بكلمة تسوءه . وكانت علبة سيكاراتي

معي ، فنسيت أن اليوم من أيّام رمضان فأخرجت سيكارة جعلتها في فمي ، وأتممت أنتظر أن يمدّ إليّ أحد الجالسين شيئاً أشعلها به . فمشت فيّ عيون الركب ، وجعل بعضهم يَغمز بعضاً مشيراً إليّ بلحظه ففطنت لموضع خطائي . وقلت اداويه لكم أيها الكاذبون بالكذب . ثم وثبت من مكاني بغتةً كمن تذكّر شيئاً نسيه وقلت : « لعن الله الشيطان ! كدت والله أدخّن سيكارتي ، وأنقض صومي . » ونظرت إلى رجل جالس على يميي وقلت مؤنّباً له : « كذا يا أخي تراني أهمّ بما يفسد علي صومي ، ولا تنبّهني إلى ما كاد يفرط مني عن غير عَمْدٍ . وأنت تعلم أن الدين يقضي علينا بالنصح لمن سها ، ولا يُعرض إلا عمّن تولى . » فابتسمت الثغور ، وسُرّي عن القوم . »

وقال في ليلة القدر :

« وكان رجل لا يُرزق ذرّية فقال : اللّهمّ املأ بيتي صغاراً ! » فانتبه في الغد على صُياح ملأ بيته حتى ظنّ أن الحيطان تتصايح . فإذا هو بنحو الخمسين صبيّاً لا يزيد طول واحدهم على الشبر ، يجاذبون امرأته ، ويتواثبون حول سريره . هذا يقول : « أبي ! » وذاك يصيح : « أمّي ! » وكلّما حاول مع امرأته الهرب جالوا بينهما وبين الباب . فرأت المرأة أن تأتيهم بشيء من اللّبن في وعاء كبير لتَقْسِمه بينهم . فوثب بعضهم في الوعاء فغرق فيه ، فعلا بكاء الآخرين . فلمّا ضاقت الحيل بالرّجل وامرأته ، رميا بأنفسهما من كُوّة تُطلّ على الطريق ، وأرسلا ساقيهما للرّيح فراراً .

لما كنت صغيراً كنت أجلس إلى بعض الشيوخ فيقصّون عليّ هذه النوادر ، وأنا أكاد أموت ضحكاً . ولقد قلت ذات يوم لرجل منهم :

« تعالى الله عمّا تقولون . أيكون الحكيم العادلُ يعلم ما تخفي الصدور ثمّ يفهم الدّعاء كما يفهمه عبد الحميد ! » فضحك الرّجل حتّى سال لعابُه . » اهـ.

وكان من أنصار المرأة يريد تعليمها ، ورفع حجابها ، وإعطاءها الحرّية في اختيار زوجها . لا يرى في الحجاب فرضاً من فروض الدّين ، كما يقول أصحاب الرأي القديم ، ويرى في عبوديّة المرأة وخمولها ما يقوض ركن المجتمع ، ويهدم صرح السعادة الزّوجيّة . وله في الصحائف السود فصل عنوانه « المرأة » جاء فيه :

« وأما التي قتلها الحجاب فقد تزوّجها رجل من أهل أدَنه شديد الغيرة . دخلت بيته ليلة زُفّت إليه ولم تخرُج منه أبداً ، حتّى إذا مرضت وثقُل عليها المرض ، واشتدّ الألم ، دعا زوجها طبيباً وأخذ يصف له ما تشكوه . فقال: أنا لا أداوي على السماع ، ولا بدّ من رؤية المريضة وفحص موضع العلّة . فأبى الزّوج الأبيّ ذلك . وما مضت أيّام قلائل إلا وقد أزّروها في أكفانها ، وشيّعوها إلى منزلها الأبدي ، من ضريح إلى ضريح . » اهـ.

وكان على نشأته النبيلة أقرب النّاس إلى الشعب ، وأبعدهم عن الارستقراطيّة في أنانيتها واستئثارها وتكبرها . يحارب أصحاب المناصب والألقاب والمتكبّرين وحديثي النعمة . ويذمّ الجرائد التي تزدلف إلى ذوي السلطان بالنعوت الضخمة ، والأدعية الفارغة . ويدافع عن العمال والمضعوفين ويتألّم من الجهل المستحكم في العامّة حتى جعلها مطية ذلولاً لأصحاب النعوت والمراتب ، يسوقونها في طريق منافعهم ويصورون لها الشرّ خيراً ، والنقمة نعمة ، وطاعة الآمر المستبد فرضاً ، والتعصّب

الأعمى شريعة . وهي لجهلها تنقاد إليهم ، وتصدّق ما يزعمون . قال في المعلوم والمجهول :

« وجرائدنا التركيّة لم تدُم كثيراً إذ لم يكن في مصر والبلاد الخارجية أناس كثيرون يقرأون اللّغة التركية ، والذين يقرأونها أو يفهمونها من الأتراك الذين استوطنوا مصر من الأزمان السالفة لا يهمّهم من السلطان إلا كونه سلطاناً . وهم يعتقدون أن لا حقّ للأمّة في مشاركة الملوك في أعمالهم ، وأن الرّعيّة عبيد للملوك أُمروا بالطاعة لهم » وإن ظلّموا ، والشكر ، وإن أساؤوا . يتحدّثون بذلك في مجامعهم ، وبأيديهم السُّبَح وأمامهم النارجيلات (الشيشات) يمتصّونها حتّى تستطلع حبّابها . يؤتى لهم بالشاي منقوعاً . وبين أيديهم جماعات من المشايخ منهم المدّعون لعلوم الكيمياء القديمة ومنهم أولياء الله الناطقون بالغيب (بالسرياني) ومنهم المتصوّفون من أتباع الرفاعي والكيلاني ومحيي الدين العربي والبكطاشي والمولَوي . ومنهم أئمة الشرع ورواة الأحاديث والمفسّرون . كلّ هؤلاء يُكفّرون الأحرار ، ويدعون لعبد الحميد ، ويمدّون أنامل أكلت أطرافها حبّات السّبح يجرّون بها دراهم أعوانهم عدّاً « بُطلاً وجشعاً ولؤماً . كانوا يؤثرون حبّ عبد الحميد على حبّ العادل الحميد .

فمن من هؤلاء القدماء الصلحاء الأتقياء يشكّ في صدق الحاجّ السيد الشيخ زيدٍ مثلاً وهو لابس عمامة كأنّها كَيْوان[1] . وفي يده عصا كأنّها عمود الصبح[2] . وعليه جُبّة خضراء كأنّها مُلاءة الرّبيع . وفي

[1] كيوان : زحل .

[2] عمود الصبح : ضوؤه .

رجله خفّان أصفران كأنّهما سفينتان من النحاس الأصفر . وفي عُنقه سُبحة هي أطول من ألفية ابن مالك . ثمّ يُصدّق ما جاء به سليم سركيس ، وهو رجل مسيحيّ ما قرأ على شيخ . أو يؤمن بما يقول به غيرُه من أحرار الترك والعرب ، وهم متعلّمون في أوروبا أو البلاد العثمانيّة على معلّمين أتوا بهم من أوروبا . والمسلمون من إخواننا المصريّين كانوا ولا يزال أكثرهم متمسّكين بتلك الآراء القديمة . . . كلّ هذه المصائب كانت عوائق دون نُجح المجاهدين من الأحرار . » اه.

وهكذا فولي الدين لم يكن يفرغ من معالجة الأحوال السياسيّة ، ومناوأة الظلاّم والمستبدّين الاّ لينصرف إلى مكافحة الآفات الاجتماعيّة من جهل وتعصّب وخُرافات ، وآراء فاسدة قديمة . لأن الحرّية السياسية لا يقوم لها قائم إلا إذا تحرّرت عقول الأمّة من الجهل والتعصب والاستسلام والخمول . ولذلك عزا تأخّر نجاح الأحرار إلى هذه الآفات .

وكما ربح سخط عبد الحميد وأعوانه في حملاته السياسيّة ، فكذلك ربح سخط الطبقة الأرستقراطيّة في انتقاداته الاجتماعيّة . فتجهّمه وأعرض عنه الأشراف والشيوخ وذوو المراتب والألقاب . وانسحب على أذيالهم العامة في جهلهم وعبودية إرادتهم . فإلى الأولين يقول : « يريدون أن أكتب ما يريدون ، وأريد أن أكتب ما أريد » . وإلى الآخرين: « أنا أكتب وهم لا يفهمون » . وإليهم جميعاً : « إن أعرض عن مقالي أهل زماني ، فغداً يتهافت عليه أبناؤهم . »

التاريخ

لولي الدين صفة أخرى في آثاره غير صفة الكاتب السياسي، والمصلح الاجتماعي ، هي صفة المؤرّخ الأمين الذي ينقل الحوادث بعد أن يعلّلها ويدقّق فيها ، ويفصل أسبابها ومسبّباتها . فكتابه « المعلوم والمجهول » تاريخ جليل من وجهتيه العامّة والخاصّة . فيه صورة جلية عن السياسة الحميديّة وأعمال الوشاة والجواسيس ، ودهاء الرّجال النافذين كأبي الهدى وعزّة العابد ؛ ومذابح النصارى ، واستبداد الولاة والحكّام بهم ؛ وقيام الأحرار يطالبون بالإصلاح ؛ ومطاردة السلطان لهم ، والتجاؤهم إلى مصر محتمين بالانكليز ؛ وعطف الخديوي عليهم بعد أن جفاه الخليفة وأبى مصاهرته بإيعاز من أبي الهدى ؛ ثمّ تغيره عليهم بعد أن توسّط عزّة العابد في التصافي بين التابع والمتبوع .

ويتخلّل ذلك كلام على الصحافة المصريّة ونزعاتها المختلفة ، وحرّيتها في عهد اللّورد كرومر ، واشتغال ولي الدين بها ، ومقاومته للأحرار في بدء أمره ، ثمّ انسلاكه في صفوفهم . وسفره إلى الآستانة ، وتوليته المناصب العالية ، وما ناله من رجال السلطان ، ووشاته وجواسيسه . وكيف ضرب الشرطي والمتصرّف ، وسجن ونفي .

ولا يغفل عن وصف الأماكن التي مرّ بها في طريقه إلى منفاه ، شأن المؤرّخ الدّقيق ، إلى أن يصل إلى سيواس فيروي تاريخها وجغرافيتها وآثارها ، وولاتها ، وأشرافها ، ورجال الدين فيها ، وحالة سكانها ومبلغ حضارتهم . ويخبر بما لقي فيها من الألم والعناء ، وما أصاب من كرم أهلها ، ولطف الأجانب فيها . وغير ذلك ممّا يتعلّق به حيناً ، ويخرج عنه آخر . ويربط جميع هذه الأجزاء ربطاً

بديعاً محكم التنسيق ، ويعرضها عرضاً قويّاً ، بعيداً عن جفاف التاريخ ، قريباً من روعة القصّة .

ولا نخطىء الهدف إذا قلنا إن المعلوم والمجهول تاريخ في قالب قصّة ، وقصّة في شكل مقالات صحفيّة . ففيه من التاريخ ، استقصاء الحوادث وتعليلها ، والبحث في مقدّماتها ونتائجهـــا ، ودقّة في تحديد السنين والشهور ، واهتمام بذكر أحوال الناس وأخلاقهم ، وحضارة بلادهم ، وعلومهم وآدابهم ، وغير ذلك ممّا يعنى به المؤرّخ العصري . وفيه من القصّة طرافة الأخبار ، وجمال العرض والتعبير ، وبراعة الوصف ، ودقّة النظر ، وقوّة الإحساس ، وصدق اللّون المحلّي . وفيه من النقد اللاذع ، والتصوير السخري ، والتحزب السياسي ، والاندفاع العاطفي ، ما يخرج به عن صدد التاريخ والقصة ، ويدنيه من المشاغبات الصحفية .

وعلى الجملة فالمعلوم والمجهول مجموعة نفيسة تضمّ سياسة عبد الحميد وأعوانه ، في أواخر القرن التاسع عشر ، وتنطوي على صفحة مجيدة من حياة ولي الدين .

اسلوبه الانشائي

لم يكن ولي الدين من أصحاب الترسل الأنيق صيارفة اللّفظ وصاغة الكلام . وإنّما كان كاتباً حلو الأداء ، لطيف التهكّم ، أليم النقد ، بيّن الصراحة ، عجيب الجرأة ، صادق العقيدة ، ناطق الحجّة ، بارع التصوير ، رائع التشبيه . وهو إلى ذلك ، قوي الشخصيّة ، فريد الأسلوب ، بريء من التقليد .

وطبيعي أن ينفرد بأسلوب طريف ذاك الذي نبذ التقاليد في السياسة

والاجتماع ، وثار على كلّ رأي فاسد قديم، وتألّمت نفسه من الناس، وتألّمت لآلام النّاس . فتبدو غرابته في تفكيره وتعبيره ، وفي وصفه وتصنويره . ويأتي إنشاؤه مثالاً لتلك الشخصية الشاذّة المستقلّة ، وصورة لنفسه المتألمة ، في إبائها وحنانها .

يكتب ولي الدين فتتواثب جمله متقطّعة لا تكاد تتّصل كأنّها قطع من أنفاسه ، وتتدافع ألفاظه هائجة كأنّها أمواج صدره . تطفو عليها ظلال النبل والشقاء والتهكّم ، فتصبغها بصبغة نفسه . ويسمو إنشاؤه مرّة ولا سيّما في تمهيداته وانتقالاته وأوصافه . وينحدر أخرى ، ولا سيّما في أحاديثه وأخباره ، لا يستقرّ من الاضطراب كأن فيه شبهاً من حياته . وهو على حالتي القوّة والضعف يحتفظ بشخصيّته وجدّته وحلاوته . فممّا يتبيّن فيه الضعف قوله :

« وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر دسمبر الكائن في سنة ١٩٠١ جاء امرأتي المَخاضُ . وما قاربت الشمسُ إلا وضعت بنتاً سميتها فيكتوريا . » اهـ.

ومثال القوّة حين يمهد بين يدي الموضوع :

« إنّما يُعرف الصديق الوفي عند اشتداد الكُرَب وتوالي الحوادث . أمّا ادّعاء الودّ ، والعيشُ في خَفْضِه والحال في استقرار، فذلك يتساوى فيه صادق وكاذب . وفي كرام الأعادي من يشفق على عدوّه ، إذا فُلّت مِرّته[1] ، ومال رُكنه . ولله أيّام الشدائد ، تُعلّم من حيث تستبكي ، وتَهَب الموعِظة من حيث تُوجع . » اهـ.

١ فلت مرته : أي ضعفت قوته .

ثمّ حين ينتقل من الخبر إلى الإنشاء :

« بين نَوْحات النائحات ، وبكاء الثاكلات سكوتٌ يأتي به الإعياء ، وتَقطُّعُ الأنفاس . ذلك من الفواصل التي ينوب فيها القلبُ عن العين ، فتسكت الظواهر ، وتبكي السرائر . » اهـ.

ثمّ حين يصف :

« فخرجنا من توقاد على عادتنا مُبكرين ، والطيرُ في وُكُناتها ، فجعلنا نتسنّمُ الهِضابَ ، لا يتخلّلُ صعودنا انبساطٌ ولا انحدارٌ . حتى رُفع لنا شامِخٌ ذو هضَبات ، متّصل الذُّرى بالسّحاب ، تعالته تِلالٌ من الثلج كالقطن المندّف ؛ أشمٌّ صعبُ المُرتقى يقصرُ دونه الجَهدُ ، وتنحلّ في ترقّيه العزائم . تتظالعُ فوقه الجياد والعرباتُ كأنّها تسبح في سحاب جامد . » اهـ.

وإذا وصف صوّر وأجاد التصوير والتلوين :

« في ليلةٍ من ليالي الشتاء ، سكنت تحتها الأشياء ، وتحرّكت الضمائر ، سوداءِ الجلباب ، بيضاءِ الصقيع ، طرقوا باب المظلوم . » اهـ.

وأجمل ما في صوره تشابيهه الغريبة التي تدلّ على دقّة نظر ، وتنبّه للأشياء ، وبراعة في تخيّر الألفاظ المساعدة . يتخذها إمّا للسخر والتشويه ، وإمّا للإفصاح عمّا في نفسه من تأثّر وألم ، فيشترك فيها الخيال والشعور :

« تبادلنا سلامين كمن يحثو التراب على رأسه . » اهـ.

« وصاحبنا الكاتب داخل علينا يقود رجلاً كالجمل ، على رأسه عِمامةٌ كالهودج . » اهـ.

« وما راعني إلا جنود من البقّ تدبّ إليّ من كلّ ناحية . بقّ

غُذّي أنواع الدّماء حتى اتّسع وانبسط ، وعادت كلّ واحدة منه كطابع البريد . تتبختر على الوسادة تبختر الفقيه في الجنازة . » اه .

« زارني قومسيير المركز فقال : « سلام » ! قلت : « سلام ! » فافترّ ثغره عن تبسامة[1] كأنّها تبسامة الحدث لميت جديد . » اه.

« وأتتها قصائد الصوفية مطوّلةً باردةً ، مظلمةً كليالي الشتاء . »

وله الإشارات اللّطيفة الموجزة :

« فتلطّف في التسليم ، وجلس إلى جانبي مرحّباً ومسلّماً . فلمّا فرغنا من مطارحة الأكاذيب[2] . » اه.

« ثمّ مضى شهران ، وفي أوّل الثالث زُفّت المجهولة إلى المجهول . »

وإنشاؤه على الإجمال موجز ، عصبي النبرات ، ولا سيّما في المواقف العاطفيّة ، وتمتاز أوصافه بما فيها من الخيال الشعري الجميل .

منزلته

كان ولي الدين شهاباً من شهب الحرّية في ليالي الاستبداد ، تألّق نوره على غفلة من الدهر ، فانبسط ، وما كاد حتّى تخطفته الأحداث ، فتجلد لها بجسم كالسيف في مضائه ونحوله . وما زال يدفعها ، وتلقاه حتّى أذابت آخر ذرة من شعاعه ، فغار مشرقها في المغرب تاركة وراءها أثراً رائعاً كذلك الأثر الذي تغادره الشمس بعد الغروب .

كان صحفيّاً في زمن العبوديّة ، زمن كثُر فيه المداهنون والمتملّقون ، فلم يعرف المداهنة والتملّق . بل صارح الظلم بالعداء ، وجاهر بما

١ كذا في الأصل والمراد ابتسامة .

٢ الشخص الذي يسلم عليه لا يعرفه . وإنما أراد هنا إظهار المجاملات الشرقية الفارغة عند التسليم .

لا يروق أصحابه ودافع عن عقيدته الحرّة أنبل دفاع ، فكان عنوان الجراءة والصدق ، يقول كلمته لا يخشى فيها عقاباً ، ولا يرجو بها ثواباً.

وكان مصلحاً في زمن التوت أخلاق مجتمعه ، وطغت عليه الخرافات ، فلم يحجم عن مكافحتها غير مبالٍ ما يلقى دونها من ازورار وإيذاء .

وكان مجدّداً في عهد غلب عليه التقليد ، فثار على سنن المحافظين ، يقول ويكتب كما يريد لا كما يريدون . مستقلّ الرأي بيّن الشخصيّة لا يُصدر إلا عن عقيدة وإخلاص .

وحسبه أن يكون للنهضة صحفيّها الجريء ، وسياسيها الصادق ، ومصلحها الحرّ ، وكاتبها المجدّد . وإذا أعرض عنه أبناء قومه في مصر حيّاً وميتاً ، فإنّ في البلاد العربيّة لقوماً يذكرون ولي الدين .

القصص

مضى لنا كلام على نشأة القصة عند العرب ومنزلتها الأدبيّة ، وكيف أنّه لم تأتنا عنهم قصص راقية الفنّ ، وإنّما جاءنا حكايات ، ومقامات ، وأحاديث[1] . ثمّ كان عصر الانحطاط ، فانحدرت القصة انحداراً مشؤوماً ، وآلت لغتها إلى العاميّة ، أو ما يشبه العاميّة ، وأصبحت عبارة عن تعداد حوادث خارقة يشترك فيها الانس والجنّ ، ولا تصوّر في أكثر وجوهها الحياة الطبيعيّة التي يحياها الإنسان .

على أنّه ما انتشرت الثقافة الغربيّة في القرن الفائت ، واطّلع الكتّاب على القصص الأعجميّة حتى أكبّوا على نقلها . وكان اللّبنانيّون أسبق من غيرهم إلى محاولة هذا الفنّ لتقدّم ثقافتهم . فترجموا قصصاً عن الفرنسيّة والانكليزيّة وسواهما من لغات الغرب . وأشهر مترجميهم سليم البستاني ، ونجيب طِراد[2] ، ونقولا رزق الله[3] ، وطانيوس عبدُه[4] ، ونقولا الحدّاد[5] .

وأنشأوا المجلات القصصيّة ، كمجلّة « الراوي » لطانيوس عبده[6] .

١ ادباء العرب الجزء الثاني .

٢ ولد في بيروت سنة ١٨٥٩ وتوفي بها سنة ١٩١١ .

٣ ولد في بيروت سنة ١٨٦٩ . ورحل إلى القاهرة وانشأ فيها مجلة الروايات الجديدة . وتوفي بها سنة ١٩١٥ .

٤ شاعر كاتب عاش في مصر يشتغل بالصحافة وينشىء مجلة الراوي القصصية . ثم عاد بعد الحرب إلى بيروت ، وظل يحترف الصحافة حتى توفي سنة ١٩٢٦ .

٥ كاتب لبناني رحل إلى مصر وأقام فيها .

٦ أنشأها في بيروت سنة ١٩٠٩ .

ومجلّة « الروايات الجديدة » لنقولا رزق الله[1] . ولم يقتصروا على النقل بل حاولوا الوضع . وكانت سوق القصص التاريخيّة المتعدّدة الحوادث رائجة يومذاك في أوربة ، فنسجوا على منوالها يستمدّون موضوعاتهم من تاريخ الشرق . فألّف سليم البستاني طائفة منها نشرها في « الجنان » مثل : « زنوبيا » . و « بدور » . وجاء بعده جرجي زيدان[2] فواصل الهلال بسلسلة طويلة بناها على تاريخ العرب والاسلام : « كعذراء قريش » . و « غادة كربلاء » . و « فتاة غسّان» . و « العبّاسة أخت الرّشيد » . و « المملوك الشارد » . إلا أن هذه القصص إجمالاً غلبت فيها الصبغة التاريخيّة على الاستنباط والفنّ .وحاولوا أيضاً وضع القصص العصريّة التي تصوّر حياة المجتمع ، ونواحي أخلاقه، وما يحدث عنها من فضائل ورذائل. فوضع سليم البستاني : « بنت العصر ». و « أسماء » ، و « الهيام في جنان الشام ». وكذلك فعل نقولا الحدّاد في « آدم الجديد » و«حوّاء الجديدة » و « أسرار مصر » و « الصديق المجهول » . وهذا النوع غلبت عليه المواعظ ،والدروس الخلقيّة ،والاستنتاجات المنطقيّة ، والآراء الفلسفيّة.

ثمّ عرض المصريّون لهذا الفنّ فكتبوا فيه . وشاع بعد الحرب الكونية شيوعاً عامّاً فشمل مصر ولبنان وسورية والعراق والمهاجرين . وأنشئت له المجلات الخاصّة ، تعنى بالترجمة والوضع . غير أن الكتّاب آثروا في تأليفهم القصة القصيرة ، يحاولون بها غالباً تصوير حياتهم ، أو حياة الإقليم الذي يعيشون فيه . وتظهر هذه العناية خصوصاً عند كتّاب لبنان ومصر . أما القصص الطويلة فلم يُخرجوا منها إلا نزراً يسيراً ، فلذلك ترجى نهضة الأقصوصة قبل نهضة القصة .

١ أنشأها في القاهرة سنة ١٩١٠ .

٢ ولد جرجي زيدان في بيروت سنة ١٨٦١ . درس في الكلية الأميركية . وسافر إلى مصر ، واشتغل بالصحافة . وأصدر مجلة الهلال . ووضع تآليف جمة في التاريخ « والقصص واللغة والعلوم . توفي في مصر سنة ١٩١٤ .

التمثيل

لم يترك العرب في الدولة العبّاسيّة علماً من العلوم اليونانيّة إلا نقلوه واطّلعوا عليه ، واشتغلوا به . ما خلا الادب فإنّهم استغنوا بما لديهم ، فلم تصل إليهم ملاحم اليونان ولا قصصهم التمثيليّة . ولو قدّر لها الوصول لما كان الحكم الإسلامي يومذاك ، وهو فردي مصطبغ بالدين ، يعمل لإحياء التمثيل شأن الكنيسة المسيحيّة في القرون المتوسّطة . لأن التمثيل عندهم تزوير لعظماء الرّجال .

ويدلّ تاريخ هذا الفنّ على أنّه ينتشر غالباً في الحكومات الديمقراطية ، لما فيه من تصوير ونقد للأخلاق والأعمال . وإذا ظهر في حكومة الفرد اقتصر على القصر وإرادة صاحب القصر . وهيهات ظهوره وانتشاره إن لم يكن له حافز من صاحب النهي والأمر .

فلمّا تقدّمت الثقافة الغربيّة في منتصف القرن الحالي ، والتمعت النهضة في لبنان، تصدّى اللبنانيون لهذا الفنّ، وأتحفوا به الأدب العربي . وكان أوّل من عني به منهم مارون النقّاش[1] فمثل رواية «البخيل» سنة ١٨٤٨ . فكانت فاتحة المسرح العربي، وحضرها قناصل الدّول، وكتبت عنها بعض الصحف الأوربيّة .

١ ولد في صيدا سنة ١٨١٧ ، وتعلم في بيروت ، فأحسن العربية والتركية والفرنسية والإيطالية . وبرع في الموسيقى . وكان تاجراً يرحل إلى أوربة . فشاهد التمثيل في إيطالية . فعاد إلى بيروت وأنشأ رواية البخيل ، محتذياً فيها حذو موليار ، وألف فرقة تمثيلية ، ومثلها في بيته . ثم أنشأ داراً للتمثيل . وتابع تأليف الروايات . ومن قصصه المشهورة أبو الحسن المغفل . مات في طرسوس سنة ١٨٥٥ .

ونما حبّ هذا الفنّ في صدور اللّبنانيّين فأقبلوا عليه ينهضونه ، وحفلت به مدارسهم[1] . وحملوه إلى مصر .

وكان إسماعيل قد بنى الأوبرة سنة ١٨٦٩ ، واستقدم إليها فرقة أجنبيّة تمثّل فيها . فلم تشهد مصر التمثيل العربي إلا بعد أن هبطها سليم النقّاش[2] وأديب إسحق ومعهما فرقة لبنانيّة ، فمثّلت في الإسكندرية سنة ١٨٧٦ .

وكان في جملة الفرقة رجل يقال له يوسف الخيّاط ، فاستقل بها ، وشخص إلى القاهرة ، ومثّل في الأوبرة رواية « المظلوم » . وكان إسماعيل حاضراً ، فظنّها تعريضاً به . فتقدم بإخراج الخيّاط وفرقته من مصر . ولكنّها ما خرجت إلا لتضطلع بالعبء بعدها فرقة سورية من دمشق على رأسها أبو خليل أحمد القبّاني[3] . فكان لها أثر حسن في إحياء التمثيل العربي بوادي النيل . ثمّ توالت الفرق اللّبنانيّة والسوريّة على مصر ، إلى أن أنشأ اسكندر فرح فرقته في نحو سنة ١٩٠٤ ، وضمّ إليها المغني الشيخ سلامه حجازي ، فأقبل عليها النّاس دون غيرها ، لحسن غناء الشيخ وجمال صوته .

على أن الفنّ التمثيلي لم يتقدّم إلا في عهد عبّاس الثاني ، بعد أن بعث أحد اللّبنانيّين جورج أبيض إلى فرنسة ليتعلّم أصول التمثيل .

١ كانت الكلية اليسوعية أسبق المدارس إلى هذا الفن . بدأت بتمثيل الروايات العربية منذ سنة ١٨٨٢ . راجع الآداب العربية في القرن التاسع عشر للأب شيخو . ج ٢ . ص ٧٠ .

٢ هو ابن أخي مارون النقاش ، أخذ فن التمثيل عن عمه .

٣ القباني أول من أحيا التمثيل في سورية ، فقد أنشأ في دمشق مسرحاً ، وألف فرقة ، وبدأ يمثل رواياته من سنة ١٢٨٢ هـ . (١٨٦٥ م) راجع خطط الشام لكرد علي ج ٤ . ص ١٤٣ .

فعاد إلى القاهرة ، وألّف فرقة حسنة تعهدها بالتثقيف . فكانت نهضة هذا الفنّ على يده . وخطا المسرح المصري خطوة محمودة ، وتقدم جميع المسارح العربيّة ، ولا يزال .

وكانت المرأة المسلمة لا تشترك في التمثيل رعاية للتقليد . إلا أنّها ما لبثت أن سايرت الزمن في تطوّره ، فأصبح من المسلمات ، ولا سيّما المصريات ، ممثّلات بارعات .

وبينا المسرح المصري يخطو إلى الأمام بقدم ثابتة تدفعه الحكومة ، وتمشي به الفرق المتعدّدة ، وعلى رأسها رجال درسوا أصول الفنّ في أوربة ، كفرقة محمد تيمور ، وفرقة يوسف وهبي ؛ كان المسرح اللّبناني والمسرح السوري يرجعان القهقرى لتضاؤل الفرق التمثيليّة فيهما وتقاعد الحكومات عن مناصرتها . ولولا الفرق المصرية التي تفد إلى لبنان وسورية لما شهدت ملاعبهما تمثيلاً راقياً ، مع أن لهما فضل المتقدّم في إحياء هذا الفنّ .

والكتّاب اللّبنانيّون هم الذين أغنوا المسرح العربي بما ترجموا ووضعوا من الرّوايات في صدر النهضة كمارون نقّاش ، وسليم البستاني ، وسليم النقّاش ، وأديب إسحق ، ونجيب الحدّاد ، ونجيب حُبيقة وسواهم . وإنّه ، وإن لم تبلغ رواياتهم على الجملة درجة الفنّ الرّاقي في الأدب والتمثيل ، لقد كانت غذاء صالحاً لحياة المسرح العربي في أوّل نشأته .

وممّا يؤسف له أن التأليف المسرحي لا يزال إلى يومنا هذا ضعيف الفنّ ، ضئيل الاثر ، سواء فيه الموضوع والمنقول والمقتبس ، فما تقع على رواية راقية إلا في الندرى .

علوم اللغة

كان المشتغلون باللّغة معظمهم لبنانيّون لمضاء عزيمتهم ، وحاجة مدارسهم إلى الكتب الحديثة التي توافق أذواق الطلاب وروح عصرهم . فقام فيهم من يشرح ويحشّي بحث المطالب للسيّد جرمانوس فرحات ، لحسن تبويبه ، وسهولة الأخذ عنه ، وملاءمته للبيئة الاجتماعيّة . فكان من شراحه المعلّم بطرس البستاني ، والشيخ عبد الله البستاني ، والخوري نعمة الله باخوس[1] ، والشيخ سعيد الشرتوني[2] . ووضع الشيخ ناصيف اليازجي كتبه المشهورة كأرجوزته وشرحها في النحو : « نار القرى في شرح جوف الفرا » . وأرجوزته وشرحها في الصرف : « الجمانة في شرح الخزانة » . و « مجمع البحرين » ستّين مقامة في اللّغة وقواعدها ونكاتها . و « عقد الجمان في المعاني والبيان » . و « اللامعة في شرح الجامعة » . وأرجوزة مشروحة في العروض . و « قطب الصناعة في أصول المنطق » . فأغنى المدارس وأفادها أجلّ فائدة . وجاء بعده رشيد الشرتوني[3]، وسعيد الشرتوني ، وجبر ضومط[4] وسواهم . فألّفوا كتباً

١ كان أستاذاً في مدرسة الحكمة ، توفي سنة ١٩٢٩ م ، وكان قد أسن وشاخ .

٢ كان أستاذاً في الكلية اليسوعية ببيروت ، توفي سنة ١٩١٢ عن ٦٣ سنة .

٣ رشيد الشرتوني توفي سنة ١٩٠٦ . علم في الكلية اليسوعية ، وكتب في البشير . من آثاره المبادىء العربية في الصرف والنحو . سلسلة مطردة الصعود بحسب الصفوف .

٤ توفي جبر ضومط سنة ١٩٣٠ . من آثاره فك التقليد في الصرف . والخواطر العراب في النحو والإعراب . والخواطر الحسان في المعاني والبيان .

كثيرة في الصرف والنحو والبيان متسلسلة وغير متسلسلة . وسبق اللّبنانيّون إلى تأليف المعاجم الحديثة ، والبحث في أصول اللّغة وفلسفتها . فوضع المعلّم بطرس البستاني معجمه « محيط المحيط » في مجلّدين كبيرين ، رتبه على اعتبار الحرف الأوّل من الثلاثي المجرّد ، وجمع فيه طائفة حسنة من المصطلحات العلميّة والفنيّة ، والألفاظ العاميّة المفسرة . وجعل له مختصراً في مجلّدين سمّاه قطر المحيط . وحذا حذوه الشيخ سعيد الشرتوني في معجمه « أقرب الموارد » ثلاثة مجلّدات كبيرة؛ ثالثها ذيل استدرك فيه ما فاته في الأولين . والف الشيخ أحمد فارس الشدياق[1] كتابه « الجاسوس على القاموس » انتقد فيه القاموس المحيط للفيروزابادي . والشيخ إبراهيم اليـازجي « نجعة الرّائد في المترادف والمتوارد » . والشيخ عبد الله البستاني معجمه « البستان » في مجلّدين كبيرين ، وجعل له مختصراً في مجلّد واحد سمّاه « فاكهة البستان » . ووضعت معجمات مدرسيّة صغيرة « كالمنجد » للأب لويس معلوف اليسوعي ، و « المعتمد » لجرجي عطيّة .

١ أحمد فارس الشدياق عالم لغوي كبير ، وكاتب متفنن مبتكر ، ولد في عشقوت من لبنان سنة ١٨٠٤ م وكان مسيحياً مارونياً اسمه فارس اتصل بالمرسلين الأميركيين ، وانتحل المذهب البروتستنتي . ثم اتصل بأحمد باشا باي تونس وانتحل الإسلام ، وتسمى « بأحمد ». وطوف في أنحاء أوربة ولا سيما فرنسة وإنكلترة . ثم رحل إلى الآستانة ، وأنشأ جريدته الجوائب . وله مؤلفات جليلة منها لغوية ، ومنها رحلات وصف بها أسفاره وأحوال البلدان ، كالواسطة في أحوال مالطة . وكشف المخبا عن أحوال أوربا . والساق على الساق فيما هو الفارياق . والفارياق لفظة نحتها من فارس الشدياق . وهذا الكتاب فيه لغة واسفار ، وذكر أحوال المؤلف ، وانتقاد القسيسين . وفيه مجون كثير . وكانت وفاة الشدياق في الآستانة سنة ١٨٨٧ م . ونقل رفاته إلى لبنان ، ودفن بالحازمية قرب بيروت .

ووضع أحمد فارس الشدياق كتاب « سر الليّال في القلب والإبدال » بحث تحليلي في اللّغة بناه على الثلاثي المضاعف من الأفعال ليظهر ما بينها من الصلة المعنويّة عند قلبها وإبدالها . وصنّف جرجي زيدان كتاب « الفلسفة اللّغويّة » في أصل اللّغة ونشوئها .

أما سائر اقطار العربيّة فكانت تعتمد في الغالب الكتب القديمة المطوّلة . وربّما عني بعضهم بتحشيتها وشرحها كالشيخ محمّد الدسوقي المصري[1] وله « حاشية الدسوقي على مغني اللبيب[2] » في النحو . و « حاشية الدسوقي على التفتازاني » في المعاني والبيان . إلا أن الكتب العصريّة لم تلبث أن شملت معظم الأمصار ولا سيّما بعد الحرب العالميّة الأولى . وتوفر على تصنيفها الأدباء المسلمون في مصر وسورية والعراق « أسوة بالأدباء المسيحيّين .

١ توفي سنة ١٢٣٠ هـ . (١٨١٥ م) .
٢ مغني اللبيب عن كتب الاعاريب لابن هشام .

العلوم الشرعية

تبدّلت العلوم الشرعيّة في النهضة تبدّلاً محسوساً ، ودخل عليها أنظمة جديدة اقتضتها المدنيّة العصريّة . وكان بدء هذا التطوّر منذ سنة ١٨٥٦ حين شرعت حكومة بني عثمان بإنشاء المحاكم النظاميّة ، فسنّت لها القوانين الحديثة على مثال القوانين الأوربية . إلا أنّها استثنت القانون المدني ، فاستخرجت أحكامه من الشرع في كتاب « المجلّة » مراعية فيه روح العصر .

وعمت هذه الأنظمة جميع الولايات العثمانيّة إلا مصر فإن قضاءها استقلّ من عهد إسماعيل ، ووضعت له القوانين الخاصة مأخوذة في الغالب من القوانين الفرنسية . وكذلك لبنان تبدّلت فيه النظم العثمانيّة بعد الحرب العامة الأولى ووضعت له قوانين جديدة استخرجت من أرقى الأنظمة الأوربيّة .

وكان من أثر إنشاء المحاكم النظاميّة ظهور فنّ المحاماة ، وإنشاء مدارس الحقوق ، وانتشار المجلات القضائيّة . ونبغ جماعة من رجال القانون نذكر منهم أشهر من اتّصلت بنا آثارهم : كقدري باشا[1] ،

[1] مصري تقلب في مناصب الحكومة ، توفي سنة ١٣٠٣ هـ . (١٨٨٥ م) . من آثاره ترجمة قانون الجنايات عن الفرنسية . وكتاب الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية . وقانون العدل والإنصاف على مشكلات الأوقاف .

وأمين الشّميّل[1]، وعمر لطفي[2] ، وفتحي زغلول[3] في مصر . والشيخ يوسف الأسير[4]، وسليم باز[5]، ومخائيل عيد البستاني[6] في لبنان . ومحمود حمزة الحسيني[7] في سورية .

١ لبناني جاء مصر وأصدر فيها مجلة الحقوق سنة ١٨٨٦ . وهي أول مجلة قضائية . توفي سنة ١٨٩٧ . من آثاره الدرة الجلية في المباحث القضائية . وترجمة نظام الحكومة الإنكليزية .

٢ مصري شغل مناصب الحكومة ، ووكالة مدرسة الحقوق . توفي سنة ١٩١٢ . ترك آثاراً في العربية والفرنسية، فمن آثاره العربية: الامتيازات الأجنبية . والوجيز في شرح القانون الجنائي .

٣ ولد بمصر سنة ١٨٦٣ م . وترقى في مناصب الحكومة إلى وكالة نظارة العدلية . وتوفي سنة ١٩١٤ م . أشهر آثاره : شرح القانون المدني . وكتاب المحاماة .

٤ ولد في صيداء سنة ١٢٣٠ ﻫ . (١٨١٥ م) . ودرس في الأزهر ، وعلم في مدرسة الحكمة ببيروت . وتقلب في مناصب الشرع والإفتاء . من آثاره كتاب الفرائض .

٥ لبناني من دير القمر ولد في بيروت سنة ١٨٥٩ . وتلقى علومه في مدرستي غزير وعين ورقة . تولى كثيراً من المناصب الرفيعة في العدلية كالادعاء العام في لبنان ، وعضوية مجلس الشورى في الآستانة . آثاره كثيرة أشهرها شرح المجلة،وشرح قانون المحاكمات الحقوقية ، وشرح قانون المحاكمات الجزائية ، وترجمة قانون الجزاء عن التركية وشرحه . توفي في الحدث ، ودفن بدير القمر سنة ١٩٢٠ م .

٦ هو خال صاحب هذا الكتاب،ولد في دير القمر من لبنان سنة ١٨٦٨م . وتعلم في مدرسة الحكمة . ورغب في الفقه فانصرف إلى دراسته حتى نبغ فيه . تولى المناصب العالية في القضاء اللبناني كمستشارية محكمة التمييز ، ورئاسة محكمة الجنح الاستئنافية ، والادعاء العام الاستئنافي ، ورئاسة استئناف محكمة الحقوق . أشهر آثاره مرجع الطلاب في الفقه ، وترجمة قانون رسم التمغة عن التركية . توفي ودفن بدير القمر سنة ١٩٣٤ .

٧ فقيه من علماء دمشق ، تولى في سورية النيابات الشرعية ، ومنصب الافتاء . آثاره كثيرة أشهرها الفتاوى المحمودية أو الحمزاوية في مجلدين . توفي سنة ١٣٠٥ ﻫ . (١٨٨٧ م) .

العلوم الدخيلة

نشأت الحركة العلميّة في مصر قبل غيرها من الأقطار العربيّة ، واتّسعت دائرتها في زمن قصير . ويعود الفضل في ذلك إلى مساعي محمّد علي ، وإيفاده البعثات إلى أوربة ، وإنشائه عدّة مدارس ، بينها مدرسة الألسن والترجمة . ثمّ ازدادت هذه الحركة اتّساعاً في زمن إسماعيل ، فلم تقتصر على التّرجمة ، بل شملت التأليف . فصار الذين تثقّفوا في أوربة أو مصر يكتفون أحياناً بالاقتباس إذا حاولوا الكتابة في علم من العلوم . فظهر في العربيّة كتب كثيرة بين مترجم وموضوع تبحث شتّى العلوم والفنون ، كالطبّ والطبيعي والرّياضيّات ، والتاريخ والجغرافية ، والقوانين القضائيّة ، والفنون العسكريّة ، والاقتصاد السياسي ، وعلم الاجتماع .

واشتهر من الذين ترجموا وألّفوا في هذه العلوم جماعة منهم رفاعة بك الطّهطاوي[1] ، وأحمد حسن الرّشيدي[2] ، ومحمود باشا الفلكي[3] وسواهم.

١ منسوب إلى طهطا في مصر . ولد سنة ١٨٠١ م . وكان من رجال البعثة الأولى الّتي أوفدها محمد علي إلى فرنسة ، .فتعلم الفرنسية ، ومارس التّرجمة حتّى برع فيها . وله كتب كثيرة مترجمة ومؤلفة تبحث في مختلف العلوم . توفي سنة ١٨٧٣ م .

٢ هو من رجال البعثة الأولى في عهد محمد علي ، طبيب مؤلف ومترجم كتباً كثيرة. توفي سنة ١٨٦٥ م (١٢٨٢ هـ) .

٣ درس في أوربة العلوم الرياضية في زمن اسماعيل ، وترك فيها كثيراً من الآثار . توفي سنة ١٨٨٥ م (١٣٠٣ هـ) .

ولبثت مصر منفردة في الاشتغال بالعلوم حتى نهض رجال البعثات الأميركيّة في لبنان ، وأنشأوا مدارسهم ، وجعلوا العربيّة لغة العلوم فنقلوا إليها كتباً كثيرة في الطبّ والطبيعيّات والرّياضيّات . إلا أنّهم عدلوا عنها بعد حين إلى الإنكليزيّة ، فسكنت تلك الحركة المباركة . وأعظم من خدم العربيّة منهم بمؤلّفاته الدكتور فَنديك[1] ثم الدكتور بُسط[2] .

١ الدكتور كرنيليوس فنديك ، هولاندي الأصل أميركي النشأة ، ولد سنة ١٨١٨ ، وجاء بيروت سنة ١٨٤٠ ، فتعرف بالمعلم بطرس البستاني ، فاصطحبا وبكنا معاً . وتعلم العربية وأتقنها . ثم أنشأ مدرسته في قرية عبيه . وألف الكتب العلمية بالعربية لتدريس الجبر والهندسة والطبيعيات والجغرافية . ولما أنشئت الكلية في بيروت ، جعل أستاذاً للكيمياء والفلك ، فأخذ يؤلف فيهما ويعلم تلاميذه ، فترك آثاراً جليلة تشهد بعلمه وفضله . توفي سنة ١٨٩٥ م .

٢ قدم لبنان سنة ١٨٦٣ م ، وأتقن العربية ، ثم عين أستاذاً في الكلية الطبية . فألف كتباً كثيرة في الطب والتاريخ الطبيعي وسواهما . توفي سنة ١٩٠٩ م .

الكتب الجامعة

لم يعرف صدر الانبعاث من الكتب الجامعة إلا دائرة المعارف[1] للبستاني ، أوّل موسوعة[2] عربيّة ، اضطلع بعبئها الأفراد ، مع أن هذا العمل الجبّار لا يقوم به إلا الجماعات . والدائرة تشتمل على كلّ فنّ ومطلب من تاريخ وآداب وعلوم . مرتبة على أوائل الحروف . أصدر منها المعلّم بطرس البستاني ستّة أجزاء ، عاونه فيها ابنه سليم . وكان قد أعدّ بعض السابع فأدركته الوفاة ، فأتمّه سليم وأتبعه بالثامن . ثمّ توفي سليم ، فواصل العمل أخواه ونسيبهما سليمان ، فأخرجوا التاسع والعاشر والحادي عشر . وهذا ينتهي بكلمة « عثمانيّة » ثمّ انقطع العمل . ويتولّى اليوم تجديدها فؤاد افرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانيّة يعاونه فيها جلّة من العلماء المتخصّصين . وقد صدر منها الجزء الأوّل في السنة ١٩٥٦ مشتملاً على دراسات جليلة ، تبتدىء « بالهمزة » وتتناول بعدها الكلمات التي أوّلها ألف ممدودة . ويصدر الجزء الثاني قريباً مبدوءاً بلفظة « أب » .

وتعنى مصر بنشر دائرة المعارف الإسلاميّة ، منقولة عن الانكليزية ، مكتوبة مباحثها بأقلام كبار المستشرقين . وربّما علق بعض أدباء المسلمين على هذه المباحث.

١ دائرة المعارف : لفظة اختارها المعلم بطرس ترجمة لمعنى « انسيكلوبيديا » .

٢ موسوعة : لفظة اختارها الشيخ ابراهيم اليازجي لدائرة المعارف .

التاريخ والرحلات

كان التاريخ في بدء النهضة ساذجاً خالياً من الفنّ شأن التواريخ العربيّة القديمة . وكانت لغته أقرب إلى العاميّة منها إلى الفصحى ، ولنا أمثلة على ذلك تاريخ الجَبَرتي[1] . وتاريخ نابوليون وتاريخ الجزّار لنقولا الترك . وتاريخ الأمير حيدر[2] . وأخبار الأعيان في تاريخ لبنان لطنّوس الشدياق[3] . وتُرجم كثير من التواريخ في عهد محمّد علي ، نقلها رجال البعثات العلميّة بعد رجوعهم من أوربة ، كالطهطاوي وأصحابه . وكان من فوائد اتصال الشرق وسائر الدول العربيّة بالغرب ، واستقلال مصر ، أن تتابعت أسفار الكتّاب إلى البلاد الأوربيّة والمصريّة وغيرها ، فاصطبغ التاريخ بألوان الرواية العيانية ، فكتبت عدّة رحلات منها رحلات شهاب الدين الألوسي[4] وإبراهيم النجّار[5] ، ومحمّد بيرَم

١ هو عبد الرحمن الجبرتي المصري ، عاصر حملة نابوليون ، وشطراً كبيراً من ولاية محمد علي ، ودون في تاريخه أهم الحوادث التي مرت به . واسمه عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، أربعة مجلدات . توفي الجبرتي سنة ١٢٤٠ ﻫ . (١٨٢٥ م) .

٢ الأمير حيدر أحمد الشهابي ، وتاريخه يبتدىء بظهور الإسلام . وكانت وفاته سنة ١٨٢٨م.

٣ ولد طنوس الشدياق في الحدث قرب بيروت ، ودرس في عين ورقة ، وعين قاضياً على نصارى لبنان . توفي سنة ١٨٣٥ . وتاريخه هذا يبحث جغرافية لبنان وأنساب أعيانه ، وأخبار ولاته .

٤ هو محمود شهاب الدين الألوسي ، ولد في بغداد سنة ١٢١٧ ﻫ . (١٨٠٢ م) . وبها توفي سنة ١٢٧٠ ﻫ . (١٨٥٤ م) . رحل إلى الآستانة وسواها ، وكتب أخبار أسفاره في عدة مصنفات . منها « رحلة الشمول ، في الذهاب إلى اسلامبول » .

٥ ولد بدير القمر سنة ١٨٢٢ . ودرس الطب في قصر العيني . ثم رحل إلى الآستانة ، وتعاطى ←

التونسي[1] ، وفرنسيس المراش[2] ، وأحمد فارس الشدياق .

وتقدّم فنّ التاريخ في أواخر القرن التاسع عشر ، بتقدّم الثقافة الغربية ، وتأثير المستشرقين ، فعرف طائفة من المؤرّخين المحقّقين ، كالمطران يوسف الدّبس[3] ، وجميل المدوّر[4] ، وجرجي زيدان[5] . واطرد تقدّمه في القرن العشرين، إلا زمن الحرب الكونيّة الأولى فإنّه لم يصنف شيء يستحقّ الذكر غير تاريخ لبنان وضعه جماعة من ذوي الاختصاص، دعاهم إلى وضعه المتصرّف إسماعيل حقي بك،فجاء أحسن ما كتب في هذا الباب .

ثمّ عاود هذا الفنّ سيره بعد الحرب ، فظهرت فيه مؤلّفات حسنة كتاريخ الصحافة العربيّة للفيكونت فيليب دي طرازي . وخطط الشام لمحمد كرد علي ، وتاريخ نجد لأمين الرّيحاني . وله في الرّحلات ملوك العرب وقلب لبنان وقلب العراق. وحياة محمّد للدكتور محمد حسين هيكل.

بها الطب مدة ، ثم عين رئيس أطباء العساكر العثمانية في بيروت . ثم رحل إلى أوربة ثم عاد إلى بيروت وأنشأ بها المطبعة الشرقية ، ونشر رحلته ، وتاريخ آل عثمان في كتاب سماه المصباح الساري . توفي سنة ١٨٦٤ م .

١ ولد بتونس سنة ١٢٥٦ هـ . (١٨٤٠ م) . وتوفي بمصر سنة ١٣٠٧ هـ . (١٨٨٩ م) . تولى نظارتي المطابع والأوقاف في تونس ، والقضاء في المحكمة الابتدائية بمصر . من آثاره صفوة الأخبار بمستودع الأمصار ، فيه تاريخ تونس ، وأخبار رحلاته إلى أوربة .

٢ ولد بحلب سنة ١٨٣٦ ، ودرس الطب ، ثم رحل إلى باريس ليتم علومه ، وعاد منها وقد ضعف بصره . من آثاره ، رحلة إلى باريس وصف بها سفره . وكان ينظم الشعر ويطلب به أغراضاً جديدة . توفي سنة ١٨٧٣ .

٣ هو رئيس أساقفة بيروت الماروني ، ومؤسس مدرسة الحكمة . من آثاره تاريخ سورية في تسعة أجزاء ، وتاريخ الموارنة . توفي سنة ١٩٠٧ .

٤ أديب لبناني نشأ في بيروت، واستوطن مصر . وتوفي سنة ١٩٠٧ . أشهر آثاره حضارة الإسلام في دار السلام،تاريخ طريف الأسلوب في الأدب العربي، كتبه بلسان رحالة فارسي قدم بغداد على عهد الرشيد فوصف أحوال الدولة العباسية متناولا السياسة والأدب والاجتماع.

٥ أشهر آثاره التاريخية : تاريخ التمدن الإسلامي ، خمسة أجزاء ، وتاريخ مصر الحديث جزءان ، وتاريخ مشاهير الشرق جزءان ، وتاريخ العرب قبل الإسلام .

الأدب والأدباء

كان من أثر الثقافة الغربيّة في المشارقة أن نشط الكتّاب إلى الدراسات الأدبيّة في أواخر القرن الماضي ، يحتذون مثال نقاد الغرب ، ويطبعون في تحقيقاتهم على غرار المستشرقين . فظهرت مقدّمة الالياذة لسليمان البستاني سنة ١٩٠٤ م وفيها دروس تحليليّة ، ومقارنات ، واستنتاجات ، فكانت فاتحة النقد الحديث . وستتكلّم عليها في غير هذا المكان . وتلاها تاريخ الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر للأب لويس شَيخو[1] وتاريخ آداب اللّغة العربيّة لجرجي زيدان[2] . إلا أنّهما قصرا الدرس والتحليل على الميزات العامّة في كلّ عصر . ولم يعرضا لدرس آثار الشاعر أو الكاتب ؛ فجاء عملهما من هذه النّاحية ناقصاً .

وأصاب الأدبَ فتور في الحرب الكونية الأولى كما أصاب غيره من الفنون . ثمّ جدّد نشاطه بعدها ، وانتحى نواحي طريفة . منهـــا دراسة خاصّة لكلّ كاتب أو شاعر ، كابن الرّومي لعبّاس محمود العقّاد ، وحديث الاربعاء لطه حسين ، والرّوائع لفؤاد افرام البستاني

١ الأب لويس شيخو اليسوعي ، ولد بماردين سنة ١٨٥٩ . وتوفي ببيروت سنة ١٩٢٧ . كان قيم المكتبة الشرقية في جامعة القديس يوسف ، ومدير مجلة المشرق . نشر وألف كتباً كثيرة ، منها مدرسية ، ومنها تاريخية ، ومنها أدبية ، ومنها دينية ، ومنها جدلية . نشر كتابه الآداب العربية في القرن التاسع عشر سنة ١٩١٠ م . وأتبعه سنة ١٩٢٦ بآخر عنوانه الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين .

٢ ظهر الجزء الأول من تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان سنة ١٩١١ م . وأتمه أربعة أجزاء نشر الرابع منها سنة ١٩١٤ . وهي السنة التي توفي بها .

ومنها دراسة شاملة لأدب عصر بكامله ، كالأدب الجاهلي لطه حسين ، والنثر العربي في القرن الرابع للهجرة لزكي مبارك : ومنها دراسة تامّة لتاريخ الأدب في عصوره ، كتاريخنا هذا ، فإنّه أوّل كتاب من نوعه ، أسهب في نقد آثار الأدباء وفي تحليل ميزات العصور الأدبيّة والتاريخيّة . فأفضت هذه الدراسات إلى نهوض النقد الأدبي وارتفاع شأنه . فتبدّلت أوجه النظر إلى الشعر والشعراء ، والتصنيف والمصنّفين . ومضى زمن كان يقال فيه لكلّ قصيدة عصماء ، ولكلّ كاتب نحرير . فهبط أدباء حالفتهم الشهرة الكاذبة ردحاً ، ولم يثبت إلا أصحاب الأدب المتين .

بيد أن النقد لم يسلم من النقائص ، فهو في الغالب أسير العاطفة ولا سيّما مع الأحياء ، تلطّفه المراعاة إذا اعترضته الصداقة ، ويعنف به التحامل إذا قاده الجفاء . ولو اقتصرت صناعته على الأدباء دون غيرهم لهان الأمر لأن الأديب الصحيح مهما ساورته العاطفة لا تفسد عليه ذوقه ولا تخدعه عن أدبه . ولكن هناك طائفة من المتأدّبين صادفوا من الصحف ظمأً إلى المباحث الأدبيّة لرواج سوقها وإقبال المدارس في لبنان وسورية ومصر على تدريس الأدب العربي . فانبروا ، قبل أن ينضج أدبهم ، وتستوسق لهم ملكة النقد ، يروزون الكتّاب والشعراء ، ويحتكمون في أقوالهم ، احتكاماً يخالطه السرف والعنت ، بل أصبح كلّ كاتب ، وحامل قلم يرى من تمام ثقافته أن يجعل من نفسه ناقداً ، يبدي رأيه في الأدب ، وإن لم يكن صاحب نقد يعول على آرائه . فمنهم من يذهب به الغرور إلى أن يتكلّم على الأدباء الأقدمين وهو لا يعرف عنهم إلا ما التقطه التقاطاً من الأفواه . أو أن يدلّ على الشعر بأحكامه ، وهو غريب عنه لا ينظمه ، ولا يرويه ، ولا يحسن تلاوته وتذوق موسيقاه .

ومنهم من لا يفهم من النقد غير تطبيق القواعد المدرسيّة ، كأنّها منزلة من السماء ؛ فيجعل نفسه دونها ، آلة متحركة لا إرادة لها . أو أن يغير على أقوال الآخرين ، فيتوسّع فيها ، وينتحلها غير متأثم .

ومنهم راغب في الشهرة لا يجدها إلا في مهاجمة أديب مشهور في الأحياء ، ليذكر اسمه بجانب اسمه . أو شعوبي وقاح يتنقص الأدب العربي لا يجد فيه فضيلة تحمد ، ويقدّس الأدب الغربي ؛ فيرى أدنى شاعر عجمي أرفع من شعراء العرب كلّهم . وهو لو درس أدب العرب درساً صحيحاً ، لبدل من آرائه ولكنّه جهله فعاداه . والإنسان عدوّ لما يجهل .

ومنهم من لا يطيب له النقد إلا إذا أصاب من ينتقده في عرضه ، أو في أخلاقه ، وهذا نقد متهافت مذموم لا يسلم صاحبه من ارتداد الشرّ إليه .

فهذه النقائص في النقد أشاعت الفوضى في الأدب الحديث ، وجعلته محموماً شديد الغليان ، حائراً لا يهتدي إلى الطريق السوي ، شأن كلّ أدب جديد لا تستقرّ له حال إلا بعد أن تكتمل ثقافة أصحابه ، وتتفر لهم التربية الأدبيّة الصحيحة . وهو ، لا بدّ ، واصل إلى هذه الغاية ، لاطراد تقدّم الثقافة ، ونشاط الحياة الأدبيّة . فهذه الحركة المتّسعة محمودة العواقب ، على ما فيها من فوضى وغليان ، لأنّها سائرة سيراً حثيثاً إلى الأمام ، لا تصدّها العوائق ، وإنّما هي تتبّع سنّة النشوء والارتقاء .

سليمان البستاني

١٨٥٦ — ١٩٢٥ م و ١٢٧٣ — ١٣٤٤ هـ

حياته

هو سليمان بن خطّار بن سلّوم بن نادر البستاني ، وأمّه مريم بنت الخوري جرجس البستاني . وُلد في إبْكَشْتِين ، قرية في الشوف من لبنان . فلمّا بلغ السابعة دخل المدرسة الوطنيّة في بيروت لصاحبها المعلّم بطرس البستاني ، ولزمها ثماني سنوات حتّى تضلع من العربيّة والانكليزيّة والفرنسيّة . وحذق الطبيعيّات والرّياضيّات والتاريخ والجغرافية . وفاز بالشهادة النهائيّة . فاحترف التعليم ، وكتب في الجنّة والجنان والجنينة ، غير منقطع عن المطالعة ، والتبحّر في العلوم والآداب ، والتزيّد في اللّغات . فطارت له شهرة ، وهو في حدود العشرين ، فدعي إلى البصرة لإنشاء مدرسة فيها . فرحل إليها ، وتولّى أمر المدرسة سنة ، ثمّ اتّخذ بغداد له مقرّاً ، وجُعل عضواً في المحكمة التجاريّة ، ومديراً لبواخر عُمان والبصرة .

وأقام في العراق ثماني سنوات ، رحل في خلالها إلى بادية العرب ، وطوّف بالمواضع الّتي تغنى بها الشعر القديم ، واطّلع على أحوال البدو وعاداتهم . ووصف رحلته هذه في كتاب لم يطبع بعد .

ثمّ آب إلى بيروت ، وسافر إلى الآستانة ، ثمّ إلى مصر ؛ ثمّ طرق الهند وأطراف العجم ، ثمّ قفل إلى بغداد سنة ١٨٨٨ م فتزوّج فيها .

ومكث زهاء سنتين . ثمّ قصد إلى الآستانة وأقام بها سبع سنوات كان يتنقّل في أثنائها بين الشرق والغرب . فحيناً بسورية ولبنان ، وحيناً بأوربة وأميركة . وعاد إلى مصر سنة ١٨٩٦ ، وشارك في تصنيف الجزئين العاشر والحادي عشر من دائرة المعارف . ثمّ نشر إلياذة هوميروس سنة ١٩٠٤ .

ولما نودي بالدّستور سنة ١٩٠٨ رجع إلى وطنه ، فاختارته بيروت مبعوثاً عنها في المجلس العثماني ، وانتخبه المجلس رئيساً ثانياً له سنة ١٩١٠ . وانتدبته حكومة السلطان إلى أوربة غير مرّة في مهمّات رسميّة . فقابل الملوك والرّؤساء وعظماء الدول ، وفضّ المشاكل السياسيّة الخطيرة . فجعله الخليفة محمّد رشاد عضواً في مجلس الأعيان ، ثمّ عهد إليه في وزارة التجارة والزّراعة سنة ١٩١٣ . فلمّا استعرت الحرب العالميّة ، حاول أن يردّ الحكومة عن خوض غمارها ، إشفاقاً على مصير الدّولة ، فخالفه الحزب العسكري ، فاستقال من الوزارة ، وسافر إلى سويسرة سنة ١٩١٤ ، وأقام بها خمس سنوات ، يخدم مصالح دولته . ثمّ جاء مصر واتخذها مقاماً حتّى سنة ١٩٢٤ ، فأبحر إلى نيويرك مستشفياً من ماء في عينيه ، فاحتفى به المهاجرون ، وعقدوا له حفلات التكريم . بيد أنّ الطبّ لم ينجع فيه ، ففقد بصره ، ثمّ سطت عليه يد المنون ، فأخمدت ذلك النور المتألّق في غرّة حزيران سنة ١٩٢٥ . وحمل جثمانه إلى الوطن في ٨ تمّوز . فكان له في نيويرك وداع فخم ، مشى به المهاجرون والأميركيّون في مقدّمتهم رجال الحكومة . واستقبلته بيروت في ٦ آب فكانت له مناحة وطنيّة لم تبقَ جمعيّة خيريّة على اختلاف الأديان والنحل إلا شاركت فيها . ومشى فيها رجال الحكومة ومجلس النوّاب ودار

الانتداب . وعقدت حفلة التأبين مساء اليوم نفسه في مدرسة الأحد الأميركيّة . وفي الغداة نقل الجثمان إلى ابكشتين مسقط رأسه ودفن بها .

صفاته واخلاقه

عُرف سليمان بشدّة العزم ومضاء الهمّة وحبّ الأسفار . وعرف بسعة الصدر ، وحسن المعاشرة على هيبة ورزانة . وعرف بإخلاصه الخدمة للدّولة العثمانيّة ، والولاء للأمّة العربيّة ، والعصبيّة للوطن اللّبناني . فلطالما عهدت إليه حكومة السلطان في الأمور الخطيرة ، فلاقت النجاح على يده . ولو وافقته على اتّباع خطّة الاعتزال في الحرب الكبرى لما انهار عرش بني عثمان . ولطالما ساعد العرب ودافع عن حقوقهم في المجلسين والوزارة . ولم ينسَ لبنانيته في جميع أطوار حياته . فقد كان لبنان قبلته ،ومصطافه،ومرجع حنينه . وحاولت الحكومة العثمانية حمله على أن يسعى لإقناع اللبنانيين بترك حماية الدول الأجنبية والاكتفاء ببني عثمان، على أن يكون هو حاكم الجبل،فرد طلبها وأبى أن يساوم على وطنه .

وعُرف بإباء النفس والزهد في المال والألقاب . فإن المشاكل المالية التي فضّها لم تقوَ على إغرائه فيجمع منها ثروة كما جمع سواه . وكان مركزه في الوزارة يخوّله حق التمتع بالألقاب الضخمة ، ولكنه كان يرفضها كلما عرضت عليه .

وعُرف بقوّة الحفظ والاستظهار ، حدّث عن نفسه أنّه استظهر في صغره وهو في المدرسة نشيداً كاملاً ونصف نشيد من ملحمة ملتُن في الفردوس الغابر ، وقسماً غير يسير من منظومة سيدة البحيرة لولترسكُت. وحفظ ألفية ابن مالك كلّها ، وأنشد منها مائتي بيت تباعاً في حفلة امتحان[1] . وقوّة حافظته ساعدته على درس طائفة من اللغات .

[1] راجع مقدمة الالياذة ص ٤٠ .

علومه

حُقّ لسليمان أن يحمل لقب العالم كما حُقّ له أن يحمل لقب الأديب . فقد كان راسخ العلم بالتاريخ والجغرافية ، والاقتصاد السياسي ، بارعاً في الطبيعي والرياضيات . وكان متّسع الآفاق في أدبه ، لا يقصره على العربية وحدها بل يجمع إليه معها آداب الشعوب العجمية لطول باعه في معرفة اللغات .

وقلّما وجد مثله عالم باللغات ، يعرف منها ما يعرف ، ويتقن منها ما يتقن . فقد كان يحسن العربية ، والسريانية ، واليونانية ، والفارسية . واللاتينية ، والإنكليزية ، والفرنسية ، والإيطالية ، والتركية . وكان يلمّ بالعبرية ، والألمانية ، والروسية ، والهندية . وكثيراً ما خطب في المجلس العثماني بعدة لغات ليفهم أقواله النواب على اختلاف عناصرهم وبلادهم .

آثاره

كادت حياة البستاني تتوزعها السياسة والأسفار ، فقليلاً ما كان يستقرّ ويفرغ للتأليف . وصرف همّه إلى الأعمال العظيمة التي تتطلّب العناء الشديد والوقت الطويل ، كدائرة المعارف والالياذة ، فحالت دون فيض نتاجه ؛ فجاء نزراً بالاضافة إلى توقد خاطره ، وتبحره في العلوم ، وتثقفه بمختلف الآداب . على أنّه ترك من الآثار الخالدة ما ينطق بفضله وسعة مداركه . فله في الشعر نظم الالياذة[1] وقصائد ومقطعات مختلفة

١ ابتدأ البستاني بنظم الإلياذة في أواخر سنة ١٨٨٧ ، وكان يومئذ في القاهرة ، فصنع شيئاً منها ، مستنداً إلى الترجمات الفرنسية والانكليزية والإيطالية . ثم آثر أن ينقلها عن أصلها اليوناني ، فدرس اليونانية على راهب يسوعي حتى أحكمها ، فراجع ما كان ترجمه ، ←

أشهرها الداء والشفاء وهما قصيدة وموشحة نشرتا معاً ، قالهما في سويسرة ، نظم الأولى في أثناء مرضه سنة ١٩١٨ فوصف آلامه وصفاً دقيقاً ، وحنّ إلى وطنه لبنان . ونظم الثانية في شفائه سنة ١٩١٩ فوصف طبيعة سويسرة ، ونافسها بطبيعة لبنان ، وفيها حنين شديد إلى الوطن .

ونقح ما فيه من الخلل . وكانت الإلياذة ترافقه في أسفاره الكثيرة ، فيشتغل بها على رؤوس الجبال ، ومتون البواخر ، وقطارات سكك الحديد ، فجاءت وليدة أقطار العالم الأربعة . وكثيراً ما كانت الأسفار والمشاغل تضطره إلى إهمالها فيطويها برهة ، ثم يعود إليها ، حتى انتهى من نظمها سنة ١٨٩٥ وهو يصطاف في فنار باغجه من ضواحي الآستانة . ثم اهتم بوضع الشرح لها فكان عمله شاقاً راجع من أجله كثيراً من الكتب العربية والعجمية في الشعر والأدب والتاريخ . ويتضمن هذا الشرح نحو ألف بيت لمائتي شاعر عربي بين جاهلي ومخضرم ، وإسلامي ومولد ، قالوا في مثل معاني الإلياذة أو حوادثها . ويشتمل على طائفة حسنة من أساطير العرب وعاداتهم ، وأخلاقهم وآدابهم في بداوتهم وحضارتهم . وكان انتهاؤه منه سنة ١٩٠٢ . وطبعت الإلياذة وشرحها في القاهرة في ربيع سنة ١٩٠٣ ، فحمل الكتاب إلى لبنان فصاف وكتب معجماته اللغوية والتاريخية . ولما عاد إلى مصر أخذ في إنشاء المقدمة . ونشرت الإلياذة بمنظومها وشرحها ومقدمتها ومعجماتها وفهارسها سنة ١٩٠٤ .

والإلياذة تشتمل في الترجمة على نحو أحد عشر ألف بيت، وهي في الأصل اليوناني بين الستة عشر ، والسبعة عشر ألف بيت . لأن البحور العربية ولا سيما الكثيرة الأجزاء تستوعب أبياتها من المعاني ما لا تستوعبه الأبيات اليونانية . ومعلوم أن الاضطلاع بنظم القصائد الطويلة أمثال الإلياذة لا يستقيم لصاحبه إلا إذا تحرر من عبودية الوزن الواحد والقافية الواحدة . وهكذا صنع البستاني فإنه جعل الأناشيد على طرق متنوعة ، فمنها ما قطعه قصائد مختلفة ، ومنها ما نظمه قصيدة واحدة دون أن يراعي القافية الواحدة . ووسع لنفسه في اتخاذ الموشحات والأراجيز والمخمسات ، وفي استنباط ضروب جديدة كالمثنى والمربع والمثمن ، وما أشبه . وحاول ما أمكنه أن يراعي لكل ضرب مقاماً ، ولكل موضوع بحراً . وشعر الإلياذة على الجملة رصين محكم النظم ، وربما ارتفع في مواطن إلى أسمى درجات الجمال .

وله في النثر ممّا طبع ، مقدمة الالياذة ، وستتكلّم عليها . والجزآن العاشر والحادي عشر من دائرة المعارف ، عاونه فيهما نجيب ونسيب ولدا المعلّم بطرس البستاني . وله مباحث جليلة في الأجزاء الأخرى . وكتاب عبرة وذكرى يبحث الأحوال السياسية قبل الدستور العثماني وبعده . وطريقة الاختزال العربي دوّن مقتطفاً منها في الجزء التاسع من دائرة المعارف بعنوان « ستينوغرافيا » ، ثم نشرها على حدة . ومقالات في الصحف العربية والفرنجية .

وله من غير المطبوع ، تاريخ العرب . ورحلاته . وذكريات .

ميزته

لا نحاول أن نحلّل في هذا البحث ، ميزة البستاني من نواحي الشعر والعلوم والسياسة ، بل نحن مقتصرون على ناحيته التاريخية الأدبية في مقدمة الالياذة ، وما كان له من أثر بليغ في صناعة النقد الحديث . ولهذا آثرنا أن نبني الكلام على ميزة المقدمة ومنزلتها ، لا على ميزة صاحبها ومنزلته .

أغراض المقدمة

تقع المقدمة في مائتي صفحة كبيرة مضمومة إلى أشعار الالياذة ، قسّمها المؤلف خمسة أقسام أو أربعة فصول وخاتمة . فالأوّل في اسم هوميروس ولقبه ، ثمّ في نسبه ومولده وحياته وموته ومنزلته . والثاني في الالياذة وموضوعها ونظمها وتناقلها ، وفي حفّاظ الشعر عند الأمم عموماً وعند العرب خصوصاً . ثمّ في جمعها وكتابتها ، والقول في سلامتها من التحريف . ثمّ في المذهب الوُلفي والردّ عليه . ثمّ في سبب حياتها وخلودها . ثمّ في إغفال العرب نقلها إلى لغتهم . والثالث في نقلها إلى

العربية وحكاية ناقلها ، والأوزان والضروب التي نظمت عليها . والرابع في الالياذة والشعر العربي ، وهو أكبر الأقسام ، تكلّم فيه المؤلف على الشعر القديم وأصله وسبب طموسه،وعكاظ وتأثيرها ، والقرآن وفضله . ثمّ قارن لغة قريش بلغة الالياذة ، وكيف عاشت الأولى وماتت الثانية . وبحث في أطوار الشعر العربي ، أو طبقات الشعراء في مختلف العصور ، فحلّل ميزة كلّ طبقة منهم منذ الجاهلية إلى عهد المحدثين ، وأورد مختاراً من شعرهم . ثمّ ألمع إلى مغامز الشعر العربي ، ومناهج المولدين في أبواب الشعر وفنونه . وذكر علوم الأدب التي تلازم الشعر كالعروض والبديع والبيان . وانتهى إلى الكلام في شعر المحدثين أو المتأخرين ؛ فبيّن جمودهم وتقليدهم ، وأسباب الضعف والانحطاط في شعرهم . ثمّ بحث الملاحم وضروب الشعر عند الفرنجة ، وقارن ملاحم الأعاجم بملاحم العرب من الشعر الجاهلي وجمهرة أشعار العرب . ثم نظر في جاهلية العرب وجاهلية اليونان ، ثمّ في ملاحم المولدين ، ثمّ في الحقيقة والمجاز ، وما يتصل بالمعاني الشعرية من التشبيه والكناية والاستعارة والبديهيات . وما يعدو عليها من النقل والسرقة وتوارد الخاطر . وما يطرأ من التغيّر ، وما يستحسن منها وما يستهجن بفعل الحضارة .

والقسم الخامس أو الخاتمة في اللغة العربية واللغة اليونانية ، واتّساع لغة العرب وثروتها ، وكثرة مترادفاتها ، وتعدد المعاني للفظ الواحد ، وفائدة ذلك وضرره . وأسباب ضعفها في تأدية المعاني المستحدثة ، كالتعابير العلمية ، والصناعية، والسياسية . ثمّ في ما هو الداء والدواء ، والنهضة الحديثة ، ومستقبل اللغة والشعر .

وهذه الأقسام تشتمل في مختلف أغراضها على طرق النقد الحديث

وما يتخلّله من تحليل وتعليل وفلسفة واستنتاج . وتشهد بسعة مدارك البستاني ، وتبسطه في آداب العرب واليونان . وبحسبك أن تعود إلى رده على المذهب الولفي[1] ، ثمّ إلى كلامه في اغفال العرب نقل الالياذة ، ثمّ إلى بحثه في جاهليّة العرب وجاهليّة اليونان ، لتتبيّن بُعد غوره ، ودقّة نظره ، وحسن تعليله ، وبراعة استنتاجه .

والمذهب الولفي يريد أن يجعل الالياذة قصائد متفرّقة لطائفة من الشعراء . فعرض البستاني لتفنيده محاولاً أن يثبت وحدة الناظم ووحدة المنظومة ، فيدحض مزاعم ولف وأصحابه . فاعتمد طريقة تحليلية بارعة أوصلته إلى الغاية التي يسمو إليها . فتفحص أوّلاً نعوت أشخاص الالياذة وأوصافهم فاتّضح له أنّها واحدة في جميع الأناشيد ، بحيث لا يصحّ هذا الاتّفاق إلاّ لناظم واحد . ثمّ نظر في الأماكن الجغرافية التي ورد ذكرها في الملحمة ، فرأى أن الناظم لا يناقض نفسه بكلمة ممّا وصف به هذه الأماكن . ثمّ تتبع أجزاء الالياذة ، ودقّق النظر في ارتباطها وتماسكها ، فتبيّن له : « أن ناظم النشيد الأوّل إنّما هو ناظم النشيد الأخير . فكأنّما هي مرقاة يصعد بك صاحبها درجة بعد أخرى حتى تستقرّ في آخرها ، وأنت متبيّن كلّ ما وراءك[2] » . ثمّ بحث فلسفتها وآدابها فاستنتج أنها من روح شاعر واحد في أخلاقه وآداب نفسه . فأثبت بذلك كلّه وحدتها ووحدة الشاعر .

1 ولف عالم ألماني (١٧٥٧ – ١٨٢٤) ذهب إلى إنكار هوميروس زاعماً أنه شخص وهمي خلقته مخيلة الشعراء ، وأن الإلياذة وسائر شعره قصائد متفرقة لشعراء كثيرين ضاعت أسماؤهم .

٢ مقدمة الإلياذة ص ٥٤ .

وكذلك في كلامه على إغفال العرب نقل الالياذة : فإنّه لم يقنع بتدوين الخبر المجرّد شأن المؤرّخ الساذج بل عمد إلى تعليله وبيان أسبابه . فإذا هي الدين ، وإغلاق فهم اليونانيّة على العرب ، وعجز النقلة عن نظم الشعر العربي .

ثمّ تلك النظرة الشاملة التي جمع بها جاهليّة العرب وجاهليّة اليونان ، فقارن فيها المواقف التي قيل فيها الشعر الجاهلي بالمواقف التي قال فيها هوميروس الياذته ، وعارض أحوال الشعب العربي بأحوال الشعب اليوناني ، وبيّن كيف يتشابهان في اللّباس ، وطرق المعاش ، والسذاجة الفطريّة وغير ذلك .

ثمّ تكلّم على الملاحم ، وخلوّ الشعر العربي من قصيدة طويلة كالالياذة ، فقال ان العرب :

« لم يتخطّوا في شعرهم إلى ما وراء الطبيعة ، وكانوا مع عبادة الأصنام يميلون إلى التوحيد ، وكان التسليم للأحكام العُلوية من سُنَنهم قبل الإسلام ، فلم يوغلوا في التخيّلات الشعريّة إلى النظر في أحوال الآلهة وما يترتّب على ذلك من تفرّع البحث الواحد إلى أبحاث متعدّدة على ما هو شأن الأمم الآريّة ... وإذا نظرت إلى حالة اليونان بما كانت عليه ، مع تلك الخشونة ، من الانتظام والدُّرْبة ، رأيت أنّهم كانوا أيّام حرب طروادة أقرب شبهاً بالعرب في أيّام الخلفاء الرّاشدين . ثمّ كانوا أيّام هوميروس أي في زمن نظم الالياذة قد بلغوا من الحضارة مبلغاً لم يكن للعرب في جاهليتهم منه إلا النزر اليسير . فلم يسع أبناء الجاهليّة أن يتجاوزوا بنظمهم أحوال فطرتهم ، وطرق معاشهم ، فكانوا ينتقلون بالشعر من باب إلى آخر انتقالهم من حيّ إلى حيّ ، يجيدون في كلّ ما يقولون ولكنّهم لا يُطيلون المقام فلا يُشيّدون المنازل الفسيحة الأركان . » اهـ.

اسلوبها الانشائي

كتب البستاني مقدّمته بأسلوب علمي يلائم النقد الأدبي والفقه التاريخي . أسلوب إنشاؤه رصين عارٍ لا وشي فيه ولا صور خيالية . وإذا عرض شيء من ذلك ، فإنّه لأبعد من أن يأتي متكلّفاً ، وإنّما هو يجري مع الطبع المسماح في سياق تركيب الجمل . أو هو من ذاك النوع الملهم يهبط به الوحي المجرّد فيجعل منه سجعاً أو جناساً أو صورة دون أن يكون للكاتب يد متعمّدة أمر تنزيله .

أسلوب يسير هادئاً مترفقاً لا صوت له ولا قعقعة ؛ إلاّ رقرقة خفيّة كجرس الماء في الجدول المستقيم المعبّد . أسلوب حافل بفلسفة النقد والتاريخ ، وبالأدلّة العقلية والتعليلات المنطقية ، إلاّ أنّه واضح كل الوضوح منسجم كل الانسجام ، خالٍ من الغموض والالتباس ، وتداخل الجمل التي تفصل ما قبلها من المعاني عمّا بعدها . فيه مرونة عجيبة تجعل الألفاظ ليّنة الجانب تقبل أدقّ المباحث وأعمقها ، وأعلقها بالعقل والمنطق ، دون أن يبدو منها تصلّب واشمئزاز . وقلّما اتّفقت هذه الخصائص لأصحاب العلوم لأن الطلاوة والسهولة والوضوح لا تحالف الأساليب العقلية في الجملة . إلاّ أن البستاني كان يجمع إلى صفته العلمية صفة أدبية فجاء أسلوبه على ما فيه من بحث دقيق وعمق مدلول ، رائع الإنشاء ، مختار الألفاظ ، رائق الديباجة كأنّها مرآة صافية تنمّ بجلاء على ما ينعكس عليها من صور ورسوم .

ولإنشائه بلاغة في تأدية المراد دون تطويل ولا ايجاز ، كأن الألفاظ فصلت على مقادير المعاني لا زيادة فيها ولا نقصان . وإنْ وجد مترادفات أو جمل متعاقبة على المعنى الواحد ، فقليلة نزرة لا تكاد تلمح . وليست

من قبيل الحشو والتطويل وإنّما هي لزيادة التبليغ والتقرير . ودونك هذه القطعة على سبيل المثال ، اقتطفناها من بحثه في جاهلية العرب وجاهلية اليونان ، قال :

« إنّ أقدمَ ما اتّصل بنا من الشعر الجاهليّ الحَليّ مَقُولٌ مُعظَمُه في مثل المواقف التي قال فيها هوميروس إلياذته فهنالك شياطين وجنّيات تلقّن الشعراء فصيح الكلام تلقين القيان لهوميروس . وفي مثل ذلك يقول الأعشى :

دعَوْتُ خليلي مِسحلاً ، ودعَوْا له جُهُنّامَ ، جَدعاً للهَجينِ المُذَمَّمِ

وجُهُنّام تابعة عمرو بن قَطَن . ولكلّ من فحول شعراء الجاهلية جنّيّة أو شيطان يلقّنه الشعر . وهنالك ملوكٌ كبارٌ على قبائل صغار تتكاتف وتتحالف دفعاً لعار . وأخذاً لثار . فتثور حرب البَسوس بين بكر وتغلب وتتلاحم عبس وفزارة على أثر سباق داحسٍ والغبراء . ويكادون يفنون بعضهم بعضاً كما كاد يَفنى الطرواد واليونان وحلفاؤهم . وهنالك أيام تتصاول وتتجاول فيها قبائل منهم ، فيشتهر أمرها ويَذيع ذكرها كيوم الكُلاب ويوم الجفار ويوم النِّسار . ويتغنى الشعراء بحديثها تَغني هوميروس بيوم القناطرة ، ويوم الإيتول والكُوريت وما أشبه ذلك ممّا يفوق الحصر .

وإذا نظرت إلى الأشخاص دُهشت لما يبدو لك من الشبه في الأحوال والأقوال . فمن بطل كعنترة ترتجف لصوته القبائل ارتجافها لصوت آخيل ، يُغاظ مثله فيعتزل القتال فينكّل العدو بقومه حتى يهُبّ من عزُلته فيفعل فعل آخيل في عودته . ومن خطيب كنَسْطور يقف واعظاً موقف قُسّ بن ساعدة فيرشد ويُرغّب ويرهّب . ومن إخوة وأخوات

وأزواج وزوجات وبنين وبنات وآباء وأمهات يقولون ويفعلون في جاهلية العرب نظير قولهم وفعلهم في جاهلية اليونان ممّا ستراه بالمقابلة في تعاليق الشرح . ولو اتّسع لنا المقام لما عدمنا سبيلاً إلى إبراز نظيرٍ لكلٍّ من رجال الإلياذة ونسائها .

وإذا حوّلت نظرك إلى اللباس والرياش وطرق المعاش رأيت ، مع سبق اليونان في حلبة الحضارة ، مشاكلة باهرة في حالة المعيشة الفطرية والسذاجة الخلقية والحرية الجاهلية : سراةٌ كأكْسيل يتسابقون إلى قِرى الأضياف كحاتم الطائي . ويبنون بيوتهم على مضرب السبل في قارعة الطريق . وأمراء كآخيل وفَطْرُقْل يأمرون وينهون ولديهم الحشم والجواري ؛ ومع هذا فهم بيدهم يتولون توزيع الزاد على الأضياف ، وينحرون الذبيحة بمداهم على نحو ما نحر الأمير الكندي ناقته للعذارى . وأبناء ملوك كولد برْيام لا تعيبهم مع غناهم رعاية المواشي وتربية الأنعام كما قال خالد بن الوليد لماهان الأرمني : « وأمّا ما ذكرت من فقرنا ورعينا الإبل والشاء ، فما منّا من لم يرعَ ، وأكثرنا رعاةٌ ومن رعى منّا كان له الفضل على من لم يرعَ[1] » . وسبايا تشرى وتباع . وأسرى تقتل وتفتدى وتسرّح بإحسان ؛ إلى غير ذلك ممّا لا نهاية له . وسترى منه جانباً غير يسير مفصّلاً بالمقابلة في مواضعه . » اه.

منزلتها

كان لظهور مقدمة الإلياذة أثر قوي في الأدب العربي ، فإنّها نقلت إليه أصول النقد الحديث بما فيها من الدرس والتحليل ، وتقصّي الأسباب ،

١ واقدي ١ : ١٥٦ .

ومقارنة الآداب ، والاستنتاج . وكان النقد لا يعدو حدود المعاني وائتلافها بالألفاظ ، وأوجه البيان والبديع ، والمغالط اللغوية ، وتواطؤ الشعراء على الكلام ، وسرقاتهم ، وطبقاتهم . وهذا نقد ناقص لا يقنع به الأدب العصري والثقافة الجديدة . فجاءت المقدمة متمّمة لهذا النقص ؛ فسدّت ثلمة فوهاء في الأدب ، وأدّت إلى الشعراء والكتّاب خدمة جليلة فيما تشتمل عليه من أساليب النقد الصحيح ؛ كما في كلامها على هوميروس ، وتوصلها بالتقصّي والمعارضة والتحليل ، إلى إثبات شخصيته وصحة اسمه ، وان الإلياذة لشاعر واحد لا لجماعة من الشعراء . أو في تحليلها أطوار الشعر العربي ؛ فإنّه على إيجازه كان نواة صالحة لما نشأ بعده من التحليلات والدراسات . أو في مقارنتها الآداب العربية بآداب اليونان ، وبحثها في ضروب الشعر عند العرب والأعاجم ، ممّا اعتمد عليه الأدباء من بعد في كلامهم على الأدب اليوناني وإغفال العبّاسيين نقله ، وخلوّ الشعر العربي من الملاحم الطويلة ، وغنى اللغة العربية بمترادفاتها ، وفقرها في الإعراب عن المعاني الحضرية المستحدثة . وامتازت مباحثها بالنزاهة والإخلاص المجرّد للعلم ، فكانت عنوان النقد العادل لا تمليه العاطفة ، ولا يغمزه التعصب . فتلقتها المقامات الأدبية بالنظر العالي ، وأقبل عليها الكتّاب ينهلون من فيض معينها ويتذوّقون ما فيها من أدب طريف ، على ما بهم من ظمإٍ إلى كلّ شيء جديد . ولم تقتصر مكانتها على الأمصار العربية ، بل جاوزتها إلى اليونان ، فعرف المجمع العلمي في أثينة قدرها ، فأشار بترجمتها ، وضمّها إلى إلياذة هوميروس . وحسبها منزلة ان تكون في الأدب العربي فاتحة النقد الحديث .

فهرس الموضوعات

فهرس الاعلام

الف

الباء

التاء

الزين

السين

الشين

الميم



الفهرست



